٩٧٧

تفسير
جوامع الجامع

لأمين الإسلام

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثاني

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

شبكة الفكر
alfeker.net

٩٧٧

تفسير جوامع الجامع

للمفسر الكبير والمحقق النحرير

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثاني

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

شابك ٥ ـ ١٥٨ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤
ISBN 964 - 470 - 158 - 5

تفسير جوامع الجامع

(ج ٢)

■ المؤلّف : المفسّر الكبير الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي □
■ الموضوع : التفسير □
■ تحقيق و طبع : مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ الطبعة : الثالثة □
■ عدد الأجزاء : ٣ أجزاء □
■ عدد الصفحات : ٧٨٠ □
■ المطبوع : ٢٠٠٠ نسخة □
■ التاريخ : ١٤٢٤ هـ. ق □

مؤسّسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

سورةُ الأنفالِ

مدنيَّةٌ[1] وهي ستٌّ وسبعُونَ آيةً بصرِيٌّ، خمسٌ كوفيٌّ، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[2] و﴿مَفْعُولاً﴾[3] الأوّل بصريٌّ، ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[4] كوفيٌّ.

في خبرِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سورةَ الأنفالِ وبراءَةَ فأنَا شفيعٌ له وشَاهدٌ لَه يومَ القيامةِ أَنَّهُ بريءٌ مِنَ النِفاقِ، وأُعطِيَ من الأَجرِ بعددِ كلِّ مُنافقٍ ومُنافقةٍ في دار الدُنيا عَشرَ حسناتٍ، ومُحِيَ عنه عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، ورُفِعَ له عَشرُ دَرَجَاتٍ، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يُصَلُّون عليه أَيَّامَ حياتِهِ في دار الدُّنيا»[5].

قال الصَادِقُ عليه السلام: «من قَرَأَهُما في كلِّ شهرٍ لم يَدْخُلْهُ نِفاقٌ أَبداً، وكان من شيعةِ أميرِ المُؤْمِنينَ عليه السلام حَقّاً، ويأْكُلُ يومَ القيامةِ من موائِدِ الجنَّةِ معهُم حتَّىٰ يفرُغَ النَاسُ مِنَ الحسابِ»[6].

---

(١) قال الشيخ في التبيان: ج ٥ ص ٧١: هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عبّاس ومجاهد وعثمان وقال: هي أوّل مانزل على النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة، وحكي عن ابن عبّاس: أنّها مدنية إلّا سبع آيات: أوّلها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الىٰ آخر سبع آيات بعدها، وهي خمس وسبعون آية في الكوفي، وسبع وسبعون آية في الشامي، وست وسبعون في المدنيّين والبصري. وفي الكشّاف: ج ٢ ص ١٩٣: أنّها نزلت بعد البقرة.

(٢) الآية: ٣٦. (٣) الآية: ٤٢.

(٤) الآية: ٦٢.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤٠ مرسلاً.

(٦) ثواب الأعمال: ص ١٣٢ الى قوله: «أميرالمؤمنين عليه السلام»، تفسير العياشي: ج ٢ ص٤٦ ح ١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾

قَرَأَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ العابِدِينَ وَالباقِرُ وَالصّادِقُ عليهم السلام: «يَسْئَلُونَكَ ٱلْأَنفَالَ» [١]، وَهذِهِ القِراءَةُ مُؤَدِّيَةٌ لِلسَبَبِ فِي القِراءَةِ الأُخْرى الَّتي هِيَ ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وَذٰلِكَ أَنَّهُم إِنَّما سَأَلُوهُ عَنْها اسْتِعْلاماً لِحالِها، هَلْ يَسُوغُ طَلَبُها؟ وَفِي القِراءَةِ [٢] بِالنَصْبِ تَصْرِيحٌ بِطَلَبِها، وَبَيانٌ عَنِ الغَرَضِ فِي السُؤالِ عَنْها. وَالنَفَلُ: الزِيادَةُ عَلَى الشيءِ، قالَ لَبيدٌ:

إنَّ تَقوىٰ رَبِّنا خَيْرُ نَفَلٍ [٣]

قالَ الصادِقُ عليه السلام: الأَنْفالُ كُلُّ ماأُخِذَ مِنْ دارِ الحَرْبِ بِغَيرِ قِتالٍ، وَكُلُّ أَرْضٍ ٱنْجَلىٰ أَهْلُها عَنْها بِغَيْرِ قِتالٍ أَيْضاً ـ وَسَمّاها الفُقَهاءُ فَيْئاً ـ وَالأَرَضُونَ الْمَواتُ وَالآجامُ وَبُطُونُ الأَوْدِيَةِ وَقَطائِعُ المُلُوكِ وَمِيراثُ مَنْ لا وارِثَ لَهُ، وَهِيَ للهِ وَالرَّسُولِ وَلِمَن قامَ مَقامَهُ بَعدَهُ [٤] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِاتِّقاءِ مُخالَفَةِ مايَأْمُرُكُم هُو وَرَسُولُهُ بِهِ ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حَقِيقَةَ أَحْوالِ بَيْنَكُمْ، وَالْمَعْنى: أَصْلِحُوا مابَينَكُم مِنَ الأَحْوالِ حَتّىٰ تَكُونَ أَحْوالَ أُلْفَةٍ وَاتِّفاقٍ وَمَوَدَّةٍ، ونَحوُه: «ذاتُ الصُّدورِ» وهي مُضْمَراتُها.

---

(١) ذكرها الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٧٢، وابن خالويه في الشواذ: ص ٥٤.

(٢) في نسخة بزيادة: الأُخرىٰ.

(٣) وعجزه: وبإذن الله رَيْثي وعَجَل. والمعنىٰ: انّ تقوى الله خير عطيّة، وأنّ بطئي وسرعتي في الأمور كلّها فبإذن الله. انظر ديوان لبيد: ص ١٣٩.

(٤) التبيان: ج ٥ ص ٧٢.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

أَيْ: ﴿إِنَّمَا﴾ ٱلكامِلُونَ فِي ٱلْإِيمانِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عِنْدَهُمْ وَٱقْتِدَارُهُ وَأَلِيمُ عِقَابِهِ عَلَى ٱلْمَعَاصِي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: خَافَتْ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أَي: ٱزْدَادُوا بِهَا يَقيناً وطُمَأْنِينَةَ نَفْسٍ وَتَصْدِيقاً إِلَىٰ تَصْدِيقِهِمْ بِمَا أُنْزِلَ قَبْلَ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وَإِلَيْهِ يُفَوِّضُونَ أُمُورَهُمْ فِيمَا يَخَافُونَ وَيَرْجُونَ، وَخَصَّ ٱلصَّلَاةَ وَٱلزَّكَاةَ بِالذِكْرِ لِعِظَمِ شَأْنِهِما وَتَأَكُّدِ ٱلْأَمْرِ فِيهِمَا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ٱلْمُسْتَجْمِعُونَ لِهَـٰذِهِ ٱلْخِصَالِ ﴿هُمُ﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقُّوا إِطْلَاقَ ٱسْمِ ٱلْإِيمَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ، و﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَي: إِيمَاناً حَقًّا، أَو هُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كَمَا تَقُولُ: هُوَ عَبدُ اللهِ حَقّاً، أَيْ: حَقَّ ذَٰلِكَ حَقّاً ﴿دَرَجَـٰتٌ﴾ شَرَفٌ وَكَرَامَةٌ وعُلُوٌّ رُتبَةٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وَتَجَاوُزٌ لِسَيِّئَاتِهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نَعِيمُ الْجَنَّةِ، أَي: مَنَافِعُ دائِمَةٌ، عَلَىٰ سَبيلِ التعْظِيمِ، وهذا معنَى الثوابِ.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ (٥) يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

الكافُ في مَحَلِّ الرَفعِ عَلىٰ أَنـَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأ مَحْذُوف، أَيْ: هـٰذِهِ الحَالُ كحَالِ إِخْراجِكَ، وَالْمَعْنىٰ: أَنَّ حـالَهُمْ في كَراهَةِ ما حَكَمَ ٱللهُ في الأَنْفالِ مِثْلُ حالِهِمْ فـي كَراهَةِ خُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ لِلْحَرْبِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَحَلِّ النَصْبِ عَلىٰ أَنـَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرِ الْفِعلِ الْمُقَدَّرِ في قَولِكَ: «الأَنْفالُ للهِ والرَّسُولِ»، أَي: الأَنْفالُ ٱسْتَقَرَّتْ للهِ وَٱلرَسُولِ، وَثَبَتَتْ مَعَ كَراهَتِهِمْ ثَباتاً مِثْلَ ثَباتِ إِخْراجِ رَبِّكَ إِيَّاكَ مِنْ بَيْتِكَ مَـعَ كَراهَتِهِمْ، فَعَلى هـٰذا لايَكونُ الوَقفُ مِنْ قَوْلِهِ:﴿قُلِ ٱلأَنفالُ﴾ إِلىٰ قَوْله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وَعَلَى الأَوَّلِ جـازَ الْوَقْفُ عَلىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ وَقَوله: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾، و﴿مِـن بَيْتِكَ﴾ يُريدُ بيتَهُ بالمدينةِ، أَوِ المدينةَ نفسَها، لأَنـَّها مُهاجَرُه ومَسكِنُه ﴿بِـٱلْحَقِّ﴾ أَي: إِخراجاً مُتَلَبِّساً بِالحكمةِ والصَوابِ الَّذي لامَحيدَ عنه، وهو الجِهادُ ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ، أَي: أَخْرَجَكَ فِي حالِ كَراهَتِهِمْ.

﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ فيما دعوتَهم إِليه، وهو تَلَقِّي النَـفيرِ، وهـو جَـيشُ قُرَيشٍ لإِيثارِهم عليه تَلَقِّيَ العِيرِ ﴿بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ﴾ بعدَ إِعلامِ رسولِ اللهِ بأَنَّهم يُنْصَرُونَ، وجِدالُهم أَنـَّهم قالوا: ماخَرَجْنا إِلَّا للعيرِ، وذلك: أَنَّ عِيرَ قُرَيشٍ أَقْبَلَتْ من الشامِ مَعها أَربعونَ راكباً منهم أَبو سُفيانَ وعمرُو بنُ العاصِ، فأَخْبَرَ جَبْرَئيلُ رسولَ اللهِ ﷺ فأَخْبَرَ المُسلمينَ، فأَعْجَبَهم تَلَقِّي العيرِ، فَلَمَّا خَرَجُوا بَلَغَ أَهلَ مكَّةَ خَبرُ خُروجِهم، فنادىٰ أَبو جَهلٍ فَوقَ الكَعبةِ: ياأَهلَ مَكَّةَ النجا النجا[1] علىٰ كُلِّ صَعبٍ وذَلُـولٍ، عيرَكم، أَموالَكم، إِن أَصابَها مُحمَّدٌ لَنْ تُفلِحُوا بعدَها أَبداً، وخَرجَ أَبو جهلٍ بجَميعِ أَهلِ مَكَّةَ وهُمُ النَفيرُ، وفِي المَثَلِ السائِرِ: «لافِي العِيرِ ولا فِي النَفيرِ»[2]، فقِيلَ له:

---

(١) أي: أسرِعْ أسرِعْ، وأصلها النجائك النجائك، فيقصران. (القاموس المحيط: نجا).

(٢) قال المفضّل: أوّل من قال ذلك أبو سفيان بن حرب بعدما أقبل بعير قريش وعلم بـتحيّن المسلمين انصرافه الى مكة فيقطعوا عليه، فخاف خوفاً شديداً وضرب وجوه عيره فساحل بها وترك بدراً يساراً، وقد كان بعـث إلىٰ قريش يخبرهـم بما يخافه ويأمرهم بالرجوع، ←

إنَّ العيرَ أَخَذَتْ طريقَ السَاحِلِ وَنَجَتْ، فارْجِعْ بالنَاسِ إِلىٰ مكَّـةَ، فـقالَ: لا واللهِ حَتَّى نَنْحَرَ الجُزُرَ ونَشْرَبَ الخَمرَ ببدرٍ، فتتسامعَ العربُ بِأَنَّ مـحمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ لَـم يُصِبِ العِيرَ، وأَنـّا أَغضضناه، فَمَضىٰ بهم إِلىٰ بدرٍ.

وبدرٌ ماء كانَتِ العَرَبُ تَجتمعُ فيه لِسُوقِهم يوماً في السَنةِ، ونَزَلَ جَبْرَئيلُ فقالَ: يامحمَّدُ ـ صلى الله عليه وآله ـ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: إمَّـا العـيرَ وإمَّـا قُـرَيْشاً، فاستَشارَ النبيُّ صلى الله عليه وآله أَصحابَه وقالَ: ماتَقولُونَ؟ إنَّ القومَ قد خَرَجوا مِن مكَّةَ فالعيرُ أَحبُّ إليكم أَمِ النَفيرُ؟ قالوا: بَلِ العِيرُ أَحبُّ إِليـنا مِـن لِـقاءِ العَـدُوِّ، فَـتَغيَّرَ وجـهُ رسولِاللهِ صلى الله عليه وآله وقالَ: إِنَّ العيرَ قد مَضَتْ علىٰ ساحِلِ البَحْرِ، وهذا أَبو جهلٍ قد أَقبلَ، فَقَالوا: يارَسُولَاللهِ عَلَيْكَ بِالعيرِ وَدَعِ العَدُوَّ، فَقَامَ رِجالٌ من أَصحابِهِ وقَالُوا، ثُمَّ قَامَ المِقْدادُ بْنُ عَمْرٍو وَقَالَ: وَاللهِ لَـو أَمَـرْتَنَا أَنْ نَـخُوضَ جَـمْرَ الغَـضىٰ[1] وشَـوكَ ٱلهَراسِ[2] لَخُضْنَا[3] مَعَك، ولانَقُولُ لك ماقَالَتْ بَنُو إِسْرائيلَ لِمُوسى: ﴿فَـاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[4] ولٰكِنَّا نَقولُ: امْضِ لِما أَمَرَك ربُّك فَـإِنَّا مَعَكَ مُقاتِلُون مادامَتْ مِنَّا عَينٌ تَطْرِفُ، وقام سعدُ بنُ مُعاذٍ وَقال: يارَسُولَاللهِ صلى الله عليه وآله امضِ لِما أَرَدْتَ، فَوَالَّذي بَعَثَك بالحقِّ لَوِ ٱستَعرَضتَ بنا هذا البَحرَ لَخُضناه مَـعك ماتَخلَّفَ مِنَّا رَجلٌ واحدٌ، ولَعلَّ اللهَ يُريكَ مِنَّا ماتَقرُّ به عَينُك، فَسِرْ بنا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ، ففَرِحَ رسولُاللهِ صلى الله عليه وآله بقَولِه، وقالَ: سِيروا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ وأَبشِروا، فإِنَّ اللهَ وَعَدَنِي ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ مَصارِعِ القومِ[5].

← فأقبلت قريش، ورجعت بنو زهرة فصادفهم أبو سفيان فقال: يابني زهرة لا في العير ولا في النفير. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ١٧٢.

(١) الغضىٰ: شجر ذو شوك. (مجمع البحرين: مادة غضا).

(٢) الهراس: شجر شائك ثمره كالنبق. (القاموس المحيط: هرس).

(٣) في بعض النسخ: لخضناه.

(٤) المائدة: ٢٤.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

وَقولُه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ تشبيهُ حالِهم بحالِ مَن يُعْتَلُ إِلَى ٱلقَتلِ وهو ناظرٌ إِلىٰ أَسبابِ الموتِ لايَشُكُّ فيه.

﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ بإِضمارِ «ٱذكُروا»، ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، و ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾: العيرُ؛ لأَنَّه لَمْ يَكُنْ فيها إِلَّا أَربعُون فارساً، وَٱلشوكةُ: الحِدَّةُ، مُستَعارةٌ مِن حِدَّةِ الشَوكِ، أَي: تَتَمَنَّوْنَ أَن يكونَ العيرُ لَكُم، وَلاتُريدونَ الطَّائِفَةَ ٱلأُخرَى الَّتي هِيَ ذاتُ الشَوكَةِ[1] والحِدَّةِ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أَي: يُثَبِّتَه، بِأَن يُعِزَّ الإِسلامَ ويُعلِي كَلِمَتَهُ وَيُهْلِكَ وُجُوهَ قُرَيشٍ علىٰ أَيديكُم ﴿بِكَلِمَـٰتِهِ﴾ بآياتِهِ المُنزَلَةِ في مُحَارَبَتِهِم ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ باستئصالِهِم وقَتْلِهِم وأَسرِهِم وطَرْحِهِم في قَليبِ بدرٍ، والدَابِرُ: الآخِرُ، مِن دَبَرَ: إِذا أَدبَرَ، والمعنىٰ: أَنَّكُم تُريدُونَ الفائِدةَ العاجِلَةَ واللهُ يُرِيدُ مايَرجِعُ إِلىٰ علوِّ أُمورِ الدينِ وَنُصرةِ الحَقِّ، ولِذٰلِكَ ٱختارَلَكُم الطَائِفةَ الأُخْرىٰ ذاتَ الشَوكَةِ، وغَلَبَ كَثرَتَهُم بِقِلَّتِكُم، وأَذَلَّهُم وأَعَزَّكُم، وقولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تَعَلَّقَ بمحذوفٍ، تقديرُهُ: لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ويُبْطِلَ ٱلْباطِلَ فَعَلَ ذٰلِكَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَاجَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ

(١) في نسخة: الشدّة.

وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤) ﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدَلٌ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيلَ: إنَّه يَتعلَّقُ بقولِهِ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[١]، وَاستِغاثَتُهم: أَنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ لَمَّا نَظَرَ إِلى المُشركينَ وَهُم أَلفٌ وإِلى أَصحابِهِ وهم ثَلاثُمائَةٍ وَنَيِّفٌ، اسْتَقْبَلَ ٱلقِبلَةَ ومَدَّ يدَيْهِ يَدعُو: ٱللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي ماوَعَدْتَني، ٱللَّهُمَّ إِن تُهْلِك هذهِ العِصابَةَ[٢] لاتُعْبَدُ في الأَرضِ، فَما زالَ كَذٰلِكَ حتَّىٰ سَقَطَ رِداؤُه من مَنْكِبِه[٣] [٤]، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأَغاثَكُم وأَجابَ دعوتَكم ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ أَصلُه: بِأَنِّي مُمِدُّكُم، فحُذِفَ الجارُّ، وقُرِئَ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسرِ الدَالِ وفتحِها[٥]، مِن قولِك: رَدِفَه: إِذا تَبِعَه، وأَرْدَفْتُهُ إِيَّاه: إِذا أَتْبَعْتَه، ويقالُ: أَرْدَفْتُه وأَتْبَعْتُه: إِذا جِئْتَ بعدَه، فَعلى الأَوَّلِ يكونُ معنىٰ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسرِ الدَّالِ: مُتْبِعينَ بعضُهم بعضاً، أَو مُتْبِعينَ أَنفُسَهم المُؤْمنينَ، وعَلى الثَاني يكونُ معناه: مُتْبِعِينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ، أَو مُتْبِعينَ للمُؤْمنينَ يَحْفَظونَهم، ومن قَرَأَ بفتحِ الدَالِ فمعناه: مُتْبَعينَ أَو مُتَّبَعينَ.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أَي: ومَا جَعَلَ اللهُ إِمدادَكُم بالملائِكةِ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أَي: بشارةً لَكُم بالنَصرِ كالسَكينةِ لبني إِسرائيلَ، والمعنىٰ: أَنَّكم استَغَثْتُم رَبَّكُم وتَضَرَّعْتُم، فكانَ الإِمدادُ بالملائِكةِ بشارةً لَكُم بالنَصرِ، وتسكيناً منكُم، وربطاً علىٰ قُلوبِكُم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أَي: وَمَا النصْرُ بالملائِكةِ وَغيرِهِم من

(١) قاله الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ١٨٨.

(٢) العصابة: الجماعة من الناس والخيل والطير. (الصحاح: مادة عصب).

(٣) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف. (الصحاح: مادة نكب).

(٤) رواه مسلم في صحيحه: ج ٣ ب ١٨ ص ١٣٨٤ ح ٥٨، و أحمد في مسنده: ج ١ ص ٣٠ و ٣٢.

(٥) وبالفتح هي قراءة نافع ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٨٢.

الأَسبابِ إلّا مِنْ عندِاللهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ، قلَّ العدَدُ أَم كثُرَ.

﴿إذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بَدَلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللهُ﴾، أَو[١] منصوبٌ بـ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ أَو بـ﴿مَا جَعَلَهُ ٱللهُ﴾، وقُرِئَ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بِالتَخفيفِ[٢] والتَشديدِ ونَصْبِ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، والضميرُ للهِ عزّوجلّ، و ﴿أَمَنَةً﴾ مفعولٌ له، و ﴿مِنْهُ﴾ صفةٌ لِـ﴿أَمَنَةً﴾، أَي: أَمنةً حاصلةً لكم من اللهِ، والمعنىٰ: إذ تَنعَسُونَ لِأَمنِكم الحاصلِ من اللهِ بإزالةِ الرُعبِ من قلوبِكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم﴾ قُرِئَ بالتَشديدِ والتَخفيفِ[٣] ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَي: مَطراً، و ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: وسوستُه إليهم، وذلك أَنَّ المُشركينَ قد سَبَقُوهُم إلى الماءِ، ونَزَلَ المُسلمونَ في كَثِيبٍ أَعفَرَ[٤] تسوخُ فيه الأَقدامُ، وناموا، فاحتَلَمَ أَكثرُهم، فتَمَثَّلَ لهم إبليسُ وقال: يا أَصحابَ محمَّدٍ أَنتم تَزْعَمُونَ أَنّكم على الحقِّ وأَنتم تُصَلُّون على الجَنابَةِ وقد عَطِشْتُم، ولو كنتم علىٰ حقٍّ ماغَلَبَكم هؤُلاءِ على الماءِ، وهاهُم الآنَ يَمشُونَ إليكم وَيَقتلونَكم ويَسوقُونَ بقيَّتَكم إلىٰ مَكَّةَ، فحَزِنوا لذلك، فأَنزلَ اللهُ المَطَر فمُطِرُوا ليلاً حتَّىٰ جَرَى الوادِي، واغتَسَلوا وتَوَضَّأوا، واتَّخَذُوا الحِياضَ علىٰ عُدْوَةِ[٥] الوادي، وتَلبَّدَ[٦] الرَملُ الَّذي كان بينَهم وبينَ العدوِّ حتَّىٰ ثَبَتَ الأَقدامُ عليه، وزالَتْ وسوسةُ الشَيطانِ، والضَميرُ في ﴿بِهِ﴾ للماءِ أَو لِلربطِ؛ لأَنّ الجُرأَةَ تُثَبِّتُ القَدمَ في مَواطنِ الحربِ.

---

(١) في نسخة: إمّا.

(٢) وهي قراءة نافع. راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ١ ص ٤٨٩، وفي التبيان: ج ٥ ص ٨٥: هي قراءة أهل المدينة.

(٣) وقراءة التخفيف هي قراءة ابن كثير وسهل ويعقوب وأبي عمرو. راجع تفسير الآلوسي: ج ٩ ص ١٧٦.

(٤) الأعفر: الأبيض (الصحاح: مادة عفر).

(٥) العِدوة والعُدوة: جانب الوادي وحافّته. (الصحاح: مادة عدا).

(٦) تلبّد: تداخل ولزق بعضه ببعضٍ. (القاموس المحيط: مادة لبد).

﴿إِذْ يُوحِى﴾ يَجوزُ أَن يكونَ بَدلاً ثالثاً من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾، وأَن يَنتَصِبَ بِـ﴿يُثَبِّتَ﴾، ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أُعينُكم على التَثبيتِ فثبِّتوهم.

وقولُه: ﴿سَأُلْقِى﴾ إِلىٰ قولِه: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ يَجوزُ أَن يكونَ تفسيراً لقولِه: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ﴾، ولا مَعونةَ أعظمُ من إِلقاءِ الرُعبِ في قلوبِ الكُفّارِ، ولا تَثبيتَ أَبلغُ من ضربِ أَعناقِهم، ويَجوزُ أَن يكونَ غيرَ تفسيرٍ، وأَن يُرادَ بِالتَثبيتِ أَن يُظهِروا ماتيقَّنَ به المُؤمنونَ أَنَّهم أُمِدُّوا بهم ﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ الَّتي هي المَذابحُ، وقيل: أَرادَ الرُؤُوس[1]، والـ﴿بَنَانٍ﴾: الأَصابعُ، يُريدُ به الأَطرافَ، والمعنىٰ: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ المَقاتِلَ والأَطرافَ من اليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ، ويجوزُ أَن يَكونَ من قولِه: ﴿سَأُلْقِى﴾ إِلىٰ قولِه: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ عَقيبَ قولِه: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَلقيناً للملائكةِ مايُثبِّتونَهم به، أَي: قُولُوا لَهم قَولي: ﴿سَأُلْقِى﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلىٰ ماوَقَعَ بهم من القَتلِ والعِقابِ العاجِلِ، أَي: ذلك العقابُ وَقَعَ بهم بسببِ مُشاقَّتِهم، والمُشاقَّةُ مُشتقَّةٌ من الشقِّ لأَنَّ كُلّاً من المُتعادِيَيْنِ في شِقٍّ خلافِ شقِّ صاحبِه، والكافُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِخطابِ الرَسولِ ﷺ أَو لخطابِ كلِّ أَحدٍ. وفي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للكَفَرَةِ علىٰ طريقةِ الالتفاتِ، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ و ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبرُه، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في مَحلِّ الرَفعِ أيضاً، أَي: ذلكم العقابُ أَوِ العقابُ ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾، ويَجوزُ أَن يكونَ في محلِّ النَصبِ علىٰ تقديرِ: عليكم ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾، كقولِك: زيداً فَاضْرِبْه ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في الوجهَيْنِ أَو نَصْبٌ علىٰ أَنَّ الواوَ بمعنىٰ «مَعَ»، أَيْ: ذُوقُوا هَذَا العَذابَ العاجلَ مع الآجِلِ الَّذي لكُم في الآخِرةِ، فَوُضِعَ الظَاهرُ مَوضِعَ الضَميرِ.

---

(١) قاله عكرمة. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٣٠.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّـذِينَ كَـفَرُواْ زَحْـفاً فَـلَا تُـوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَـقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَناً إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾

الزَحْفُ: الجَيْشُ الَّذي يُرىٰ لكَثْرتِهِ كأَنـَّهُ يَزْحَفُ أَي: يَدِبُّ دَبِيباً، مِنْ زَحَفَ الصبيُّ: إذا دَبَّ عَلَى ٱسْتِهِ، سُمِّيَ بِالمصدرِ، والجمعُ زُحُوفٌ، والمعنىٰ: إذا لَقيتُموهم للقِتالِ وهم كثيرٌ جَمٌّ وأَنتمُ قليلٌ فلاتَفِرُّوا، فَضْلاً عَنْ أَن تُساوُوهُم فـي العَـدَدِ أَو تُدانُوهُم، فيكونُ ﴿زَحْفاً﴾ حالاً مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ويَجوزُ أَنْ يَكُونَ حالاً مِن الفَرِيقَيْنِ، أَي: إذا لَقِيتُمُوهم مُتَزاحِفَيْنِ أَنْتُم وَهُم، أَو حالاً مِن «المُؤْمِنينَ»، كأَنـَّهم أُخْبِرُوا بِما سيكونُ مِنهُم يَومَ حُنَيْنَ[1] حِينَ وَلَّوا مُدْبِرِينَ وهُمْ زَحْفٌ: اثنا عَشَرَ أَلفاً، وفي قَولِهِ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ أَمارةٌ عليه ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ﴾ هُـو الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، يُخَيِّلُ عدُوَّهُ أَنـَّهُ مُنْهَزِمٌ ثُمَّ يَعْطِفُ عليه، وهو نوعٌ مِنْ مكائِدِ الحربِ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً﴾ أَي: أَو مُنحازاً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلىٰ جماعةٍ أُخرىٰ مِن المُسلمينَ سِوى الفِئَةِ الَّتِي هُوَ فيها، وٱنتِصابُهُما على الحالِ وَ ﴿إِلَّا﴾ لغوٌ، أَو على الاسـتثناء مِـن «المُوَلِّينَ»، أَي: وَمَنْ يُوَلِّهِمْ إِلَّا رَجُلاً منهُم مُتحرِّفاً أَو مُتَحَيِّزاً، وَوَزْنُ مُتَحَيِّزٍ مُتَفَيْعِلٌ لامتفعِّلٌ؛ لأَنـَّهُ مِن حازَ يَحُوزُ، فبناءُ مُتَفَعِّلٍ منه مُتحوِّزٌ.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: إِن افتَخَرْتُم بِقَتْلِهِم فَأَنْتُم

---

(١) حُنَين: موضع بين الطائف ومكة، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون هـوازن وثـقيف فهزمهم وغنم ما كانوا ساقوه معهم من النساء والصبيان والماشية. انظر تفصيل يوم حنين في تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٦٢.

لَمْ تَقتُلُوهُم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بأَنْ أَنْزَلَ الملائِكَةَ، وأَلقَى الرُعْبَ في قُلُوبِهِم، وَقَوَّىٰ قُلُوبَكُمْ ﴿وَمَارَمَيْتَ﴾ أَنت يامحمَّدُ ﷺ ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [١]، وذلك أَنَّ قريشاً لَمَّا جاءَتْ بِخُيَلائِها [٢] أَتاهُ جَبْرَئيلُ فقال: خُذْ قَبْضَةً من تُرابٍ فَارْمِهِمْ بها، فقال لِعَليٍّ عليه السلام: أَعْطِنِي قَبْضَةً مِن حَصْباءِ الوادي، فأَعطَاهُ، فَرَمَىٰ بها في وُجُوهِهِم، وقال: شاهتِ الوُجُوهُ، فلم يَبْقَ مُشرِكٌ إِلَّا شُغِلَ بِعَيْنَيْهِ، فانْهَزَمُوا وَرَدَفَهُم المُؤْمِنُونَ يَقْتُلُونَهُم وَيَأْسِرونَهُم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيثُ أَثَّرَتِ الرَمْيَةُ ذلك الأَثرَ العظيمَ، أَثْبَتَ الرَمِيَ لرسولِ اللهِ لأَنَّهُ وُجِدَ منه صورةً، ونَفاهُ عنهُ معنىً لأَنَّ أَثَرَهُ الَّذي لايَدْخُلُ في قدرةِ البشرِ فعلُ اللهِ عَزَّوعَلا، فكأَنَّهُ فاعلُ الرَميةِ على الحقيقةِ، وكأَنَّها لم تُوجَدْ مِن الرَسولِ أَصلاً. وقُرِئَ: «وَلَـٰكِنِ ٱللَّهُ قَتَلَهُمْ ... وَلَـٰكِنِ ٱللَّهُ رَمَىٰ» [٣]، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلِيُعْطِيَهُم ﴿بَلَآءً﴾ عطاءً ﴿حَسَناً﴾ جميلاً، قال زُهَيْرٌ:

وأَبْلاهُما خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذي يَبْلُو [٤]

والمعنىٰ: ولِلإِحسانِ إِلى المُؤْمِنِينَ والإِنعامِ عليهِم فَعَلَ مافَعَلَ، وَلَمْ يَفْعَلْهُ إِلَّا لذٰلِكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِأَقوالِهِم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَحوالِهِم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ

---

(١) قال الزجّاج: ليس هذا نفي رمي النبيّ ﷺ ولكن العرب خوطبت بما تعقل. انظر معاني القرآن: ج ٢ ص ٤٠٦.

(٢) الخال والخُيلاء والخِيلاء: الكبر. (الصحاح: مادة خيل).

(٣) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. راجع التبيان: ج ٥ ص ٩٣.

(٤) وصدره: جزى الله بالإحسان مافعلا بكم. وهو من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المرّي شيخ بني مرّة من غطفان، ومعناه واضح. انظر ديوان زهير: ص ٦١.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ (٢١) ﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى البَلاءِ الحَسَنِ، وَمَحَلُّهُ الرَفْعُ، أَي: الغَرَضُ ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: أَنَّ الغرضَ إبلاءُ المُؤمنينَ وتوهينُ كيدِ الكافِرينَ، وقُرِئَ: «مُوَهِّنُ» بالتَشديدِ[١]، وقُرِئَ على الإضافةِ[٢]، وعلى الأَصلِ الَّذي هو التنوينُ وَالإِعمالُ[٣].

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ خطابٌ لأَهلِ مكَّةَ علىٰ طريقِ التَهكُّمِ، وذلك أَنَّهُم حينَ أَرادُوا أَن يَنْفِرُوا تَعَلَّقُوا بأَستارِ الكعبةِ وقالوا: اَللّٰهُمَّ انْصُرْ أَعْلَى الجُنْدَيْنِ وأَهْدَى الفِئَتَيْنِ وأَكرمَ الحِزْبَيْنِ، ورُوِيَ: أَنَّ أبا جهلٍ قالَ يومَ بَدرٍ: اَللّٰهُمَّ أَيُّنا كان أَهْجَرَ وأَقْطَعَ للرَحِمِ فأَحِنْهُ[٤] اليومَ[٥]، أَي: فأَهْلِكْهُ، وقيلَ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ خِطابٌ للمُؤْمِنينَ و ﴿إِن تَنتَهُواْ﴾ للكافرينَ[٦]، أَي: وإِن تَنتَهُوا عن عَداوةِ رسولِ اللهِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لِمُحارَبَتِه ﴿نَعُدْ﴾ لنصرتِه عليكم. وقُرِئَ: ﴿وأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بالفتحِ علىٰ: ولِأَنَّ اللهَ مع المُؤمنينَ كان ذلك، وبالكسرِ[٧]

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع التبيان: ج ٥ ص ٩٤، وفي تفسير البغوي ج ٢ ص ٢٣٨: انها قراءة أهل البصرة.

(٢) وهي قراءة حفص عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٣، وفي إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٨٢، هي قراءة أهل الكوفة.

(٣) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم والحسن وأبو رجاء والأعمش وابن محيصن. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٧٨.

(٤) في بعض النسخ: فأهنه.

(٥) رواه ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٢٨٤ عن الزهري عن عبدالله بن ثعلبة.

(٦) قاله أبو علي الجبّائي كما في التبيان: ج ٥ ص ٩٦.

(٧) قرأه ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٥.

وهو الأوْجهُ، ويُقوِّيه قِراءَةُ عبدِاللهِ: «وَاللهُ مَعَ المُؤْمِنِين»[(١)].

وقُرِئَ: ﴿وَلَا تَوَلَّواْ﴾ بحذفِ التاءِ وإدغامِها في الثاني[(٢)]، والضميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ لرسولِ اللهِ؛ لأنَّ المعنىٰ: أَطِيعُوا رَسُولَ اللهِ، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[(٣)]، ولأنَّ طاعةَ اللهِ وطاعةَ الرسولِ شيءٌ واحدٌ ورجوعُ الضميرِ إلىٰ أحدِهِما رجوعٌ إليهما، كما تَقولُ: الإحسانُ والإجمالُ لاينفعُ في فلانٍ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ دُعاءَهُ لكم. ﴿وَلَاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ﴾ ٱدَّعُوا السَماعَ ﴿وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ﴾ لأنَّهم ليسُوا بمُصدِّقِينَ فكأنَّهم غيرُ سامِعِينَ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥)﴾

﴿إِنَّ شَرَّ﴾ مَن يدِبُّ علىٰ وجهِ الأَرضِ، أَو: إِنَّ شرَّ البهائمِ، جَعَلَهُم من جنسِ البهائمِ ثمَّ جَعَلَهُم شرَّها ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ أَي: الَّذِينَ هم صُمٌّ عن ٱلحقِّ لايَسْمَعُونَه، بُكْمٌ لايُقِرُّونَ بِه. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ﴾ في هؤُلاءِ الصُمِّ البُكْمِ ﴿خَيْراً﴾ أَي: انتِفاعاً باللُطفِ ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لَلَطُفَ بِهِمْ حتَّى يَسْمَعُوا سَماعَ المُصدِّقينَ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ أَعرَضوا، وفي هذا دَلالةٌ علىٰ أَنَّه سُبحانَه لايَمْنَعُ أحداً اللُطفَ، وإنَّما لايَلْطُفُ لِمَن يَعلَمُ أَنَّهُ لايَنتَفِعُ بِهِ.

---

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٩٥.

(٢) في الكشّاف: «قرئ بطرحِ إحدى التائين وادغامها» وهو الأوجه، إذ لم نعثر علىٰ قراءةٍ باثبات التاء من غير ادغام أصلاً في المصادر المعتمدة لكي يقال: «وقرئ بحذف التاء وادعامها».

(٣) التوبة: ٦٢.

وقال الباقر عليه السلام: «هُم بَنُو عبدِ الدارِ لم يُسْلِمْ منهم غَيرُ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ وسُوَيْدِ بنِ حَرْمَلَةَ، كانوا يَقولون: نَحنُ صُمٌّ بُكْمٌ عَمَّا جاءَ به محمَّدٌ، وقد قُتِلُوا جميعاً بِأُحُدٍ، كانوا أَصحابَ اللواءِ»[١].

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وَحَّدَ الضَميرَ؛ لأَنَّ استجابةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله استجابةُ اللهِ، والمرادُ بالاِستجابةِ: الطَاعةُ والامتثالُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مِنْ علومِ الدينِ والشَرائِعِ؛ لأَنَّ العلمَ حياةٌ والجهلَ موتٌ، وقيلَ: لمُجاهَدَةِ الكفَّارِ وللشهادةِ[٢] لقولِه: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٣]. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَي: يَمْلِكُ على المرءِ قلبَه فيُغَيِّرُ نِيَّاتِهِ ويَفْسَخُ عزائمَه، ويُبَدِّلُهُ بالذكرِ نِسياناً وبالنسِيانِ ذكْراً وبالخوفِ أَمناً وبالأَمنِ خوفاً، وقيل: معناه: أَنَّ المرءَ لايَستَطيعُ أَن يَكْتُمَ اللهَ بقلبِه شيئاً وهو يَطَّلِعُ علىٰ ضمائِرِهِ وخواطرِهِ، فكأَنَّهُ حالَ بينَهُ وبينَ قلبِهِ[٤]، وقيل: معناهُ: أَنَّهُ يُميتُ المرءَ فتَفُوتُهُ الفرصةُ الَّتي هو واجدُها، وهي التَمكُّنُ من إِخلاصِ القلبِ ومُعالَجَةِ أَدوائِهِ وردِّهِ سَليماً كما يُريدُهُ اللهُ[٥]، فَاغْتَنِمُوا هذهِ الفُرصةَ وأَخلِصوا قُلوبَكم، وَٱعْلَمُوا أَنَّكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فَيُثيبُكُمْ علىٰ حَسَبِ سلامةِ القُلوبِ وإِخلاصِ الطاعةِ.

وعن الصَادق عليه السلام: «يَحولُ بينَ المرءِ وبينَ أَن يَعْلَمَ أَنَّ الباطلَ حقٌّ»[٦].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ أَي: بليَّةً[٧]، وقيل: ذنباً[٨]، وقيل: عذاباً[٩]، وقيل: هو إِقرارُ

(١) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٩٩.
(٢) وهو قول الفرّاء وابن إسحاق والجبّائي والقتيبي. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٠١.
(٣) آل عمران: ١٦٩.
(٤) قاله قتادة كما حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٠٨.
(٥) وهو قول علي بن عيسى الرماني على ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٠٨.
(٦) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٠١.
(٧) وهو قول الحسن. راجع تفسيره: ج ١ ص ٤٠١.
(٨) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢١١.
(٩) قاله ابن عباس والجبّائي راجع التبيان: ج ٥ ص ١٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي: ج ٢ ←

المُنكَرِ بينَ أَظْهُرِهم[١].

وقولُه: ﴿لَاتُصِيبَنَّ﴾ لايَخلو أَن يكونَ جواباً للأَمرِ، أَو نَهياً بعد أَمرٍ معطوفاً عليه بحذفِ الواوِ، أَو صفةً لـ﴿فِتْنَةً﴾، فإذا كان جواباً فالمعنىٰ: إن أَصابَتْكم لاتُصيبُ الظالمينَ ﴿مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ولـٰكنَّها تَعُمُّكم، وإنَّما جازَ دخولُ النُونِ في جوابِ الأَمرِ لأَنَّ فيه معنَى النهي، كما تَقولُ: انْزِلْ عن الدابَّةِ لاتُطرِحْك، ويَجوزُ: لاتُطْرِحَنَّك، وإذا كانَتْ نَهياً بعدَ أَمرٍ فكأَنَّه قيل: وَاحْذَرُوا بليَّةً أَو ذَنباً أَوْ عِقاباً، ثُمَّ قيلَ: لاتَتَعرَّضُوا للظُلمِ فتُصيبُ البَليَّةُ أَو العقابُ أَو أَثَرُ الذنبِ ووبالُه مَن ظَلَمَ منكم خاصَّةً، وكذلك إذا جَعَلْتَه صفةً علىٰ إرادةِ القَولِ كَأَنَّه قيل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ مَقولاً فيها: ﴿لَاتُصِيبَنَّ﴾، ونظيرُهُ قولُ الشاعر:

حَتَّىٰ إذا جَنَّ الظَّلامُ وَاخْتَلَطَ ... جاءُوا بمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطُّ[٢]

أَي: بمَذقٍ يُقالُ فيه هذا القولُ؛ لأَنَّ فيه لونَ الوُرْقَةِ الَّتي هي لونُ الذِئْبِ، ويَعْضُدُهُ قِراءَةُ ابنِ مسعودٍ: «لَتُصِيبَنَّ»[٣] علىٰ جوابِ القَسَمِ المحذوفِ، ويكونُ «مِن» للتبيينِ علىٰ هذا، لأَنَّ المعنىٰ: لاتُصيبَنَّكم أَو لَتُصيبَنَّكُمْ خاصَّةً علىٰ ظُلمِكم؛ لأَنَّ الظُلمَ أَقبحُ منكم من سائرِ النَاسِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: لمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ عَليّاً مَقْعَدِي هذا بَعْدَ وَفاتي فكَأَنَّما جَحَدَ نُبُوَّتِي وَنُبُوَّةَ الأَنبياءِ قَبْلِي»، أَوْرَدَهُ الحاكم

← ج ٢ ص ٣٩٠.

(١) قاله ابن عبّاس كما في التبيان: ج ٥ ص ١٠٣.

(٢) البيت للعجاج، يصف فيه قوماً بالشحّ وعدم إكرامهم للضيف، وبالغ في أنّهم لم يكرموه ولم يأتوا بما أتوا به إليه إلّا بعد سعي ومضيّ جانب من الليل، ثمّ لم يأتوه إلّا بلبنٍ ممزوج بالماء وهو يشبه لون الذئب لأنَّ فيه غبرة وكدورة. انظر خزانة الأدب: ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٢.

(٣) حكاها عنه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢١٢.

أَبو القاسمِ الْحَسْكانيُّ في كتابِ شواهدِ التنزيلِ[(١)] مرفوعاً.

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً: أَنـَّهُ سُئِلَ عن هذِهِ الفتنةِ، فقالَ: أَبْهِمُوا ماأَبْهَمَ ٱللهُ، وعن السُدِّيِّ: نَزَلَتْ في أَهلِ بدرٍ فَاقْتَتَلُوا يومَ الجَمَلِ[(٢)].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ مَعاشِرَ المُهاجِرِينَ ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أَي: وقتَ كونِكُمْ أَقِلَّةً أَذِلَّةً، فـ﴿إِذْ﴾ هُنا مذكورٌ مفعولٌ به وليس بظرفٍ ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ يَسْتَضْعِفُكُمْ قُرَيْشٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أَرضَ مكَّةَ قبلَ الهجرةِ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أَي: يَسْتَلِبَكُم المُشرِكُونَ من العَرَبِ إِنْ خَرَجْتُم منها ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إِلى المدينةِ ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أَي: قَوَّاكُم بمَظاهِرِ النَصرِ بإِمدادِ الملائِكةِ يومَ بدرٍ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: الغَنائمَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إِرادةَ أَن تَشكُرُوا هذِهِ النِعَمَ.

وعن قَتادةَ: كانَتِ العربُ أَذَلَّ الناسِ وأَشقاهُم عيشاً، وأَعراهم جِلداً، يُؤْكلُونَ ولايأْكُلُونَ، فَمَكَّنَ اللهُ لهم في البِلادِ، وَوَسَّعَ عليهِم في الرِّزْقِ والغَنائِمِ، وجَعَلَهُم مُلُوكاً[(٣)].

ومعنى الخَوْنِ: النَقْصُ، كما أَنَّ معنى الوَفاءِ: التَمامُ، ومنه تَخَوَّنَهُ أَي: تَنَقَّصَهُ،

---

(١) شواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢١٩.

ثُمَّ ٱسْتُعْمِلَ في ضِدِّ الأَمَانةِ والوفاءِ[١]، لأَنَّكَ إذَا خُنْتَ الرَّجُلَ في شَيءٍ فقد أَدْخَلْتَ عليه النُّقْصَانَ فيه، والمعنىٰ: لاتَخُونُوا اللهَ بتَرْكِ أوامرِهِ، والرَّسُولَ بتركِ سُنَّتِهِ وشَرائِعِهِ، وَ ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيما بينَكم بأَنْ لاتَحْفَظُوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ذلك وعقابَهُ، وقيل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّكُم تخُونُون[٢]، يعني: أَنَّ الخِيانَةَ تُوجَدُ منكم عن عمدٍ، ويُحْتَمَلُ أَن يكونَ ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ جزماً داخلاً في حكمِ النَهي، وأَن يكونَ نصباً بإِضمارِ «أَنْ»، نحوُ: لاتَأْكُلِ السَمَكَ وَتَشْرَبَ اللَبَنَ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ جعَلَهُمْ فتْنةً؛ لأَنَّهُم سببُ الوقوعِ في الفتنةِ وهي الإثمُ أَو العذابُ، أَو يُرِيدُ: مِحْنَةٌ مِنَ ٱللهِ لِيَبْلُوَكُم كيفَ تُحَافِظُونَ فيهم علىٰ حدودِهِ ﴿وَأَنَّ ٱللهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكُم أَن تَزْهَدُوا في الدُنيا، ولا تَحْرِصُوا علىٰ جمعِ المالِ وحُبِّ الوَلَدِ، ولا تُؤْثِرُوهُما علىٰ نَعِيمِ الأَبدِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللهُ وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠)﴾

﴿فُرْقَانًا﴾ أَي: فتحاً ونَصراً، كقولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[٣] لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَينَ الحقِّ بإعزازِ أَهلِهِ والباطلِ بإِذلالِ أَهلِهِ، أَو هدايةً ونوراً وتوفيقاً وشَرحاً لِلصُدورِ، أَو بَياناً وظهوراً يُشهِرُ أَمرَكُم في أَقطارِ الأَرضِ.

---

(١) قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد، إلّا أنّ الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثمّ يتداخلان فالخيانة مخالفةُ الحقّ بنقض العهد في السرّ، ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خنت فلاناً وخنت أمانة فلانٍ. راجع المفردات: مادة (خون).

(٢) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١١.

(٣) الأنفال: ٤١.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمّا فَتحَ ٱللهُ عليه، ذَكَّرَهُ مكرَ قُرَيْشٍ به حينَ كانَ بمكَّةَ لِيَشكُرَ النِعمةَ الجَليلةَ في إنجائِهِ منهم وَٱستيلائهِ عليهم، أَي: وَٱذْكُرْ إِذْ يَمْكُرُونَ بكَ حينَ اجتَمَعُوا في دارِ النَدْوَةِ وتَآمَرُوا في أَمرِكَ، فقال بعضُهُم: نَحْبِسُهُ في بيتٍ ونُلْقِي إِليهِ الطَعامَ والشَرابَ، وقال بعضُهُم: نَحْمِلُهُ على جَمَلٍ ونُخْرِجُهُ من بينِ أَظْهُرِنَا، وقال أَبوجهلٍ: نَأْخُذُ من كلِّ بَطنٍ غلاماً ونُعطِيهِ سَيفاً صارماً فَيَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةَ رجلٍ واحدٍ فَيَتَفرَّقُ دمُهُ في القبائِلِ فلايَقْوَىٰ بَنُو هاشمٍ علىٰ حربِ قُرَيْشٍ كُلِّهِم، فإِذا طَلَبُوا العَقْلَ عَقَلْنَاهُ، فقالَ إِبليسُ وَكَانَ قد دَخَلَ عليهم في صورةِ شيخٍ من أَهلِ نَجدٍ: هَـٰذَا الفَتَىٰ أَجْوَدُكُم رَأْياً، فَتَفَرَّقُوا علىٰ رأْيِهِ مُجْمِعِينَ علىٰ قَتْلِهِ.

وعنِ ٱبْنِ عبَّاسٍ: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: لِيُقَيِّدُوكَ ويُوثِقُوكَ[١]، وقيل: لِيُثْخِنُوك[٢] بالضربِ والجَرحِ[٣] من قولِهِم: ضَرَبُوهُ حتَّىٰ أَثْبَتُوهُ لاحَرَاكَ بِهِ، وفلانٌ مُثْبَتٌ وَجَعاً ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ وَيُخْفُونَ المكائدَ ﴿وَيَمْكُرُ ٱللهُ﴾ ويُخْفِي ٱللهُ ماأَعَدَّ لَهُم حتَّىٰ يَأْتِيَهُم بغتةً ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[٤] أَي: مكرُهُ أَنْفَذُ مِن مكرِ غيرِهِ، أَو لأَنَّهُ لايُنْزِلُ إِلَّا ماهو حقٌّ وعدلٌ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٢٥.

(٢) أثخن في العدوّ: بالغ في الجراحة فيهم. (القاموس المحيط: مادة ثخن).

(٣) وهو قول عطاء والسدي كما حكاه عنهما أبو حيان في البحر المحيط: ج ٤ ص ٤٨٧، وفي تفسير القرطبي ج ٧ص ٣٩٧: قاله أبان بن تغلب وأبو حاتم، وفي التبيان: ج ٥ ص ١٠٩ عن الجبائي.

(٤) قال الراغب: المكر: صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكر محمود وذلك أن يتحرّىٰ بذلك فعلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، ومذموم وهو أن يتحرّىٰ به فعل قبيحٍ. راجع المفردات: مادة (مكر).

هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ قائلُهُ: النَضرُ بنُ الْحَارِثِ بنِ كَلَدَةَ، وأُسِرَ يومَ بدرٍ فقَتَلَهُ النبيُّ ﷺ صَبْراً بيدِ عليٍّ عليه السلام، وإنَّما قالَه صَـلفاً[1] ونَـفاجَةً[2]، فـإنَّهم لم يَتَوَانَوْا في مَشِيئَتِهِم لو ٱسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، وَإِلَّا فما مَنَعَهُم أَن يَشاءُوا غَلَبَةَ من تَحدَّاهُم وَقَرَّعَهُم بالمُعجِزِ حَتَّىٰ يَغْلِبُوهُ مع فَرطِ حِرصِهم علىٰ قَهرِهِ وَغَلَبَتِهِ؟!

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قَالَهُ النَضرُ أيضاً، وذلك أَنَّه جاءَ بـحديثِ رُسْتَمَ وإِسْفَنْديارَ من بِلادِ فارِسَ، وزَعَمَ أَنَّ هذا مثلُ ذلك، وهو القائِلُ: ٱللَّـهُمَّ إِنْ كانَ هذا هو الحَقَّ ـ أَي: إِن كانَ القرآنُ هو الحقَّ ـ فعاقِبْنَا علىٰ إِنكارِهِ بالسِجِّيلِ كما فَعَلْتَ بأَصحابِ الفيلِ، أَو بعذابٍ آخَرَ، ومُرادُه أَن يَنْفِيَ كونَه حَقّاً، وإِذَا ٱنتفىٰ كونُه حقّاً لم يَستوجِبْ مُنكِرُه عَذاباً، فَكَانَ تَعْلِيقُ العَذَابِ بكونِهِ حقّاً مَعَ ٱعـتِقادِ أَنـّـه ليس بحقٍّ كتَعْلِيقِهِ بالمُحالِ.

﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ اللامُ لِتأْكيدِ النفيِ، والدلالةِ علىٰ أَنَّ تعذيبَهم وهو بينَ أَظـهُرِهم غيرُ مُستقيمٍ في الحِكْمَةِ، ومِنْ قَضيَّةِ حِكمَةِ اللهِ أَن لا يُعذِّبَ قوماً عذابَ ٱستئصالٍ ونَبِيُّهُم بينَ أَظهُرِهم، وفيه إِشعارٌ بأَنـَّهم مُرصَدونَ بالعذابِ إِذا هاجَرَ عنهم بدَلالةِ

---

(١) الصلف ـ بالتحريك ـ : هو التكلّم بما يكرهه صاحبك، والتمدّح بماليس عندك، أو مجاوزة قدر الظرف والادّعاء فوق ذلك تكبّراً. (القاموس المحيط: مادة صلف).

(٢) رجلٌ نفّاج: إذا كان صاحب فخرٍ وكبرٍ. (الصحاح: مادة نفج).

قوله: ﴿وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فكأنّه قال: مايُعَذِّبُهم وأنت فيهم وهو مُعذِّبُهم إذا فارَقْتَهم ﴿وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾، وقولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، أَي: ﴿وَمَاكَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم مَنْ يَسْتَغْفِرُ وَهُم المُسلمونَ بينَ أَظْهُرِهم مِن المُستَضعَفين الَّذين تَخَلَّفوا بعدَ خروجِ رسولِ ٱللهِ ﷺ وهم علىٰ عَزمِ الهِجرةِ، وقيل: معناه نَفيُ الاستغفارِ عَنهم، أَي: ولَوْ كانُوا مِمَّن يُؤْمِنُ باللهِ ويَسْتَغْفِرُ لَما عَذَّبَهم، ولكِنَّهم لايؤْمِنونَ ولايَستغفِرونَ[١].

﴿وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأَيُّ شيءٍ لهم فِي ٱنتِفاءِ العَذابِ عنهم، يَعني: لاحَظَّ لهم في ذلك ﴿وَهُمْ﴾ مُعذَّبونَ لامَحالةَ، وكَيفَ لايُعَذَّبونَ وحالُهُم أَنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَولياءَه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أَي: وما ٱستَحقُّوا مَعَ شِركِهم بِاللهِ وعَداوَتِهم لِرَسولِه أَن يَكونوا وُلاةَ أَمرِه ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إِنَّما يَستَحِقُّ وِلايَتَه مَنْ كان تَقِيّاً من المسلمينَ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كَأَنَّه ٱستَثْنىٰ مَنْ يَعلَمُ ويُعانِدُ، أَو أَرادَ بالأَكثَرِ الجَميعَ كما يُرادُ بالقِلَّةِ العَدَمُ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٣٧)﴾

المُكاءُ: الصَفيرُ، وَالتَصدِيَةُ: التَصفيقُ، وهو ضربُ اليدِ على اليدِ، وهو تَفعِلَةٌ من الصَدَىٰ، والمعنىٰ: أَنَّهم وَضَعُوا المُكاءَ والتَصدِيَةَ موضِعَ الصَلاةِ، كَمَا أَنَّ الشاعِرَ في قولِهِ:

---

(١) قاله مجاهد وقتادة والسدي وابن عبّاس وابن زيد. راجع التبيان: ج ٥ ص ١١٣.

وماكُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عطاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَو مُحَدْرَجَةً سُمْراً[١]

وَضَعَ القُيُودَ والسِياطَ موضِعَ العَطاءِ، وذلك أَنـَّهم كانوا يَطُوفُونَ بالبيتِ عُراةً وهم مُشَبِّكُونَ بينَ أَصابِعِهِم يَصْفِرُونَ فيها وَيُصَفِّقُونَ، وكانوا يَفْعَلونَ نحوَ ذلك إِذا قَرَأَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ في صَلاتِهِ يُخَلِّطُونَ عليه ﴿فَذُوقُواْ﴾ عَذابَ القَتْلِ والأَسْرِ يَومَ بَدرٍ بسببِ كُفْرِكُمْ.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ نَزَلَتْ في المُطْعِمِينَ يَومَ بَدرٍ، كانَ كُلَّ يومٍ يُطْعِمُ واحدٌ مِنهم عَشْرَ جُزُرٍ، وقيل: إِنَّهُم قالوا لكلٍّ من كانَتْ له تجارةٌ في العِيرِ: أَعِينوا بهذا المالِ علىٰ حربِ محمَّدٍ ـ ﷺ ـ لَعلَّنا نُدرِكُ منه ثأرَنا بما أُصِيبَ مِنَّا ببدرٍ[٢] ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ أَي: كان غَرَضُهم في الإِنفاقِ الصَدَّ عن ٱتِّباع محمَّدٍ ﷺ وهو سبيلُ اللهِ ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثُمَّ تَكونُ عاقبةُ إِنفاقِها حَسْرةً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخِرَ الأَمرِ يَغْلِبُهُمُ المُؤْمِنونَ، والكافِرُونَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ ٱللهُ﴾ الفَريقَ الخَبيثَ من الفَريقِ الطيِّبِ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ﴾ فوقَ ﴿بَعْضٍ﴾ في جَهَنَّمَ يُضَيِّقُها عليهم ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ عبارةٌ عَنِ الجَمْعِ والضَّمِّ حَتَّى يَتَرَاكَمُوا، كقولِهِ: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾[٣]، وقيلَ: نَفَقَةَ الكَافِرِ من نَفَقَةِ المُؤْمِنِ، وَيَجْعَلَ نَفَقَةَ الكافِرِ بعضَها ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فوقَ بعضٍ ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ وَيَجْمَعَهُ

---

(١) البيت للفرزدق، وروي: فلمّا خَشيتُ أن يكون عطاؤه...، وأُخرىٰ: أخاف زياداً أن يكون عطاؤه...، وهي من قصيدة يذمّ بها زياداً بعدما فرَّ منه، إذ أراد زياد أن يختدعه ليقع في يديه فأشاع أنـّه لو أتاه لحباه وأكرمه، فبلغ ذلك الفرزدق فانطلق ينشأ هذه القصيدة، يقول: ما كنت أظنّ أن يكون عطاء زيادٍ قيوداً سوداً تلسع كما تلسع الحيّة السوداء أو سياطاً مفتولة سمراء يجلدني بها. انظر ديوان الفرزدق: ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) قاله محمد بن مسلم و محمد بن يحيى بن حبّان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمن. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) الجن: ١٩.

﴿جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ﴾ يُعاقِبُهُم بِه[١]، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية[٢]، وقُرِئَ: ﴿لِيَمِيزَ﴾ على التخْفِيفِ[٣].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّاقَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠)﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أَي: قُلْ لِأَجلِهِم هذا القَولَ وهُوَ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، ولو كان بِمعنَىٰ خاطِبْهُمْ به لَقيلَ: إِنْ تَنْتَهُوا ـ بالتاءِ ـ يُغْفَرْ لَكُمْ، أَي: إِن يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عليه بالدُخولِ فِي الإِسلامِ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّاقَدْ سَلَفَ﴾ من الشِركِ وعَداوةِ الرَسولِ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لِعداوَتِهِ وَقِتالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا علىٰ أَنبياءِ ٱللهِ في تَدْمِيرِهم، فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثلَ ذَلكَ إِن لَمْ يَنْتَهُوا.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أَي: إِلىٰ أَن لَايُوجَدَ فِيهِمْ شِركٌ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ويَضْمَحِلَّ كُلُّ دِينٍ باطلٍ ويَبقَىٰ دِينُ الإِسلامِ وَحْدَهُ.

قال الصادِقُ[٤] عليه السلام: «لم يَجِئ تَأْويلُ هذِهِ الآيةِ، ولو قَد قامَ قائمنا بعدُ سَيَرَىٰ مَنْ يُدْرِكُهُ ما يَكونُ من تأويلِ هذِهِ الآيةِ، وَلَيَبْلُغَنَّ دِينُ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله ما بَلَغَ اللَّيلُ حتَّىٰ لا يَكونَ شِركٌ[٥] علىٰ ظَهرِ الأَرضِ»[٦].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفرِ وأَسْلَمُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يُثيبُهم علىٰ

---

(١) قاله مقاتل على ماحكاه عنه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٧.

(٢) التوبة: ٣٥.

(٣) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة عند المصنّف هي قراءة وتشديد.

(٤) في بعض النسخ: بعض الأئمّة.

(٥) في المجمع: مشرك.

(٦) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٥٦ ح ٤٨.

تَوبتِهم وإسلامِهم، وقُرِئَ: «تَعْمَلُونَ» بالتاءِ (١)، فيكونُ المعنىٰ: فإِنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ مِن الجِهادِ في سَبِيلِه ﴿بَصِيرٌ﴾ يُجازيكُمْ عليه أَحْسَنَ الجَزاءِ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولَمْ يَنْتَهُوا فثِقُوا بوِلايَةِ اللهِ ونُصْرتِهِ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

«ما» مَوصُولةٌ، وَ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بَيانُهُ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ مبتدأٌ، وَخبرُهُ محذوفٌ تقديرُهُ: فواجبٌ، أو فحقٌّ أَنَّ ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

قَالَ أَصحابُنَا رضوان الله عليهم أَجمعين: إِنَّ الخُمْسَ يُقسَمُ عَلَىٰ سِتَّةِ أَسْهُمٍ كَمَا في الآيةِ: سَهْمٌ للهِ، وَسَهْمٌ لِلرَّسولِ صلى الله عليه وآله، وَسَهْمٌ لِذَوِي الْقُرْبَىٰ، فهذِهِ الأَسْهُمُ الثَّلاثَةُ اليومَ لِلإِمامِ القَائمِ مَقامَ الرَّسولِ صلى الله عليه وآله، وَسَهْمٌ لِيَتَامَىٰ آلِ مُحمَّدٍ، وسهمٌ لِمَساكِينِهِمْ، وسهمٌ لأَبناءِ سَبِيلِهِم لايَشْرَكُهم في ذلك غيرُهُم؛ لأَنَّ اللهَ سبحانَهُ حَرَّمَ عَلَيهِمُ الصَّدَقَةَ لِكَونِهَا أَوسَاخَ النَّاسِ وعَوَّضَهُم مِن ذلك الخُمُسَ (٢). رَوَىٰ ذلك الطبريُّ (٣) عن عَلِيِّ بْنِ الحُسينِ زينِ العابِدِينَ ومُحَمَّدِ بْنِ عليٍّ الباقرِ صلواتُ اللهِ عليهما.

---

(١) وهي قراءة الحسن ويعقوب ورويس وسلام بن سليمان. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٩٥.

(٢) أنظر شرائع الإسلام: ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢، واللمعة الدمشقية: ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٥٢ ح ١٦١٢٧ و ص ٢٥٤ ح ١٦١٤٢.

ورَوَوْا عن أَميرالمُؤمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ قيلَ له: إنَّ اللهَ تَعالىٰ قالَ: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ فقالَ: «أَيْتامُنَا وَمَساكِينُنَا»[١].

وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ تَعَلَّقَ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، والمعنىٰ: إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ الخُمُسَ من الغنيمةِ يَجِبُ التَقَرُّبُ بِهِ فَاقْطَعُوا عنهُ أَطْمَاعَكُم واَقْتَنِعُوا بالأَخْمَاسِ الأَربعةِ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿بِاللهِ﴾ أَي: إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وبالمُنزَلِ ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يعني: يَومَ بدرٍ[٢]، و﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾: الفَرِيقَانِ مِنَ المُسلِمِينَ والكافِرِينَ، وَالمُرادُ: مَاأُنْزِلَ مِنَ الآياتِ والملائكةِ والفَتْحِ يومَئِذٍ.

﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، وَ«الْعُدْوَةُ»: شَطُّ الوادِي، بالكَسرِ والضَمِّ، و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و ﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ تأْنيثُ الأَدنى والأَقصىٰ، والقياسُ أَنْ تُقْلَبَ الواوُ ياءً كالعُليا إِلَّا أَنَّ القُصْوَىٰ جاءَت على الأَصلِ شاذّاً كَالقَوَدِ، وَالعُدْوَةُ الدُنيا مِمَّا يَلِي المَدينَةَ، والعُدْوَةُ القُصْوَىٰ مِمَّا يَلِي مكَّةَ ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني أَبا سُفيانَ والعِيرَ ﴿أَسْفَلَ﴾ نُصِبَ على الظرفِ، معناه: مكاناً أَسْفَلَ من مكانِكُم يَقودُونَ العِيرَ بالسَاحِلِ، ومحلُّهُ رفعٌ لأَنَّه خبرُ المبتدأ.

والفائدةُ في ذِكرِ هذه المراكِزِ الإِخبارُ عن الحالِ الدالَّةِ علىٰ قوَّةِ المُشرِكينَ وضَعفِ المُسلِمينَ، وأَنَّ غَلَبَتَهم علىٰ مثِلِ هذِهِ الحالِ أَمرٌ إِلـٰهِيٌّ لَمْ يَتَيَسَّرْ إِلَّا بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه، وذلكَ أَنَّ العُدوةَ القُصْوَىٰ كانَ فيها الماءُ، ولاماءَ بالعُدوةِ الدُنيا وهي خَبَارٌ[٣] تَسُوخُ فيها الأَرجلُ، وكانت العِيرُ وَراءَ ظُهُورِهم مع كَثرةِ عَدَدِهم، وكانت

---

(١) عوالي اللآلئ لابن جمهور: ج ٢ ص ٧٥ ـ ٧٦ ح ٢٠١.

(٢) في نسخة زيادة: في يوم الجمعة السابع عشر أو التاسع عشر من شهر رمضان سنة الثاني من الهجرة، مرويّ عن الصادق عليه السلام.

(٣) الخَبَار: الأرض الرخوة. (الصحاح: مادة خبر).

الحِمايةُ دُونَها تُضاعِفُ حَمِيَّتَهم وتَحمِلُهم علىٰ أَنْ يَبْرَحُوا مَواطنَهم ويَبْذِلُوا نِهايةَ نَجْدَتِهم، وفيه تصويرُ مادبَّرَهُ عَزَّ ٱسْمُه مِن أمرِ وَقْعَةِ بدرٍ ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ من إعزازِ دِينِه وَإعلاءِ كلمتِهِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أَنتم وأَهلُ مَكَّةَ وَتَواضَعْتُم بَيْنَكُم علىٰ موعِدٍ تَلْتَقُونَ فيهِ لِلقِتَالِ لَخَالَفَ بَعضُكُم بَعْضاً، فَثَبَّطَكُم قِلَّتُكم وكَثرَتُهُم عن الوَفاءِ بالمَوعِدِ، وَثَبَّطَهُم مَافي قُلُوبِهِم مِن الرُعبِ، فَلَمْ يَتَّفِقْ لكم مِن اللقاءِ ماوفَّقَهُ اللهُ ﴿لِيَقْضِيَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أَي: لِيَقْضِيَ أَمراً كان واجباً أَن يُفْعَلَ دَبْرَ ذلك، وقولُه: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بدلٌ منه، واستُعيرَ الهَلاكُ والحَياةُ للكفرِ والإِسلامِ، أَي: لِيَصْدُر كُفرُ مَنْ كَفَرَ عن وُضُوحِ بَيِّنَةٍ وقيامِ حُجَّةٍ عليه، ويَصْدُرَ إِسلامُ مَن أَسْلَمَ عن يقينٍ وعِلمٍ بأَنَّهُ الدِينُ الحقُّ الَّذِي يَجِبُ التَمَسُّكُ به ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعلَمُ كيفَ يُدبِّرُ أُمورَكُمْ.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤٤)﴾

﴿إِذْ﴾ نُصِبَ بإِضمارِ «ٱذكُرْ»، أَو هو بَدلٌ ثانٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أَو متعلِّقٌ بقولِه: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: يَعْلَمُ المَصالِحَ إِذْ يُقَلِّلُهُم في عَينِكَ ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أَي: في رُؤْياكَ، وذلك أَنَّ اللهَ سُبحانَه أَراهم إِيَّاه في رُؤْياه قَليلاً، فأَخْبَرَ بِذٰلِكَ أَصحابَه فكان[1] تَشجِيعاً لهم عليهم، وعن الحسن: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ في عينِك لأَنَّها مكانُ النَومِ[2]، والفَشَلُ: الجُبنُ، أَي: لَجَبُنْتُم وهِبْتُمُ الإِقدامَ، ولَتَنازَعْتُمْ فِي الرَأْيِ وتَفَرَّقَتْ كَلِمتُكم فيما تَصْنَعُونَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَي: أَنْعَمَ بالسلامَةِ من الفَشَلِ والتنازُعِ

(١) في نسخة زيادة: تثبيتاً لهم و.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٠٣.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يَعْلَمُ ماسَيَكونُ فيها من الجُرأةِ والجُبْنِ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: يُبَصِّرُكُمْ إِيَّاهُم، و ﴿قَلِيلاً﴾ نَصْبٌ على الحالِ، وإِنَّما قَلَّلَهم في أَعْيُنِهِم تصديقاً لِرُؤْيَا رسولِ الله.

وعن ٱبنِ مَسعودٍ: لَقَدْ قُلِّلُوا في أَعيُنِنا حتَّى قُلْتُ لِرجلٍ إِلَىٰ جَنْبي: أَتَراهُم سَبعينَ؟ قال: أَراهم مائَةً، فَأَسَرْنا رَجُلاً منهم فقُلْنا: كَمْ كُنتُمْ؟ قال: أَلفاً(١).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حَتَّى قال قائلٌ منهُم: إِنَّمَا هُمْ أَكَلَةُ جَزورٍ، وَإِنَّمَا قَلَّلَهُمْ في أَعْيُنِهِم لِيَجْتَرِئوا عَلَيهِم قَبلَ اللقَاءِ، ثَمَّ كَثَّرَهُم فِيهَا بَعدَ اللقَاءِ لِتَفْجَأَهُمُ الكَثْرَةُ فيَهَابُوا وتُفَلَّ شَوكَتُهُم حِينَ يَرَوْنَ مَالَم يَكُنْ فِي حِسَابِهِم، وذلك قولُه: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾(٢)، وَيُمْكِنُ أَن يَكُونُوا قد أُبْصِرُوا الْكَثِيرَ قَلِيلاً بِأَنْ سَتَرَ الله عَنهُم بَعضَ أُولئكَ بِسَاتِرٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)﴾

أَي: إِذا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً كَافِرَةً، وإِنَّمَا لم يَصِفْهُم لأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لايُحارِبُونَ إِلَّا الكُفَّارَ، واللقَاءُ ٱسمٌ للقِتَالِ غالبٌ ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لِقِتَالِهِم ولاتَفِرُّوا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ فِي مَواطِنِ القِتالِ، مُسْتَعِينِينَ به مُسْتَظْهِرِينَ بذِكرِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَي: تَظْفَرُونَ بِمُرادِكُم من النُصرَةِ والمَثُوبَةِ. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ أَي: لَاتَتَنازَعُوا فِيمَا بَينَكُم فَتَضْعُفُوا عَنْ قِتَالِ عَدُوِّكُم، و﴿تَفْشَلُواْ﴾ مَنْصُوبٌ بِإِضمارِ «أَن»، والريحُ: الدولة،

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٥٩ ح ١٦١٧١.

(٢) آل عمران: ١٣.

شُبِّهَتْ في نفوذِ أَمرِها بالريحِ وهُبُوبِهَا، قالوا: هَبَّتْ رياحُ فُلانٍ: إذا دَالَتْ له الدَولَةُ وَنَفَذَ أمرُهُ، وقيلَ: لم يَكُنْ قَطُّ نَصْرٌ إلَّا بريحٍ يَبْعَثُهَا ٱللهُ[١].

وفي الحديثِ: «نُصِرْتُ بِالصَبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَبُورِ»[٢].

﴿كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هُم أَهلُ مَكَّةَ خَـرَجُوا لِـيَحْمُوا[٣] عِـيرَهُم، فأَتاهم رسولُ أَبي سُفْيانَ وهم بالجُحْفَةِ[٤]: أَنِ ٱرْجِعُوا فَقَد سَلِمَتْ عيرُكُم، فأَبَىٰ أَبو جهلٍ وقال: حَتَّىٰ نَقْدمَ بَدراً نَشرَبُ بها الخُمُورَ وتَعْزِفُ علينَا القِيانُ، فذلك بَطَرُهُم ورِئاؤهم النَاسَ: إِطعامُهُم، فوافَوْها فسُقُوا كَأْس الحِمامِ[٥] مكانَ الخمرِ، وناحَتْ عليهمُ النَوائحُ مكانَ القِيان.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّـى بَـرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَالَاتَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللهَ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨)﴾

قِيلَ: إِنَّ قُرَيْشاً لَمَّا اجْتَمَعَتْ للمَسِيرِ ذَكَرَتْ مابينَها وبينَ كِنَانَةَ مـن ٱلحـربِ فكادَ ذَلِكَ يَثْنِيهِمْ، فَتَمَثَّلَ لَهُم إبليسُ في صـورةِ سُـراقـةَ بـنِ مـالكِ بـنِ جُـعْشُم الكِنانيِّ[٦] وكانَ مِن أَشرافِهِم، فَـ﴿قَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ ... وَإِنِّى﴾ مُجِيرُكُـم من بني كِـنَانَةَ ﴿فَـلَمَّا﴾ رَأَى المـلائِكَةَ تَـنْزِلُ ﴿نَكَـصَ﴾ ولمَّـا نَكَـصَ قـال له

---

(١) قاله قتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٦١.

(٢) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٤١، مسند أحمد: ج ١ ص ٢٢٨ و٣٢٤.

(٣) في نسخة: ليجمعوا.

(٤) الجُحفة: موضع بين مكة والمدينة.

(٥) في نسخة: المنايا، والحِمام ـ بالكسر ـ قَدرَ الموت. (الصحاح: مادة حمم).

(٦) ويكنّىٰ أبا سفيان، كان في الجاهلية قائفاً، وقد روىٰ البخاري قصّته في إدراكه النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا هاجر الى المدينة واقتفاءه أثره، ثم دعا النبي صلى الله عليه وآله عليه حتّىٰ ساخت رجلا فرسه، ثـم طلبه من النبي صلى الله عليه وآله الخلاص وأن لا يدلّ عليه، ففعل صلى الله عليه وآله، وأسلم يوم الفتح، مات سنة ٢٤ هـ في أوّل خلافة عثمان. أُنظر الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢ ص ١٩.

ٱلحارثُ[١] وكانت يدُهُ في يدِهِ: إلىٰ أين؟ أَتخذُلُنا في هذهِ الحالِ؟ فـ﴿قَالَ ... إِنِّىٓ أَرَىٰ مَالَا تَرَوْنَ﴾ ودَفَعَ في صدرِهِ وَٱنْطَلَقَ، وٱنْهَزَمُوا، فلمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ قَالُوا: هَـزَمَ النَاسَ سُراقةُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سُراقَةَ، فـقال: وَٱللهِ مـاشَعَرْتُ بـمسيرِكُم حَـتَّىٰ بَـلَغَتْنِي هَزِيمَتُكُم[٢].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَـرَىٰٓ إِذْ يَـتَوَفَّى ٱلَّـذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ بالمدينةِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وَالشاكُّونَ في الإِسلامِ ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَـعْنُونَ المُسـلِمِينَ، أَي: ٱغـتَرُّوا بِـدِينِهِم وأَنَّـهُم يُنْصَرُونَ من أَجلِهِ، فَخَرَجُوا مَعَ قِلَّتِهِم إلىٰ قتالِ المُشرِكِينَ مع كَثْرَتِهِم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ ينصُرُ الضَعِيفَ على القَوِيِّ، والقَليلَ على الكَثيرِ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ولو عايَنْتَ وشاهَدْتَ، لأَنَّ «لَوْ» يَرُدُّ المضارعَ إلىٰ معنَى الماضِي، كما أَنَّ «إِنْ» تَرُدُّ الماضيَ إلىٰ معنَى الاستقبالِ، و﴿إِذْ﴾ نُصِبَ على الظَرفِ، وقُرِئَ: ﴿يَتَوَفَّى﴾ بالياءِ والتَاءِ[٣]، وَ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حالٌ، وعن مُجاهدٍ: ﴿أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: أَستَاهَهُم وَلكِنَّ ٱللهَ كَرِيمٌ يَكْنِي[٤]، وقيلَ: يَضْرِبونَ مـا أَقْـبَلَ مـنه[٥] ومـا أَدبَرَ،

---

(١) في نسخة زيادة: بن هشام.

(٢) قاله ابن عبّاس كما في تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٣٠٣.

(٣) بالتاء قرأه ابن عامر والأعرج. راجع التذكرة في القراءات لابـن غـلبون: ج ٢ ص ٤٣٥، وإعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٩٠.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٣٧.

(٥) لعلّ الصحيح المناسب لسياق الكلام: منهم.

وَالمرادُ به قَتْلَىٰ بدرٍ[1] ﴿وَذُوقُواْ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿يَضْرِبُونَ﴾ عَلىٰ إرادةِ القولِ. أَي: ﴿وَ﴾ يَقُولُون: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ بعدَ هذا في الآخرةِ، وقيلَ: كانَتْ مَعَ المَلائِكةِ مَقامِعُ من حديدٍ كُلَّما ضَرَبُوا بِهَا ٱلْتَهبَتِ النَارُ في جِراحاتِهِم[2].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يُحْتَمَلُ أَن يَكونَ من كَلامِ اللهِ، ومِنْ كَلامِ المَلائِكةِ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ، وَ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ خبرُهُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطفٌ عليهِ، أَي: ذلك العذابُ بسَبَبَيْنِ: بسببِ كُفْرِكُم ومَعاصيكُم وبأَنَّ ٱللهَ يُعَذِّبُ الكُفَّارَ بالعدلِ؛ لأَنَّه لايَظلِمُ عبادَهُ في عُقُوبَتِهم، وقد بَالَغَ في نَفي الظُلمِ عن نفسِهِ بقولِه: ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَابِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ (٥٤)﴾

الكافُ في محلِّ الرَفعِ، أَي: دأْبُ هٰؤُلاءِ مثلُ دَأْبِ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ودأْبُهم: عادتُهم وَعَملُهُم الَّذي دَأَبُوا فيهِ، أَي: دَاوَمُوا عليه، و ﴿كَفَرُواْ﴾ تفسيرٌ لِدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ. وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إِلىٰ ماحَلَّ بِهِم، أَي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ ﴿بِـ﴾ سببِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ لايَصِحُّ في حِكْمَتِهِ أَن يُغَيِّرَ نعمتَهُ عندَ ﴿قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا﴾ بهم من الحالِ، وعن السُّدِّيِّ[3]: النِعمَةُ محمَّدٌ صلى الله عليه وآله أَنْعَمَ اللهُ به علىٰ قُرَيْشٍ فَكَفَرُوا به

(١) وهو قول ابن عبّاس وابن جريج كما في تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٥٦.
(٢) قاله ابن عبّاس على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ١٥ ص ١٧٨.
(٣) أبو محمد اسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدّي الكبير، من أهل الكوفة، يروي ←

وكَذَّبُوه فَنَقَلَهُ إِلى الأَنصارِ [١] ﴿وَأَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لِما يَقُولُ مُكَذِّبُو الرُسُلِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يَفْعَلونَ.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تكريرٌ للتأْكيدِ، وفي قولِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادةُ دَلالةٍ علىٰ كُفرانِ النِعَمِ، وفي ذكرِ الإِغراقِ بيانٌ لِلأَخذِ بِالذنوبِ ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ أَي: وكُلٌّ مِنْ غَرْقَىٰ آلِ فرعونَ وقَتْلَىٰ قُرَيْشٍ كانوا ظالِمينَ أَنفُسَهُمْ بِكفرِهم ومَعاصِيهِم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَايَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللهَ لَايُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨)﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ﴾ أَي: أَصَرُّوا على الكُفرِ فلا يُتَوقَّعُ منهم إِيمانٌ، وهم بَنُو قُرَيْظَةَ عاهَدَهُم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله علىٰ أَن لا يُمالِئُوا [٢] عليه عدوّاً، فنكَثُوا بِأَن أَعانُوا مشرِكِي مَكَّةَ بالسِلاحِ وقالوا: نَسِينا وَ [٣] أَخْطَأْنا، ثمَّ عاهَدَهُمْ فَنَكَثُوا ومالأوا عليه الأَحزابَ يومَ الخَنْدقِ. ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَي: ٱلَّذِينَ عاهَدْتَهُمْ من الَّذِينَ كَفَرُوا، جَعَلَهُمْ شَرَّ الدوابِّ لأَنَّ شَرَّ الناسِ الكُفّارُ، وشرُّ الكُفّارِ المُصِرُّونَ منهم، وشرُّ المُصِرِّينَ الَّذين يَنْقُضُونَ العهدَ

← عن أنس وعبد خير وأبي صالح، ورأى ابن عمر وابن عباس وغيرهما، وكان ثقة مأموناً، وذكره الشيخ في رجاله من أصحاب علي بن الحسين عليه السلام ومن أصحاب الباقر عليه السلام ومن اصحاب الصادق عليه السلام توفّي عام (١٢٧ هـ). أنظر اللباب لابن الأثير: ج ٢ ص ١١٠، ومعجم رجال الحديث للخوئي: ج ٣ ص ١٤٨.

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٦٩ ح ١٦٢٢٤.

(٢) مَالأْتُهُ على الأمر مُمالأَةً: ساعدته عليه وشايعته. (لسان العرب: مادة ملأ).

(٣) في نسخة: أو.

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أَي: لايَخافُونَ عاقبةَ الغَدْرِ، ولايُبالُونَ مافيه من العارِ والنَّارِ.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أَي: تُصادِفَنَّهُمْ فِي الحربِ، والمعنىٰ: إِنْ ظَفِرْتَ بهم وأَدْرَكْتَهُمْ ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أَي: فَفَرِّقْ عن مُحارَبَتِك ومُناصَبَتِك مَنْ وَراءهم مِن الْكَفَرَةِ بِقَتْلِهِم شرَّ قَتْلَةٍ، حتَّىٰ لايَجْسُرَ عليكَ بعدَهم أَحَدٌ؛ اعتباراً بِهم واتِّعاظاً بحالِهِم. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ مُعاهِدِينَ ﴿خِيَانَةً﴾ ونَكْثاً لِلعهدِ ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: فَاطرَحْ إِليهِمُ العَهدَ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ علىٰ طَرِيقٍ مُقْتَصِدٍ[1] مُسْتَوٍ، وذلك بِأَنْ تُخْبِرَهُم بنَبْذِ ٱلعَهدِ إِخباراً ظاهراً مَكشوفاً، وتُبَيِّنَ لهم أَنَّكَ قَطَعْتَ مابَيْنَكَ وبَينَهُم، ولاتَبْدَأْهُم بالقتالِ وهُمْ علىٰ تَوَهُّمِ بَقاءِ العَهدِ فَيَكونَ ذلك خِيانةً ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فلاتَخُنْهُم بِأَنْ تُناجِزَهُمُ القِتالَ مِن غيرِ إِعلامِهم بالنَّبْذِ، وقيلَ: معناه على ٱستِواءٍ في العلمِ بنَقضِ العهدِ[2]، وٱلجارُّ وٱلمجرورُ في مَوضِعِ ٱلحالِ، كَأَنَّهُ قيلَ: فَانبِذْ إِليهم ثابِتاً علىٰ طريقٍ قَصدٍ سَوِيٍّ، أَو حاصِلِينَ على ٱستِواءٍ في العِلمِ علىٰ أَنَّها حالٌ من النابذِ والمَنْبوذِ إِليهم معاً.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١)﴾

﴿سَبَقُوٓاْ﴾ أَي: فاتُوا مِن أَن يُظْفَرَ بِهِم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أَي: لَا يَفُوتُونَ وَلَا يَجِدُونَ طالِبَهم عاجزاً عن إِدراكِهِم، وقُرِئَ: «أَنَّهُمْ» بالفتحِ[3] بمعنىٰ «لِأَنَّهم»،

---

(١) في نسخة: مستقيم.

(٢) قاله الأزهري علىٰ ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ٣٢.

(٣) قرأه ابن عامر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٤٦.

وَكُلٌّ واحدَةٍ من المَكسورةِ والمَفتوحةِ تعليلٌ، إلّا أنَّ المكسورةَ علىٰ طريقةِ الاِستئنافِ والمفتوحةَ تعليلٌ صريحٌ، والمعنىٰ: لاتَحْسَبَنَّ[1] يامحمَّدُ ـ صلّى الله عليه وآله ـ الكافِرينَ قَد فَاتُوكَ فإنَّ اللهَ يُظْفِرُكَ بِهِم وَيُظْهِرُكَ عليهِمْ، وفي الشَواذِّ قِراءَةُ ٱبنِ مُحَيْصِنٍ[2]: «لا يُعْجِزُونِ» بكسرِ النُونِ[3]، وقُرِئَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياءِ علىٰ أَنَّ الفِعلَ لِـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كَأَنَّه قيلَ: لَايَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن سَبَقُوا، فحُذِفَتْ «أَنْ»، كَقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾[4] أَو علىٰ أَنَّ المعنىٰ: وَلَايَحْسَبَنَّهُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا.

والقُوَّةُ: كلُّ مايُتَقَوَّىٰ به في الحربِ من العُدَدِ، والرِباطُ: ٱسمٌ للخَيلِ ٱلَّتي تُرْبَطُ في سَبيلِ ٱللهِ، وَيَجوزُ أَن يُسَمَّىٰ بالرِّباطِ ٱلَّذِي هو بِمَعنَى المُرابَطَةِ، ويَجُوزُ أَن يكُونَ جمعَ رَبيطٍ كفِصالٍ جمعِ فَصيلٍ ﴿تُرْهِبُونَ﴾ قُرِئَ بالتخفيفِ والتَشديدِ[5]، يُقالُ: أَرْهَبْتُه وَرَهَّبْتُه، أَي: تُخِيفُونَ بما تُعِدُّونَهُ ﴿عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني أَهلَ مَكَّةَ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ أَي: وتُرْهِبُونَ كُفَّاراً آخَرِينَ ﴿مِن﴾ دُونِ هَؤُلاءِ ﴿لَاتَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأَنَّهم يُصَلُّون ويَصُومُونَ وَيَقُولُون: لا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ، مُحَمَّدٌ ـ صلّى الله عليه وآله ـ رسولُ اللهِ ﴿ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لأَنَّه المُطَّلِعُ على ٱلأَسرارِ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ في الجِهادِ يُوَفَّرْ عليكُم ثوابُهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لَاتُنْقَصُونَ شَيئاً منهُ.

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ جَنَحَ لَهُ وإِليهِ: مَالَ، وَ «السَّلْمُ» بفتحِ السِينِ وكسرِهَا: الصُلحُ،

---

(١) حيث إنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف بالتاء كما هو ظاهر.

(٢) هو محمّد بن عبدالرحمن بن مُحيصِن السهمي المكّي المقرئ، روىٰ عنه عدّةٌ منهم مسلم، وقراءاته من شواذ القراءات، توفي سنة ١٢٣ هـ بمكة. راجع طبقات القرّاء للجزري: ج ٢ ص ١٦٧ رقم ٣١١٨.

(٣) شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٥٥.

(٤) الروم: ٢٤.

(٥) بالتشديد قرأه الحسن وورش. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٩٤. والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٥.

يُؤَنَّثُ تأنِيثَ نَقِيضِهَا وَهي الحربُ، قال الشاعر:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنَها مارَضِيتَ بهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ[1]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وَلاَتَخَفْ مِن خَديعتِهِم ومَكرِهِم فإِنَّ ٱللَّهَ عاصمُك وكافِيكَ من مَكرِهِم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٦٦)﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ في ٱلصُلحِ بأَن يَقصِدُوا بهِ دَفْعَ أَصحابِك عن ٱلقِتالِ حتَّىٰ يَقْوَىٰ أَمرُهُم فَيَبْدَؤُوكُمْ بِالقِتالِ مِن غَيرِ ٱستعدادٍ مِنكُمْ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أَي مُحسِبَكَ ٱللَّهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ أَي: قَوَّاكَ ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٱلَّذِينَ يَنصُرُونَكَ علىٰ أَعدائكَ، يُريدُ ٱلأَنصارَ وهُمْ: ٱلأَوسُ والخَزْرَجُ. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حتَّى صَارُوا مُتَحابِّينَ مُتوادِّينَ بعدَ ماكانَ بَيْنَهُم مِن التَضاغُنِ والتَحارُبِ

(١) والبيت لعبّاس بن مرداس السلمي، أنشده مخاطباً ابن عمّه والمنافس له لزعامة بني سليم الخفاف بن ندبة، يقول: إنّ السلم وإن طالت لم تر فيها إلّا ماتحبّ ولاتنال إلّا ماتريد، ولايضرّك طولها، فإذا جاءت الحرب قطعتك عن لذاتك وشغلتك بنفسك، وهذا تحريض علىٰ الصلح وتثبيط عن الحرب. انظر ديوان العبّاس بن مرداس: ص ١٠٣.

ولم يَكُنْ لِبَغضَائهم أَمَدٌ، فأَنساهُمُ ٱللهُ ذلك كُلَّهُ حتَّىٰ تَصَافَوْا وعَادُوا إخواناً ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَافِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ لَمَا أَمْكَنَكَ التأليفُ ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وإزالةُ ضَغَائنِ الجاهليَّةِ عنهُم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإِسلامِ.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ الواوُ بِمَعْنَىٰ «مَعَ» وَمَا بعدَهُ منصوبٌ؛ لأَنَّ عطفَ الظَّاهِرِ المجرورِ على المَكْنِيِّ قبيحٌ، والمعنىٰ: كَفاكَ وكَفَىٰ مُتَّبِعيكَ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٱللهُ ناصراً، أَو يَكونُ في محلِّ الرَفعِ أَي: كَفاكَ ٱللهُ وكَفاك ٱلْمُؤْمِنُونَ، وهذِهِ ٱلآيَةُ نَزَلَتْ بِالْبَيداءِ في غَزْوَةِ بدرٍ قبلَ القِتالِ (١).

والتَحريضُ: ٱلمُبالَغَةُ في ٱلحَثِّ على ٱلأَمرِ، من الحَرَضِ وهو أَن يَنْهَكَهُ المرضُ حتَّى يُشْفِيَ (٢) على الموتِ، وهذِهِ عِدَةٌ من ٱللهِ بأَنَّ الجماعةَ مِن المُؤْمِنِينَ إِن صَبَرُوا غَلَبُوا عَشْرَةَ أَمثالِهِم من الكُفَّارِ بتَأْيِيدِ ٱللهِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: بسببِ أَنَّ الكُفَّارَ جَهَلَةٌ يُقاتِلُونَ عَلَىٰ غَيرِ ٱحتِسابِ ثوابٍ كالبَهائِمِ.

وعن ٱبنِ جُرَيْجٍ (٣): كانَ عليهم أَن لايَفِرُّوا ويَثْبُتَ الواحدُ للعَشَرَةِ، وكان رسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله بَعَثَ حمزةَ بنَ عبدِالمطَّلبِ في ثَلاثِينَ راكباً، فَلَقِيَ أبا جهلٍ في ثَلاثِمائَةِ راكبٍ، فَثَقُلَ عليهم ذَلِكَ وضَجُّوا مِنْهُ بعدَ مدَّةٍ، فَنُسِخَ وخُفِّفَ عنهم بِمُقاوَمَةِ الواحدِ ٱلاِثنَيْنِ (٤)، وقُرِئَ: ﴿ضَعْفاً﴾ بفتحِ الضادِ وضمِّها (٥)،

---

(١) انظر الكشّاف: ج ٢ ص ٢٣٤.

(٢) أشفىٰ على الشيء: إذا أشرف عليه. (الصحاح: مادة شفى).

(٣) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي المكّي، أصله روميّ، مولىٰ بني أُمية، روىٰ عن عطاء والزهري وعكرمة وطاووس وغيرهم، كان من فقهاء أهل الحجاز وقرّائهم، قال أبو غسّان: سمعت جريراً يقول: كان ابن جريج يرىٰ المتعة. توفي سنة ١٥٠ هـ وهو ابن سبعين سنة. انظر وفيات الاعيان: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٤) حكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٤ ص ٥١٧.

(٥) وبالضم قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في ←

و«ضُعَفاءَ»(١) جمعُ ضعيفٍ، وقُرِئَ: ﴿يَكُن﴾ في ٱلْـمَوضِعَيْنِ بـالياءِ والتـاءِ(٢)، والمرادُ بالضَعفِ: ٱلضَعفُ في البدنِ، وقيل: في ٱلْبَصيرةِ وٱلاستقامةِ فـي الدِيـنِ وكانوا مُتفاوِتِينَ في ذلك(٣).

﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُـرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلاً طَيِّباً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾

الإثخانُ: كَثْرةُ القتلِ والمُبالَغةُ فيه، من قولِهم: أَثْخَنَتْهُ الجِراحاتُ حتَّىٰ أَثْبَتَتْهُ، وأَصلُه من التَخانةِ الَّتي هي الغِلَظُ(٤) والكَثافةُ، والمعنىٰ: ﴿مَا﴾ اسْتَقامَ ﴿لِنَبِيٍّ﴾ وماصَحَّ له ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ﴾ يُذِلَّ الكُفْرَ ويُضَعِّفَهُ بإِشاعَةِ القتلِ في أَهلِهِ، ويُعِزَّ الإِسلامَ ويُقَوِّيَهُ بالاِستيلاءِ والقَهرِ، وكانَ هٰذا يومَ بدرٍ، فَلَمَّا كَثُرَ المسـلمونَ نَزَلَ: ﴿فإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾(٥) (٦).

ورُوِيَ: أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أُتِيَ بسبعينَ أَسيراً فيهمُ العَبَّاسُ عَمُّهُ وعَـقيلُ بـنُ

← القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٨.

(١) وهي قراءة ابن القعقاع. راجع الفريد في إعراب القرآن للهمداني: ج ٢ ص ٤٣٧.

(٢) وبالتاء وهي قراءة الحرميان وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٦ وقال: وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب) الأول بالياء والثاني بالتاء من أجل ﴿صابرة﴾.

(٣) قال الثعالبي: قال كثير من اللغويّين: ضمّ الضاد في البدن، وفتحها في العقل، وهذه الآيـة انّما يراد بها حال الجسم، والضعف الأول هو كون الانسان من ماء مهين، والقوة بـعد ذلك الشبيبة وشدة الأسر، والضعف الثاني هو الهرم والشيخوخة. هذا قول قتادة وغيره. راجـع تفسير الثعالبي: ج ٢ ص ٥٤٩.

(٤) في نسخة: الغلظة.

(٥) سورة محمّد صلى الله عليه وآله: ٤.

(٦) وهو قول ابن عبّاس وقتادة. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٥٦.

أبي طالبٍ ولم يُؤسَرْ أحَدٌ من أَصحابِ رَسولِ ٱللهِ[١].

﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حُطامَها، سُمِّيَ بذلك لأنّه حَدَثٌ قليلُ اللَبثِ، يُريدُ ٱلفِداءَ، والخِطابُ لِلمُؤْمِنينَ الَّذينَ رَغِبُوا في أَخذِ الفِداءِ من الأَسْرىٰ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: تُريدونَ عاجِلَ ٱلحَظِّ مِن عَرَضِ الدُنيا، واللهُ يُريدُ لكُمْ ثَوابَ الآخرةِ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغَلِّبُ أَولياءَه علىٰ أعدائه، وَيَتَمَكَّنونَ مِنْهُم قَتْلاً وأَسْراً ويُطْلِقُ لهم الفِداءَ، ولَـٰكِنَّهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ يُؤَخِّرُ ذلكَ وَهُمْ يُعَجِّلُونَ.

﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَي: حُكْمٌ منهُ ﴿سَبَقَ﴾ إثباتُه فِي اللَوحِ بإباحَةِ ٱلغَنائمِ لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ﴾ ٱستَحْلَلْتُم قبلَ الإباحةِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقيلَ: لَوْلَا كِتَابٌ من اللهِ في القُرآنِ: أَنَّهُ لايُعَذِّبُكُمْ والنَبيُّ بينَ أَظْهُرِكُمْ[٢].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ هذا إباحَةٌ لِلْفِداءِ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الغَنائِم، وقِيلَ: إِنَّهُمْ أَمْسَكُوا عن الغنائِمَ ولَمْ يَمُدُّوا أَيْدِيَهم إلَيها، فَنَزَلَت الآيَةُ[٣]، وَمعنَى الفاءِ التَسبيبُ، أي: قَدْ أَبَحْتُ لكم الغَنائمَ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، و﴿حَلَـٰلًا﴾ نَصبٌ على ٱلحالِ مِنَ المَغْنُومِ، أو صِفَةٌ للمصدرِ، أي: أَكلاً حلالاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾

وقُرِئَ: ﴿مِنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وهو أَقْيَسُ من «الأَسارىٰ»[٤]؛ لأَنَّ الأَسِيرَ فَعيلٌ

---

(١) رواها الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢٣٦، والبغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٦٣.

(٢) قاله الجبّائي كما في التبيان: ج ٥ ص ١٥٧.

(٣) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٦٢.

(٤) وقراءة «الأُسارىٰ» هي قراءة أبي عمرو وأبي جعفر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٥٩، ←

بمعنىٰ مَفْعُولٍ، وذلك يُجْمَعُ علىٰ فَعْلىٰ نَحوُ جَرْحىٰ وقَتْلىٰ، وَقالوا: أُسارَىٰ؛ تَشْبِيهاً بِكُسالَىٰ، كما شَبَّهُوا كَسْلىٰ بأَسْرىٰ ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ أَي: لِمَن في مُلْكَتِكُمْ، فكَأَنَّ أَيدِيَكُمْ قابِضَةٌ عليهم ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ خُلُوصَ عَقِيدَةٍ وصِحَّةَ نِيَّةٍ في الإِيمانِ ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ مِنَ الفِداءِ: إِمَّا أَنْ يُخَلِّفَكُمْ أَضعافَهُ في الدُنيا أَو يُثِيبَكُم في الآخرةِ.

ورُوِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لِلْعبَّاسِ: ٱفدِ ٱبْنَيْ أَخَوَيْكَ: عَقيلَ بنَ أَبـي طـالبٍ ونَوْفَلَ بنَ الحرِثِ، فقال: أَتَتْرُكُنِي أَتكَفَّفُ قُرَيشاً مابَقِيتُ؟ قالَ: فأَينَ الذَهَبُ الَّذِي دَفَعْتَهُ إِلىٰ أُمِّ الفَضْلِ، وقُلتَ: إِن حَدَثَ بي حَدَثٌ فهو لَكِ ولِلْفَضْلِ وعبدِاللهِ وقُثَمَ؟ فقال العَبَّاسُ: ومايُدْرِيكَ؟ قال: أَخْبَرَنِي بِهِ رَبِّي، قال: أَشْهَدُ أَنَّكَ صادِقٌ، وَأَنْ لَّآإِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ عَبدُهُ ورَسُولُهُ، وَاللهِ لم يَطَّلِعْ عليه أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، ولَقَدْ دَفَعْتُ إِليها في سَوادِ اللَيْلِ، وَلَقَدْ كنتُ مُرْتاباً في أَمرِكَ، فَأَمَّا إِذا أَخْبَرْتَنِي بذٰلِكَ فلا رَيبَ، قالَ العَبَّاسُ: فَأَبْدَلَنِي اللهُ خَيراً مِن ذلك: لِي الآنَ عِشرونَ عَبداً إِنَّ أَدناهُم لَيَضرِبُ في عِشرينَ أَلفاً، وأَعْطانِي زَمْزَمَ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لي بِها جَميعَ أَموالِ أَهلِ مكَّةَ، وأَنَا أَنْتَظِرُ المَغْفِرَةَ من ربِّي (١).

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ نَكْثَ ماباَيَعُوك عليه، ومَنْعَ ماضَمِنُوا مِنَ الفِداءِ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بِأَن خَرَجُوا إِلىٰ بَدرٍ وقاتَلُوا مع المُشـرِكينَ ﴿فَأَمْكَـنَ﴾ ٱللَّهُ ﴿مِنْهُمْ﴾ وسيُمْكِنُ مِنهم إِنْ أَعادوا الخِيانَةَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

← وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٩.

(١) رواه ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٣ وعزاه إلى البخاري في صحيحه وابن إسحاق في مغازيه، والبغوي في تفسيره أيضاً: ج ٢ ص ٢٦٣، والزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢٣٨.

وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَالَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

﴿هَاجَرُواْ﴾ أَي: فَارَقُوا أَوطَانَهم وقَومَهم حُبّاً للهِ وَلِرَسولِهِ، وهم المهاجِرونَ من مكَّةَ إلى ٱلْمَدينةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ هُمْ إِلىٰ دِيارِهِم ﴿ونَصَرُوٓاْ﴾ هُمْ عَلَىٰ أَعدائِهِم، هُمُ ٱلأَنصارُ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أَي: يَتَوَلَّىٰ بَعْضُهُم بعضاً في المِيراثِ، وكان المهاجِرُونَ وَٱلأَنصارُ يَتوارَثُونَ بالمُؤَاخاةِ الأُولىٰ حتَّى نُسِخَ ذَٰلِكَ بقولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1]، وقُرِئَ: ﴿مِن وَلَـٰيَتِهِم﴾ بالفتحِ والكسرِ[2]، قال الزجَّاجُ: هي بِفَتحِ الواوِ من النُصرةِ والنَسَبِ، وبالكسرِ هي بِمَنْزِلَةِ ٱلْإِمَارَةِ[3]، والوجهُ في ٱلآيةِ أَنَّه شُبِّهَ تَوَلِّي بعضِهِم بعضاً بالصناعةِ والعَمَلِ، لأَنَّ كلَّ ماكانَ مِنْ هذَا الجنسِ فمكسورٌ كالصياغةِ والكِتابةِ، وكَأَنَّ الرَجلَ بِتَوَلِّيهِ صاحِبَهُ يُباشِرُ أَمْراً ويُزاوِلُ عملاً ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أَي: وَإِنْ طَلَبَ المُؤْمِنونَ ٱلَّذِينَ لم يُهَاجِرُوا مِنكُم النُصرةَ لَهُم على الكُفَّارِ ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لَهُم ﴿إِلَّا عَلَىٰ

(١) أُنظر كتاب الناسخ والمنسوخ لقتادة السدوسي: ص ٤٦.
(٢) وبالكسر هي قراءة حمزة والأعمش ويحيىٰ بن وثاب. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٦١، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ٥٦.
(٣) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ١ ص ٢١٠.

قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ وَعَهدٌ، فلا يَجُوزُ لَكُم نصرُكم عَليهِم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ معناهُ نَهْيُ المسلِمِينَ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ ومُعاوَنَتِهِم وَإِن كانُوا أَقارِبَ، وَأَن يَتْرُكُوا يَتَوَلَّىٰ بَعضُهُم بعضاً ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أَي: إِن لاتَفْعَلُوا مَاأَمَرْتُكُمْ بِهِ مِن تَواصُلِ المُسلِمِينَ وتَوَلِّي بَعضِهم بَعضاً حتَّىٰ في التوارُثِ؛ تفضيلاً لِنسبةِ الإِسلامِ علىٰ نِسبةِ القَرابةِ، ولَمْ تَقْطَعُوا العَلائقَ بينَكم وبينَ الكُفَّارِ تَحْصُلْ ﴿فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومَفْسَدةٌ كَبيرةٌ؛ لأَنَّ المُسلمينَ مالم يَكونوا يداً واحدةً علىٰ أَهلِ الشِركِ كانَ الشِركُ ظاهِراً، وتَجرّأَ أَهلُه علىٰ أَهلِ الإِسلامِ ودَعَوْهُم إِلىٰ الكُفْرِ.

ثُمَّ عاد سُبحانَه إِلَىٰ ذكرِ المُهاجِرِينَ والأَنصارِ وأَثْنَىٰ عَلَيهِم بِقولِه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأَنَّهُمْ حَقَّقُوا إِيمانَهم بالهِجرةِ والنُصرةِ والاِنسلاخِ من الأَهلِ والمالِ لأَجْلِ الدِينِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ يُريدُ: اللاحِقِينَ بعدَ السَابقِينَ إِلى الهِجرةِ، كَقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية [(١)] ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ من جُملَتِكم، وحُكْمُهم حُكْمُكُمْ في وُجوبِ مُوالاتِهِم ونُصْرَتِهم وإِن تَأَخَّرَ إِيمانُهم وهِـجرتُهم ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وأُولو القَراباتِ أَوْلَىٰ بالتَوارُثِ، بعضُهم أَحقُّ بميراثِ بعضٍ من غَيرِهم، وهو نَسخٌ للتَوارُثِ بالهِجْرَةِ والنُصْرَةِ[(٢)] ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَي: في حُكْمِهِ، وقيلَ: في اللوحِ المحفوظِ [(٣)]، وقيلَ: في القُرآنِ[(٤)]، وفيه دَلالةٌ علىٰ أَنَّ مَنْ كانَ أَقْرَبَ إِلَى المَيِّتِ في النَسَبِ كانَ أَوْلَىٰ بِالمِيراثِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) الحشر: ١٠.
(٢) أُنظر كتاب الناسخ والمنسوخ لابن حزم: ص ٣٩.
(٣) قاله ابن عبّاس. راجع تفسيره: ص ١٥٣.
(٤) حكاه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٩.

سورةُ التَوبة

مَدَنِيَّةٌ[1]، وهي مِائَةٌ وتسعٌ وعِشرون آيةً كوفيٌّ، ثَلاثونَ بصريٌّ، عدَّ البصريُّ ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وعن الصَّادقِ عليه السلام قالَ: «ٱلْأَنْفالُ وبراءَة واحدةٌ»[2].

وعن عليٍّ عليه السلام: «لم يَنْزِلْ «بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ» علىٰ رأْسِ سورةِ براءَةٍ؛ لأَنَّ «بسمِ ٱللهِ» للأَمانِ والرَحمةِ، ونَزَلَتْ براءَةٌ لِرَفعِ ٱلْأَمانِ وللسَّيفِ»[3].

وقيلَ: إِنَّ السُورتَيْنِ كَانَتَا تُدْعَيانِ القَرِينَتَيْنِ، وَتُعَدَّانِ السَابعةَ من السَبعِ الطِوالِ[4].

---

(١) في التبيان للشيخ الطوسي: ج ٥ ص ١٦٧: قال مجاهد وقتادة وعثمان: هي آخر مانزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة.

قال الزمخشري: لها عدّة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب، لأنّ فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرّد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: إنّكم تسمّونها سورة التوبة، وإنّما هي سورة العذاب، والله ماتركت أحداً إلّا نالت منه. راجع الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤١.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٣ ح ٣ وفيه: عن أحدهما عليهما السلام.

(٣) تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٢.

(٤) قاله ابن عبّاس وحكاه عن عثمان بن عفان. أُنظر تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٦.

* * *

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٤)﴾

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأ محذُوفٍ، وَ ﴿مِنَ﴾ لِابتِداءِ ٱلغايةِ، والمعنىٰ: هذِهِ براءَةٌ واصِلةٌ ﴿مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾، وَيجوزُ أَن تَكُونَ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مُبْتَدَأً وَإِن كَانَتْ نكرةً لِتَخَصُّصِهَا بِصِفَتِهَا، والخَبَرُ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ كما تَقولُ: رجلٌ مِن قُرَيْشٍ في الدارِ، والمرادُ: أَنَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ قَد بَرِئَا ﴿مِنَ﴾ العَهدِ ٱلَّذِي عَاهَدْتُم بِهِ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنَّ عَهْدَهُمْ مَنْبُوذٌ إِلَيْهِم.

﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هـذا خِطابٌ لِـلمُشْرِكِينَ، أُمِـرُوا أَن يَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشهُرٍ ـ وهـيَ ٱلأَشْـهُرُ ٱلحُـرُمُ ـ آمِـنِينَ أَيـنَ شاءُوا لَايُتَعَرَّضُ لَهُمْ، وذلك لِصِيَانَةِ ٱلْأَشْهُرِ ٱلْحُرُمِ مِن القَـتلِ والقِـتال فِـيهَا، وقـيلَ: إِنَّ «براءَةً» نَزَلَتْ في شَوَّال سَنَةَ تسعٍ من الهِجرةِ وَٱلأَشهُرُ ٱلأَرْبَعَةُ: شوَّالٌ، وذو ٱلقِعْدَةِ، وذوٱلحِجَّةِ، وٱلمُحَرَّمُ[١]، وقيلَ: هي عِشرونَ مِن ذِي الحِـجَّةِ والمُـحَرَّمُ وصَـفَرُ

(١) قاله ابن عبّاس والزهري كما حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٦٩.

وشَهرُ رَبيعٍ ٱلأَوَّل، وعَشرٌ مِن شهرِ رَبيعٍ ٱلآخِرِ[١]، وكَانَتْ حُرُماً لأَنَّهُمْ أُومِنُوا فِيهَا وَحُرِّمَ قَتلُهُم وقِتَالُهُم، وهو ٱلأَصَحُّ.

وَأَجْمَعَ المُفَسِّرُونَ عَلَىٰ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله حِينَ نَزَلَتْ «بَرَآءَةٌ» دَفَعَهَا إِلَىٰ أَبي بَكْرٍ ثُمَّ أَخَذَهَا منه وَدَفَعَهَا إِلَىٰ عليٍّ عليه السلام[٢] وَإِن ٱخْتَلَفُوا في تَفصيلِهِ، وقد شَرَحْنَاهُ في ٱلكِتابِ ٱلكَبِيرِ[٣].

وعنِ ٱلباقرِ عليه السلام قالَ: «خَطَبَ عليٌّ عليه السلام ٱلنَّاسَ يَومَ النحرِ وَٱختَرَطَ سَيفَهُ فقال: لَا يَطُوفَنَّ بالبَيتِ عُريانٌ، وَلَا يَحجَّنَّ ٱلبَيتَ مُشرِكٌ، وَمَنْ كَانَتْ له مُدَّةٌ فهو إِلىٰ مُدَّتِهِ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ له مُدَّةٌ فمُدَّتُهُ أَربعةُ أَشهُرٍ، وَقَرأَ عليهمْ سورةَ براءَةٍ»[٤]، وقيل: إِنَّه قَرَأَ ثَلاثَ عَشْرَةَ آيَةً مِنْ أَوَّلِ براءَةٍ[٥]، وقيل: ثَلاثِينَ أَو أَربعينَ آيةً[٦].

﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ﴾ أَي: لَا تَفُوتُونَهُ وَإِنْ أَمْهَلَكُمْ ﴿وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أَي: مُذِلُّهُم في ٱلدُّنيا بالْقَتلِ، وَفي ٱلآخِرَةِ بالْعَذابِ.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللهِ﴾ ٱلوَجهُ في رفعِهِ ماذَكَرْنَاهُ في ﴿بَرَآءَةٌ﴾ بِعَينِهِ، ثُمَّ الجُملةُ مَعطوفَةٌ علىٰ مِثلِها، وهو بمعنى الإِيذانِ كما أَنَّ الأَمانَ والعَطاءَ بمعنى الإِيمانِ والإِعطاءِ، والجُملةُ الأُولىٰ إِخبارٌ بثُبوتِ البَراءَةِ، والجُملةُ الثَانيةُ إِخبارٌ بوجوبِ الإِعلامِ بما ثَبَتَ من البَراءَةِ الواصلةِ من اللهِ ورسولِه إِلى المُعاهِدينَ والنَاكِثين لجميعِ ٱلنَّاسِ، مَن عاهَدَ منهم ومَنْ لَمْ يُعاهِدْ ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يومَ عَرفَةَ، وقيل:

---

(١) قاله محمّد بن كعب القرظي ومجاهد والسدي والحسن وهو قول الصادق عليه السلام. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٦٩، وتفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) رواه ابن كثير من طرق عديدة في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) يريد به مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٣.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٤ ح ٧.

(٥) قاله مجاهد علىٰ ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤٣.

(٦) وهو قول محمد بن كلب القرظي وغيره كما في تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٨٣.

يومَ النَحرِ (١)؛ لأَنَّ فيه تمامَ الحجِّ ومُعْظَمَ أَفعالِه (٢).

ورُوِيَ أَنَّ علياًعليه السلام أَخَذَ رجلٌ بِلِجامِ دابَّتِه فقالَ: مَاالْحَجُّ الأَكْبَرُ؟ فقال: «يومُكَ هذا، خَلِّ عن دابَّتي» (٣).

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِیٓءٌ﴾ حُذِفَتِ الباءُ تخفيفاً، وقُرِئَ في الشَواذِّ: «إِنَّ اللهَ» بالكَسرِ (٤)، لأَنَّ الأَذانَ في معنىٰ القَوْلِ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عَطْفٌ على الضَميرِ في ﴿بَرِیٓءٌ﴾ أَوْ على محلِّ «إِنَّ» المكسورةِ وٱسْمِها، وقُرِئَ بالنَّصبِ (٥) عَطفاً على ٱسمِ «إِنَّ»، أَو لأَنَّ الواوَ بمعنى «مَعَ»، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكُفْرِ وَٱلغَدْرِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإِقامةِ عليهما ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإِيمانِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غيرُ سابِقِينَ اللهَ، ولا فائتينَ بأْسَهُ وعذابَهُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ٱستِثْناءٌ مِنْ ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأَنَّ الاِستِثْناءَ بمعنَى الاِستِدراكِ، وَالمَعنَى: ولَٰكِنَّ الَّذِينَ لم يَنْكِثوا ولَمْ يَنْقُصُوا من شرطِ العَهْدِ ﴿شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أَعدائكُمْ ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ﴾ انقضاءِ ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ الَّتي وَقَعَ العَهدُ إِلَيها، ولاتَجْعَلُوا الوَفِيَّ كالغادِرِ.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ

---

(١) في رواية عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم وعليعليه السلام والصادقعليه السلام وابن عبّاس وابن عمر وسعيد بن جبير وعبدالله بن أبي أوفىٰ وإبراهيم ومجاهد وابن مسعود والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة والشعبي والنخعي والزهري وعطاء وابن زيد والسدي واختاره الطبري. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٩، وتفسير الطبري: ج ٦ ص ٣١١ ـ ٣١٦.

(٢) في بعض النسخ: أحواله.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣١٢ ح ١٦٤٢٢.

(٤) قرأه الحسن والأعرج. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٦.

(٥) وهي قراءة الحسن وزيد بن علي وعيسىٰ بن عمر وابن أبي إسحاق. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٧٠، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٦.

وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾

أَي: ﴿إِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ﴾ الَّتي أُبيحَ فيها لِلنَاكِثِينَ أَنْ يَسِيحوا في الأَرضِ ﴿فَاقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَضَعُوا السَيفَ فيهم حيثُ كانُوا وأَينَ وُجِدُوا، في حِلٍّ أَو حَرَمٍ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أَي: أَئسِرُوهُم، والأَخِيذُ: الأَسِيرُ ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أَي: قَيِّدُوهُمْ وَٱمنَعُوهُمْ من التَصرُّفِ في البِلادِ، وقيلَ: حُولُوا بَينَهم وبينَ المَسجِدِ الحَرامِ[١] ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أَي: كلَّ مَمَرٍّ وَطريقٍ تَرْصُدونَهم به، وٱنْتَصَبَ[٢] على الظرفِ كقولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٣]، ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ أَي: دَعُوهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْبِلادِ، أَو: فُكُّوا[٤] عَنْهُمْ وَلاَ تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ، أَوْ: دَعُوهُمْ يَحُجُّوا ويَدْخُلُوا المَسْجِدَ ٱلْحَرامَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغْفِرُ لَهُمْ ماقد سَلَفَ من كُفْرِهم وغَدْرِهم.

﴿أَحَدٌ﴾ مرفوعٌ بفعلِ الشَرطِ وهو مُضْمَرٌ يُفَسِّرُهُ الظَاهِرُ، تَقديرُه: وَإِنِ ٱسْتَجارَكَ أَحَدٌ ٱسْتَجارَكَ، والمعنىٰ: وإِن جاءَكَ أَحدٌ من المُشرِكينَ بعدَ ٱنقِضاءِ الأَشْهُرِ لاعَهدَ بينَكَ وبينَه فَاستَأْمَنَكَ لِيَسْمَعَ ماتَدْعُو إِليه من القُرآنِ والدِينِ فأَمِّنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويَتَدَبَّرَهُ، فإِنَّ مُعْظَمَ الأَدِلَّةِ فيه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ بعدَ ذلكَ، يَعنِي دارَهُ الَّتِي يَأْمَنُ فيها إِن لم يُسْلِمْ، ثُمَّ قاتِلْه إِن شِئْت من غيرِ غَدْرٍ ولاخِيانةٍ، وهذا الحكمُ

(١) قاله ابن عبّاس علىٰ ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤٧.

(٢) في بعض النسخ: والنصب.

(٣) الأعراف: ١٦.

(٤) في نسخة: فكفّوا.

ثابتٌ في كلِّ وقتٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الأمرُ بالإجارَةِ ﴿بِـ﴾ سببِ ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جَهَلَةٌ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإيمانَ فَأَمِّنْهُم حتَّى يَسْمَعُوا ويَعْلَمُوا.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ (٨)﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ صحيحٌ ومُحالٌ أن يَثْبُتَ لهم عهدٌ مع إضمارِهِمُ الغَدْرَ والنَكْثَ، فلاتطْمَعوا في ذلك، ولَكِنَّ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ منهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وَلم يَظْهَرْ منهم نَكْثٌ كَبَنِي كِنانَةَ وبَني ضَمْرَةَ، فَتَرَبَّصُوا أَمْرَهم ولاتُقاتِلُوهُم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ﴾ على ٱلعهدِ ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ علىٰ مِثْلِه.

﴿كَيْفَ﴾ تَكرارٌ لاِستِبعادِ ثَباتِ ٱلمُشرِكينَ على العهدِ، وحُذِفَ الفعلُ لكونه مَعْلوماً، أي: ﴿كَيْفَ﴾ يَكُونُ لَهُمْ عَهدٌ ﴿وَ﴾ حالُهم أَنَّهُمْ ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ ويَظْفَرُوا بِكم بعدَ ماسَبَقَ لهم من الأَيْمانِ والمَواثِيقِ ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أَي: لَا يَحْفَظوا فيكُم قَرابةً ولاعَهداً، قالَ حسَّانُ(١):

لعَمرُك إنَّ إِلَّكَ من قُرَيْشٍ كإلِّ السَقْبِ من رَأْلِ النَعامِ(٢)

(١) حسّان بن ثابت، ويكنّىٰ أبا الوليد، أصله من الخزرج، ولد بالمدينة عام ٥٦٣ م، كان أشعر أهل المدينة في زمانه وأهم شعراء الدعوة الإسلامية، فقد مدح الرسول ﷺ، ونظم المراثي في شهداء المسلمين، ونظم أيضاً في هجاء الخصوم والمنافقين، وكانت أشعاره في هجاء قريش وحدها كثيرة جمعها المدائني في كتاب أسماه: «هجاء حسّان لقريش» يقال: توفّي وله من العمر مائة وعشرين عاماً، وعدّوه من المعمّرين. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ١٧٠ وما بعده.

(٢) انظر ديوان حسان بن ثابت: ج ١ ص ٣٩٤.

وقيل: إلاًّ: حلفاً[١] وقيلَ: إلاًّ: إلٰهاً[٢] ﴿يُرْضُونَكُم﴾ كَلامٌ مبتدأٌ في وصفِ حالِهِم من مُخالَفَةِ ٱلباطِنِ ٱلظَّاهرَ، وإباءُ ٱلقُلوبِ: مُخالَفَةُ مافيها من ٱلأَضغانِ لما يُجرُونَهُ علىٰ أَلْسِنَتِهِم من ٱلكلامِ الجميلِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ مُتَمَرِّدُونَ في ٱلكفرِ وٱلشركِ، لامُرُوءَةَ تَرْدَعُهُم كما تُوجَدُ في بعضِ ٱلْكفَّارِ مِن ٱلتَعَفُّفِ عمَّا يَثْلِمُ ٱلعِرْضَ وٱلتَفادي عن ٱلنكثِ.

﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَاكَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩) لَايَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَاذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَاتُقَـٰتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)﴾

اسْتَبْدَلُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ﴾ أَي: بالقرآنِ وٱلإِسلامِ ﴿ثَمَناً قَلِيلًا﴾ وهو ٱتِّباعُ ٱلأَهواءِ والشَهَواتِ ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ فَعَدَلُوا عنهُ وصَرَفُوا غيرَهُم. وَ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ ٱلمُجاوِزونَ ٱلغايةَ فِي ٱلظُلمِ وٱلكُفرِ.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن ٱلكُفرِ ونَقضِ ٱلعهدِ ﴿فَـ﴾ هم ﴿إِخْوَٰنُكُمْ﴾ حُذِفَ ٱلمبتدأُ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ ونُبَيِّنُها، وهذا ٱعتراضٌ، فكأَنَّهُ قيلَ: وَمَنْ تَأَمَّلَ تفصيلَهَا فهو العالمُ. ﴿وَإِن نَكَثُوٓاْ﴾ أَي: نَقَضُوا عُهودَهُم ﴿بَعْدِ﴾ أَن عَقَدُوها ﴿وَطَعَنُواْ فِى

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٣٢٦ ح ١٦٥٢٢.

(٢) قاله سعيد بن جبير ومجاهد وأبو مجلز. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٣٢٥، وتفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٥.

دِينِكُمْ﴾ وعابُوهُ ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أَي: فـقاتِلُوهم، وُضِـعَ الظَّـاهِرُ مـوضِعَ المُضْمَرِ إشعاراً بأنَّهم إذا نَكَثُوا في حالِ الشِركِ تَمرُّداً وطَـرحاً لِـعاداتِ الكِـرامِ ٱلأَوْفِيَاءِ مِن العربِ ثمَّ آمنوا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وصارُوا إخواناً للمُسلمينَ ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ ثمَّ رَجَعُوا فَارْتَدُّوا عن الإسلامِ ونَكَثُوا مابَايَعُوا عليهِ من ٱلأَيمانِ وَطَعَنُوا في دينِ اللهِ فهُمْ رُؤَساءُ الكفرِ والضَلالةِ وٱلمُتَقَدِّمونَ فيهِ.

وعن حُذَيْفَةَ: لم يأْتِ أَهلُ هِذهِ ٱلآيةِ بعدُ[١].

وقَرَأَ عليٌّ عليه السلام هذهِ ٱلآيَةَ يومَ الجَمَلِ، ثُـمَّ قـالَ: «أَمـا وَٱللهِ لَـقَدْ عَـهِدَ إِلَـيَّ رسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وقالَ لي: ياعليُّ لَتُقاتِلَنَّ ٱلفِـئَةَ ٱلنَّـاكِـثَةَ وٱلفِـئَةَ ٱلبـاغِيَةَ وٱلفِـئَةَ ٱلمارِقَةَ»[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أَي: لا عُهُودَ لَهُم يَعني: لا يَـحفَظُونَها، وَقُـرِئَ بكسـرِ الهمزةِ[٣]، أَي: فلايُعطَوْنَ ٱلأَمانَ بعدَ النَكثِ والرِدَّةِ، أَو لا إِسلامَ لهم ولا إيـمانَ على ٱلحقيقةِ، ولا ٱعتبارَ بِمَا أَظْـهَرُوهُ مـن ٱلإيـمانِ ﴿لَـعَلَّهُمْ يَـنتَهُونَ﴾ يَـتَعَلَّقُ بـ«قَـٰتِلُوٓاْ» أَي: لِيَكُنْ غَرضُكم في مُقاتَلَتِهِم أَن يَنْتَهُوا عمَّا هُم عليهِ، وهذا من غايةِ كَرَمِهِ سبحانَهُ وفضلِهِ. ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ دَخَلَتِ ٱلهمزةُ للتَقرير، ومعناه: ٱلحَضُّ على ٱلمُقاتَلَةِ ﴿نَكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ ٱلّتي عقَدُوها ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مِن مكَّةَ حِينَ تَشاوَرُوا في أَمرِهِ حتَّى أَذِنَ ٱللهُ له في ٱلْهِجْرَةِ فخَرَجَ بـنفسِهِ ﴿وَهُـم بَـدَءُوكُمْ﴾ بالمُقاتَلَةِ وٱلبادِئُ أَظْلَمُ، فما يَمْنَعُكُم أَن تُقاتِلوهُم بمثلِهِ؟! ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ تـقريعٌ بِالْخَشْيَةِ منهم وتوبيخٌ عليها ﴿فَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فقاتِلُوا أَعـداءَهُ ﴿إِن كُـنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لايَخشَىٰ إِلَّا ٱللهَ.

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣٣٠.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٨ ح ٢٥.

(٣) وهي قراءة الحسن وابن عامر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٨١.

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

وَبَّخَهُم بتركِ ٱلقتالِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذلك بالأَمرِ بالقتالِ فقالَ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ﴾، ثمَّ وَعَدَهُم أَنـَّه ﴿يُعَذِّبهُمْ﴾ بأَيديهم قتلاً، ويُـخزِيهِم أَسـراً، وَيَـنْصُرُهم ﴿عَـلَيْهِمْ﴾ وَيَشْـفِي ﴿صُدُورَ﴾ طائفةٍ من المُؤْمنين وهم خُزاعةُ[١]، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: هُم بُطونٌ من ٱليَمَنِ قَدِموا مكَّةَ وأَسْلَمُوا فَلَقُوا منهم أَذىً، فقال لهم رسولُ ٱللهِ صَلَّىٰٱللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «أَبْشِروا فإِنَّ الفَرَجَ قريبٌ»[٢]. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لِما لَقُوا منهم من ٱلمَكروهِ، وقد أَنْجزَ ٱللهُ هذِهِ ٱلمَواعيدَ كلَّها لهم، فكانَ ذلك دليلاً علىٰ صحَّةِ نُبُوَّةِ نبيِّهِعليه السلام ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ٱستئنافُ كلامٍ، وفيه إِخبارٌ بأَنَّ بعضَ أَهلِ مكَّةَ سَيَتُوبُ عن كفرِهِ، وقد كانَ ذلك ـ أَيضاً ـ فَقَد أَسْلَمَ كَثيرٌ مِّنهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ ماسَيَكونُ كما يَعْلَمُ ماقد كانَ ﴿حَكِيمٌ﴾ لايَفْعَلُ إِلَّا مافيه ٱلحِكْمَةُ.

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ وفي ٱلهمزةِ معنَى ٱلتوبيخِ، يعني: أَنـَّكم لاتُتْرَكُونَ علىٰ ماأَنْتُمْ عليهِ حتَّىٰ يُمَيِّزَ المُخْلِصونُ منكُم وهم[٣] ٱلمُجاهِدونَ في سَبيلِ ٱللهِ لوجـهِ ٱللهِ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ ... وَلِيجَةً﴾ أَي: بِطانةً وأَولياءَ يُوالُونَهم ويُفشُونَ إِليهم أَسـرارَهُـم، وَ﴿لَمَّا﴾ معناها ٱلتَوَقُّعُ، ودلَّت عـلىٰ أَنَّ تـمَيُّزَ ذلك وإِيـضاحَهُ مُـتَوَقَّعٌ، وقـولُه:

(١) وخزاعة: حيّ من الأزد، سمّوا ذلك لأنّ الأزد لمّا خرجت من مكّة لتتفرّق في البلاد تخلّفت عنهم خزاعة وأقامت بها، وخزع فلان عن أصحابه: أي تخلّف. انظر الصحاح: مادة خزع.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٢.

(٣) في نسخة زيادة: المهاجرون.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿جَـٰهَدُواْ﴾ فهو داخلٌ ـ أيضاً ـ في ٱلصِّلةِ، فكأنَّـه قيلَ: وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلمُجاهِدينَ منكم وٱلمُخلِصين غيرَ المُتَّخِذينَ وَلِيجةً مِنْ دُونِ ٱللهِ، وٱلوَليجةُ: فَعيلةٌ من وَلَجَ، كالدَخيلةِ من دَخَلَ، وٱلمرادُ بنفي ٱلعلمِ نفيُ المَعلومِ كما يُقالُ: ماعَلِمَ ٱللهُ ماقيلَ في فلانٍ أي: ما وُجِدَ ذلك منه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾

﴿مَا﴾ صَحَّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وما ٱستقامَ لهم ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ﴾ يعني: عِمارةَ ٱلمَسجدِ ٱلحَرامِ، وَإِنَّما جُمِعَ لأَنَّ كُلَّ موضِعٍ منه مسجِدٌ، أَو لأَنَّه قبلةُ ٱلمَساجدِ كُلِّها فعامِرُهُ كعامِرِ جميعِ ٱلمَساجِد، أَو أُريدَ جنسُ ٱلمَساجدِ فيَدخُلُ فيهِ ماهو صدرُها ومقدَّمُها، وقُرِئَ: «مَسْجِدَ ٱللهِ»[1]، ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ حالٌ من ٱلواوِ في ﴿يَعْمُرُواْ﴾، ومعنىٰ شهادَتِهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾: ظُهورُ كفرِهِم، وأَنَّهم نَصَبُوا أَصنامَهُم حولَ ٱلبيتِ وطافُوا حولَ ٱلبيتِ عُراةً، وَكُلَّما طافُوا شَوطاً سَجَدُوا لَها، وقيل: هو قولُهم: لَبَّيْك لاشريكَ لكَ، إلَّا شريكٌ هولَكَ، تَمْلِكُه ومامَلَكَ[2].

ورُوِيَ: أَنَّ ٱلمُهاجِرينَ وٱلأَنصارَ عَيَّرُوا أُسارى بدرٍ، وَوَبَّخَ عليٌّ ٱلعبَّاسَ بقتالِ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وقطيعةِ ٱلرَحِمِ، فقالَ ٱلعبَّاسُ: تَذْكُرونَ مَساوِيَنا وتَكْتُمونَ محاسِنَنا؟ فقالوا: أَوَلَكُم مَحاسِنُ؟ قالوا: نَعَمْ، إِنَّا لَنَعْمُرُ ٱلمَسجِدَ ٱلحَرامَ ونَحجُبُ

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٨٨، وفي تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٨٩: هي قراءة ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن محيصن.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٣.

القرآنَ هَذّاً[١] [٢].

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لَاتُؤْمِنُوٓاْ﴾ أمرٌ بالإعراضِ عنهم وقلَّةِ الاكتراثِ بهم وبإيمانِهم، وأنَّهم لم يدخُلُوا في الإيمانِ، فإنَّ مَن هم أفضلُ منهم من الَّذينَ قرأوا الكتبَ وعَلِمُوا الشرائعَ قد آمنُوا به وصحَّ عندهم أنَّه النبيُّ الموعودُ في كُتُبِهم، فـ﴿إِذَا﴾ تُلِيَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خرُّوا ﴿سُجَّداً﴾ تعظيماً لأَمرِ اللهِ، ولإنجازِهِ ماوَعدَهُ في الكتبِ المُنزلَةِ من بعثةِ محمَّدٍ ﷺ وإنزالِ القرآنِ عليه، وهو المرادُ بالوعدِ في قولِه: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ أَي: إنَّه كانَ وعدُ اللهِ حقّاً كائناً، وإنّما ذكَرَ الذقَنَ لأَنَّ الساجدَ أَقربُ شيءٍ منه إلى الأرضِ ذَقَنُهُ، ومعنى اللامِ: الاختصاصُ؛ لأَنَّهم جعَلُوا أَذقَانَهم ووجوهَهم للسجودِ والخُرورِ.

وكرَّرَ قولَه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ لاختلافِ الحالينِ، وهما: خُرورُهُم في حالِ كونهم ساجِدينَ، وخرورُهُم في حالِ كونهم باكينَ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآنُ ﴿خُشُوعاً﴾ أَي: لِينَ قلبٍ وتواضعاً للهِ.

والدعاءُ بمعنى التسميةِ لابمعنى النداءِ، وهو يتعدَّىٰ إِلىٰ مفعولينِ، تقول: دعوتُهُ زيداً، ثمَّ تترُكُ أَحدَ المفعولينِ استغناءً عنه فتقولُ: دعوتُ زيداً، و ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ يريدُ بهما الاسمَ لا المُسمَّىٰ، و ﴿أَوِ﴾ للتخييرِ، أَي: سَمُّوا ٱللَّهَ بهذا الاسمِ أَو بهذَا، والتنوينُ في «أَيٍّ» عِوَضٌ من المضافِ إليه، و ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ مُؤَكِّدةٌ للشرطِ، و ﴿تَدْعُواْ﴾ مجزومٌ بالشرطِ الَّذي يتضَمَّنُهُ «أَيٌّ» والمعنىٰ: أَيَّ هـذينِ الاسمينِ سمَّيتُم أَوَ ذكَرتُم ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، والضميرُ في ﴿لَهُ﴾ لا يرجِعُ إِلىٰ أحدِ الاسمينِ لكن إِلىٰ مسمَّاهما وهو ذاتُه عَزَّ اسمُه؛ لأَنَّ التسميةَ للذاتِ

---

(١) الهذّ: الاسراع في القراءة وفي القطع. (الصحاح: مادة هذذ).

(٢) سنن البيهقي: ج ٢ ص ٥٤ و٣٩٦ و ج ٣ ص ١٣.

لا للاسمِ، والمرادُ: ﴿أَيًّا﴾ مَا تدعوهُ فهو حسَنٌ، فوُضِعَ موضِعَهُ ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّه إذا حَسُنَت أسماؤُهُ كُلُّها حَسُنَ هذانِ الاسمانِ لأنَّهما منها، والمعنيُّ في كونِ أسمائه أحسَنَ الأسماءِ: أنَّها تستَقِلُّ بمعاني التمجيدِ والتعظيمِ والتقديس.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِـ﴾ قِراءَةِ ﴿صَلَاتِكَ﴾ حُذِفَ المضافُ لفقدِ الالتباس؛ لأنَّ الجهرَ والمُخافَتَةَ معلومٌ أنَّهما صفتانِ للصوتِ لاغيرِ، والصلاةُ عبارةٌ عن أفعالٍ مخصوصةٍ وأذكارٍ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ﴾ الجهرِ والمُخافَتَةِ ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً، وقيلَ: بأن تجهَر بصلاةِ الليلِ وتُخافِتَ بصلاةِ النهارِ [1]، وقيلَ: بصلاتِك: بدعائِك [2].

﴿وَلِىٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ناصرٌ من الذلِّ ومانعٌ له منه يتعزَّزُ به، أَو: لايُوالي أحداً من أَجلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعها بموالاتِهِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٧١.

(٢) قاله ابن عباس وعائشة وأبو عياض والنخعي وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد والزبير ومكحول. راجع التبيان: ج ٦ ص ٥٣٤، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ١٤٢.

سورةُ الكهفِ

مكِّيةٌ[1]، مائةٌ وإحدَىٰ عَشْرَةَ آيةً بصريٌّ، عشرٌ كوفيٌّ، عدَّ البصريُّ ﴿عِندَهَا قَوْماً﴾[2].

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَهَا فهو معصومٌ ثمانيةَ أَيَّامٍ من كُلِّ فتنةٍ، ومَن قرأَ الآيَةَ الَّتي في آخِرِها حينَ يأخذ مضجَعَهُ كانَ له في مضجَعِهِ نوراً يتلألأُ إلى الكعبةِ، حَشْوَ ذلكَ النورِ ملائِكةٌ يُصَلُّونَ عليه حتَّى يقومَ»[3].

الصادقُ عليه السلام: «مَنْ قرأَها في كُلِّ ليلةِ جُمُعَةٍ لم يَمُتْ إلَّا شهيداً، وبَعَثَهُ ٱللهُ مع الشهداءِ»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣: قال مجاهد وقتادة: هي مكية، وهي مائة وعشر في الكوفي، واحدى عشرة في البصري، وخمس في المدنيّين.

وقال الماوردي البصري في تفسيره: ج ٣ ص ٢٨٣: مكية كلّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقال القرطبي في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٤٦: وهي مكية في قول جميع المفسّرين، وروي عن فرقة: أنّ أول السورة نزل بالمدينة الى قوله: ﴿جُرُزاً﴾، والأول أصح.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٢: مكية إلّا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ الى غاية آية ١٠١ فمدنية، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية.

(٢) الآية ٨٦.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٥١ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

علَّمَ سبحانه عبادَهُ كيفَ يحمدونه علىٰ أجلِّ نِعَمِهِ عليهم وهي ما أَنزله ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمَّدٍ عليه‌السلام من القرآنِ الَّذي هو سبَبُ نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾ أي: شيئاً من العِوَجِ، والعِوَجُ في المعاني كالعَوَجِ في الأَعيانِ، والمرادُ به: نفيُ التناقُض عن معانيه.

وانتَصَبَ ﴿قَيِّماً﴾ بمضمرٍ وليس بحالٍ من ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ لأَنَّ قولَهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿أَنزَلَ﴾ فهو داخلٌ في حيِّزِ الصلةِ، فمن جعَلَهُ حالاً من ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يكونُ فاصلاً بينَ الحالِ وذي الحالِ ببعضِ الصلةِ وذلك غيرُ جائزٍ، والتقديرُ: ولم يَجعلْ له عوجاً بل جعلَهُ ﴿قَيِّماً﴾ لأَنَّه إِذا نَفَىٰ عنه العِوَجَ فقد أَثبتَ له الاستقامةَ، وجمَعَ بينَهُمَا للتأكيدِ، وقيل: معناه: قَيِّماً بمصالحِ العبادِ وقيِّماً على سائرِ الكتبِ شاهداً بصحَّتها[1] ﴿لِيُنذِرَ﴾ الَّذينَ كفرُوا ﴿بَأْساً شَدِيداً﴾ فاقتُصِرَ علىٰ أَحَدِ المفعولين ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادراً من عندِهِ، والأَجرُ الحَسَنُ: الجنَّةُ. ﴿مَّـٰكِثِينَ﴾ أَي: لابثينَ ﴿فِيهِ﴾ مُؤبَّدِينَ.

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ لأَنَّه ليس ممَّا يُعلَمُ لاستحالتِهِ ﴿كَلِمَةً﴾ نصبٌ على

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٣٣.

التمييزِ وفيه معنى التعجُّبِ، كأنَّهُ قالَ: ما أكبَرَهَا كلمةً، وقيل: ﴿كَبُرَتْ﴾ مثلُ «نِعْمَت»[١]، و﴿كَلِمَةً﴾ تفسيرٌ لفاعلِ ﴿كَبُرَتْ﴾، و ﴿تَخْرُجُ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتقديرُ: كَبُرتِ الكلمةُ كلمةً خارجةً ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ والكلمةُ هي قولُهم: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ سُمِّيت كلمةً كما سمَّوا القصيدةَ كلمةً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨)﴾

﴿بَٰخِعٌ﴾ أي: قاتلٌ ﴿نَفْسَكَ﴾ وَجْداً وأسفاً ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بالقرآنِ، شبَّهَهُ برجلٍ فارَقَهُ أعِزَّتُه فهو يتحسَّرُ ﴿عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ ويَبْخَعُ نفسَه تلهُّفاً علىٰ فراقِهم، و﴿أَسَفاً﴾ حالٌ أو مفعولٌ له، والأسَفُ: المبالَغَةُ في الحزنِ والغَضَبِ، ورجلٌ أسِفٌ وأَسيفٌ.

﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ما يصلُحُ أن يكونَ ﴿زِينَةً﴾ وحِلْيَةً للأرضِ ولأهلِها من زَخارفِ الدنيا وما يُستَحسَنُ منها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي: لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وهو مَن كانَ أزهدَ فيها.

ثُمَّ زَهَّدَ سبحانَه فيها بقولِه: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينةِ ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾ أي: مثلَ أرضٍ بيضاءَ لا نباتَ فيها بعد أن كانَت خضراءَ مُونِقَةً[٢] في زوالِ بهجتِهِ وذَهابِ رونقِهِ وحسنه.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

---

(١) قاله الفارسي وإليه ذهب أكثر النحاة على ماحكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٥ ص ٢٠٤.
(٢) يقال: آنقني الشيء أي: أعجبني. (الصحاح: مادة أنق).

مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَداً (١٢) ﴾

﴿ٱلْكَهْفِ﴾ الغارُ الواسعُ في الجبلِ، واختُلِفَ في ﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: فقيل: هو لوحٌ من رَصاصٍ رُقِمَتْ فيه أسماؤُهم جُعِلَ علىٰ بابِ الكهفِ(١)، وقيل: هو اسمُ الوادي الَّذي كان فيها الكهفُ(٢)، وقيل: هُمُ النفرُ الثلاثةُ الَّذينَ دخَلوا في غارٍ فانسدَّ عليهم فدعَا كلٌّ واحدٍ منهم بما عمِلَهُ للهِ خالصاً ففرَّجَ عَنهم(٣) ﴿كَانُواْ﴾ آيةً عَجَباً ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ وصفاً بالمصدرِ، أو ذاتَ عجبٍ.

﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمةً من خزائنِ رحمتِكَ، وهي المغفرةُ والرزقُ والأَمنُ من الأعداءِ ﴿وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الَّذي نحنُ فيه ﴿رَشَداً﴾ حتَّىٰ نكونَ بسببه راشدينَ، أو: اجعَلْ أمرَنا رَشَداً كلَّهُ كقولِك: رأيتُ منك أسداً(٤).

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حِجاباً من أن تسمَعَ، يعني: أَنمْنَاهم إنَامةً ثقيلةً لاتُنبِّههم منها الأَصواتُ، فحُذِفَ المفعولُ الَّذي هو الحجابُ، كما قالوا: بَنَىٰ علَى امرأتِهِ، يعنُونَ: بَنَىٰ عليها القُبَّةَ ﴿سِنِينَ عَدَداً﴾ أي: ذواتَ عددٍ أي: سنينَ كثيرةً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ﴾ أي: أيقَظناهم من نومهم ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ فيه معنَى الاستفهامِ، ولذلك عُلِّقَ عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾ فلم يعملْ فيه، و ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ ومعناه: أَيُّ الحِزبَينِ من المؤمنينَ والكافرينَ من قومِ أَصحابِ الكهفِ ضَبَطَ أَمداً لأَوقاتِ لَبثهم، ولا يكونُ ﴿أَحْصَىٰ﴾ من أفعلِ التفضيلِ في شيءٍ؛ لأَنَّه لايُبنَىٰ من غيرِ الثلاثيِّ المجرَّدِ، ولم يَزَلْ سبحانَه عالماً بذلك، وإنَّما أَرادَ ما تعلَّقَ به العلمُ من ظهورِ

---

(١) قاله سعيد بن جبير. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) وهو قول الضحاك. راجع تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٧٢.

(٣) وهو مارواه ابن عمر عن النبي ﷺ. راجع صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢٠٩٩ ح ٢٧٤٣، ومسند أحمد ٢: ١١٦.

(٤) في نسخة: رشداً.

الأَمرِ لهم ليزدادوا إِيماناً، وقيل: يعني بالحِزْبَينِ: أَصحابَ الكهفِ وأَنَّهم لمَّا ٱستيقَظُوا اختلفوا في مقدار لَبْثِهم[1].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً (١٤) هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً (١٦)﴾

﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ بالتوفيقِ والأَلطافِ المُقَوِّيةِ لدواعِيهم. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: قَوَّيناهَا وشَدَدْنا عليها حتَّىٰ صَبَروا علىٰ هَجْرِ الأَوطانِ والفِرارِ بالدينِ إِلىٰ بعض الغيرانِ ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بينَ يدَي مَلِكِهِمُ الجبَّارِ: دَقْيانوسَ من غيرِ مبالاةٍ به ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا﴾ الَّذي نعبُدُهُ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿شَطَطاً﴾ أَي: قولاً ذا شطَطٍ، وهو الإِفراطُ في الظلمِ، من شَطَّ: إِذا بَعُدَ.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأٌ و﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيانٍ وخبرُه ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ وهو إِخبارٌ في معنى الإِنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أَي: هلَّا يَأتونَ علىٰ عبادتِهم ﴿بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ﴾ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ، وهو تبكيتٌ[2] لأَنَّ الإِتيانَ بالحجَّةِ علىٰ ذلك مُحالٌ، وفيه دَلالةٌ علىٰ فَسادِ التقليدِ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ بنسبةِ الشريكِ إِليه.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خِطابٌ من تمليخا ـ وهو رئيسُ أَصحابِ الكهفِ ـ لأَصحابِهِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ في محلِّ النصبِ للعطفِ على الضميرِ، يعني: وإِذ

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الرازي: ج ٢١ ص ٨٤.

(٢) التبكيت: هو التعنيف واللوم، يقال: فلان بكّت فلاناً: اذا عنّفه ولامه. (الصحاح: مادة بكت).

اْعتَزَلْتُموهم واعتزَلْتُم مَعبُوديهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يجوزُ أَن يكونَ استثناءً متَّصلاً علىٰ أَنَّهم كانوا يعترِفُون باللهِ ويُشرِكُونَ معه، وأَن يكونَ منقطِعاً، وقيل: هو اعتراضٌ ومعناه: الإِخبارُ من ٱللهِ تعالىٰ أَنَّهم لم يعبُدُوا غيرَ ٱللهِ[1] ﴿مِرْفَقاً﴾ قُرِئَ بفتحِ الميمِ[2] وكسرِها، وهو مايُرتَفَقُ به أَي: يُنتَفَع.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً أَبَداً (٢٠)﴾

قُرِئَ: ﴿تَزَٰوَرُ﴾ بالتخفيفِ والتشديدِ[3]، فالتخفيفُ لحذفِ التاءِ، والتشديدُ للإِدغامِ، وقُرِئَ: «تَزْوَرُّ» علىٰ وزنِ «تَحمَرُّ»[4] وكلُّها منَ الزَوَرِ وهو الميلُ، و﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: جهةُ اليمينِ، وحقيقتُها الجهةُ المسمَّاةُ باليمينِ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٧٠٧.

(٢) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٨.

(٣) وقراءة التشديد هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٨.

(٤) قرأه ابن عامر ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

تَقطعُهم لاتَقرَبُهم، من معنى القطيعةِ والصرْمِ ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أَي: في مُتَّسعٍ من الكهفِ، ومعناه: أَنَّهم لاتُصيبُهمُ الشمسُ في طلوعِ نهارِهِم ولا في غروبِها مع أَنَّهم في مكانٍ واسعٍ منفتحٍ من غارِهِم، يَنالُهم فيه بَرْدُ النسيمِ ورَوحُ الهواءِ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو ماصنَعَه بهم من ازورارِ الشمسِ وقَرْضِها طالعةً وغاربةً، وقولُه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ثَناءٌ عليهم بأَنَّهم جاهَدُوا في ٱللهِ فلَطَفَ بهم، وأَرشَدَهم إِلىٰ نَيْلِ تلك الكَرامةِ.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ خِطابٌ لكلِّ أَحدٍ، والأَيْقاظُ: جمعُ يَقُظٍ، أَي: ﴿وَهُمْ﴾ نِيامٌ وعيونُهم مفتَّحةٌ، فيحسَبُهم من ينظُرُ إِليهم ﴿أَيْقَاظاً﴾ وقيل: لكَثرةِ تقلُّبِهم[1]، وقرأَ الصادقُ عليه السلام: «وَكَالِبُهُمْ»[2] أَي: صاحبُ كلبِهم ﴿بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ لأَنَّ اسمَ الفاعِلِ لايعمَلُ إِلَّا إِذا كانَ بمعنى المضارعِ، ولايعمَلُ[3] إِذا كان في معنى الماضي، والوصيدُ: الفِناءُ، وقيل: العَتَبَةُ[4]، والرُّعبُ: الخوفُ الَّذي يَرعَبُ الصدرَ، أَي: يَملَؤُهُ، وذلك لِمَا أَلبَسَهم ٱللهُ من الهَيبةِ، وقيل: لطولِ أَظفارِهم وشُعُورِهم[5]، وقيل: لوحشةِ مكانِهم[6].

﴿وَ﴾ كما أَنَمْناهم تلكَ النومَةَ ﴿بَعَثْنَـٰهُمْ﴾ منها ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: ليَسأَلَ بعضُهم بعضاً، ويتعرَّفوا حالَهم وما صَنعَ ٱللهُ بهم، فيعتَبِرُوا ويستَدِلُّوا علىٰ معرفَةِ صانِعِهم، ويَزدَادوا يقيناً إِلى يقينِهم ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأَنَّهم دخَلُوا

---

(١) قاله الزجاج على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠١.
(٢) حكاه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٩.
(٣) في بعض النسخ زيادة: إلّا.
(٤) قاله عطاء. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٥٤.
(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٩، والرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠١.
(٦) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٥.

الكهفَ غُدْوةً وانتبَهُوا بعدَ الزوالِ فظنُّوا أنَّهم في يومِهم، فلمَّا نظَروا إلىٰ طولِ أظفارِهِم وشُعُورِهم ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: ربُّكم أعلمُ بذلك، لا طريقَ لكم إلىٰ علمِهِ، فخذُوا في شيءٍ آخرَ ممَّا يُهمُّكُم، وقُرِئَ: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ بكسرِ الرَّاءِ وسكونِها[1] وهو الفضَّةُ ﴿أَيُّهَآ﴾ أي: أيُّ أهلِها، فحُذِفَ، مثلُ: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2]. ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ أي: أطيبُ وأحلُّ وأكثرُ وأرخصُ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وليتكلَّفِ اللُّطفَ في أمرِ البيعِ أو في أمرِ التخفِّي حتَّىٰ لا يُعْرَفَ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أي: لا يُخبِرَنَّ بِمكانِكم أحداً من أهلِ المدينةِ ﴿إِنَّهُمْ إِن﴾ يعلمُوا بمكانِكم ويطَّلِعُوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يقتلُوكم بالرَّجْمِ وهي أخبثُ القِتْلَةِ ﴿أَوْ﴾ يُدخِلُوكم ﴿فِى مِلَّتِهِمْ﴾ بالعُنْفِ ويُصيِّروكم إليها ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ﴾ إن دخلْتُم في دينِهم ﴿أَبَداً﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً (٢٤)﴾

﴿وَ﴾ كما أنَمْناهُم وبَعَثْناهم لما في ذلك من الحكمةِ أطْلَعْنا[3] ﴿عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة وأبي بكر وروح. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

(٢) يوسف: ٨٢.

(٣) في بعض النسخ: اطّلعنا، اطّلعناهم.

لِيعلمَ الَّذينَ أَطْلَعنَاهم [١] علىٰ حالِهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الَّذي هو البعثُ ﴿حَقٌّ﴾ لأَنَّ حالَهم في نومِهم وانتباهِهِم [٢] كحالِ مَن يموتُ ثُم يُبعَثُ، وَ ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ يتعلَّقُ بِـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أَي: أَعثرنَاهم عليهم حينَ ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَمْرَ دينِهم، ويختلِفُونَ في البعثِ، فكانَ يقولُ بعضُهم: يُبعَثُ الأَرواحُ دونَ الأَجسادِ، ويقولُ بعضُهم: يُبعَثُ الأَجسادُ مع الأَرواحِ حتَّىٰ يرتَفِعَ الخِلافُ ويتبيَّنَ أَنَّ الأَجسادَ تُبعَثُ حيَّةً حسَّاسةً فيها أَرواحُها كما كانَت قبلَ الموتِ ﴿فَقَالُواْ﴾ حينَ تَوفَّى ٱللَّهُ أَصحابَ الكـهفِ: ﴿ٱبْنُواْ﴾ علىٰ بابِ كهفِهم ﴿بُنْيَـٰناً﴾ كما يُبْنَى المقابِرُ ﴿قَالَ ٱلَّـذِينَ غَـلَبُواْ عَـلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمينَ ومَلِكِهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ علىٰ بابِ الكهفِ ﴿مَسْجِداً﴾ يُصلِّي فيه المسلِمونَ ويتبرَّكُونَ بمكانِهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أَأَحياءٌ نِيامٌ هُم أَم أَمواتٌ؟ فقَد قيلَ: إِنَّهم ماتُوا [٣]، وقيل: إنّهم لايموتون إِلى يومِ القيامةِ [٤].

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ لمن خَاضَ في قصَّتِهم في زمانِ رسولِ ٱللهِ ﷺ من أَهلِ الكتابِ والمسلمينَ، و ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أَي: هُـم ثـلاثةٌ، وكـذلك ﴿خَمْسَةٌ﴾ و ﴿سَبْعَةٌ﴾، وَ ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر وقَـعَتْ صـفةً لِـ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾، وكذلك ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و ﴿ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأَمَّا الواو الداخـلةُ على الجملةِ الثالثةِ فإِنَّها دخَلَتْ على الجملةِ الواقعةِ صفةً للنكِرَةِ كما تَدخُلُ على الجملةِ الواقعةِ حالاً عن المعرفةِ، تقولُ: جاءَني رجلٌ ومعه آخرُ، وجـاءَني زيـدٌ ومعه غلامُه، وفائدةُ الواو تأكيدُ لُصوقِ الصفةِ بالموصوفِ، والدلالَةُ علىٰ أَنَّ اتِّصافَه بها أَمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، فهذِهِ الواو تُؤْذِنُ بأَنَّ قولَ الَّـذينَ قـالوا: ﴿سَـبْعَةٌ وَثَـامِنُهُمْ

---

(١) في بعض النسخ: اطّلعنا، اطّلعناهم. (٢) في نسخة زيادة: حالهم.

(٣) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٠٢.

(٤) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠٥.

﴿كَلْبُهُمْ﴾ قولٌ صادرٌ عن علمٍ لا عن رجمِ ظنٍّ كقولِ غيرِهم، ومعنىٰ قولِهِ: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: رَمْياً بالخبرِ الخفيِّ وإتياناً به، نحوُ قولِه: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (١) أي: يأتُونَ بهِ، أو وُضِعَ الرَّجمُ موضعَ الظَّنِّ كأنَّه قال: ظنّاً بالغيبِ، قال زُهَيرٌ:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بالحديثِ المُرَجَّمِ (٢)

أي: المظنونِ، وعن ابنِ عبَّاس: حينَ وَقَعَتِ الواوُ انقطعَتِ العِدَّةُ، يعني: لم يبقَ بعدَها عِدَّةُ عادٍّ يُلتفتُ إليها، وثبتَ أنَّهم سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم على القطعِ (٣)، ويدُلُّ عليه أنَّه سبحانه أتبعَ القولَينِ قولَه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وأتبعَ القولَ الثالثَ قولَه: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقالَ ابنُ عبَّاس: أنا من أُولئك القليلِ (٤) ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: فلا تُجادِلْ أهلَ الكتابِ في أمرِ أصحابِ الكهفِ ﴿إِلَّا﴾ جدالاً ﴿ظَاهِرًا﴾ بحجَّةٍ ودَلالةٍ تَقُصُّ عليهم ما أوحى ٱللهُ إليك، وهو كقولِهِ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٥)، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ وَلا تَسْأَلْ ﴿أَحَدًا﴾ مِنْهُمْ عن قصَّتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِـ﴾ أجلِ ﴿شَيْءٍ﴾ تَعزِمُ عليه: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يَستقبِلُ من الأوقاتِ. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ متعلِّقٌ بالنهي لا بقولِه: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ لأنَّه لو قال: إِنِّي فَاعِلٌ كذا إلَّا أن يشاءَ ٱللهُ كان معناه: إلَّا أن تعترِضَ

---

(١) سبأ: ٥٣.

(٢) وصدره: وما الحرب إلّا ما علمتم وذقتم. والبيت من معلّقته التي مطلعها:

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ   بحومانة الدراج فالمتثلّمِ

وفيها يخاطب قبيلة ذبيان وأحلافهم ويحرّضهم على الصلح مع بني عمّهم بني عبس، ويخوّفهم من الحرب، فإنّهم قد علموا شدائدها في حرب داحس، فيقول لهم: ما الحرب إلّا ماجرّبتم وذقتم مرارتها فايّاكم أن تعودوا الى مثلها. انظر ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٨١.

(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٧.

(٤) كما حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٦.

(٥) النحل: ١٢٥.

مشيئَةُ ٱللهِ دونَ فعلِهِ، وذلك ما لا مدخَلَ فيه للنهي، وتعلُّقُه بالنهي علىٰ وجهين: أَحدُهُما: لاتقولَنَّ ذلك القولَ إِلَّا أَن يشاءَ ٱللهُ أَن تقولَه بأَن يَأْذَنَ لك فيه، والثاني: لاتقولَنَّ ذلك إِلَّا بِأَن يشاءَ ٱللهُ أَي: بمشيئَةِ ٱللهِ، وهو في موضعِ الحالِ يعني: إِلَّا ملتبِساً[١] بمشيئَةِ ٱللهِ، قائلاً: إِن شاءَ ٱللهُ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أَي: مشيئَةَ ربِّك وقُلْ: إِن شاءَ ٱللهُ ﴿إِذَا﴾ ٱعترَاكَ نِسْيانٌ لذلك، يعني: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ كلمةَ الاستثناءِ ثُمَّ ذَكَرْتَ فتدَارَكْها، وعن ابنِ عبَّاس: ولو بعدَ سنةٍ[٢]، وعن الصادقِ عليه السلام: «مالم ينقطِعِ الكلامُ»، وقيل: معناه: وَٱذْكُرْ ربَّكَ إِذا اعتراكَ النسيانُ ليُذَكِّرَكَ المَنْسيَّ[٣] ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن﴾ يهديَني ﴿رَبِّى﴾ بِشيءٍ آخَرَ بدلَ هذا المنسيِّ أَقْرَبَ منهُ ﴿رَشَداً﴾ وأَدنىٰ خيراً ومنفعةً، وقيل: معناه: لعلَّ ربِّي يُؤتيني من البيِّناتِ علىٰ أَنِّي نبيٌّ ماهو أَعظمُ في[٤] الدلالةِ من نَبَأ أَصحابِ الكهفِ[٥]، وقد فَعَل سبحانه ذلك حيثُ قَصَّ عليه أَخبارَ الأَنبياءِ وأَنبأَه من الغيوب بما هو أَعظمُ من ذلك.

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً (٢٥) قُلِ ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَالَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَايُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَداً (٢٦) وَٱتْلُ مَآأُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَداً (٢٧) وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطاً (٢٨) وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن

(١) في بعض النسخ: متلبّساً.
(٢) حكاه عنه ابن كثير في تفسيره: ج ٣ ص ٧٨.
(٣) قاله عكرمة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٩. (٤) في بعض النسخ: «من».
(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٧٨.

وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ الآية بيانٌ لما أجمَلَ في قولِهِ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الآية[١]، و ﴿سِنِينَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾، وقُرِئَ: «ثَلاثَ مِائَةِ سِنِينَ» مضافاً[٢]، على وضعِ الجمعِ موضِعَ الواحدِ في التميزِ، كما قالَ سبحانه: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[٣]، ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي: تِسعَ سنينَ؛ لأَنَّ ماقبلَه دلَّ عليه. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ يريدُ أنَّه أعلَمُ من الَّذينَ اختَلَفُوا فيهم بمدَّةِ لَبْثِهم، والحقُّ ما أخبَرَكَ بهِ.

ورُوِيَ: أنَّ يهوديّاً سأَلَ عليّاً عليه السلام عن مدَّةِ لَبْثِهم، فأَخبرَ بما في القرآنِ، فقالَ: إنَّانَجِدُ في كتابِنا[٤] ثلاثمائةٍ، فقالَ عليه السلام: «ذاكَ بسِنِي الشمسِ وهذا بسِنِي القمرِ»[٥].

ثمَّ ذَكَرَ اختصاصَهُ بما غَابَ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأَنَّه العالمُ بذلكَ، ثمَّ جاءَ بما دلَّ على التعجُّبِ من إدراكِهِ المَسموعاتِ والمُبصَراتِ للدلالةِ علىٰ أنَّ أَمرَهُ في الإدراكِ خارجٌ عن حدِّ ما عليه إدراكُ كلِّ سامعٍ ومُبصِرٍ؛ لأَنَّـه يُدرِكُ أَلطفَ الأَشياء وأَصغَرها ﴿مَا لَهُم﴾ الضميرُ لأَهلِ السماواتِ والأَرْضِ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ أَي: مُتولٍّ لأُمورِهم ﴿وَ﴾ ليس ﴿يُشْرِكُ فِى﴾ قَضَائِهِ ﴿أَحَدًا﴾ منهم، قُرِئَ: «وَلَا تُشْرِكْ» بالتاءِ والجزمِ على النهي[٦].

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لايَقدِرُ أَحدٌ علىٰ تبديلِ أَحكامِ كلماتِهِ وتغييرِها

---

(١) الآية: ١١.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

(٣) الآية: ١٠٣. (٤) في نسخة: كتبنا.

(٥) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٨.

(٦) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩.

﴿وَ﴾ لا ﴿تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[١] ومَوئلاً، يقالُ: ٱلتَحَدَ إِلىٰ كذا: إذا مالَ إليهِ.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي: ٱحْبِسْها ﴿مَعَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يُداومونَ على الدعاءِ عندَ الصباحِ والمَساءِ، وقيلَ: المرادُ بـ﴿ٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾: صلاةُ الفجرِ والعَصرِ[٢] وقُرِئَ: «بالغُدْوَة»[٣] ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لاتتجاوَزْ عَيناكَ عنهم بالنظرِ إِلىٰ غيرِهم من أبناءِ الدنيا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في مجالَسةِ أهلِ الغِنىٰ، وهي جملةٌ في موضعِ الحالِ، وكانَ النبيُّ ﷺ حريصاً على إيمانِ عُظماءِ المشركينَ طمعاً في إيمانِ أَتباعِهم، فأُمِرَ بالإِقبالِ علىٰ فقراءِ المُؤْمنينَ كخبَّابٍ وعمَّارٍ وأَبي ذرٍّ وغيرِهم، وأَن لايَرفعَ بصرَهُ عنهم ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أَي: جعَلْنَا قلبَهُ غافِلاً بالخِذْلانِ، أَو وَجدْنَاه غافلاً ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾، أَو: لم نَسِمْهُ بالذكرِ ولم نَجعَلْهُ من الَّذين كتَبْنَا في قلوبِهمُ الإِيمانَ، مِنْ أَغفلَ إبلَهُ: إذا تَركَها بغيرِ وَسْمٍ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في أَفعالِه ومُشتَهَياتِهِ ﴿فُرُطًا﴾ أَي: إفراطاً وتجاوزاً للحدِّ، ونَبذاً للحَقِّ وراءَ ظَهرِه، من قولِهم: فرسٌ فُرُطٌ أَي: متقدِّمٌ للخيلِ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والمعنىٰ: جاءَ الحقُّ وزاحتِ العِلَلُ فلم يَبقَ إِلَّا اختيارُكم لنفوسِكُم ماشئتُم منَ الأَخذِ في طريقِ النجاةِ أَو في طريقِ الهَلاكِ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أَي: أَعدَدْنا وهيَّأْنا لِلَّذينَ ظَلَمُوا أَنفسَهم بعبادةِ غيرِ اللهِ، وشبَّهَ سبحانَهُ مايحيطُ ﴿بِهِمْ﴾ منَ النارِ من جوانبِهِمْ بالسُّرادِق ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهوَ كلُّ شيءٍ أُذِيبَ كالنُّحاسِ والصُّفرِ، وقيلَ: هو دُرْدِيُّ[٤] الزيتِ[٥]،

(١) في بعض النسخ زيادة: أي ملتجأً.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧١٧.
(٣) قرأه ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٠.
(٤) دُرْدِيّ الزيت: مايبقىٰ في أسفله. (الصحاح: مادة درد).
(٥) قاله ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٠٣.

ورُوِيَ: أنَّه كعَكَرِ[١] الزيتِ فإذا قَرُبَ إليهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ رأسِهِ[٢] ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ ليُشرَبَ انشوَى الوجهُ من حرارتِه ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلكَ ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ ﴿مُرْتَفَقاً﴾ مُتَّكأً، من المِرْفَقِ، وهو يُشاكِلُ قولَه: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)﴾

وَقعَ قولُه: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ موقعَ الضميرِ العائدِ إلى اسمِ ﴿إِنَّ﴾، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ استئنافُ كلامٍ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ و ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضاً.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ لابتداءِ الغايةِ، وفي ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ للتبيينِ، والسُندُسُ: مارَقَّ منَ الديباجِ، والاسْتَبْرَقُ: ماغَلُظَ منه ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: مُتنعِّمينَ في تلكَ الجنَّاتِ على السُرُرِ في الحِجالِ؛ لأنَّ الاتِّكاءَ هيئَةُ أهلِ التنَعُّمِ منَ الملوكِ وغيرِهم.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَراً (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ

---

(١) العَكَر: هو دُردِيّ الزيت وغيره. (الصحاح: مادة عكر).

(٢) وهو مارواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧١٩ عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) الآية: ٣١.

وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَداً (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾

مثَّلَ سبحانَهُ حالَ المؤمِنينَ والكافرينَ بحالِ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ متجاوِرَينِ كانَ ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ بُستانانِ أجنَّهما الأشجَارُ ﴿مِنْ أَعْنَـٰبٍ﴾ وهما محفوفتانِ ﴿بِنَخْلٍ﴾ تُطِيفُ[١] النخلُ بهما، وبينَ البُستانَينِ مزرَعَةٌ، وعن ابنِ عبَّاس: كانا ابنَيْ مِلكٍ في بني إسرائيلَ وَرِثَا مالاً جزيلاً، فأخذَ المؤمنُ منهما حقَّهُ وتقرَّبَ بِهِ إلى ٱللهِ تعالىٰ، وأخذَ الآخَرُ حقَّهُ فتملَّكَ به الجنَّتَينِ والضياعَ والأموالَ[٢]. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أَي: كلُّ واحدةٍ مِنَ البستانَينِ أعطَتْ غلَّتَها، و ﴿ءَاتَتْ﴾ محمولةٌ على اللفظِ؛ لأَنَّ لفظَ ﴿كِلْتَا﴾ مفردٌ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أَي: لَم تَنقُصْ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أَي: وشَقَقْنا وَسَطَ الجنَّتَينِ ماءً جارياً.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أَي: أَنواعٌ منَ المالِ، من ثَمَّرَ مَالَهُ: إذا كثَّرَه، وقُرِئَ: «ثُمُرٌ» و«بِثُمُرِهِ»[٣] بضمَّتَينِ[٤] وبسكونِ الميمِ أَيضاً[٥] في الموضعينِ، ويجوزُ أَن يكونَ «ثُمُرٌ» جمع «ثَمَرةٍ» أَو جمعَ «ثِمارٍ» ثُمَّ يُخفَّفَ ويُقالَ: «ثُمْرٌ» مثلُ: «كُتْبٍ»، وقُرِئَ: بفتحِ الثاءِ والميمِ وهوَ جمعُ ثَمَرةٍ: مايُجتَنَىٰ من ذِي الثمرةِ، و﴿أَعَزُّ نَفَراً﴾ يعني: أَنصاراً وحَشَماً، وقيلَ: أَولاداً ذُكوراً لأَنَّهم يَنفِرُونَ معَهُ[٦]، و ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾:

---

(١) في بعض النسخ: يطيفُ.

(٢) أُنظر تفسير ابن عباس: ص ٢٤٧.

(٣) من الآية: ٤٢.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي. كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٠.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣٨.

(٦) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٢.

يُراجعُه الكلامَ، من حارَ يحُورُ: إذا رجعَ.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ آخذاً بيدِ صاحبِه المُسلِمِ يطوفُ به ويُريهِ أملاكَه ويفاخِرُه بأموالِه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: مُعجَبٌ بما أُوتِيَ، مفتخِرٌ بِه، كافِرٌ لِنعمةِ ربِّهِ. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أقسمَ علىٰ أنّه إنْ رَدَّ إلىٰ ربِّه علىٰ سبيلِ التقديرِ كما يزعَمُ صاحبُه ليَجِدَنَّ في الآخرةِ ﴿خَيْراً﴾ من جنّتِه في الدنيا، وقُرِئَ: «خَيْراً مِّنْهُمَا»[1] بعودِ الضميرِ إلىٰ ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾، ﴿مُنقَلَباً﴾ مَرجِعاً وعاقبةً، وانتصابُهُ على التمييزِ.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً (٣٧) لَّـٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَداً (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)﴾

﴿خَلَقَكَ﴾ أي: خلقَ أصلَك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لأنَّ خلْقَ أصلِه سببٌ في خلقِه، فكأنَّ خلْقَه خلقٌ له ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ أي: عدَّلَكَ وأكملَكَ إنساناً مُعتدِلَ الخَلقِ بالغاً مبلغَ الرجالِ.

﴿لَّـٰكِنَّا﴾ أصلهُ: «لكنْ أنا» فحُذِفَتِ الهمزةُ وأُلقِيَتْ حركتُها علىٰ نونِ «لكنْ»

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩.

فالتقتِ النونانِ فأُدغِمَ، و﴿ هُوَ﴾ ضميرُ الشأنِ، أي: الشأنُ ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾، والجملةُ خبرُ «أَنَـا» والراجعُ منها إليه ياءُ الضميرِ، وقُرِئَ بحذفِ ألفِ «أنا» في الوصلِ[1]، وقُرِئَ أيضاً بإثباتِها في الوصل والوقفِ جميعاً[2]، وحَسَّـنَ ذلكَ وُقـوعُ الألفِ عِوضاً من حذفِ الهمزةِ، يقولُ لصاحبِه: أنتَ كافرٌ باللهِ لكنِّي مؤمنٌ موحِّدٌ.

﴿مَاشَآءَ ٱللَّهُ﴾: ﴿ما﴾ موصولةٌ مرفوعةُ المَحلِّ علىٰ خبرِ الابتداءِ، والتقديرُ: الأَمرُ ماشاءَ اللهُ، أَو شرطيَّةٌ منصوبةُ المحلِّ والجزاءُ محذوفٌ، والتقديرُ: أَيَّ شيءٍ شاءَ اللهُ كانَ، والمعنىٰ هلَّا ﴿قُلْتَ﴾ عندَ دُخولِ ﴿جَنَّتَكَ﴾: الأَمرُ ماشاءَ اللهُ اعترافاً بأَنَّها حَصلَتْ لكَ بمشيئَةِ اللهِ وفضلِهِ، وأَنَّ أَمرَها بيَدِهِ إن شاءَ حالَ بـينَكَ وبـينَها ونَزَعَ برَكَتَها عنك ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إقرارٌ بأَنَّ قوَّتَه عـلىٰ عِـمارتِها بـمعونتِه، إذ لايَقْوَىٰ أَحدٌ في بدنِه وما يملِكُهُ إِلَّا باللهِ، و ﴿أَنَـا﴾ فصْلٌ و ﴿أَقَلَّ﴾ مفعولٌ ثـانٍ لـ﴿تَرَنِ﴾، وفي قولِه: ﴿وَوَلَداً﴾ دَلالَةٌ علىٰ أَن النفرَ في قولِهِ: ﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ المرادُ به الأَولادُ، والمعنىٰ: ﴿إِن﴾ تَرَني أفقرَ ﴿مِنكَ﴾ فَأَنا أَتوقَّعُ مـن صُـنعِ اللهِ ﴿أَن﴾ يرزُقَني ﴿خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويَسلُبَكَ نِعمَهُ، ويُخرِّبَ جـنَّتَكَ لإيـماني وكُـفرانِكَ، و«الحُسْبَانُ» مصدرٌ بمعنى الحِسابِ، أَي: مقداراً قدَّرهُ اللهُ وحسَبَهُ وهـو الحكـمُ بتَخريبِها، وقيلَ: ﴿حُسْبَاناً﴾: مَرامِيَّ من عذابِه: حجارةً أَو صاعقةً[3] ﴿صَعِيداً﴾ أَرضاً مُستوِيَةً لا نباتَ عليها، يَزْلَقُ عنها القدَمُ لمَلاسَتِها، و ﴿زَلَقاً﴾ و ﴿غَـوْراً﴾ كِلاهما وصفٌ بالمصدرِ.

﴿وَأُحِيطَ﴾ به عبارةٌ عن الهَلاكِ، وأَصلُ الإحاطةِ: إدارةُ الحائطِ على الشيءِ،

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو روايةً على ماحكاه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٣.

(٢) قرأه ابن عامر والمسيَّبي ورويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ٢ ص ٦١.

(٣) قاله قتادة والقتيبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٣.

وتقليبُ الكَفَّيْنِ عبارةٌ عنِ النَدَمِ والتَحسُّرِ؛ لأَنَّ النادمَ يفعَلُ ذلك، فكأَنّه قال: فأَصبحَ يَندَمُ ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أَي: في عِمارتِها ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: سقَطَتْ عُروشُ كُرومِها على الأَرضِ وسقطَتْ فوقَها الكرومُ، قالوا: أَرسلَ اللهُ عليها ناراً فأَهلكَتْها[1] وغارَ ﴿مَآؤُهَا﴾ ثمَّ تمنّىٰ لو لَم يكُنْ مشرِكاً حتّىٰ لايُهلِكَ اللهُ بستانَهُ، ويجوزُ أَن يكونَ توبةً منَ الشركِ ودخولاً في الإِيمانِ.

وقُرِئَ: ﴿لَمْ تَكُن﴾ بالتاءِ والياءِ[2] و﴿يَنصُرُونَهُ﴾ محمولٌ على المعنى دونَ اللفظِ، والمعنىٰ: ﴿لَمْ تَكُن لَّهُ﴾ جماعةٌ تَقدِرُ علىٰ نصرَتِه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَي: هوَ سبحانَه وحدَه القادرُ علىٰ نصرتِه، لايقدِرُ أَحدٌ غيرُه أَنْ يَنصُرَهُ، إِلّا أَنّه لم يَنصُرْهُ لأَنّه اسْتوجَبَ الخِذلانَ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾ أَي: مُمتَنِعاً بقوَّتِهِ عن انتقامِ اللهِ.

قُرِئَ: ﴿ٱلْوَلَـٰيَةُ﴾ بفتحِ الواوِ وكسرِها[3]، والفتحُ بمعنى النُصرةِ، والكسرُ بمعنى السُلطانِ والمُلكِ، و ﴿هُنَالِكَ﴾ أَي: في ذلكَ المقامِ وتلكَ الحالِ النُصرةُ ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَهُ لايَستطيعُها أَحدٌ سِواهُ، أَو: السُلطانُ للهِ لايمتنعُ منهُ، أَو: في مثلِ تلكَ الحالِ الشديدةِ يَتولّى اللهَ ويؤْمنُ به كلُّ مُضطَرٍّ، يعني: أَنَّ قولَه: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾ كلمةٌ أَلجأَتْهُ الضرورةُ إِليها، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ قُرِئَ بالرفعِ[4] صفةً لـ﴿ٱلْوَلَـٰيَةُ﴾، وبالجرِّ صفةً للهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ لأَوليائِهِ و ﴿خَيْرٌ عُقْباً﴾ أَي: عاقبةً، يعني: عاقبةُ طاعتِه خيرٌ من عاقبةِ طاعةِ غيرِه، وقُرِئَ بضمِّ القافِ[5] وسكونِها.

---

(١) في بعض النسخ: أهلكها.

(٢) وبالياء قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٠.

(٣) وقراءة الكسر هي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٢.

(٤) قرأه أبو عمرو والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ونافع وابن كثير وابن عامر. راجع المصدر نفسه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِراً (٤٥) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)﴾

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاثَفَ بسَبَبِه حتَّىٰ خالَطَ بعضُهُ بعضاً ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً﴾ متهشِّماً متحطِّماً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ فتَنْقُلُه من موضعٍ إلىٰ موضع، وقُرِئَ: «تَذْرُوهُ الرِّيحُ»[1] شُبِّه حالُ الدنيا في نَضْرَتِها وبَهجَتِها وما يَتَعقَّبُها من الهَلاكِ بحالِ النباتِ يكونُ أخضرَ ثمَّ يَهِيجُ فتُطِيرُهُ الرِّياحُ.

﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ هيَ الطاعاتُ والحسَناتُ يَبْقَىٰ ثوابُها أبداً، وقيل: هي الصلواتُ الخمسُ[2] ﴿خَيْرٌ ... ثَوَاباً﴾ يعني: مايتعلَّقُ بها من الثوابِ، وما يتعلَّقُ بها من الأمَلِ؛ لأنَّ صاحبَها يأْمُلُ في الدنيا ثوابَ اللهِ ونصيبَه في الآخرةِ.

وقُرِئَ: «تُسَيَّرُ»[3] من سُيِّرَتْ و﴿نُسَيِّرُ﴾ من سيَّرْنَا، وتَسييرُها: قلعُها من أماكِنِها وجعلُها هَباءً مَنثوراً، أو تسييرُها في الجوِّ ﴿بَارِزَةً﴾ ليسَ عليها مايَستُرُها

(١) قرأه طلحة بن مصرّف. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٤١٣.
(٢) وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وابراهيم. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٥.
(٣) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.

ممَّا كانَ عليها ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جَمَعْناهم إلى الموقِفِ، ويُقالُ: غادَرَه وأَغدرَهُ أَي: تركَهُ، ومنه الغديرُ: ما غادَرَهُ السيلُ، وشُبِّهتْ حالُهم بحالِ الجنودِ يُعرَضُونَ على الملِكِ.

﴿صَفّاً﴾ مصطفِّينَ ظاهرين، تُرَىٰ جماعتُهم كما يُرَىٰ كلُّ واحدٍ منهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، والمعنىٰ: قلنا لهم: لَقَدْ بَعثْنَاكُمْ ﴿كَمَا﴾ أَنشأناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقيلَ: جِئْتُمُونَا عُراةً لاشيْءَ مَعكُم[1] ﴿مَوْعِداً﴾ أَي: وقتاً لإِنجازِ ماوُعِدْتُم علىٰ أَلسِنةِ الرُسُلِ من البَعثِ.

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للجنسِ، يعني: صحائفَ الأَعمالِ ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يُنادُونَ هلكتَهُمُ الخاصَّةَ من بينِ الهَلكَاتِ[2] ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ عبارةٌ عنِ الإِحاطةِ بالجميعِ ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أَي: عدَّها وضَبطَها ﴿وَوَجَدُواْ مَاعَمِلُواْ حَاضِراً﴾ في الصُحُفِ، أَو وجدُوا جزاءَ ماعمِلُوا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أَي: لاينقُصُ ثوابَ مُحسنٍ، ولَا يزيدُ في عقابِ مُسيءٍ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم

(١) وهو ماروته عائشة قالت: سمعت رسول‌الله صلى الله عليه وآله يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرلاً ...»، وما رواه ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله بلفظ: «قام فينا رسول‌الله صلى الله عليه وآله خطيباً بموعظةٍ فقال: يا أيّها الناس إنّكم تحشرون الى الله حُفاة عراة غُرلاً كما بدأنا أول خلقٍ نعيده ...». أُنظر صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢١٩٤ ح ٢٨٥٩، وسنن الترمذي: ج ٤ ص ٦١٥ ح ٢٤٢٣.

(٢) في نسخة: المهلكات.

مَّوْبِقاً (٥٢) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) ﴾

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، والفاءُ للتسبيبِ، جُعلَ كونُه من الجنِّ سبباً في فِسقِه، ومعنىٰ «فَسَقَ»: خَرجَ عمَّا أَمرَهُ بِهِ ربُّهُ من السُّجودِ، أَو صارَ فاسقاً كافِراً بسببِ ﴿أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الَّذي هوَ قولُه: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ الهمزةُ للإنكارِ والتعجُّبِ، أَي: أَبَعْدَ ما وُجِدَ منه تَتَّخِذُونَهُ ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وتَستَبدِلُونهم بِي؟! ﴿بِئْسَ﴾ البَدَلُ مِنَ ٱللهِ إبليسُ لِمَن ٱستبدَلَهُ.

وقُرِئَ: «مَآ أَشْهَدْنَاهُمْ»[(١)] أَي: ما أَحضرتُ إبليسَ وذُرِّيَّتَه ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اعتضاداً بِهِم ﴿وَلَا﴾ أَشهَدْتُ بعضَهمْ ﴿خَلْقَ﴾ بعضٍ، وهوَ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(٢)]. ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ وَضَعَ ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ موضعَ الضميرِ ذمّاً لهم بالإِضلالِ، أَي: فما لَكُمْ تَتَّخِذُونَهم شركاءَ لي[(٣)] في العبادةِ.

وقُرِئَ: ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ والنونِ[(٤)]، وأَضافَ «الشُّرَكَاءَ» إليهِ علىٰ زعمِهم تَوبيخاً لهم يُرِيدُ الجنَّ، والمَوْبِقُ: المَهْلِكُ، من وَبَقَ يَبِقُ: إذا هَلَكَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مصدراً أَي: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ وادياً من أَودِيَةِ جهنَّمَ، هو مكانُ الهَلاكِ والعَذابِ

---

(١) وهي قراءة يزيد بن القعقاع والسجستاني وعون العقيلي. راجع شواذ القرآن: ص ٨٣.
(٢) النساء: ٢٩.
(٣) في بعض النسخ: شركائي.
(٤) وبالنون قرأه حمزة وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١١.

الشديدِ مشترَكاً يَهلكُونَ فيه جميعاً، وعنِ الفرَّاءِ: البَيْنُ: الوصلُ، أي: جعلْنا تواصُلَهم في الدنيا هَلاكاً يومَ القيامةِ[١]، ويجوزُ أن يُريدَ بالشركاءِ: الملائكةَ وعُزَيراً وعيسىٰ، وبالمَوبِقِ: البَرزخَ البعيدَ، أي: جَعلْنا بينَهُمْ أمداً بعيداً.

﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقَنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالِطُوها واقِعُونَ في عذابِها ﴿مَصْرِفاً﴾ أي: مَعْدِلاً[٢].

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أي: أكثرَ الأشياء الَّتي يَتأتَّىٰ منها الجَدَلُ إن فَصَّلْتَها، جَدَلاً: خصومَةً ومُماراةً في الباطلِ، وانتصابُه على التمييزِ.

﴿أَن﴾ الأُولىٰ نصبٌ، والثانيةُ رفعٌ وقبلَها مضافٌ محذوفٌ، والتقديرُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الإيمانَ والاستغفار ﴿إِلَّآ﴾ انتظارُ ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهيَ الإهلاكُ ﴿أَوْ﴾ انتظارُ أن ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ عَذابُ الآخرةِ «قِبلاً»[٣] عِياناً، وقُرِئَ: ﴿قُبُلاً﴾ أنواعاً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُواً (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذاً أَبَداً (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً (٥٩)﴾

جدالُهم: قولُهم للأنبياءِ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[٤]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ

---

(١) معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ١٤٧. (٢) في نسخة: معزلاً.

(٣) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بكسر القاف وفتح الباء تبعاً للزمخشري.

(٤) يس: ١٥.

مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [(١)] ونحوَ ذلك ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أي: ليُزِيلُوا ويُبْطِلُوا، من إدحاضِ القَدَمِ وهو إزلاقُها ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾: ﴿مَا﴾ موصولةٌ والعائدُ إليها من الصلةِ محذوفٌ، أي: ومَا أُنذِروهُ من البعثِ والجزاءِ، أو مصدريَّةٌ بمعنىٰ: وإنذارُهم ﴿هُزُوًا﴾ أي: موضعَ استهزاءٍ.

﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآنِ، ولذلك عادَ الضميرُ إليه مذكَّراً في قولِهِ: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ذُكِّرَ بالقرآنِ فلم يتذكَّرْ حينَ ذُكِّرَ، و﴿أَعْرَضَ﴾ عنه جانباً ﴿وَنَسِىَ﴾ عاقبةَ ﴿مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفرِ والمعاصي غيرَ مفكِّرٍ فيها، ثُمَّ علَّلَ إعراضَهم ونسيانَهم بأنَّهم مطبوعٌ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وجَمَعَ بعدَ الإفرادِ للحملِ علىٰ لفظِ «مَنْ» ومعناهُ، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ أي: فلا يكون منهم اهتداءٌ البتَّةَ، و﴿إِذًا﴾ جوابٌ وجزاءٌ يعني: أنَّهم جعَلُوا ماكانَ يجِبُ أن يكونَ سببَ الاهتداءِ سبباً في انتفائه.

و﴿ٱلْغَفُورُ﴾: البليغُ المغفِرَةِ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الموصوفُ بالرحمةِ فلا ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ عاجلاً مع استحقاقِهِمُ العذابَ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وقيل: يومَ بدرٍ [(٢)] ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ ملجَأً ومَنْجىً، يقال: وَأَلَ إليه: إذا لَجأَ إليهِ، ووَأَلَ: إذا نَجىٰ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلىٰ قُرَىٰ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهم، و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفةٌ لـ﴿تِلْكَ﴾ و﴿تِلْكَ﴾ مبتَدأٌ و﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ خبرُه، ويجوزُ أن يكونَ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ نصباً بفعلٍ مُضمرٍ يفسِّرُه «أَهْلَكْنَا»، والمعنىٰ: وتلكَ أصحابَ القُرَى أهلَكْنَاهُمْ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ مثلَ ظُلمِ قريش «وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِمْ» [(٣)] أي: لإهلاكِهم

(١) المؤمنون: ٢٤. (٢) قاله الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٤٣.

(٣) يظهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بضمّ الميم و فتح اللام التي بعدها وهي قراءة الجمهور سوىٰ عاصم على المشهور.

أَو لوقتِ إِهلاكِهم، وقُرِئَ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ ومعناه: لهَلاكِهم، أَو لوقتِ هَلاكِهم ﴿مَوْعِداً﴾ معلوماً، والمَوعِدُ: وقتٌ أَو مصدرٌ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصاً (٦٤)﴾

﴿فَتَـٰهُ﴾ يوشَعُ بنُ نونٍ، وسمَّاه فتاهُ لأَنَّه كانَ يخدِمُهُ ويَتَّبِعُهُ ليأخُذَ منه العلمَ. وفي الحديثِ: «لِيَقُلْ أَحَدُكم: فتايَ وفتَاتِي، ولا يقُلْ: عبدِي وأَمَتي»[1].

و﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ بمعنىٰ: لا أَزالُ، وخبرُهُ محذوفٌ لدَلَالَةِ الحالِ عليه؛ لأَنَّها كانَتْ حالَ سفرٍ، فلَو كان بمعنىٰ: «لا أَزولُ» لدَلَّ على الإقامةِ، فلابُدَّ أَن يكونَ المعنىٰ: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أَسيرُ ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكانُ ٱلَّذي وُعِدَ فيه مُوسَىٰ لقاءَ الخَضِرِ عليهما السلام، وهو مُلتَقَىٰ بحرَيْ فارِسَ والروم، فبحرُ الرومِ ممَّا يَلي المغربَ وبحرُ فارِسَ ممَّا يَلي المشرقَ ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً﴾ أَو أَسيرَ زماناً طويلاً، والحُقبُ: ثمانُونَ سنةً، أَو سبعونَ. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أَي: نَسِيَا تفقُّدَ أَمرِهِ وما يكونُ منه ممَّا جُعِلَ أَمارَةً علىٰ وِجدانِ البُغْيَةِ، وقيل: نَسِيَ يوشَعُ أَنْ يُقدِّمَهُ ونَسِيَ موسى أَن يأمُرَهُ فيهِ بشيءٍ وكان سَمكةً مملوحةً[2]، وقيل: إِنَّ يوشَعَ حَمَلَ الحوتَ والخُبزَ في المِكْتَلِ فنزَلَا ليلةً علىٰ شاطِئِ عينٍ تُسَمَّى عينَ الحياةِ ونامَ مُوسىٰ، فلمَّا أَصابَ

(١) رواه أحمد في مسنده: ج ٢ ص ٤٩٦، وفي صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٧٦٤ ح ٢٢٤٩ بلفظ: «لا يقولنّ أحدكم ...».

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٦٧.

السمكةَ رَوحُ الماءِ وبردُهُ عاشَت ووقَعَت في الماءِ[١]، وقيل: تَوَضَّأَ يوشعُ من تلكَ العينِ فانتَضَحَ الماءُ على الحوتِ فعاشَ ووَثَبَ في الماءِ[٢] ﴿فَاتَّخَذَ ٱلْحُوتُ﴾ ﴿سَبِيلَهُ﴾ أَي: طريقَهُ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً﴾ أَي: مسلَكاً يذهَبُ فيهِ، صارَ الماءُ عليه مثلَ الطاقِ وحَصلَ من الماءِ في مثلِ السرَبِ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ المَوعِدَ وهو الصخرَةُ لِنسيانِ موسىٰ تفقُّدَ أَمرِ الحوتِ ونِسيانِ يوشَعَ أَن يَذْكُرَ لِموسىٰ مارآه من حياتِهِ[٣] ووقوعِهِ في الماءِ أُلقِيَ علىٰ موسىٰ النَّصَبُ والجُوعُ ولم يَجُعْ ولم يَتْعَبْ قبلَ ذلك، فتذَكَّرَ موسى الحوتَ وطلَبَهُ، وقولُه: ﴿مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إِلىٰ مسيرِهِما حينَ جاوَزَا الصخْرَةَ وسارا تلكَ اللَّيلَةَ والغدَ إِلى الظهرِ، ولمَّا طَلَبَ موسى الحوتَ ذَكَرَ يوشَعُ مارَأَىٰ منه وما اعتَرَاه من نِسيانِهِ إِلىٰ تلك الغايةِ، فدُهِشَ فطَفِقَ يسأَلُ موسىٰ عن سببِ ذلك، فكأَنَّه ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ مادَهَانِي ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ونسيتُ حديثَه، وقيل: معناه: تركتُ الحوتَ وفقَدتُه[٤]، و ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدلٌ من الهاءِ في ﴿أَنْسَـٰنِيهُ﴾ أَي: وما أَنساني ذِكرَهُ ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ وقرأَ حمزةُ[٥]: ﴿وَمَآ أَنْسَـٰنِيهُ﴾ وفي الفتحِ ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾[٦] بضمِّ الهاءِ[٧]، و ﴿عَجَباً﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ مثلُ ﴿سَرَباً﴾، أَي: واتَّخَذَ سبيلَه سبيلاً عجباً وهو كونُهُ مثلَ السَربِ، وقولُه: ﴿وَمَآ

(١) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) قاله الكلبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٠٥.

(٣) في نسخة: حوته.

(٤) قاله البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٢.

(٥) كذا في جميع النسخ، لكن لم نعثر فيما توفّرت لدينا من مصادر عن قراءة كهذه منسوبة لحمزة، بل هي متواترة عن حفص وحده وقد، نسب هذه القراءة ـ في الموضعين ـ الى حفص في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٤٧٩.

(٦) الآية: ١٠.

(٧) أنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٤.

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ اعتراضٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ اتِّخاذِهِ سبيلاً، أَي: ذلكَ الَّذي ﴿كُنَّا﴾ نَطْلُبُ من العلامةِ ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَي: رجَعَا في الطريقِ الَّذي جاءَا منه يقُصَّانِ آثارَهما ﴿قَصَصاً﴾، وقُرِئَ: ﴿نَبْغِ﴾ بغيرِ ياءٍ في الوصلِ[1] وإثباتُها أَحسنُ[2].

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَالَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْراً (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰماً فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٧٥)﴾

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحيُ والنبوَّةُ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ ممَّا يختصُّ بِنا منَ العلمِ وهوَ الإِخبارُ عنِ الغُيوبِ. وقُرِئَ: «رَشَداً»[3] ومعناهُ: علماً ذا رُشْدٍ أَرشُدُ بهِ في ديني، و ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ نَفَى استطاعةَ الصبرِ معه علىٰ وجهِ التأكيدِ كأنَّـها ممَّا لايصِحُّ ثبوتُه، وعلَّلَ ذلكَ بأَنَّه يَأتي بما لايَعرِفُ هوَ باطنَه ولا يعلَمُ حقيقتَه

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٢.

(٢) والكسائي وحده أثبتها في الوصل. راجع المصدر السابق.

(٣) قرأه أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٤.

فظاهِرُهُ عندَه مُنكَرٌ، والخُبْرُ: العلمُ، و ﴿خُبْراً﴾ تمييزٌ، أي: ﴿لَمْ﴾ يُحِطْ ﴿بِهِ﴾ خُبْرُكَ. ﴿وَلَآ أَعْصِى﴾ في محلِّ نصبٍ عطفٌ علىٰ ﴿صَابِراً﴾ أي: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ صابراً وغيرَ عاصٍ، وعلَّقَ صبرَهُ بمشيئَةِ اللهِ علماً منه بشدّةِ الأمرِ. وقُرِئَ: «فَلَا تَسْئَلَنِّي» بالنونِ الثقيلةِ[١]، والمعنىٰ: أَنَّ من شرطِ اتِّباعِكَ لي أَن لاتَسْأَلَني ﴿عَن شَىْءٍ﴾ أفعَلُه ممَّا تُنكِرُه عليَّ إِذ يَخفى عليكَ وجهُ حسنِه ﴿حَتَّىٰٓ﴾ أكونَ أنا مفسِّرَهُ ﴿لَكَ﴾ وهذا من أدبِ المتعلِّمِ على العالِمِ والمتبوعِ علىٰ التابعِ.

﴿فَانطَلَقَا﴾ علىٰ ساحلِ البحرِ يطلُبانِ السفينةَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ أَخَذَ الخضِرُ الفَأْسَ فَخَرَقَ السفينةَ بأَنْ قلعَ لَوحَيْنِ ممَّا يلي الماءَ منها، فحَشاها موسىٰ بثوبِهِ وجعلَ يقولُ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وقُرِئَ: «لِيُغَرِّقَ أَهْلَهَا»[٢]، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْراً﴾ أي: عظيماً، من قولِهم: أَمِرَ الأَمْرُ: إذا عظُمَ.

﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أَي: بشيءٍ نسيتُهُ، أَو بالَّذي نَسيتُهُ، أَو بنِسياني، أَرادَ: أَنَّه نَسِيَ وصيَّتَه ولا مؤاخذةَ علَى الناسي، وعن أُبيٍّ: أَنَّه لم يَنْسَ ولكنَّه من مَعاريضِ الكلام[٣]، أَرادَ: أَنَّه أخرجَ الكلامَ في معرضِ النهي عنِ المؤَاخَذةِ بالنسيانِ يُوهِمُهُ أَنَّه قد نسيَ، ويجوزُ أَن يُريدَ بالنسيانِ: التركَ، أَي: ﴿لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا﴾ تركتُ من وصيَّتِكَ أَوَّلَ مرَّةٍ ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أَي: لا تُكلِّفْني ﴿مِنْ أَمْرِى﴾ مَشقَّةً، وعامِلْني باليَسيرِ، ورَهِقَهُ: غَشِيَهُ، وأَرْهَقَهُ إِيَّاه، فكأَنَّه قالَ: ولا تُغْشِني ﴿عُسْراً﴾ من أَمرِي وهو اتِّباعُهُ إِيَّاهُ، وقُرِئَ: «عُسُراً» بضمَّتَينِ[٤].

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٢.
(٢) قرأه الحسن وأبو رجاء. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.
(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٥٨.
(٤) قرأه عيسىٰ ويحيىٰ بن وثاب وأبو جعفر المدني. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.

فَخَرَجَا مِنَ البحرِ وٱنْطَلَقَا يمشيانِ، فـ﴿لَقِيَا غُلَـٰماً فَقَتَلَهُ﴾ الخضِرُ، «زَاكِيَةً»[١] أَي: طاهِرَةً من الذنوبِ، وقُرِئَ: ﴿زَكِيَّةً﴾، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَي: لمْ يَقتُلْ نفساً فيُقْتَصَّ[٢] منها ﴿نُكْراً﴾ أَي: فظِيعاً مُنكَراً، وقُرِئَ بضمَّتَينِ[٣]، وفي زيادةِ ﴿لَكَ﴾ هنا زيادةُ العِتابِ علىٰ تركِ الوصيَّة.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٨٢)﴾

﴿بَعْدَهَا﴾ أَي: بعدَ هذِه المرَّةِ، أَو بعدَ المسأَلةِ ﴿فَلَا تُصَـٰحِبْنِى﴾ أَي: فلا تُتابِعْني علىٰ صُحبتِكَ وإِن طلبتُها، وقُرِئَ: «فلا تَصْحَبْني»[٤] أَي: فلا تكُنْ

(١) يبدو أنّ المصنّف قد اعتمد على هذه القراءة بالألف هنا تبعاً للكشّاف.

(٢) في نسخة: فتُقتصّ.

(٣) قرأه نافع برواية الأصمعي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان عن ابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٣، والتبيان: ج ٧ ص ٧٣.

(٤) وهي قراءة عيسىٰ وابن عامر في رواية. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.

صاحبي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً﴾ أي: قد أعذَرْتَ فيما بيني وبينَكَ إذ أخبَرْتَني أن لا أستطِيعَ مَعَكَ صبراً.

وعن النبيِّ ﷺ: «أستَحْيا نَبيُّ اللهِ موسى، فلو صَبَر لرأىٰ ألفاً من العجائبِ»[١].

وقُرِئَ: «مِنْ لَّدُنِي» بتخفيفِ النُّونِ[٢]. ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هيَ أنطاكيةُ، وقيل: أيْلَةُ[٣]، وقيلَ: قريةٌ علىٰ ساحلِ البحرِ تُسمَّىٰ ناصرةً[٤] ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: لم يُضِفْهما أحدٌ من أهلِها، والتضييفُ والإضافةُ بمعنىً، وعنِ النبيِّ ﷺ: «كانُوا أهلَ قريةٍ لِئَاماً»[٥]، وقيلَ: شَرُّ القُرىٰ: الَّتي لا يُضافُ الضيفُ فيها، ولا يُعرَفُ لابنِ السبيلِ حقُّه[٦] ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: أشرفَ على أن يَنْهَدِمَ، أُستُعِيرتِ الإرادةُ للمشارَفةِ والقُربِ كما أستُعِيرَ الهمُّ والعَزْمُ لذلكَ، قالَ:

يريدُ الرُّمحُ صدرَ أبي بَراءٍ ... ويَرغَبُ عن دِماءِ بني عقيلِ[٧]

وقالَ حسَّانُ:

إنَّ دهراً يلفُّ شَمْلِي بجُملٍ ... لزمانٌ يَهُمُّ بالإحسانِ[٨]

وأنقضَّ: أسرعَ سقوطُه، وهوَ انفعَلَ مطاوِعُ قضَضْتُهُ[٩]، وقيلَ: هو افعَلَّ من

---

(١) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٧٥.

(٢) وهي قراءة نافع والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٣.

(٣) قاله قتادة وابن سيرين. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٧٥، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٠ وفيه: «الأُبلة».

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٤ ونسبه الى الثعلبي.

(٥) أخرجه السيوطي في الدر: ج ٥ ص ٤٢٧ وعزاه الى الديلمي عن أُبيّ بن كعب عنه ﷺ.

(٦) وهو قول قتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٧٥.

(٧) لم نعثر على قائله فيما توفّرت لدينا من مصادر معتمدة، إلّا صاحب مجاز القرآن فقد نسبه الى الحارثي ولم يبيّن من هو، ومعناه واضح. راجع مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ١ ص ٤١٠.

(٨) وفيه تشبيه الزمان بانسانٍ يصحّ منه إرادة الإحسان على طريق المكنية، والهمّ في هذا البيت تخييل أو هو من باب المجاز العقلي. انظر ديوان حسّان بن ثابت: ج ١ ص ٥١٧.

(٩) في نسخة: نقضته.

النقضِ كاحمَرَّ من الحُمْرَةِ[١] ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بيدِه، وقيلَ: مسحَهُ بيدِه فقامَ واسْتَوى[٢]، ولمَّا أَقامَ الجدارَ وكانت الحالُ حالَ افتقارٍ إلى المَطْعَمِ ولم يجدا مُواسِياً، لَم يَمْلِكْ موسىٰ نفسَه أنْ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ ٱتَّخَذْتَ ﴿عَلَيْهِ أَجْراً﴾ حتَّىٰ نَسُدَّ به جَوْعَتَنَا[٣]، وقُرِئَ: «لَتَخِذْتَ»[٤] والتاءُ من «تَخِذْتَ» أَصلٌ، «اتَّخَذَ» افتعَلَ منه كـ«اتَّبَعَ» من «تَبِعَ» وليس من الأَخذِ في شيءٍ.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أَي: الاعتراضُ سببُ الفِراقِ، والأصلُ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنَك، فأَضافَ المصدرَ إلىٰ الظرفِ كما يُضافُ إلى المفعولِ به ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ لفقراءَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ويتعيَّشُونَ بها ﴿وَرَآءَهُم﴾ أَمامَهم كقولِهِ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾[٥]، وقيل: خَلْفَهم[٦]، وكان طريقُهم في رجوعِهم عليه، وما كان عندَهم خبرُهُ فأَعلمَ ٱللهُ به الخَضِرَ وهو جُلَنْدَى[٧]، وقَرَأَ أُبَيٌّ وعبدُٱللهِ[٨]: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً»[٩]، وقَرَأَ أُبَيٌّ وابنُ عبَّاس: «وأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكانَ كَافِراً

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠.

(٢) قاله سعيد بن جبير على ماحكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٥.

(٣) في بعض النسخ: جوعنا.

(٤) وهي قراءة ابن كثير والبصريين. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٤.

(٥) المؤمنون: ١٠٠.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٠٥.

(٧) وجُلَنْدىٰ: اسم ملك عمان. أنظر الصحاح: مادة «جلد».

(٨) والمراد به عبد الله بن مسعود بن غافل: أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابة والسابقين في الاسلام، أمّره عثمان على الكوفة في خلافته ثم عزله وأمره بالرجوع الى المدينة، ثم جعله القيّم على بيت المال، ثم استعفاه لخلافٍ حدث بينه وبينه فأعفاه وأخذ منه مفاتيح بيت المال، توفّي في خلافة عثمان ـ أثر كسر ضلعٍ حدث به بعد أن داسه الخليفة برجليه ـ عن نحو ستين عاماً. أنظر الإصابة: ج ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩، والاستيعاب: ج ٣ ص ٩٨٧ ـ ٩٩٤.

(٩) حكاه عنهما الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٨٠.

وَأَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»[١] وكلاهُما قِراءَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام[٢]، ﴿فَخَشِينَآ﴾ أَي: فَخِفْنَا ﴿أَن﴾ يُغْشِيَ الوالدَينِ المُؤمنَينِ ﴿طُغْيَـٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ لِنعمتِهما بعقوقِهِ وسوءِ صنيعِهِ، ويُلحِقَ بهما بلاءً، أَو يعذِّبَهما برأيِهِ[٣] فيَحْمِلَهما على الطغيانِ والكُفرانِ. وقُرِئَ: ﴿يُبْدِلَهُمَا﴾ بالتشديدِ[٤] والتخفيفِ، والزكاةُ: الطهارةُ والنقاءُ من الذنوبِ، والرُحْمُ: الرحمةُ والعطفُ.

الصادقُ عليه السلام: «إِنَّهما أَبدلا بالغلامِ المقتولِ جاريةً فوَلَدَتْ سبعين نبيّاً»[٥].

واختُلِفَ في الكنزِ، فقيل: مالٌ مدفونٌ من الذهَبِ والفضَّةِ[٦]، وقيل: كُتُبُ علمٍ مدفونةٌ[٧]، وقيل: لوحٌ من ذَهبٍ مكتوبٌ فيه: «عجباً لِمَن يؤمِنُ بالقَدَرِ كيف يَحزَنُ، عجَباً لمن أَيقَنَ بالرزقِ كيف يَتْعَبُ، عجباً لمن أَيقَنَ بالموتِ كيف يفرَحُ، عجباً لمن يُؤمِنُ بالحسابِ كيف يَغْفُلُ، عجباً لمن رأى الدُّنيا وتقَلُّبَها بأَهلِها كيف يَطْمئِنُّ إليها لا إِلهَ إِلَّا ٱللهُ محمَّدٌ رَسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله»[٨].

الصادقُ عليه السلام: «إِنَّه كانَ بينَهما وبينَ ذلك الأَبِ الصالحِ سبعَةُ آباءٍ»[٩].

---

(١) حكاها الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٣٤، والبغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٦ وفيهما: وكانَ أَبواه.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج ٢ ص ٣٣٥ و٣٣٦ ح ٥٤ و٥٥.

(٣) في بعض النسخ: بدائه.

(٤) وهي قراءة نافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٧.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ح ٦٠ و٦١.

(٦) قاله عكرمة وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٧) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٨) وهو قول ابن عباس وعكرمة وعمر مولى غُفرة والحسن، ورواه عثمان بن عفان وأنس عن النبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٨. وفي تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٠ باسناده عن معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام.

(٩) حكاه عنه عليه السلام الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٦٢.

﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ له، أَو مصدرٌ منصوبٌ بـ﴿أَرَادَ رَبُّكَ﴾ لأَنَّه في معنىٰ «رَحِمَهُما»، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ مارأَيتُ ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ أَي: عن اجتهادي ورأيي، وإنَّما فعلتُه بأَمرِ ٱللهِ، وفي قراءةِ عليٍّ عليه السلام: «وَمَا فَعَلْتُهُ يَا مُوسَىٰ عَنْ أَمْرِي».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢)﴾

﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإسكندرُ ٱلَّذي ملَكَ الدنيا، وقيلَ: مَلكَ الدنيا مُؤمنانِ: ذُو القرنينِ وسليمانُ، وكافرانِ: نُمرودُ وبُخْتُ نَصَّرَ[1]. واختُلِفَ فيه[2] فقيلَ: كان عبداً صالحاً أَعطاه ٱللهُ العلمَ والحكمةَ وملَّكهُ الأَرضَ[3]، وقيلَ: كان نبيّاً فَتَحَ ٱللهُ علىٰ يديهِ الأَرضَ[4].

وعن عليٍّ عليه السلام: «كان عبداً صالحاً ضُرِبَ علىٰ قَرْنِهِ الأَيمَنِ في طاعةِ ٱللهِ

(١) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٤٥٠.

(٢) أي بذي القرنين.

(٣) وهو قول علي عليه السلام على ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٤) وهو قول عكرمة ومجاهد عن ابن عمر وابن العاص. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣١٠.

فماتَ، ثُمَّ بعَثَهُ ٱللهُ فضُربَ علىٰ قرنِهِ الأَيسَرِ فماتَ فبعَثَهُ ٱللهُ، فسُمِّيَ ذَا القَرْنَينِ، وفيكم مثلُهُ»[١].

وقيلَ: سُمِّيَ ذا القرنينِ لأنَّه قد بلَغَ قُطْرَي الأَرضِ من المشرقِ والمغربِ[٢]، وقيلَ: كان لتاجِهِ قرنانِ[٣]، والسائلُونَ: همُ اليهودُ، سألوه على وجهِ الامتحانِ، وقيلَ: سأله أبو جهلٍ وأشياعُه[٤] ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن﴾ أسبابِ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادَهُ من أغراضِهِ ومقاصِدِهِ في مُلكِهِ ﴿سَبَباً﴾ طريقاً موصلاً إليه، فأرادَ بلوغَ المغربِ «فاتَّبَعَ سَبَباً» يُوصِلُهُ إليه حتَّىٰ بلَغَ، وكذلك أرادَ المشرقَ «فَاتَّبَعَ سبَبَاً» وأرادَ بلوغَ السدَّيْنِ «فَاتَّبَعَ سَبَباً»[٥]، وقُرِئَ: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بقطعِ الهمزةِ، أي: فأتبعَ أمرَهُ سبباً، أو أَتبعَ ماهو عليه سبباً.

وقُرِئَ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ من حَمِئَتِ البِئرُ: إذا صارَت فيها الحَمْأَةُ[٦]، و «حَامِيَةٍ»[٧] أي: حارَّةٍ ﴿وَوَجَدَ﴾ عندَ العَيْنِ ناساً كانُوا كفَرَةً، فخيَّرهُ ٱللهُ بينَ أن يُعذِّبَهُم بالقتلِ وأن يدعُوَهم إلى الإسلامِ فاختارَ دعوَتَهم واستمالَتَهم، فـ﴿قَالَ أَمَّا مَن﴾ دَعوتَه فَأَبىٰ إلَّا البقاءَ علىٰ أَعظمِ الظلمِ وهو الكفرُ فذاك هو المعذَّبُ في الدارَينِ

(١) حكاه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٣، والرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٦٤.

(٢) وهو قول الزهري. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٣.

(٤) وهو مارواه القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١ و ٤٠ بإسناده عن الصادق عليه السلام، وإليه ذهب محمد بن إسحاق على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ٨٢ و ١٦٤.

(٥) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة عند المصنّف هنا بوصل الهمزة وتشديد التاء المفتوحة.

(٦) الحمأة: الطين الأسود. (الصحاح: مادة حمأ).

(٧) وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٨.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَ﴾ أَصلَحَ «فَلَهُ جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ»[١] أي: جزاءُ الفِعلةِ الحُسنى، وقُرِئَ: ﴿جَزَآءً﴾ بالنصبِ والتنوينِ، ومعناه: فلَه المَثوبَةُ الحُسنىٰ جزاءً أي: مَجزيَّةً، فهو مصدرٌ وُضِعَ موضِعَ الحالِ ﴿مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ أَي: لا نَأْمُرُه بالصعبِ الشاقِّ ولكِن بالسهلِ المُتَيسِّرِ من الخراجِ وغيرِ ذلك، وتقديرُهُ: ذا يُسرٍ.

وقُرِئَ: ﴿مَطْلِعَ﴾ بفتحِ اللامِ[٢] وكسرِها وهو مصدَرٌ، والمعنىٰ: ﴿بَلَغَ﴾ مكانَ مطلعِ ٱلشمسِ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾ لم يَكُن بها جبَلٌ ولا شجَرٌ ولا بِناءٌ، وعن كَعْبٍ: كان أَرضُهم لا تُمِسكُ الأَبنيةَ وبها أَسرابٌ، فإذا طَلَعتِ الشمسُ دَخَلُوها، فإذا غَرَبَتْ تصرَّفُوا في أُمورِهم ومعايِشِهِمْ[٣]، وقيلَ: السترُ: اللباسُ[٤]، وعن مُجاهدٍ: مَنْ لا يلبَسُ الثيابَ من السودانِ عندَ مطلِعِ الشمس أَكثرُ من جميعِ أَهلِ الأَرضِ[٥].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: أَمر ذِي القرنينِ كذلك، أَي: كما وصَفْنَاه تعظيماً لأَمرِهِ ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنودِ والآلاتِ وأَسبابِ المُلكِ ﴿خُبْراً﴾ أَي: علماً تكثيراً لذلك، وقيلَ: يُريدُ ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مثلَ ذلك أَي: كما بلَغَ مغرِبَها[٦]، وقيلَ: تَطْلُعُ علىٰ قومٍ مثلِ ذلك القبيلِ الَّذي تَغرُبُ عليهم[٧]، ومعناه: أَنَّهم كَفَرَةٌ مثلُهم، وحكمُهم مثلُ حكمِهم في تعذيبِهِ لمن بَقِيَ منهم على الكُفرِ وإحسانِهِ إلىٰ مَن آمنَ منهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

---

(١) يبدو جلياً أَنَّ المصنِّف رحمه الله قد اعتمد هنا على هذه القراءة أي بالرفع من غير تنوين.
(٢) قرأه ابن كثير برواية شبل وعيسىٰ وابن محيصن. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٥.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٥.
(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٥٢.
(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٥.
(٦) قاله السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١١.
(٧) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٠٩.

قَوْلاً (٩٣) قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً (٩٨) ﴾

السدَّانِ: جبَلانِ سَدَّ ذو القرنينِ ما بينَهما، وقُرِئَ: بالضمِّ[1] والفتحِ، وقيلَ: ماكانَ من عملِ العبادِ فهو مفتوحٌ، وما كانَ من خلقِ ٱللهِ فهو مضمومٌ؛ لأَنَّه فُعْلٌ بمعنىٰ مفعولٍ فعَلَهُ ٱللهُ وخلَقَهُ، والمفتوح مصدرٌ فهو حَدَثٌ يُحدِثُهُ الناسُ[2]، و﴿بَيْنَ﴾ ٱنتصَبَ علىٰ أَنَّه مفعولٌ به، كما ٱنجرَّ بالإِضافةِ في قولِهِ: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾[3]، وهذا المكانُ في مُنْقطَعِ أَرضِ التُركِ ممَّا يلي المشرقَ ﴿مِن دُونِهِمَا قَوْماً﴾ قيلَ: هم التُركُ[4] ﴿لَّا يَكَـٰدُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أَي: لايكادُونَ يفهمُونَه إِلَّا بجَهْدٍ ومَشقَّةٍ من إِشارةٍ ونحوِها، وقُرِئَ: «يُفْقِهُونَ»[5] أَي: لايُفْهِمُونَ السامعَ كلامَهم ولا يُبيِّنُونَه؛ لأَنَّ لغتَهم غريبةٌ مجهولةٌ.

﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ ٱسمانِ أَعجميَّانِ، وقُرِئَا: بالهمزةِ ﴿مُفْسِدُونَ فِى

---

(١) قرأه حمزة والكسائي ونافع وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٩.

(٢) وهو قول عكرمة وأبي عبيدة. راجع مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ١ ص ٤١٤، والتبيان: ج ٧ ص ٨٩.

(٣) الآية: ٧٨.

(٤) قاله السدي والضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٠.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع العنوان في القراءات السبع لابن خلف: ص ١٢٤.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ: كانوا يأكُلونَ الناسَ [١] ، وقيلَ: كانوا يَخرُجونَ أَيَّامَ الربيعِ فلا يَتركُونَ شيئاً أخضرَ إلاَّ أَكَلوه ولا يابساً إلاَّ ٱحتَمَلوهُ[٢] [٣] .

وعن النبيِّ صلى الله عليه وآله في صفتهم: «أنَّه لايموتُ أحدٌ منهم حتَّىٰ ينظُرَ إلىٰ ألفِ ذَكَرٍ من صُلبِهِ كُلُّهم قد حَمَلَ السلاحَ» [٤] .

وقيلَ: إنَّهم صنفانِ: طِوالٌ مُفرِطُو الطُولِ وقِصارٌ مُفرِطُو القِصَرِ [٥] .

وقُرِئَ: ﴿خَرْجاً﴾ و «خَرَاجاً» [٦] أَي: جُعْلاً نُخرِجُه من أَموالِنا، ونظيرُهما النَوْلُ والنَوالُ.

﴿مَا مَكَّنِّى ... رَبِّى﴾ أي: ماجَعَلَني رَبِّي فِيهِ مكيناً من كَثرةِ المالِ واليسارِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّا تَبذلُونَه من الخَراجِ فلا حاجةَ بي إليه، وقُرئَ: بالإدغامِ وفكِّه [٧] ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ أي: برجالٍ وصُنَّاعٍ يُحسِنُون البناءَ وبالآلاتِ ﴿رَدْماً﴾ أي: حاجزاً حصيناً، وَالرَدْمُ: أكبرُ من السدِّ، قيل: حَفَرَ الأَساسَ حتَّىٰ بلَغَ الماءَ، وجَعَلَ الأَساسَ من الصخرِ والنحاسِ المُذابِ، والبُنْيانَ من ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ بينَهما الحَطَبُ والفَحْمُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ سَدَّ ما ﴿بَيْنَ﴾ الجبلَينِ إلىٰ أعلاهُما، ثم وضَعَ المَنافِيخَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ صارَتْ كالنارِ صَبَّ النُحاسَ المُذابَ على الحديدِ المُحْمَىٰ فالتصَقَ

---

(١) قاله سعيد بن جبير. راجع التبيان: ج ٧ ص ٩١، وفي تفسير الطبري: ج ٨ ص ٢٧٩ نسبه الى سعيد بن عبد العزيز. (٢) في نسخة: حملوه.

(٣) قاله الكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨١ و ١٨٢.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٨٤ باسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله باختلاف يسير لايضرّ.

(٥) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٨١ ونسبه الى علي عليه السلام.

(٦) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٠.

(٧) قرأ ابن كثير وحده بالتفكيك ـ أي: بنونين ـ والباقون بالادغام. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٦.

بعضُه ببعضٍ وصار جبلاً صَلْداً[١]، والصَدَفانِ بفتحتَين: جانبا الجبلينِ؛ لأنَّهما يَتصادَفانِ أَي: يَتقابَلانِ، وقُرِئَ: «الصُدُفَيْنِ» بضمَّتينِ[٢] وبضمَّةٍ وسكونٍ[٣]، وٱلْقِطْرُ: النُحاسُ المُذابُ، و ﴿قِطْراً﴾ منصوبٌ بـ﴿أُفْرِغْ﴾ وتقديرُه: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ قِطراً أُفرِغْ عَلَيه قِطْراً، فحُذِفَ الأَوَّلُ لدَلالةِ الثاني عليه، وقُرِئَ: «قَالَ ٱئْتُونِي»[٤] جِيئوني.

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ﴾ بحذفِ التاءِ للخفَّةِ، وقُرِئَ: «فما ٱصطَاعُوا» بقلبِ السينِ صاداً[٥] ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أَن يَعْلُوه، أَي: لا حيلةَ لهم في صُعُودِهِ لارتفاعِهِ ومَلاستِهِ، ولا في نَقْبِهِ لصَلابتِهِ وثَخانتِهِ.

﴿هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إلى السدِّ، أَي: هذا السدُّ نعْمَةٌ ﴿مِّن﴾ ٱللهِ وَ ﴿رَحْمَةٌ﴾ علىٰ عبادِهِ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أَي: دَنَا مجيءُ يومِ القيامةِ جَعَلَ السدَّ «دَكًّا»[٦] أَي: مدكُوكاً مبسوطاً مُسوّىً بالأَرضِ، وكلُّ ما انبسَط بعدَ ارتفاعٍ فقد ٱندَكَّ، وقُرِئَ: ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِّ، أَي: أَرضاً مُستويةً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ هذا آخِرُ حكايةِ قولِ ذي القَرنَينِ.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١) أَفَحَسِبَ

---

(١) أُنظر تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٢.

(٢) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ٧٩.

(٣) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠١.

(٤) قرأه حمزة وعاصم برواية أبي بكر. راجع المصدر السابق.

(٥) وهي قراءة الأعشىٰ على ماحكاه عنه ابن غلبون في تذكرته: ج ٢ ص ٥١٨.

(٦) يبدو واضحاً أنّ المصنّف اعتمد هنا على القراءة بالقصر تبعاً للكشّاف، وهي قراءة المشهور غير الكوفيّين.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْناً (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُواً (١٠٦) ﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: وجعلْنا بعضَ الخلقِ يومَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أي: يضطَرِبونَ ويختَلِطون إنسَهم وجِنَّهم حيارَىٰ، أو يكونُ الضميرُ ليأجوجَ ومأجوجَ وأنَّهم يموجونَ حينَ يَخرُجونَ ممَّا وراءَ السدِّ مُزدَحِمينَ في البِلادِ.

وقد رُوِيَ: أنَّهم يأتونَ البحرَ فيشربونَ ماءَهُ ويأكُلون دوابَّه، ثُمَّ يأكُلونَ الشجرَ ومَن ظَفِرُوا به ممَّن لم يتحصَّنْ منهم من الناسِ، ثُمَّ يَبعَثُ ٱللهُ نَغَفاً[١] في أقفائهم فتدخلُ آذانَهم فيهلكُونَ بها[٢].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ وأبرزناها لهم فرَأَوها وشاهَدُوها.

﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن آياتي والتفكُّرِ فيها، ونحوُهُ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[٣].

﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي: وكانوا صُمّاً عنه.

وقِراءَةُ أميرِ المُؤمنينَ عليه السلام: «أَفَحَسْبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا»[٤] أي: أفكافِيهم ومُحسِبُهم ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وهم الملائكةُ، فهو مبتدأٌ وخبرٌ،

(١) النَّغَف: نوعٌ من الدود يكون في أُنوف الإبل والغنم. (الصحاح: مادة نغف).

(٢) قاله وهب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٤.

(٣) البقرة: ١٨.

(٤) حكاه الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٩٦، وابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٥.

أَوبمنزلةِالفعلِ والفاعلِ؛ لأَنَّ اْسمَ الفاعلِ إذا اعتَمَدَ على الهمزةِساوَى الفعلَ في العملِ، كقولِك: أَقائمُ الزيدانِ، والمعنىٰ: أَنَّ ذلك لايَكفِيهِمْ ولا يَنْفَعُهُمْ عندَ اْللهِ كما حَسِبُوا.

وأَمَّا القِراءَةُ المشهورةُ فمعناها: أَفحسِبُوا أَن يتَّخذُوهم من دوني أَرباباً ينصُرُونَهم، أَي: لايكونون لهم أَولياءَ ناصرينَ، و النُزُلُ: مايُقامُ للنزيلِ وهو الضيفُ، ونحوُه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [(١)].

﴿اْلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أَي: ضَاعَ وبطَلَ عمَلُهم، وهمُ الرُهبانُ ﴿وَهُمْ﴾ يَظُنُّون ﴿أَنَّهُمْ﴾ مُحْسِنُونَ، وأَنَّ أَفعالَهم طاعةٌ وقُربةٌ. وعن عليٍّ عليه السلام: هو كقولِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [(٢)] وقال: «منهم أَهلُ حَرُوراءَ» [(٣)] [(٤)].

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ اْلْقِيَـٰمَةِ وَزْناً﴾ أَي: لايكونُ لهم عندَنا وزنٌ ومقدارٌ، ونَزْدَري بهم [(٥)].

﴿إِنَّ اْلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اْلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ اْلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ اْلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ اْلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)﴾

---

(١) آل عمران: ٢١. (٢) الغاشية: ٣.

(٣) حَرُوراء: هو موضع على ميلين من الكوفة، نزل به الخوارج الذين خالفوا أمير المؤمنين علي عليه السلام فنسبوا إليها. وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوه عليه السلام. أُنظر معجم البلدان للحموي: ج ٢ ص ٢٤٦.

(٤) التبيان: ج ٧ ص ٩٧ وزاد: وسأله ابن الكوّا عن ذلك، فقال عليه السلام: أنت وأصحابك منهم.

(٥) وفي بعض النسخ زيادة: أعينهم.

الحِوَلُ: التَحوُّل[١]، يقالُ: حالَ عن مكانِهِ حِوَلاً، كما قالوا: عادَني حُبُّها عِوَداً، أَي: لايطْلُبُونَ تحوُّلاً ﴿عَنْهَا﴾ إِلىٰ موضعٍ آخرَ لكمالِ طيبِها.

المِدَادُ: اَسمُ مايُمَدُّ به الدواةُ، والمعنىٰ: ﴿لَوْ﴾ كُتِبَتْ كَلِمَاتُ علمِ ٱللهِ وحكمتِهِ و﴿كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً﴾ لها، والمرادُ بالبحرِ: الجنسُ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَـنفَدَ﴾ الـ﴿كَلِمَـٰتُ﴾، ﴿وَلَوْ جِئْنَا﴾ بمثلِ البَحرِ مـداداً لَـنَفِدَ أَيـضاً والكـلماتُ لاتَـنْفَدُ، و﴿مَدَداً﴾ تمييزٌ، كقولِك: لي مثلُه رجلاً، والمدَدُ مثلُ المِدادِ: وهو مايُمَدُّ به، وقُرِئَ: «يَنفَدَ» بالياءِ[٢].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ أَي: يَأْمُلُ حُسنَ ﴿لِقَآءَ رَبِّهِ﴾ وأَن يلقَاه لقاءَ رضاً وقبولٍ، أَو: فَمَنْ كانَ يخافُ سوءَ لقائه، والمرادُ بالنهي عن الإِشراكِ بالعبادةِ: أَن لايُرائـيَ بعملِهِ، وأَن لايبتَغِيَ به إِلَّا وجهَ ربِّه خالصاً لايُريدُ به غيرَه.

وعن النبيِّ صلّى الله عليه وآله قالَ: «قالَ ٱللهُ عزَّوجلَّ: أَنَا أَغْنَى الشركاءِ عنِ الشِركِ، فمن عَمِلَ عملاً أَشركَ فيه غيرِي فأَنَا منه بريءٌ، فهو للَّذي أَشْرَكَ»[٣].

وعنِ الصادقِ عليه السلام: «ما من أَحدٍ يقرَأُ آخِرَ الكهفِ عند النـومِ إِلَّا تَـيَقَّظَ فـي الساعةِ الَّتي يريدُها»[٤] [٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) في نسخة زيادة: الحول والتحوّل بمعنىً.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٢.

(٣) صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢٢٨٩ ح ٢٩٨٥ وفيه بعد «غيري»: تركته وشركه، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٤٠٥ ح ٤٢٠٢.

(٤) أُصول الكافي: ج ٢ ص ٥٤٠ ح ١٧.

(٥) إِلىٰ هنا يتمّ الجزء الأوّل من الكتاب حسب تجزئة المصنّف رحمه الله علىٰ مايبدو مـن النسـخ، حيث ورد في بعضها: «تمّ الجلد الأوّل من تفسير الجامع للشيخ الجليل أمين الاسلام الفضل ابن الحسن الطبرسي روّح الله روحه»، وفي بعضها «تمّ الجلد الأوّل من تفسير جوامع الجامع ... الخ»، وفي بعضها زيادة: «والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين» قبل عبارة: «تم الجلد الأول ... الخ».

سورةُ مريم

مكِّيةٌ[1]، ثمانٍ وتسعون آية، عدَّ الكوفي ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ آيةً ولم يَعُدَّها غيرُهم، ولم يَعُدُّوا ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ مَدًّاۚ﴾[2] وعدَّها غيرُهم.

وفي حديثِ أُبيٍّ: «من قرأها أُعطِيَ من الأَجرِ بعددِ كل من صدَّقَ بـزَكَـرِيَّا ويحيَىٰ ومريمَ وعيسىٰ وموسىٰ وهارونَ وإِبراهيمَ وإِسحاقَ ويعقوبَ وإِسماعيلَ عَشْرَ حسناتٍ»[3] الخبر بتمامِهِ.

وعنِ الصادقِ عليه السلام: «من أَدْمَنَ قِراءَةَ سورةِ مريمَ عليها السلام لم يَمُتْ في الدنيا حتَّىٰ يُصيبَ منها مايُغْنِيهِ في نفسِهِ ومالِه وولدِهِ، وأُعطِيَ في الآخرةِ مثلَ مُلكِ سليمانَ بن داود في الدنيا»[4] [5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ١٠١: هي مكية في قول قتادة ومجاهد، وهي ثمان وتسعون آية في المدني الأول والكوفي والبصري والشامي، وتسع وتسعون في المكي والمدني الأخير وفي عدد اسماعيل.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣: مكية إلّا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان، وآياتها ٩٨، نزلت بعد سورة فاطر.

وقال القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٧٢: وهي مكية باجماع، وهي تسعون وثمان آيات.

(٢) الآية: ٧٥.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٨ باختلاف يسير، وزاد: «وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا وبعدد من لم يدع الله».

(٤) في بعض النسخ زيادة: صدق ولي الله.

(٥) ←

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّاً (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٦) يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيّاً (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩)﴾

قرأَ أبو عمرو[١] بإمالةِ ﴿هـ﴾ وتفخيم ﴿يـ﴾[٢]، وقُرِئَ على عكسِهِ[٣]، وقُرِئَ بإمالتِهما[٤]. أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ زَكَرِيّا ﴿عَبْدَهُۥ﴾، فـ﴿ذِكْرُ﴾ مضافٌ إلىٰ المفعولِ، و ﴿رَحْمَتِ﴾ مضافٌ إلى الفاعلِ، وانتصبَ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ لأنّه مفعولُ ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، والرحمةُ: إجابتُهُ إيّاهُ حينَ دَعاه وسأَلَه الولدَ.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً﴾ أَي: دَعَا ربَّه دعاءً ﴿خَفِيّاً﴾ يُخفيهِ في نفسِهِ.

← (٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤ ح ١ وزاد بعد «وولده»: وكان في الآخرة من أصحاب عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

(١) وهو أبو عمرو زبان بن العلاء البصري القارئ. تقدّمت ترجمته في ج ١ ص ٢٦، فراجع.

(٢) انظر التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.

(٣) وهي قراءة ابن عامر وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٦.

(٤) وهي قراءة يحيىٰ والكسائي وأبي بكر عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.

وفي الحديثِ: «خيرُ الدعاءِ الخَفِيُّ»[١].

وعن الحسنِ: نداءً[٢] لا رياءَ فيه[٣]، أو أخفاه لئلّا يُلامَ في طلبِ الولدِ وقتَ الشيخوخةِ، وأضافَ الوَهْنَ إلىٰ ﴿ٱلْعَظْمُ﴾ لأنَّ به قِوامُ البدنِ، فإذا ﴿وَهَنَ﴾ تساقطتْ قوَّتُه، واللامُ للجنسِ، يعني: أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو العَمودُ والقِوامُ قد أَصابَه الوَهْنُ، وشَبَّهَ الشيبَ بشُواظِ النارِ في بياضِه، وانتشارَهُ في الشعرِ باشتعالِ النارِ، وأَسنَدَ الاشتعالَ إلىٰ مكانِ الشعرِ ومنبِتِهِ وهو ﴿ٱلرَّأْسُ﴾ وجعلَ «الشيْبَ» مميِّزاً، ولم يَقُلْ: «رأسي» اكتفاءً بعلمِ المخاطَبِ أنَّه رأسُهُ، ثُمَّ توسَّل إليه سبحانه بما سَلَفَ له معه من الاستجابةِ.

و ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: هم العُمومةُ وبَنُو العمِّ ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: مِن بعدَ موتي، وقرأَ عليُّ بن الحسينِ ومحمَّدُ بن عليٍّ عليهما السلام: «خَفَّتِ ٱلْمَوَالِي مِن ورائي»[٤]، ومعناه: قَلَّ بنو عمِّي وأَهلي ومَنْ أُخَلِّفُه من بعدِي ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى﴾ عقيماً لا تلِدُ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أَي: ولداً يَلِيني ويكونُ أَولَىٰ بميراثي، وقولُه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تأكيدٌ لكونه ﴿وَلِيًّا﴾ مرضيّاً بكونه مضافاً إلى ٱللهِ وصادراً من عندِهِ.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾ بالجزمِ[٥] على الجوابِ للدعاءِ، وبالرفعِ على الصفةِ، كقولِه: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾[٦] وقرأَ عليٌّ عليه السلام وابنُ عبَّاس وجعفرُ بنُ محمَّدٍ عليه السلام والحسنُ

---

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ١٧٢ و ١٨٠ و ١٨٧، المصنَّف لابن أبي شيبة: ج ١ ص ٣٧٦.

(٢) في بعض النسخ: دعاء.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣.

(٤) حكاه عنهما عليهما السلام ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٦.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.

(٦) القصص: ٣٤.

وجماعةٌ[١]: «يَرِثُني وارثٌ من آلِ يعقوبَ»[٢] ويُسَمَّى التجريدَ في علمِ البيانِ، وتقديرُه: فهَبْ لي وليّاً يرِثُني به وارثٌ من آلِ يعقوبَ وهو نفسُه الوارثُ، وهـذا ضربٌ غريبٌ كأنَّه جَرَّدَ منه وارثاً، ومثلُهُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[٣] وهي نفسها دارُ الخلدِ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ أَي: واجعَلْ يارب هذا الوليَّ مرضيّاً عندَكَ ممتثِلاً لأمرِكَ.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾ لم يُسَمَّ أَحدٌ بـ﴿يَحْيَىٰ﴾ قبلَه.

عن الصادقِ عليه السلام: «وكذلك الحسينُ عليه السلام لم يكُنْ له من قبلُ سَميٌّ، ولم تَبكِ السماءُ إلَّا عليهما أربعينَ صباحاً، قيلَ له: وما كان بكاؤها؟ قالَ: كانَت تَطْلُعُ حمراءَ وتغيبُ حمراءَ، وكان قاتلُ يحيىٰ ولد زناءٍ، وقاتِلُ الحسينِ عليه السلام ولدَ زناءٍ»[٤].

وعن مجاهدٍ: ﴿سَمِيّاً﴾ أَي: مِثلاً وشبيهاً[٥]، كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[٦]، وإِنَّما قيل للمِثْلِ: سَميٌّ؛ لأَنَّ كُلَّ متشابهَينِ يُسمَّىٰ كُلُّ واحدٍ منهما باسمِ شبيهِهِ، فكُلُّ واحدٍ منهما سمِيٌّ لصاحبِهِ.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً﴾ أَي: كانَت علىٰ صفةِ العُقْرِ حينَ أَنا شابٌّ وكَهْلٌ، فما رُزِقْتُ الولدَ لاختلالِ أَحدِ السببَينِ، أَفحينَ ٱختَلَّ السببانِ جميعاً أُرزَقُه؟! والعُتِيُّ: اليُبسُ والجُسْأَةُ[٧] في العِظامِ والمفاصلِ من أَجلِ الكِبَرِ، وقُرِئَ: ﴿عِتِيّاً﴾

---

(١) كعاصم الجحدري وابن يعمر وقتادة وأبي حرب بن أبي الاسود وأبي نهيك. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ١٧٤.

(٢) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٦، والبحر المحيط: ج ٦ ص ١٧٤.

(٣) فصّلت: ٢٨.

(٤) مناقب ابن شهرآشوب: ج ٤ ص ٥٤ وليس فيه: «وكان قاتل يحيىٰ ...» الخ، وأُنظر كامل الزيارات لابن قولويه: ب ٢٨ فصل في بكاء السماء والأرض على قتل الحسين عليه السلام ويحيىٰ ابن زكريا عليه السلام ص ٨٨ ـ ٩١.

(٥) تفسير مجاهد: ص ٤٥٤.

(٦) الآية: ٦٥.

(٧) في بعض النسخ: الجساوة. وجَسَأَت يده: اذا صلبت. (الصحاح: مادة جسأ).

بكسرِ العينِ[١]، وكذلك ﴿صِلِيّاً﴾[٢] و ﴿جِثِيّاً﴾[٣] و ﴿بِكِيّاً﴾[٤] [٥].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ رفعٌ، أي: الأمرُ كذلك، تصديقٌ له، ثمَّ ابتدأَ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أو هو نَصْبٌ بـ﴿قَالَ﴾، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ مبهمٍ يفسِّرُهُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ونحوُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[٦]، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ يُعتدُّ به، وقُرِئَ: «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ»[٧].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾

يعني: ﴿ٱجْعَل لِّيٓ﴾ علامةً أَعلَمُ بها وقوعَ مابُشِّرتُ به ﴿قَالَ﴾: علامتُك أن تُمنَعَ الكلامَ فلا تُطيقَهُ وأَنتَ سويُّ الخَلقِ مابكَ خَرَسٌ، ودلَّ ذكرُ «الليالي» هنا و«الأَيَّام» في آلِ عمرانَ[٨] علىٰ أنَّ ذلك كانَ ثلاثةَ أَيَّامٍ بلَيَالِيها.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أَي: أَشار إليهم بيدِهِ، وقيلَ: كَتَبَ لهم على الأَرض ﴿سَبِّحُواْ﴾[٩] أَي: صلُّوا، أَو هو على الظاهرِ، و ﴿أَن﴾ هي المفسِّرةُ.

﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَي: التوراةَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وصحَّةِ عزيمةٍ على القيامِ به

---

(١) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف بضمّ العين.

(٢) الآية: ٧٠. (٣) الآية: ٦٨.

(٤) الآية: ٥٨.

(٥) قراءة حمزة والكسائي بكسر الباء والباقون بضمّها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٧. (٦) الحجر: ٦٦.

(٧) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٤.

(٨) الاية: ٤١. (٩) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٤٥٤.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحكمةَ والنبوَّةَ في حالِ صِباهُ وهو ٱبنُ ثلاثِ سنينَ. ﴿وَحَنَانًا﴾ وآتيناهُ رحمةً ﴿مِن﴾ عندِنا وتعطُّفاً وتحنُّناً على العبادِ، وقيلَ للهِ تعالىٰ: حنَّانٌ كما قيلَ: رحيمٌ علىٰ سبيلِ الاستعارةِ[1] ﴿وَزَكَوٰةً﴾ لِمَنْ قَبِلَ دينَهُ فيكونُ زكيّاً طاهراً. ﴿وَ﴾ بارّاً ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ محسِناً إليهما، مطيعاً لهما، طالباً رضاهما ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ متكبِّراً متطاولاً على الناس ﴿عَصِيًّا﴾ عاصياً لربِّه.

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ﴾ منَّا في هذِهِ الأَحوالِ، وخصَّه سبحانَه بالكَرامةِ والسلامةِ في هذِهِ المَواطنِ الثلاثةِ الَّتي هي أَوحشُ المواطنِ: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ فيَرَى نفسَه خارجاً ممَّا كانَ فيه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ فيَرَىٰ أَشياءَ ليس له بها عهدٌ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ فيَرَىٰ نفسَهُ في المَحشَرِ العظيم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)﴾

﴿إِذِ﴾ بدلٌ من ﴿مَرْيَمَ﴾ وهو بدلُ الاشتمالِ، وفيه دَلالةٌ علىٰ أَنَّ المقصودَ بذكرِ مريمَ ذكرُ هذا الوقتِ لوقوعِ قصَّتِها العجيبةِ فيه، و ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ أي: ٱعتزَلَتْ

(١) أُنظر الكشّاف: ج ٣ ص ٨.

في مكانٍ ممَّا يَلي شَرْقيَّ بيتِ المَقدِسِ قد تَخلَّتْ للعبادةِ فيه، وإنَّما ٱتَّخذَتِ النصارى الشرقَ قبلةً لأنَّ مريمَ انتبذتْ ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن﴾ دُونِ أَهلِها ﴿حِجَابًا﴾ أَي: سِتراً وحاجزاً بينَها وبينَهم ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرئيلَ عليه السلام، أَضافه إِلىٰ نفسِهِ تشريفاً له، فأَتاها فانتصَبَ بينَ يدَيها في صورةِ آدميٍّ شابٍّ سويِّ الخَلقِ، لم يَنْتَقِصْ[1] من الصُّورةِ الآدميَّةِ شيئاً.

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أَرادت: إِن كان يُرجَىٰ منك أَن تتَّقيَ ٱللهَ وتخشَاه فإِنِّي عائذةٌ به منك. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ﴾ منِ ٱستعَذْتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ لأَكونَ سبباً في هِبةِ ﴿غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الأَدناس أَو نامٍ في أَفعالِ الخيرِ، أَو هو حكايةٌ لقولِ ٱللهِ عزَّوجلَّ، وقُرِئَ: «لِيَهَبَ»[2] والضميرُ للربِّ وهو الواهبُ.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ جَعلَ المسَّ عبارةً عن النكاحِ الحلالِ، كقولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[3]، ويُقالُ في الزنا: فَجَرَ بها وما أَشْبَهَ ذلك، والبَغِيُّ: الفاجرةُ الَّتي تَبْغِي الرجالَ، وهي فعولٌ عندَ المبرِّدِ بَغُويٌ فأُدغِمَتِ الواو في الياءِ[4]، وقيلَ: هي فعيلٌ، ولو كَانَتْ فعولاً لكانَ يقالُ: بَغُوٌّ كما قيلَ: فلانٌ نَهُوٌّ عن المُنكَرِ[5].

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فَعَلْنَا ذلك، فحُذِفَ، أَو هو معطوفٌ علىٰ تعليلٍ مضمرٍ، أَي: لِنُبَيِّنَ بِهِ قدرتَنَا ولنجعَلَه آيةً ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدَّراً، مسطوراً في اللوحِ

---

(١) في نسخة: ينقص.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وورش والحلواني ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٤.

(٣) البقرة: ٢٣٧.

(٤) أنظر الكامل للمبرّد: ج ٢ ص ٨٠٧.

(٥) وهو قول ابن جنّي. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ١٠.

لابُدَّ من جريِهِ عليك، أَو كانَ أَمراً حقيقاً بأَن يُقضىٰ لكونه ﴿ءَايَةً ... وَرَحْمَةً﴾، والمرادُ بالآيةِ: العبرةُ والبرهانُ علىٰ قدرةِ ٱللهِ تعالىٰ، وبالرحمةِ: الشرائعُ والألْطافُ، وما كانَ كذلك فهو جديرٌ بالتكوينِ.

وعن ٱبنِ عبَّاس: فاطمأَنَّتْ إِلىٰ قولِهِ فدَنَا منها فنَفَخَ في جَيْبِ دِرْعِها فَحَمَلَتْ من ساعَتِها[١].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «فكَمُلَ الولدُ في الرحِمِ من ساعتِه كما يكمُلُ الولدُ في أَرحامِ النساءِ بتسعةِ أشهرٍ»[٢].

وقيلَ: حَمَلَتْهُ وهي بنتُ ثَلاثَ[٣] عَشَرَة سنةً[٤]، وقيلَ: بنتُ عَشْرٍ[٥] ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ أَي: ٱعتزَلَتْ وهو في بطنها، كقولِه تعالىٰ: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٦] أَي: تنبُتُ ودهنُها فيها، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ ﴿قَصِيّاً﴾ بعيداً من أَهلِها.

و«أَجَآءَ» منقولٌ من «جاءَ» إِلَّا أَنَّ استعمالَه قد تغيَّرَ بعدَ النقلِ إِلىٰ معنَى الإِلجاءِ، ونظيرُهُ: «آتى» حيثُ لم يُستَعمَلْ إِلَّا في الإِعطاءِ، و ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾: تمَخُّضُ الولدِ في بطنِها، أَي: أَلجَأَها وَجَعُ الوِلادةِ ﴿إِلَىٰ جِذْعِ﴾ نخلةٍ في الصحراءِ يابسةٍ، ليس لها ثمرةٌ ولا خُضرَةٌ، وكان الوقتُ شِتاءً، والتعريفُ للعهدِ، أَي: ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾ المعروفةِ في تلك الصحراءِ، وقُرِئَ: ﴿مِتُّ﴾ بالضمِّ[٧] والكسرِ، يقال:

---

(١) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٩١.

(٢) انظر تفسير الآلوسي: ج ١٦ ص ٧٩، وفي روضة الكافي: ص ٢٧٣ ح ٥١٦ نحوه عن الصادق عليه السلام.

(٣) في نسخة: إحدىٰ.

(٤) وهو قول الطبري في تاريخه: ج ١ ص ٤١٧.

(٥) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٢.

(٦) المؤمنون: ٢٠.

(٧) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٢١٨.

لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ مَاكَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللهِ ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَاكُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيّاً (٣١) وَبَرّاً بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢) وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (٣٣) ﴾

أَي: واجذبي ﴿إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وقُرِئَ: «تَسَّاقَطْ» بالتاءِ[1] والياءِ[2] والتشديدِ، والأَصلُ: «تتساقطْ» و «يَتَساقَطْ» فأُدغِمَ، و «تَساقَطْ» بطرحِ التاءِ الثانية[3] و ﴿تُسَـٰقِطْ﴾ بضمِّ التاءِ وكسرِ القافِ، والتاءُ لـ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾ والياءُ لِـ﴿جِذْعِ﴾، و ﴿رُطَباً﴾ تمييزٌ أَو مفعولٌ علىٰ حَسَبِ القِراءَةِ، والباءُ في ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ مزيدةٌ للتأكيدِ كما في قولِه: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾[4]، أَو علىٰ معنى: افْعَلِي الهَزَّ به، والجَنِيُّ: المَجْنِيُّ، من جَنَيْتُ الثمرةَ.

﴿فَكُلِى﴾ يَامريمُ من هذَا الرُّطبِ ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من ماءِ السريِّ، وقدْ جَمَعْنَا[5] لك في السريِّ والرُّطَبِ فائدتينِ: إحداهما: الأَكلُ والشُربُ، والأُخرىٰ: قُرَّةُ العينِ وسَلْوَةُ الصدرِ لكَونِهما معجزَتَينِ.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والكسائي وأبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٩.

(٢) وهي قراءة يعقوب والعليمي ونصير والبراء بن عازب والأعمش في رواية. راجع التبيان: ج ٧ ص ١١٦، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) قرأه حمزة والأعمش وطلحة وابن وثاب ومسروق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٥، والبحر المحيط: ج ٦ ص ١٨٤.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) في بعض النسخ: جعلنا.

وعن الباقر عليه السلام: «لَم تَستَشفِ النُفَساءُ بِمثلِ الرُّطَبِ؛ لأَنَّ اللهَ أطعَمَهُ مريمَ في نِفاسِها»(١).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أَصلُه: تَرْأَيْنَّ إِلَّا أَنَّ الاستعمالَ بغيرِ همزٍ، والياءُ فيهِ ضميرُ المخاطَبِ المؤنَّثِ، أَي: إِن تَرَيْ ﴿أَحَداً﴾ مِنَ ٱلْبَشَرِ يَسْأَلكِ عن ولدِكِ ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى﴾ أوجَبْتُ علىٰ نفسي صَوْماً أَي: صَمْتاً، يُريدُ إِمساكاً عنِ الكلامِ؛ لأَنَّهم كانُوا لايتكلَّمونَ في صِيامِهم، وقد نَهَى النبيُّ صلى الله عليه وآله عن صَومِ الصمتِ لأَنَّه نُسِخَ في شريعتِهِ.

﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حالٌ منَ الضميرِ المرفوعِ في ﴿فَأَتَتْ﴾ أَو منَ الهاءِ المجرورِ في ﴿بِهِۦ﴾ أَو منهما جميعاً ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أَي: عظيماً بديعاً أَو أمراً قبيحاً. و﴿هَـٰرُونَ﴾ كانَ أَخاها من أَبيها، وكانَ معروفاً بحسنِ الطريقةِ، وقيلَ: هو أَخو موسىٰ عليه السلام، وكانت من وُلدِه كما يقالُ: ياأَخا تميمٍ أَي: ياواحداً منهم(٢)، وقيلَ: رجلٌ صالحٌ أَو طالحٌ في زمانِها شَبَّهُوها به(٣)، أَي: كنتِ عندَنا مثلَه في الصلاحِ، أَو شَتَمُوها به(٤).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فأَومأَتْ إِلىٰ عيسى بأَنْ كَلِّموهُ ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أَي: مَن وُجِدَ صبيّاً في المهدِ.

أَنطقَه ٱللهُ أَوَّلاً بأَنَّه ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ردّاً لقولِ النصارىٰ ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: الإِنجيلَ ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ أَكملَ ٱللهُ عقلَهُ واستنبأَهُ طِفلاً. ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ أَي: نفَّاعاً، مَعْلَماً(٥) للخيرِ حَيث ﴿مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ كَلَّفَنيهما

(١) المحاسن للبرقي: ج ٢ ص ٥٣٥ وفيه عن أبي عبدالله عليه السلام.

(٢) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٤.

(٣) وهو قول قول مجاهد وكعب والمغيرة بن شعبة يرفعه للنبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٦٨.

(٤) وفي بعض النسخ زيادة: في الفساد.

(٥) في بعض النسخ: معلّماً.

﴿مَا﴾ بقيتُ ﴿حَيّاً﴾ مكلَّفاً. ﴿وَبَرّاً بِوَٰلِدَتِى﴾ أَي: بارّاً بوالدتي مؤدِّياً شكرَها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى﴾ مِنَ الجَبابرةِ الأَشقياءِ. ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ﴾ أُدخِلَ لامُ التعريفِ لتعرُّفِه بالذكرِ قبلَه، كقولِكَ: جاءَنا رجلٌ فكانَ من فعلِ الرجلِ كذا، والمعنىٰ: ذلكَ السلامُ الموجَّهُ إلىٰ يحيى في المواطنِ الثلاثةِ موجَّهٌ إليَّ.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَاكَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾

أَي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي قالَ: إِنِّي عبدُ ٱللهِ ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، لا مايقولُه النصارَىٰ مِن: أَنَّه ابنُ ٱللهِ، وأَنَّه إِلـٰهٌ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ قُرِئَ بالنصبِ والرفعِ[1]، فالرفعُ علىٰ أَنَّه خبرُ مبتدأ محذوف أَو علىٰ أَنَّه خبرٌ بعدَ خبر أَو بدلٌ، والنصبُ على المَدحِ إنْ فُسِّرَ بـ«كلمةِ ٱللهِ» وعلىٰ أَنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ إن أُريدَ قولُ الصدقِ كقولِكَ: هوَ عبدُٱللهِ الحقَّ لا الباطلَ، وإِنَّما قيلَ لعيسىٰ عليه السلام: «كلمةُ ٱللهِ» و﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ لأَنَّهُ لم يُولَدْ إِلَّا بكلمةِ اللهِ وحدَها، وهيَ قولُهُ: ﴿كُن﴾ من غيرِ واسطةِ أَبٍ، تسميةً للمسبَّبِ باسمِ السببِ كما سُمِّيَ الغيثُ بالسماء، أَي: أَمرُهُ حقٌّ يقينٌ، وهم ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكُّونَ، أَو يتمارَونَ يتلاحَونَ[2]: قالتِ اليهودُ: ساحرٌ

(١) وبالرفع قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٩.

(٢) تَلاحَ القوم: اذا تنازعوا. (الصحاح: مادة تلح).

كذّابٌ، وقالتِ النصارى: ابنُ اللهِ وثالثُ ثلاثةٍ ﴿مَاكَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ تكذيبٌ للنصارىٰ وتبكيتٌ[1] لهم بالدلالةِ على انتفاءِ الولَدِ عنهُ، وأنَّه ممَّا لايُتصوَّرُ في العقولِ، وأَنَّ من المُحالِ أَن يكونَ ذاتُه كذاتٍ من ينشَأُ منه الولدُ. ثُمَّ بيَّنَ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ إحالتَه بأَنَّ مَن أَرادَ شيئاً من الأَجناسِ كلِّها أَوجدَه بـ﴿كُن﴾ فهوَ منزَّهٌ من شَبَهِ الحَيَوانِ الوالدِ[2].

وقُرِئَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتحِ الهمزةِ[3] وكسرِها، فالفتحُ علىٰ معنىٰ: ولأَنَّه ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، أَو بأَنَّه أَي: بسببِ ذلكَ فَاعْبُدُوهُ، والكسرُ على استئنافِ الكلامِ.

و ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: اليهودُ والنصارىٰ، وقيلَ: النصارىٰ[4]، لأَنَّهم تفرَّقُوا ثلاثَ فِرَقٍ: نُسطُورِيَّةٌ ويعقوبيَّةٌ ومَلكائيَّةٌ، وقالَ: ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ لأَنَّ منهم مَن ثبتَ على الحقِّ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: من شُهودِهم هولَ الحِسابِ والجزاء في يومِ القيامة، أَو من مكانِ الشُهودِ فيه وهوَ الموقِفُ، أَو من وقتِ الشُهودِ، أَو من شهادةِ ذلكَ اليومِ عليهم وأَن تشهَدَ عليهمُ الملائكةُ والأَنبياءُ وأَلسنتُهم وأَيديهم وأَرجُلُهم بسُوءِ أَعمالِهم، أَو مِنْ مكانِ الشهادةِ أَو وقتِها.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أَي: ما أَسمعَهُمْ وأَبصرَهُمْ[5]، ولا يُوصَفُ ٱللهُ بالتعجُّبِ، والمرادُ: أَنَّ أَسماعَهم وأَبصارَهم يومئذٍ جديرٌ بأَنْ يُتعجَّبَ منهما[6] بعدَما كانُوا صُمّاً عُمياً في الدنيا ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقعَ الظاهرُ موقعَ الضميرِ[7] إيذاناً بأَنْ

---

(١) التبكيت: التقريع، يقال: بكته بالحجة اذا غلبه. (الصحاح: مادة بكت).

(٢) في نسخة زيادة: والولد.

(٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو ويعقوب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٠.

(٤) قاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٤.

(٥) في نسخة زيادة: يوم القيامة حيث لاينفعهم، ومثله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

(٦) في نسخة: منها. (٧) في بعض النسخ: المضمر.

لاظُلمَ أَعظَمُ من ظُلمِهم حيثُ أَغفلُوا النظرَ والاستماعَ.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغَ من الحسابِ، وحُكِمَ بينَ الخلائقِ بالعدلِ، وتصادَرَ الفَريقانِ إلى الجنَّةِ والنارِ، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أَو منصوبٌ بـ﴿ٱلْحَسْرَةِ ... وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ يتعلَّقُ بقولِه: ﴿فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ و ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ اعتراضٌ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ والمعنىٰ: وأَنْذِرْهُم علىٰ هذهِ الحالِ غافلين غير مؤمنين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أَي: نُميتُ سُكَّانَها، فلا يبقَىٰ فيها مالكٌ ولا متصرِّفٌ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنك شَيْئاً (٤٢) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطاً سَوِيّاً (٤٣) يَـٰٓأَبَتِ لَاتَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيّاً (٤٤) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيّاً (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيّاً (٤٦) قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيّاً (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيّاً (٤٨) فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً (٥٠)﴾

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في القرآنِ، والصِدِّيقُ: من أَبنيةِ المُبالَغةِ، أَي: المُبالِغُ في الصِدقِ وكثيرُ التصديقِ لكُتبِ ٱللهِ وأَنبيائهِ، وَ﴿كَانَ ... نَّبِيّاً﴾ في نفسِه. و﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿كَانَ﴾ أَي: كانَ جامعاً

لِخصائصِ الصدِّيقينَ والأنبياءِ حينَ خاطَبَ أَباهُ تلكَ المُخاطَباتِ في أَحسنِ ترتيبٍ، فطلبَ منه العلّةَ أَوّلاً في عبادتِهِ ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ مع أَنَّ العبادةَ لايَستَحِقُّها إِلّا المُنعِمُ الّذي له غايةُ الإِنعامِ، وهوَ اللهُ الخالقُ الرازقُ الّذي منهُ أُصولُ النِعَمِ، ثُمَّ دَعاهُ إلى اتِّباعِهِ بأَنْ قالَ: ﴿قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ باللهِ والمعرِفَةِ به ﴿مَالَمْ يَأْتِكَ﴾، ثُمَّ نهاهُ عن عبادةِ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ وطاعتِهِ فيما يدعُوه إِليه، وذَكَرَ عِصْيانَ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ ... لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ واستكبارَهُ، ثُمَّ خوَّفَه سُوءَ العاقبةِ لِمَا هوَ فيه، وصدَّرَ كلَّ نصيحةٍ من هذهِ النصائحِ بِقولِه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ استعطافاً له، والتاءُ في ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ عِوَضٌ من ياءِ الإِضافةِ، فلا يقالُ: ياأَبتي، وقُرِئَ: «يَاأَبَتَ» بفتحِ التاءِ[1]، و ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ و ﴿مَالَمْ يَأْتِكَ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ موصولةً وموصوفةً، والمفعولُ في ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ و ﴿لَا يُبْصِرُ﴾ غيرُ منويٍّ، والمرادُ: ماليسَ به استماعٌ ولا إِبصارٌ، و﴿شَيْـًٔا﴾ في موضعِ المصدرِ، أَي: شيئاً من الغَناءِ، أَو مفعولٌ به من قولهم: أَغنِ عنِّي وجهَكَ، أَي: أَبعِدْ عنِّي.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ أَي: أَمُعْرِضٌ أَنتَ عنْ عبادةِ آلهَتي الّتي هيَ الأَصنامُ، وزاهدٌ فيها؟ ﴿لَئِن لَّمْ﴾ تَمتنِعْ عن هذا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَي: لأَرمِيَنَّكَ بلساني، يُريدُ الشتمَ والذمَّ، ومنهُ الرجيمُ: المَرمِيُّ باللعنِ، أَو لأَقتُلَنَّكَ من رجمِ الزاني، أَو لأَطرُدَنَّكَ رمياً بالحجارةِ، وأَصلُ الرجمِ: الرميُ بالرِجامِ ﴿مَلِيًّا﴾ أَي: زماناً طويلاً، من المَلاوَةِ، وعُطِفَ ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ علىٰ محذوفٍ، أَي: لأَرْجُمَنَّكَ فاحذَرْني واهجُرْني.

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلامُ توديعٍ ومتاركةٍ ومباعدةٍ منهُ، كقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾[2] ويجوزُ أَن يكونَ دعاءً له بالسلامةِ استمالةً، ويدلُّ عليه

---

(١) قرأه ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢) الفرقان: ٦٣.

أَنَّه وَعَدَهُ الاسْتغفارَ، والحَفيُّ: البليغُ في البِرِّ والأَلطافِ، يقالُ: حَفِيَ به وتَحَفَّىٰ به.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي: وأَتنَحَّىٰ منكُم جانباً، أَرادَ مُهاجَرَتَهُ إِلى الشامِ ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أَي: أَعبُدُه، ومنهقولُهعليه السلام: «الدعاءُ: هو العبادةُ»[١]، ويجوزُأَن يريدَ بالدُّعاءِ ماحَكاه اللهُ في سورةِ الشعراءِ[٢]، وقولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيّاً﴾ فيه تعريضٌ لشقاوتِهم بدعاءِ آلهَتِهم مع التواضعِ للهِ عزَّ اسمهُ في كلمةِ ﴿عَسَىٰٓ﴾.

و﴿لَمَّا﴾ فارَقَهم وتـرَكَـهم وهبَ ٱللهُ سـبحانَه ﴿لَـهُ﴾ أَولاداً أَنـبياءَ، وأَرادَ بـ«الرحمَةِ»: النبوَّةَ، وعن الحسنِ: المالَ والوُلد[٣][٤]، وهيَ عامَّةٌ في كـلِّ خـيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ أُوتُوهُ، و لِسَانُ الصدْقِ: الثناءُ الحسنُ، وعُبِّرَ باللسانِ عـمَّا يـوجدُ باللسانِ كما يُعبَّرُ باليدِ عمَّا يُطلَقُ باليدِ وهي العطيَّةُ، قالَ:

إِنِّي أَتَتْني لِسَانٌ لَاأُسَرُّ بها[٥].

أَي: رسالةٌ، ولسانُ العربِ: لغتُهم وكلامُهم ﴿عَلِيّاً﴾ أَي: مرتفعاً، فكـلُّ أهـلِ الأَديانِ يتولَّونَهُ ويثنُونَ عليه وعلىٰ ذُرِّيَّتِه، وقيلَ: معناه: أَعْلَيْنَا ذِكرَهم بأَنَّ محمّداً وأُمَّتَه يذكُرونَهم بالجميلِ، ويُصلُّونَ عليهم إِلىٰ يومِ القيامةِ[٦].

---

(١) مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٧١، المعجم الصغير للطبراني: ج ٢ ص ٩٧.

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدعُونَ﴾ الآية: ٧٢.

(٣) في بعض النسخ: البنون.

(٤) كذا في جميع النسخ، لكنا لم نعثر فيما توفّرت من مصادر على قولٍ كهذا للحسن، بل نسبته المصادر المعتمدة الى الكلبي. راجع علىٰ سبيل المثال: الكشّاف: ج ٣ ص ٢٢، وتـفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٨.

(٥) وعجزه: من علو لا عجبٌ منها ولا سَخَر. والبيت منسوب لأعشىٰ باهلة ـ واسمه عامر بن الحارث بن رياح الباهلي ـ وهو من قصيدة يرثي بها أخاه لأمه المنتشر الباهلي، وكان رئيساً فارساً، والقصيدة هي من المراثي المفضّلة المشهورة بالبراعة والبـلاغة كـما قـاله السـيد المرتضى في أماليه. أنظر أمالي السيد المرتضى: ج ٢ ص ٢٠ ـ ٢٤.

(٦) قاله ابن عباس والحسن. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٣١.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً (٥١) وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَـهُۥ مِـن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً (٥٣) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيّاً (٥٥) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً (٥٦) وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَاناً عَلِيّاً (٥٧) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً (٥٨)﴾

قُرِئَ: ﴿مُخْلَصاً﴾ بفتحِ اللامِ وكسرِها(١)، ومعناهُ بالكسرِ: أَنَّه أَخلَصَ العبادةَ عن الشركِ والرياءِ، وأَخلَصَ نفسَهُ وأَسلَمَ وجهَهُ للهِ، وبالفتحِ: أَنَّه الَّذي أَخلَصَهُ اللهُ، والرسولُ: من الأَنبياءِ الَّذي معَهُ كتابٌ، والنبيُّ: الَّذي يُنبِئُ عنِ اللهِ وإِنْ لم يكن معهُ كتابٌ.

و ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ منَ اليمينِ، أَي: من ناحيةِ ﴿ٱلطُّورِ﴾ اليُمنىٰ، أَو منَ اليُمنِ فيكونُ صفةً لـ﴿ٱلطُّورِ﴾، ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ﴾ حيثُ كلَّمناهُ بغيرِ واسطةِ ملَكٍ ورفَعْنا منزلَته ﴿نَجِيّاً﴾ أَي: مناجياً كليماً.

﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ أَي: من أَجلِ رحمتِنا له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ ... هَـٰرُونَ﴾.

﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ إِذا وعَدَ بشيءٍ وَفَىٰ به، وذُكِرَ بصدقِ الوعدِ وإِنْ كانَ غيرُه منَ الأَنبياءِ كذلكَ؛ تشريفاً له وإِكراماً، أَو لأَنَّه المشهورُ من خصالِه، وناهيكَ أَنَّه وَعَدَ من نفسِه الصبرَ على الذبحِ حيثُ قالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(٢)

(١) وبالكسر هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية الكسائي عن أبي بكر والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٠.
(٢) الصافات: ١٠٢.

فَوفَىٰ، وعن ابنِ عبَّاس: أَنَّه واعدَ[١] رجلاً أَن ينتظِرَهُ في مكانٍ ونسِيَ الرجلُ فانْتظَرَه سَنةً[٢]. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ وقومَه ﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾ والعِبادةِ ليَجعَلَهُمْ قُدوةً لمن وراءَهم، ولأَنَّهم أَولىٰ بذلكَ من سائرِ الناس، وهو كقولِه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾[٤]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[٥].

قيلَ: سُمِّيَ ﴿إِدْرِيسَ﴾ لكَثرةِ دِراستِهِ كتابَ اللهِ[٦]، وفيه نظرٌ؛ لأَنَّ الاسمَ أَعجميٌّ، ولذلكَ امتنعَ من الصرفِ، ولو كانَ «إِفعيلاً» من الدرسِ لم يكُنْ فيه إِلَّا سببٌ واحدٌ وهو العلميَّةُ فكانَ يجبُ أَن ينصرفَ. والمَكَانُ العَلِيُّ: شرفُ النبوَّةِ والقربةُ منَ اللهِ، وقد أَنزلَ اللهُ تعالىٰ عليه ثلاثينَ صحيفةً، وهو أَوَّلُ من خاطَ الثيابَ ولَبِسَها وكانُوا يَلْبَسُونَ الجُلُودَ، وهو أَوَّلُ من خطَّ بالقلمِ ونظَرَ في علمِ النجومِ والحسابِ، وقيلَ: لأَنَّه رُفِعَ إِلى السماءِ الرابعَةِ[٧] أَو السادسةِ[٨].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إِشارةٌ إِلى المذكورينَ في السورةِ من زكريَّا إِلىٰ إِدريسَ عليهما السلام، و﴿مِن﴾ في ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للبيانِ؛ لأَنَّ جميعَ الأَنبياءِ مُنعَمٌ عليهم، و ﴿مِن﴾ الثانيةُ للتبعيض، والبُكِيُّ: جمعُ باكٍ، كالسجودِ والقُعودِ في جمع ساجدٍ وقاعدٍ.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ

---

(١) في بعض النسخ: وعد.

(٢) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٧٦.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) التحريم: ٦.

(٥) طـه: ١٣٢.

(٦) قاله وهب بن منبه اليهودي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٢٦.

(٧) قاله أنس والخدري وكعب الأحبار ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٧٧.

(٨) واليه ذهب ابن عباس والضحاك. راجع المصدر السابق.

بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (٦١) لَّايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَٰماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَابَيْنَ أَيْدِينَا وَمَاخَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً (٦٥) ﴾

يقالُ: خَلَفَهُ: إذا عقَبَه، ثُمَّ يقالُ في عَقِبِ الخيرِ: خَلَفٌ ـ بالفتح ـ وفي عَقِبِ السَوءِ خَلْفٌ ـ بالسكون ـ كما قيلَ: وعدٌ في ضَمانِ الخيرِ ووعيدٌ في ضَمانِ الشرِّ، وعن ابنِ عبَّاس: همُ اليهودُ[(١)] [(٢)]، وقيلَ: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بتأخيرِها عن أوقاتِها[(٣)] ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

رَوَوا عن عليٍّ عليه السلام: «مَنْ بَنَى الشديدَ، ورَكِبَ المنظورَ، ولَبِسَ المشهورَ»[(٤)].

وكلُّ شرٍّ عندَ العربِ غَيٌّ، وكلُّ خيرٍ رَشادٌ، قالَ:

فمَنْ يَلقَ خيراً يَحمد الناسُ أمرَهُ ومَنْ يَغْوِ لايَعدَمْ على الغيِّ لائماً[(٥)]

وقيلَ: يريدُ جزاءَ غَيٍّ[(٦)]، كقولِه: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾[(٧)] أي: مجازاةَ أثامٍ،

---

(١) في نسخة زيادة: تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلّوا نكاح الأُخت من الأب.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦.

(٣) قاله ابن مسعود وابراهيم وعمر بن عبد العزيز. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٧٩ وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٠١.

(٤) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ١٢٥.

(٥) والبيت منسوب للمرقش الأصغر، واسمه عمرو بن حرملة، وقيل: ربيعة بن سفيان، وهو من قصيدة مطلعها:

ألا يا آسلمي لاصَرم في اليوم فاطِما ولا أبداً مادام وصلك دائماً

ومعنى البيت: أنّ من يفعل الخير يحمده الناس ويثنون عليه، ومن يغو ويفعل الشرّ لاتتركه اللوائم على فعله. راجع شرح القصيدة ومناسبتها في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص١٠٦.

(٦) قاله الزجّاج في معاني القرآن واعرابه: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٧) الفرقان: ٦٨.

أَو: ﴿غَيّاً﴾ عن طريقِ الجنَّةِ، وقيلَ: غيٌّ: وادٍ في جهنَّم[١]. ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لايُنْقَصُون ﴿شَيْئاً﴾ من جزاءِ أَعمالِهم ولا يُمْنَعُونَهُ.

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لأَنَّ ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ اشتمَلَتْ عليها، قيلَ: إِنَّ «المَأْتِيَّ» مفعولٌ بمعنى فاعلٍ[٢]، والوجهُ: أَنَّ «الوَعْدَ» هو الجنَّةُ وهمْ يَأْتُونَها، أَو هو من قَولِكَ: أَتَىٰ إِليه إِحساناً، فمعناه: ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ مفعولاً مُنْجَزاً.

﴿لَغْواً﴾ أَي: فضولَ كلامٍ لا طائلَ فيه، وهو تنبيهٌ علىٰ وجوبِ تجنُّبِ اللغوِ حيثُ نزَّهَ الله عنهُ الدارَ الَّتي لاتكليفَ فيها ﴿إِلَّا﴾ تسليمَ بعضِهم علىٰ بعضٍ أَو تسليمَ الملائكةِ عليهم، أَي: فإِن كانَ ذلكَ لغواً فـ﴿لَايَسْمَعُونَ﴾ إِلَّا ذلكَ، فيكونُ من قبيلِ قولِ الشاعرِ:

ولا عَيْبَ فيهمْ غيرَ أَنَّ سيوفَهمْ ... بهنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ[٣]

كانت العربُ تَكْرَهُ الوَجبَةَ، وهي الأَكلَةُ الواحدةُ في اليومِ الواحِدِ، فأَخبرَ سبحانه أَنَّ ﴿لَهُمْ﴾ في الجنَّةِ ﴿رِزْقُهُمْ ... بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ وهيَ العادةُ المحمودةُ، ولا يكونُ ثَمَّ ليلٌ وَلَا نَهارٌ ولكن على التقديرِ.

وقُرِئَ: «نُوَرِّثُ» بالتشديدِ[٤]، والمعنىٰ: نُبقي عليه ٱلْجَنَّةَ كما يَبقىٰ على الوارثِ مالُ الموروثِ، وقيلَ: أُورِثُوا منَ الجنَّةِ المساكنَ الَّتي كانَت لأَهلِ النارِ لو أَطاعُوا[٥].

---

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٥٧. (٢) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٧٠.

(٣) والبيت للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كليني لهمٍّ يا أُميمة ناصبِ ... وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكب

وقد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٣٨٤ و ٦٨٩ فراجع.

(٤) قرأه رويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٦.

(٥) قاله الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٣٥٨.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ حكايةُ قولِ جبرئيلَ عليه السلام حينَ استَبْطَأَهُ رسولُ ٱللهِ [١]، والتنزُّلُ له معنيانِ: أَحدُهما: النُزولُ علىٰ مَهَلٍ، والآخَرُ: النُزولُ على الإِطلاقِ، والمرادُ هنا: أَنَّ نزولَنا وقتاً بعدَ وقتٍ ليسَ ﴿إِلَّا بِأَمْرِ﴾ ٱللهِ ﴿لَهُ مَا﴾ قُدَّامَنا ﴿وَمَاخَلْفَنَا﴾ من الجهاتِ والأَماكنِ وما نحنُ فيها، فلا ننتقلُ من جهةٍ إِلىٰ جهةٍ إلّا بأَمرِه ومشيئتِهِ، وقيلَ: مامَضَىٰ من أَعمارِنا وما بَقِيَ منها والحالُ الَّتي نحنُ فيها [٢]، وقيلَ: مامَضَىٰ من أَمرِ الدنيا وما يستقبلُ من أَمرِ الآخرةِ [٣] ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مابينَ النفختينِ وهو أَربعونَ سنةً، وقيلَ: الأَرضُ الَّتي بينَ أَيدينا إِذا نَزَلْنَا والسماءُ الَّتي وراءَنا وما بينَ السماءِ والأَرض [٤] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ أَي: تارِكاً لكَ يامحمَّدُ، كقولِهِ: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾ [٥]، وقيلَ: وما كانَ ربُّكَ ناسياً لأَعمالِ العامِلينَ [٦].

وكيفَ يجوزُ النسيانُ والغفلةُ علىٰ مَن له ملكُ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فحينَ عَرَفْتَهُ بهذهِ الصفةِ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحدَه ﴿وَٱصْطَبِرْ لِـ﴾ مَشاقِّ ﴿عِبَـٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ أَي: مِثلاً وشبيهاً، أَي: إذا صحَّ أَن لامعبودَ إِلَّا هوَ وحدَه لم يكُنْ بُدٌّ من عبادتِهِ، وعن ابنِ عبَّاس: لايُسمَّىٰ أَحدٌ الرحمنَ غيرُه [٧]، وقيلَ: لم يُسَمَّ شيءٌ باللهِ قطّ [٨].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ

---

(١) في نسخة زيادة هنا: عمّا سأله المشركون من قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٩.
(٣) قاله ابن عباس والربيع وقتادة والضحاك وأبو العالية. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٣٦٠.
(٤) وهو قول ابن عباس على ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ١٢٩.
(٥) الضحىٰ: ٣.
(٦) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٠.
(٧) تفسير ابن عباس: ص ٢٥٨.
(٨) قاله قتادة والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٨٢.

ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا (٧٤)﴾

يجوزُ أَن يَكونَ المرادُ بـ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الجنسَ بأَسره، لَمَّا كانت هذهِ المقالةُ موجودةً في جنسِهم أُسْنِدَتْ إِلىٰ جميعِهم، وأَنْ يكونَ بعضَ الجنسِ وهمُ الكَفَرةُ، وانتَصَبَ ﴿إِذَا﴾ بفعلٍ مضمرٍ يدُلُّ عليه ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، لأَنَّ مابعدَ لامِ الابتداءِ لايَعْمَلُ فيما قبلَهُ، ودخَلَتْ ﴿مَا﴾ للتوكيدِ، كأَنَّهمْ قالُوا: أَحَقًّا أَنَّا سنُخرَجُ أَحياءَ بعدَ الموتِ؟! والواوُ عَطَفَتْ «لَايَذَّكَّرُ»[1] علىٰ ﴿يَقُولُ﴾، والمعنىٰ: أَيَقُولُ ذلك[2] ولا يَتَذَكَّرُ حالَ النَشأَةِ الأُولىٰ حتَّىٰ لايُنكِرَ النشأَةَ الأُخرىٰ، فإِنَّ تلكَ أَعجَبُ وأَدلُّ علىٰ قدرةِ الصانعِ، إِذ أَخْرَجَ الجواهرَ والأَعراضَ[3] من العدمِ إِلى الوجودِ علىٰ غيرِ مثالٍ سبَقَ من غيرِه، وأَمَّا الثانيةُ فَقَدْ تَقَدَّمتْ نظيرَتُها وليسَ فيها إِلَّا ردُّها علىٰ ماكانَت عليه مجموعةً بعدَ التفريقِ، وقولُه: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ دليلٌ علىٰ هذا المعنَىٰ، وقُرِئَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتخفيفِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي: من قبلِ الحالةِ الَّتي هوَ فيها وهيَ حالةُ بقائِه.

أَقسمَ سبحانَهُ باسمِه مضافاً إِلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ: تفخيماً لشأنِه ورَفعاً لقَدره،

---

(١) الظاهر من العبارة أنّ المصنّف اعتمد علىٰ قراءة التشديد هنا كما هو واضح.

(٢) في نسخة زيادة: استهزاءً.

(٣) ليس في بعض النسخ لفظة «الأعراض».

ويجوزُ أَن يكونَ الواو في ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ للعطفِ، وأَن يكونَ بمعنَى «مَعَ»، أَي: يُحشَرُونَ مع قُرَنائِهِم منَ الشياطينِ الَّذينَ أَضلُّوهم، يُقْرَنُ كلُّ كافرٍ مـعَ شـيطانٍ في سلسلةٍ ﴿ثُمَّ﴾ يُحضَرونَ ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ مـتجاثينَ[١] مسـتَوفِزِينَ[٢] عـلى الرُكَبِ، متخاصِمِينَ يتبرَّأُ بعضُهم من بعض، ومثلُه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[٣].

و«الشيعَةُ» هنا هي الطائفةُ الَّتي شاعَتْ، أَي: تَبِعَتْ غاوياً من الغُواةِ، والمعنَىٰ: نستخرِجُ ﴿مِن كُلِّ﴾ طائفةٍ من طوائفِ الغيِّ والضلالِ أَعتاهم وأَعـصاهم، فـإِذَا اجتمعوا طرحناهم في النارِ على الترتيبِ: نُقدِّمُ أَولاهم بالعذابِ فأَولاهم، ويجوزُ أَن يريدَ بأَشَدِّهم ﴿عِتِيًّا﴾: رؤساءَ الشِيَعِ وأَئمَّتَهم لتَضاعُفِ جُرمِهم، فإِنَّهم ضُلَّالٌ ومضلُّون، كقولِه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٤].

واخْتُلِفَ في إِعرابِ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ فقالَ الخليلُ[٥]: إِنَّه مرفوعٌ على الحكايةِ والتقديرُ: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ الَّذينَ يُقالُ فيهم: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾[٦]، وقالَ سيبَويهِ: هو مبنيٌّ على الضمِّ لسقوط صدرِ الجملةِ الَّتي هي صلةُ ﴿أَيُّهُمْ﴾ وأَصلهُ: لَنَنْزِعَنَّ من كُـلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ هو أَشدُّ، منصوباً[٧].

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التـفاتٌ إِلى الإِنسـانِ، ويـعضُدُهُ قـراءَةُ ابـنِ عـبَّاس: «وَإِنْ

---

(١) الجثو: الجلوس على الركبتين، أو القيام على أطراف الأصابع. (القاموس: مادة جثا).

(٢) يقال: استَوفَزَ في قعدته: اذا قعد قعوداً منتصباً غير مطمئن. (الصحاح: مادة وفز).

(٣) الجاثية: ٢٨. (٤) العنكبوت: ١٣.

(٥) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض في الشعر، ولد عام ١٠٠ هـ في البصرة، وعاش فيها فـقيراً صابراً مغموراً في الناس لايُعرف، وهو أُستاذ سيبويه النحوي، توفي عـام ١٧٠ هـ. أُنظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ٢ ص ١٥.

(٦) حكاه عنه تلميذه سيبويه ومكي بن أبي طالب القيسي. راجع كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٣٩، ومشكل اعراب القرآن: ج ١ ـ ٢ ص ٤٥٨.

(٧) أُنظر كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٩٩.

مِّنْهُمْ»[١]، أَو خِطابٌ للناسِ من غيرِ التفاتٍ إِلى المذكورِ، فإِن أُريدَ الجنسُ كلُّه فمعنى الورودِ: دخولُهم فيها وهي خامدةٌ[٢] فيعبُرُها المُؤمنونَ وتَنهارُ النارُ بغيرِهم، وعن ابنِ مسعود والحسن: هو الجوازُ على الصراطِ؛ لأَنَّ الصراطَ ممدودٌ عليها[٣]، وعن ابنِ عبَّاس: قد يَرِدُ الشيءُ الشيءَ وإِن لم يدخُلْهُ، كقولِه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[٤] ووَردَتِ القافلةُ البلَدَ وإِن لم تَدْخُلْهُ[٥] [٦]، وعن مُجاهدٍ: ورودُ المؤمن النارَ هو مَسُّ الحُمَّىٰ جسَدَهُ في الدنيا[٧]، لقولِهِ عليه السلام: «الحُمَّىٰ من فَيْحِ جهنَّم»[٨] و «الحُمَّىٰ حظُّ كُلِّ مؤمنٍ من النَّارِ»[٩] [١٠] وإِن أُريدَ الكُفَّارُ خاصَّةً فالمعنىٰ ظاهرٌ، والحَتْمُ مصدرُ حَتَمَ الأَمرَ: إِذا أَوجَبَهُ فسُمِّيَ به المُوجَبُ، أَي: ﴿كَانَ﴾ ورودُهُم واجباً ﴿عَلَىٰ﴾ ٱللهِ، أَوجبَهُ علىٰ نفسِهِ وقَضَىٰ به.

وقُرِئَ: ﴿نُنَجِّى﴾ و «نُنْجِي»[١١] بالتشديدِ والتخفيفِ[١٢] ﴿جِثِيّاً﴾ حالٌ، وهو جمعُ جاثٍ.

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٩.

(٢) في نسخة: جامدة.

(٣ و٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥.

(٤) القصص: ٢٣. (٥) في نسخة زيادة: ولكن قربت منه.

(٧) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٠٥.

(٨) تعدّدت ألفاظ الحديث في روايات من طرق العامة، أُنظر على سبيل المثال: صحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٤٦ ح ٣٢٦١ وج ٧ ص ٢٣٦ ح ٥٧٢٥، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١١٤٩ ح ٣٤٧١ و٣٤٧٣، ومسند احمد ج ١ ص ٢٩١ وج ٢ ص ٢١ و٨٥.

(٩) مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٢ ص ٣٠٦، الترغيب والترهيب للمنذري: ج ٤ ص ٣٠٠.

(١٠) في نسخة زيادة: ويجوز أن يراد بالورود جثوّهم حولها.

(١١) وهي قراءة الكسائي ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(١٢) في نسخة زيادة: وينجّىٰ وينجىٰ على مالم يسمّ فاعله إن أُريد الجنس باسره فهو ظاهر، وإن أُريد الكفرة وحدهم، فمعنى ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: انّ المتقين يساقون الى الجنة عقيب ورود الكفّار، لا أنّهم يواردونهم ثم يتخلصون.

﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ ظاهراتِ الحُجَجِ، مبيِّناتِ المقاصدِ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾[(١)]، وقُرئَ: «مُقَاماً»[(٢)] بالضمِّ وهو موضعُ الإقامةِ، وقُرِئَ بالفتحِ وهو موضعُ القيامِ، والنديُّ: المجلِسُ وحيث يَنْتَدي القومُ، والمعنىٰ: أَنَّهم إذا سَمِعُوا الآياتِ[(٣)] قالوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من المؤمنينَ بِهَا والجاحدينَ لها أوفرُ حظّاً من الدنيا[(٤)].

وَ﴿كَمْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن﴾ تبيينٌ لإبهامِهَا، أَي: كثيراً من القرونِ أهلَكْنا، و ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في موضع نصبٍ صفةً لِـ﴿كَمْ﴾، والأَثَاثُ: متاعُ البيتِ، وقُرِئَ: ﴿وَرِءْياً﴾ بالهمزةِ وغيرِ الهمزةِ[(٥)] وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ من رأَيت، ومن لم يَهمِزْ قَلَبَ الهمزةَ ياءً وأَدغَمَ، ويجوزُ أَن يكونَ من الريِّ الَّذي هو النعمةُ والترفُّهُ، من قولِهم: ريَّانٌ من النعيم.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدّاً حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَايُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً (٧٦) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) قرأه ابن كثير وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(٣) في نسخة زيادة: وهُم جهلة لايعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم.

(٤) في نسخة هنا زيادة: حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة، ويروى انّهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين علىٰ فقراء المسلمين أنّهم اكرم عند الله منهم.

(٥) وهي قراءة نافع وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١١، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧ .

مِّنْهُمْ»(١)، أَو خِطابٌ للناسِ من غيرِ التفاتٍ إِلى المذكورِ، فإِن أُريدَ الجنسُ كـلُّه فمعنى الورودِ: دخولُهم فيها وهي خامدةٌ(٢) فـيعبُرُها المُـؤمنونَ وتَـنهارُ النـارُ بغيرِهم، وعن ابنِ مسعود والحسن: هو الجوازُ على الصراطِ؛ لأَنَّ الصراطَ ممدودٌ عليها(٣)، وعن ابنِ عبَّاس: قد يَرِدُ الشيءُ الشيءَ وإِن لم يدخُلْهُ، كقولِه: ﴿وَلَـمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾(٤) ووَردَتِ القافلةُ البلَدَ وإِن لم تَدْخُلْهُ(٥) (٦)، وعـن مُـجاهدٍ: ورودُ المؤمن النارَ هو مَسُّ الحُمَّىٰ جسَدَهُ في الدنيا(٧)، لقولِه عليه السلام: «الحُمَّىٰ مـن فَيْحِ جهنَّم»(٨) و «الحُمَّىٰ حظُّ كُلِّ مؤمنٍ من النَّارِ»(٩) (١٠) وإِن أُريدَ الكُفَّارُ خاصَّةً فالمعنىٰ ظاهرٌ، والحَتْمُ مصدرُ حَتَمَ الأَمرَ: إِذا أَوجبَهُ فسُـمِّيَ بـه المُـوجَبُ، أَي: ﴿كَانَ﴾ ورودُهُم واجباً ﴿عَلَىٰ﴾ ٱللهِ، أَوجبَهُ علىٰ نفسِهِ وقَضَىٰ به.

وقُرِئَ: ﴿نُنَجِّى﴾ و «نُنْجِي»(١١) بالتشديدِ والتخفيفِ(١٢) ﴿جِـثِيّاً﴾ حـالٌ، وهو جمعُ جاثٍ.

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٩.

(٢) في نسخة: جامدة.

(٣ و٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥.

(٤) القصص: ٢٣.

(٥) في نسخة زيادة: ولكن قربت منه.

(٧) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٠٥.

(٨) تعدّدت ألفاظ الحديث في روايات من طرق العامة، أُنظر عـلى سـبيل المـثال: صـحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٤٦ ح ٣٢٦١ وج ٧ ص ٢٣٦ ح ٥٧٢٥، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١١٤٩ ح ٣٤٧١ و٣٤٧٣، ومسند احمد ج ١ ص ٢٩١ وج ٢ ص ٢١ و٨٥.

(٩) مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٢ ص ٣٠٦، الترغيب والترهيب للمنذري: ج ٤ ص ٣٠٠.

(١٠) في نسخة زيادة: ويجوز أن يراد بالورود جثوّهم حولها.

(١١) وهي قراءة الكسائي ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(١٢) في نسخة زيادة: وينجّىٰ وينجىٰ على مالم يسمّ فاعله إن أُريد الجنس باسره فهو ظاهر، وإن أُريد الكفرة وحدهم، فمعنى ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾: انّ المتقين يساقون الى الجنة عقيب ورود الكفّار، لا أنّهم يواردونهم ثم يتخلصون.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهراتِ الحُجَجِ، مبيِّناتِ المقاصدِ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ (١)، وقُرِئَ: «مُقَاماً» (٢) بالضمِّ وهو موضعُ الإقامةِ، وقُرِئَ بالفتحِ وهو موضعُ القيامِ، والندِيُّ: المجلِسُ وحيث يَنْتَدي القومُ، والمعنَىٰ: أنَّهم إذا سَمِعُوا الآياتِ (٣) قالوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من المؤمنينَ بِهَا والجاحدينَ لها أوفرُ حظّاً من الدنيا (٤).

وَ﴿كَمْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن﴾ تبيينٌ لإبهامِهَا، أَي: كثيراً من القرونِ أهلَكْنا، و ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في موضع نصبٍ صفةً لِـ ﴿كَمْ﴾، والأَثَاثُ: متاعُ البيتِ، وقُرِئَ: ﴿وَرِءْياً﴾ بالهمزةِ وغيرِ الهمزةِ (٥) وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ من رأَيت، ومن لم يَهمِزْ قَلَبَ الهمزةَ ياءً وأَدغَمَ، ويجوزُ أَن يكونَ من الريِّ الَّذي هو النعمةُ والترفُّهُ، من قولِهِم: ريَّانٌ من النعيم.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَايُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً (٧٦) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) قرأه ابن كثير وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(٣) في نسخة زيادة: وهُم جهلة لايعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم.

(٤) في نسخة هنا زيادة: حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة، ويروى انّهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين علىٰ فقراء المسلمين أنّهم اكرم عند الله منهم.

(٥) وهي قراءة نافع وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١١، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧ .

ٱلرَّحۡمَـٰنِ عَهۡداً (٧٨) كَلَّا سَنَكۡتُبُ مَايَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّاً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَايَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡداً (٨٠) ﴾

المعنىٰ: مَدَّ ﴿لَهُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ﴾ أي: أَمهَلَهُ وأَملَىٰ له في العُمرِ [١]، فأَتَىٰ بِهِ علىٰ لفظِ الأمرِ ليُعْلَمَ بذلك أَنَّه حتمٌ مفعولٌ لا مَحالةَ كالمأمورِ به؛ ليَقْطَعَ عذرَ الضالِّ إِذ عَمَّرهُ مايُمكِنُهُ التذكُّرُ فيه، أَو يكونُ في معنى الدعـاءِ بأَن يُـمهِلَهُ ٱللهُ، أَو بـمعنىٰ: فليَعشْ ماشاءَ فإِنَّه لاينفعُهُ طولُ عمرِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ﴾ الموعودَ رأْيَ عينٍ: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ في الدنيا وهو ظفرُ المسلمين بهم وتعذيبُهم إِيَّاهم قتلاً وأَسْـراً ﴿وَإِمَّـا ٱلسَّاعَةَ﴾ أَي: يومَ القيامةِ، وما ينالُهم من النكالِ ﴿فَـ﴾ حينئذٍ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أَنَّ الأَمرَ علىٰ عكسِ ماقدَّروهُ، وأَنَّهم ﴿شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضۡعَفُ جُنداً﴾ لا ﴿خَيۡرٌ مَّقَاماً وَأَحۡسَنُ نَدِيّاً﴾ كما قَالُوه، و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه هي الَّتي تُحكَىٰ بعدها الجُمَلُ، والجملةُ هي قولُه: ﴿إِذَا رَأَوۡاْ مَايُوعَدُونَ ... فَسَيَعۡلَمُونَ﴾، والنديُّ: المجلِسُ الجامِعُ لوجوهِ القومِ.

﴿وَيَزِيدُ﴾ معطوفٌ علىٰ موضعِ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ والمعنىٰ: يزيدُ في ضلالِ الضُّلَّالِ بخذلانهِ، ويزيدُ في هدايةِ المهتَدينَ بتوفيقهِ، و ﴿ٱلۡبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ وهـي أَعمالُ الآخرةِ كلُّها ﴿خَيۡرٌ ... ثَوَاباً﴾ من مُفاخَراتِ الكفَّارِ ﴿وَخَيۡرٌ﴾ مرجِعاً وعاقبةً أَو خيرٌ منفَعَةً، من قولِهم: ليس لهذا الأَمرِ مَرَدٌّ وهو أَرَدُّ عليك أَي: أَنفعُ، قالَ:

ولا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْداً [٢]

ولمَّا كانت رؤيةُ الشيءِ طريقاً إِلىٰ علمِهِ، وصحَّةِ الخبرِ عنه ٱستعمَلُوا «أَرَأَيْتَ»

---

(١) في نسخة زيادة: ويزيده بانواع التنعمّ: كقوله: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِى طُغۡيَـٰنِهِمۡ﴾.

(٢) وصدر البيت: ما إن جَزِعْتُ ولا هَلِعْتُ. وهو من قصيدة لعمرو بن معد يكرب، وقبله:

كـم مـن أخٍ لي صـالحٍ ... بـوّأته بـيديّ لـحْدا

يقول: إنّ هذا الأخ الصالح ماحزنت عليه حزناً شديداً ولا هيّناً، وهذا نفي الحزن رأساً، وهو لايريد البكاء عليه، إذ لا يغني بكاه شيئاً، فتعقيبه نفي الجزع بهذا تنبيهاً علىٰ أنّ صبره عن تأدّبٍ وتبصّرٍ ومعرفةٍ بالعواقب. أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

في معنى «أَخْبِرْ»، والفاءُ جاءَت للتعقيبِ، فكأَنَّه قالَ: أَخْبِرْ أيضاً بقصَّةِ هذا الكافرِ عقيبَ حديثِ أُولئكَ وهو العاصُ بن وائل: كان لخَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ عليه دينٌ فتَقَاضَاهُ، فقالَ: لا واللهِ حتَّىٰ تكفُرَ بمحمَّدٍ، فقالَ: لا واللهِ لا أَكفُرُ بمحمَّدٍ حيّاً ولا ميِّتاً، ولا حينَ تُبعَثُ [١]، قالَ: فإِنِّي لمبعوثٌ؟ فإِذا بُعِثتُ سيكونُ لي مالٌ وولَدٌ فأُعطِيكَ.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولِهِم: اطَّلَعَ الجَبَلَ: إذا ارتَقَىٰ إلىٰ أَعلاهُ، والمعنىٰ: أَو قَدْ بلَغَ من عظمةِ قدرِهِ أَنِ ارْتَقَىٰ إلىٰ علمِ الغيبِ حتَّى عَلِمَ أَنَّا سنُؤتِيهِ ﴿مالاً وَوَلَداً ... أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ﴾ ٱللهِ ﴿عَهْداً﴾؟ فإِنَّ ما ادَّعاهُ لا يُتَوصَّلُ إليه إلّا بأَحَدِ هذينِ الطريقَينِ، وقُرِئَ: «وُلْداً» [٢] وهو جمعُ وَلَدٍ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وتنبيهٌ على الخَطأ، أَي: هو مُخطئٌ فيما تصوَّره لنفسِهِ وتمنَّاه، فليرتَدِعْ عنه. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَي: ما عندَهُ من المالِ والولَدِ بإِهلاكِنا إيَّاهُ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ وحيداً بلا مالٍ ولا وَلَدٍ ولا عُدَّةٍ ولا عَدَدٍ.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْداً (٨٧) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَداً (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَداً (٩١)﴾

---

(١) في نسخة زيادة: يا كافر.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

أَي: ليتَعزَّزُوا بآلهتِهِم بأَن يكُونُوا لهم شفعَاءَ في الآخرةِ. ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم وإنكارٌ لتعزُّزِهِم بهم ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ الضميرُ لـ«الآلهة» أَي: سيجحَدُونَ عبادتَهُم ويُنكرونَها ويقولُونَ: وَٱللهِ ماعبدتُمونا، كقولِه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (١) أَو للمشركينَ، أَي: يُنكِرونَ أَن يكونُوا عَبَدُوها كما في قولِه: ﴿وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢)، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ هو في مقابلةِ ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ والمرادُ: ضدُّ العزِّ وهو الذُلُّ والهَوانُ، أَي: يكونُونَ عليهم ضِدّاً لما قَصَدُوه وذُلّاً لهم لا عِزّاً، أَو يكونُونَ عليهم عوناً، والضِدُّ: العونُ؛ لأَنَّه يُضادُّهُ بإعانتِهِ عليه، وإنَّما وحَّدَ لأَنَّهم كشيءٍ واحدٍ في تَضامِّهِم وتوافُقِهِم، كقولِه عليه السلام: «وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُم» (٣).

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أَي: تُزعِجهم إزعاجاً من الطاعةِ إلى المعصيةِ، وتُهَيِّجهم وتُغريهم لها بالوساوس، والمعنىٰ: خَلَّيْنَا بينَهم وبينهم ولم نَمْنَعْهم (٤) ولم نَحُلْ بينَهُم وبينَهم بالإلجاءِ.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأَن يَهْلِكُوا ويَبيدُوا حتَّىٰ تَستَريحَ منهم، فليس بينَك وبينَ هَلاكِهِم إلَّا أَيَّاماً معدودةً قليلةً.

وعن ابنِ عبَّاس: أَنَّه كانَ إِذَا قرأَها بَكَىٰ وقال: آخِرُ العددِ خُروجُ نفسِكَ، آخِرُ العددِ فراقُ أَهلِكَ، آخِرُ العددِ دخولُ قبرِكَ (٥)

---

(١) النحل: ٨٦. (٢) الانعام: ٢٣.

(٣) أخرجه النسائي في سننه: ج ٨ ص ٢٠ من كتاب القسامة باسناده عن علي عليه السلام.

(٤) في نسخة زيادة: ولم نعصمهم، وقيل: سلّطناهم كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ وسمّيت التخلية باسم الإرسال مجازاً كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ أي: سلّطنا.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٢.

وعن ابنِ السمّاك[١]: إذا كانت الأنفاسُ بالعددِ ولم يَكُن لها مددٌ فما أَسرَعَ ماتَنفَدُ[٢].

ذَكَر ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بلفظِ التبجيلِ، وهو أَنَّهم يُجمَعُونَ إِلىٰ ربِّهم الَّذي غَمَرَهُم برحمتِهِ كما يَفِدُ الوُفَّادُ على الملوكِ ينتظرونَ فضلَهُ وإكرامَهُ، وذَكَرَ الكافِرِينَ بأَنَّهم يُسَاقُونَ إلى النارِ باستخفافٍ وإهانةٍ كأنَّهم إبلٌ عِطَاشٌ تُساقُ إلى الماءِ.

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الواو ضميرُ العبادِ، ودلَّ عليه ذكرُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، و ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ بدلٌ، ويجوز أَن تكونَ علامةَ الجمعِ على لغةِ مَنْ قالَ: أَكلونِيَ البَراغيثُ، والفاعلُ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ لأَنَّه في معنى الجمعِ، وإن نَصَبْتَ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ علىٰ تقديرِ حذفِ المضافِ جازَ، أَي: ﴿إِلَّا﴾ شفاعةَ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾، والمرادُ: لايملِكُونَ أَن يُشفَعَ لهم، واتِّخاذُ العهدِ هو الاستظهارُ بالإيمانِ والإقرارِ بوحدانيَّةِ ٱللهِ وتصديقِ أَنبيائه وأَوليائه، وقيلَ: إنَّ المعنىٰ: لايَشفَعُ إلَّا من أَطلقَ الرحمنُ له الشفاعةَ وأَذِنَ له فيه كالأَنبياءِ والأَئمَّةِ وخيارِ المؤمنينَ[٣].

وعن ابنِ مسعود: أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لأَصحابِهِ ذاتَ يومٍ: «أَيَعجِزُ أَحدُكُم أَن يَتَّخِذَ كُلَّ صباحٍ ومساءٍ عند ٱللهِ عهداً؟» قالوا: وكيفَ ذلك؟ قالَ: «يقولُ: اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، إِنِّي أَعهدُ إِليكَ بأَنِّي أَشهَدُ أَن لَّا إلـٰه إلَّا أَنتَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، وأَنَّ محمَّداً عبدُكَ ورسولُكَ، وإنَّك إن تَكِلْنِي إِلىٰ نَفْسي تُقَرِّبْني من الشرِّ وتباعِدْني من الخيرِ، وإِنِّي لا أَثِقُ إلَّا برحمتِكَ، فاجْعَلْ

---

(١) هو أبو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله الدقّاق، المعروف بابن السمّاك، من أهل بغداد، كان مكثراً من الحديث، وله حلقة درس، مات عام ٣٤٤ هـ ببغداد ودفن بمقبرة باب الدير. راجع الانساب للسمعاني: ج ٣ ص ٢٩٠.

(٢) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ٢٥٢.

(٣) قاله ابن عطية. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٢١٨.

سورةُ طَـٰه

مكِّيَّةٌ[1]، وهي مائَةٌ وخمسٌ وثلاثونَ آيةً كوفيٌّ، اثنتانِ بصريٌّ، عدَّ الكوفيُّ: ﴿طه﴾ ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾[2] ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾[3] ﴿لِنَفْسِى﴾[4] ﴿مَاغَشِيهُمْ﴾[5] ﴿رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾[6]، وعدَّ البصري: ﴿فُتُوناً﴾[7] ﴿مِنِّى هُدًى﴾[8] ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[9].

في حديثِ أُبيٍّ: «من قرأَها أُعطِيَ يَومَ القيامةِ ثوابَ المهاجرين والأَنصار»[10].

وعن الصادقِ عليه السلام: «لا تَدَعُوا قِراءَةَ طه، فإِنَّ ٱللهَ يُحبُّها ويُحبُّ مَن قرأَها، ومَنْ أَدْمَنَ قِراءَتَها أَعطاهُ ٱللهُ كتابَهُ بيمينهِ ولم يُحاسبْهُ بما عَمِلَ في الإِسلامِ، وأُعطيَ من الأَجرِ حتَّىٰ يرضىٰ»[11].

---

(١) قال الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٤٩: مكية إلّا آيتي ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان، وهي ١٣٥ آية، نزلت بعد مريم.

(٢ و٣) الآية: ٣٣ و٣٤.

(٤) الآية: ٤١.

(٥) الآية: ٧٨.

(٦) الآية: ٩٢.

(٧) الآية: ٤٠.

(٨) الآية: ١٢٣.

(٩) الآية: ١٣١.

(١٠) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٠ مرسلاً.

(١١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (٤) ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ (٨)﴾

قُرِئَ بتفخيمِ ﴿ط﴾ وإمالةِ ﴿ـه﴾ [١]، وقُرِئَ بإمالتِهِمَا [٢]، وتَفْخيمِهمَا [٣]، وعن الحسن: «طَهْ» [٤]، وفُسِّرَ بأَنَّه أَمرٌ بالوطءِ [٥]، وأَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله كانَ يقومُ في تهجُّدِهِ علىٰ إحدىٰ رِجلَيهِ، فأُمِرَ بأَن يَطَأَ الأَرضَ بقدَمَيهِ معاً [٦]، ورُوِيَ ذلك عن الصادق عليه السلام [٧]، والأَصلُ «طَأْ» فقُلِبَت همزتُه هاءً، أَو قُلِبَتْ أَلفاً في «يَطَأْ» ثُمَّ بُنِيَ عليه الأَمرُ، والهاءُ للسكتِ.

﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ إِنْ جُعِلَت ﴿طه﴾ اسماً للسورةِ احتَمَلَ أَن يكونَ خبراً عنه وهو مبتدأٌ و ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ أُوقِعَ موقعَ الضميرِ لأَنَّ السورةَ قرآنٌ، واحتَمَلَ أَن يكونَ جواباً

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وورش وأبي اسحاق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣١، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٦٨.

(٢) قرأه حمزة والكسائي والأعمش وخلف وأبو بكر الّا الأعشىٰ والبرجمي. راجع التبيان: ج ٧ص ١٥٧، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٦٨.

(٣) وهي قراءة الجمهور. راجع المصادر السابقة.

(٤) تفسير الحسن البصري: ج ٣ ص ١١٥.

(٥) وهو ما حكاه ابن الأنباري. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٣.

(٦) رواه ابن عباس والربيع بن أنس كلاهما عنه صلى الله عليه وآله. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٦، وتفسير ابن كثير: ج ٣ ص ١٣٨.

(٧) أُنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٥٧ ـ ٥٨.

له وهو قَسَمٌ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي: لتتعبَ هذا التعَبَ، وكانﷺ يُصلّي الليلَ كُلَّه ويُعلِّقُ صدرَهُ بحبلٍ حتَّىٰ لايَغلِبَهُ النومُ، فأمرَه ٱللهُ سبحانَه أَنْ يُخَفِّفَه علىٰ نفسِه، و«الشقَاءُ» يجيءُ بمعنىٰ «التعب» ومنه المَثَلُ: «أَتْعَبُ من رائضِ مُهْرٍ» و«أَشقىٰ مِنْ رائض مُهرٍ».

﴿تَذْكِرَةً﴾ علَّةٌ للفعلِ و ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ كذلك، إلَّا أَنَّ هذا وَجَبَ مجيئُهُ مع اللامِ لأنَّه ليس لفاعلِ الفعلِ المعلَّلِ[1]، والمعنىٰ: لكن أنزلنَاهُ ﴿لِـ﴾ نُـذكِّـرَ بـه ﴿مَـن يَخْشَىٰ﴾ ٱللهَ، والتذكرةُ بمعنى التذكيرِ.

﴿تَنزِيلًا﴾ أَي: نُنَزِّلُ تنزيلاً، ويجوزُ أَن يُنصَبَ بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ لأَنَّ معنىٰ «مَآ أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا تَذْكِرَةً»: أَنزَلْناهُ تذكرةً، أَو يكونُ بمعنىٰ: أَنزلَهُ ٱللهُ تذكرةً لمَنْ يَخشَىٰ تنزيلَ ٱللهِ، وما بعدَ ﴿تَنزِيلًا﴾ إِلىٰ قولِهِ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تعظيمٌ لشأنِ المُنزَلِ لنسبتِهِ إِلىٰ مَن هذِهِ أَفعالُه وصفاتُه، و﴿ٱلْعُلَى﴾ جمعُ «العُليَا» تأنيثُ «الأَعْلَىٰ»، ووصَفَ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ بذلك دَلالةً علىٰ عِظَمِ اقتدارِ من يَخلُقُ مثلَها في عُلُوِّها.

و﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ مرفوعٌ على المدحِ علىٰ تقديرِ: هو الرحمنُ، والجملةُ الَّتي هي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يجوزُ أَن تكونَ خبر لمُبتدأ محذوف، وأَن تكونَ مع ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ خبرَيْنِ للمبتدأ، ولمَّا كانَ الاستِواءُ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الَّذي هو سريرُ المَلِكِ ممَّا يَردُفُ[2] المُلكَ جعلوهُ كنايةً عن المُلْكِ فقالوا: ٱسْتَوَىٰ على العَرْشِ بِمعنى: مَلَكَ، ونحوُه: قولُهم: يَدُ فلانٍ مبسوطةٌ أَي: هو جوادٌ، ويَدُه مغلولةٌ أَي: هو بخيلٌ، من غيرِ تصوُّرِ يدٍ ولا غُلٍّ ولا بَسْطٍ. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أَي: ما في ضمنِ الأَرضِ من الكنوزِ والأَمواتِ.

---

(١) في نسخة زيادة: به ففاتته شريطة الانتصاب.

(٢) في نسخة: يرادف.

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وهو ما أَسْرَرتَهُ إِلىٰ غيرِكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ من ذلك وهو ما أَخطَرْتَهُ ببالِكَ، أَو ما أَسرَرتَهُ في نفسِكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ منه وهو ما ستُسِرُّهُ فيها، والمعنىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾ بذكرِ ٱللهِ وغيرِهِ فاعلَمْ أَنَّه غنيٌّ عن جَهْرِكَ لأَنَّهُ عَلِمَ ﴿ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ منه[1]. و ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيثُ الأَحسنِ.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾

ثمَّ قفَّاهُ بقصَّةِ ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ليقتديَ به في الصبرِ علىٰ تكاليفِ الرسالةِ ومُقاساةِ الشدائدِ، و ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ ﴿حَدِيثُ﴾ أَو مفعولٌ لـ «ٱذْكُرْ»، استأذَنَ موسىٰ عليه السلام شُعيباً في الخروجِ إِلىٰ أُمِّه، وخرجَ بأَهلِهِ، فوُلِدَ له في الطريقِ ٱبنٌ في ليلةٍ شاتيةٍ مُظلِمَةٍ، وقد ضَلَّ الطريقَ وتفرَّقَتْ ماشيتهُ ولم ينقدحْ زندُه[2]، فـ ﴿رَءَا نَاراً﴾ من بعيدٍ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ في مكانكم ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أَي: أَبْصَرْتُ، والإِيناسُ: الإبصارُ البيِّنُ الَّذي لاشُبهةَ فيه، وقيلَ: هو إِبصارُ ما يُؤنَسُ به[3]، ولمَّا كانَ الإِيناسُ متيقَّناً حقَّقهُ بلفظةِ «إِنَّ»، ولمَّا كانَ الإِتيانُ بالقَبَسِ ـ وهو النارُ المقتبسةُ ـ

---

(١) في نسخة زيادة: عنده.

(٢) الزند: العود الذي يُقدح به النار. (الصحاح: مادة زند).

(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٧١.

ووجودُ الهُدَىٰ متوَقّعَيْنِ بَنَى الأَمرَ فيهما على الرجاءِ والطمعِ فقالَ: ﴿لَعَلِّي﴾ لئَلَّا يَعِدَ ماليسَ الوفاءُ به مستيقناً، وأَرادَ بـ﴿هُدًى﴾ قوماً يهدونه إلى الطريقِ، أَو ينفعونه بهداهم في أَبوابِ الدينِ؛ لأَنَّ أَفكارَ الأَبرارِ مغمورةٌ بالهِمَمِ الدينيَّةِ في جميعِ أَحوالِهم، والمعنىٰ: ذَوي هُدىً، أَو إِذا وُجِدَ الهُداةُ فقد وُجِدَ الهدىٰ.

وقُرِئَ: «أَنِّي» بالفتحِ[1]، أَي: ﴿نُودِيَ﴾ بأَنّي ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ ومن كَسَرَ فالمعنىٰ: نُودِيَ فقيلَ: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، أَو لأَنَّ النداءَ ضربٌ مِن القَولِ، والمعنىٰ في تكريرِ الضميرِ: تَوكيدُ الدلالةِ وتحقيقُ المعرفةِ.

ورُوي[2]: أَنّه حين انتهىٰ رأَى شجرةً خَضراءَ من أَسفَلِها إِلى أَعلاها تَتَوَقَّدُ فيها نارٌ بيضاءُ، وسَمِعَ تسبيحَ الملائكةِ، ورأَىٰ نوراً عظيماً لم تكُنِ الخضرةُ تُطفِئُ النارَ ولا النارُ تُحرِقُ الخضرةَ، فَعلِمَ أَنَّه لأَمرٍ عظيم، فبُهِتَ فأُلقِيَتْ عليه السكينَةُ ثُمَّ نُودِيَ: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قيلَ: أُمِرَ بخَلْعِ النعلينِ لأَنَّهما كانتَا من جلد حِمارٍ ميِّتٍ[3]، وقيلَ: ليُباشِرَ الوادِيَ بقَدَمَيْه متبرِّكاً به واحتراماً له[4] [5] ﴿طُوًى﴾ قُرِئَ بالتنوين وغير التنوين[6] بتأويلِ المكانِ والبقعةِ، وقيلَ: سمِّيَ به لأَنَّه قُدِّسَ مرَّتَينِ فكأَنَّه طُوِيَ بالبركةِ كرَّتينِ[7].

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو ونصير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣١.

(٢) وهو ما رواه ابن عباس. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٧.

(٣) قاله كعب الأحبار وعكرمة والحسن، وروته العامّة عن النبي ﷺ. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٣، وتفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١١٦، وتفسير ابن العربي: ج ٣ ص ٢٥٣.

(٤) في نسخة زيادة: وقيل: لأن الحفوة تواضع، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين.

(٥) وهو قول علي عليه السلام والحسن وابن جريج ومجاهد وعكرمة. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٦٤، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٦) وبغير التنوين قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والحسن وأبو السمال والأعمش وابن محيصن. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٠، وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٧.

(٧) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ١١٥.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: أصطفيتكَ للرسالةِ، وقُرِئَ: «وَإِنَّا اخْتَرْنَاكَ»(١)، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ تعلَّقَ اللامُ بـ﴿اسْتَمِعْ﴾ أو بـ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ و «مَا» موصولةٌ أو مصدريّةٌ.

﴿لِذِكْرِىٓ﴾ أَي: لتذكرني(٢) فيها؛ لأَنَّ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تشتَمِلُ على الأَذكارِ، وعن مجاهد: لأنّي ذكَرتُها في الكُتبِ وأَمَرتُ بها(٣)، وقيلَ: لأَن أَذكُرَكَ بالمدحِ والثناءِ وأَجعَلَ لكَ لسانَ صدقٍ(٤)، أَو لذِكرِي خاصَّةً لاتَشوبُه بذكرِ غيرِي، أَو لأَوقاتِ ذِكرِي وهي مَواقيتُ الصلاةِ، واللامُ مثلُها في قولِكَ: جئتُكَ لوقتٍ كذا وَلِستٍّ مَضَيْنَ، ومثلُه قولُه: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾(٥)، وقيلَ: إِنَّه ذِكْرُ الصلاةِ بعدَ نسيانها أي: أَقِمها متىٰ ذَكَرْتَ: كُنتَ في وقتِها أَو لم تكُنْ(٦)، ورُوِيَ ذلكَ عنِ الباقرِ(٧) عليه السلام(٨)، وكان ينبغي أَن يُقالَ: لِذِكرِها ولكنَّه علىٰ حذفِ المضافِ أي: لذكرِ صلاتي، أَو لأَنَّه إِذا ذُكِرَ الصلاةُ فقد ذُكِرَ اللهُ.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أَي: فلا أَقولُ: هي ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ لفرطِ إِرادتي إِخفاءَها، ولولا مافي الإِخبارِ بإِتيانها مع تَعميَةِ وقتِها من اللطفِ لَما أَخبرتُ به، وفي مصحفِ أُبيٍّ: «أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِى»(٩) ورُوِيَ ذلكَ عن الصادقِ عليه السلام(١٠) ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أَي: بسعيها.

---

(١) وهي قراءة حمزة والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٢.

(٢) في بعض النسخ زيادة: فإنّ ذكري أن أُعبد ويصلّىٰ لي أو لتذكرني.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٥.

(٤) حكاه الزمخشري أيضاً في الكشّاف. (٥) الفجر: ٢٤.

(٦) وهو قول ابن عباس وابراهيم، ورواه سعيد بن المسيب عن النبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير ابن عباس: ص ٢٦٠، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٧، وتفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٧) في نسخة: الصادق عليه السلام.

(٨) رواه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٢٩٣ ح ٤، والآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ١٧١.

(٩) حكاها أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٣٨.

(١٠) رواه عنه عليه السلام الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ١٧٢.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ عن تصديقِها، والضميرُ للقيامةِ أو عنِ الصلاةِ ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ بالقيامةِ، ولا يهولَنَّكَ كثرةُ عددِهم ووفورُ سوادِهم فإنَّ بناءَ أمرهم على اتِّباعِ الهَوَىٰ ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلكَ.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُواْ قَوْلِي (٢٨) وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَـٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾

﴿بِيَمِينِكَ﴾ في موضعِ الحالِ، والعاملُ فيه معنَى الإشارةِ، وإنَّما سألَه ليُريَه عِظَمَ ما يفعلُه بها[١]، ويُنَبِّهَه علىٰ باهرِ قدرته.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أَعتَمِدُ عليها إذا مَشَيتُ أو وَقَفْتُ علىٰ رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ﴾ أي: أَخبِطُ الورَقَ ﴿بِهَا عَلَىٰ﴾ رؤُوس ﴿غَنَمِي﴾ تأكُلُه ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أَي: حاجاتٌ أُخَرُ، قالُوا: انقطَعَ لسانُه من الهيبةِ فأَجْمَلَ[٢].

﴿تَسْعَىٰ﴾ أَي: تمشي بسرعةٍ وخفَّةِ حركةٍ، وعن ابن عبَّاس: انقلَبَ ثُعباناً

(١) في نسخة زيادة: من قلبها حيّة.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٨.

ذَكَراً يبتلعُ الصخرَ والشجرَ، فلمَّا رآهُ موسَى خافَ[(١)].

ولمَّا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بَلَغَ من ذَهابِ خوفِهِ أَن أَدخَلَ يدَه في فمِها وأَخذَ بلَحْيِها، والسِيرَةُ: من السَيرِ كالرِكبَةِ من الرُكوبِ ثمَّ نُقِلَتْ إِلىٰ معنى الطريقةِ[(٢)] فقيلَ: سِيَرُ ٱلأَوَّلِينَ، فيجوزُ أَن ينتصبَ على الظرفِ أَي: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ في طريقتِهَا ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ أَي: في حالِ ماكانت عصاً، ويجوزُ أَن يكونَ مفعولاً ثانياً لـ«أعاد»، أَو يَنتَصِبَ بفعلٍ مضمرٍ والمعنىٰ: سنُعيدُها سائرةً ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ حيثُ كُنتَ تتوكَّأُ عليها ولكَ ﴿فِيهَا﴾ المآربُ الَّتي عرَّفتَها.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إِلىٰ جَنْبِكَ[(٣)] تحتَ العَضُدِ مستعارٌ من جَناحِ الطائرِ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ كنايةٌ عن البَرَصِ كما كُنِّيَ عن العَورَةِ بالسوءَةِ[(٤)].

رُويَ: أَنَّه عليه السلام كان آدَمَ[(٥)]، فأَخرجَ يدَه من مِدْرعته ﴿بَيْضَآءَ﴾ لها شُعاعٌ كشُعاعِ الشمسِ تُغشي البصرَ[(٦)].

وقولُه: ﴿بَيْضَآءَ﴾ و ﴿ءَايَةً﴾ حالانِ، و ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ حالٌ من معنىٰ ﴿بَيْضَآءَ﴾ أَي: ٱبيَضَّتْ من غيرِ سُوءٍ، ويجوزُ أَن يَنتَصِبَ ﴿ءَايَةً﴾ بإِضمارِ «خُذْ» ونحوِه، وتَعلَّقَ به ﴿لِنُرِيَكَ﴾ أَي: خُذْ هذهِ الآيةَ أَيضاً بعدَ قلبِ العَصَا حيَّةً لنُريَكَ

---

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٠٧.

(٢) في نسخة هكذا: ثم اتّسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة.

(٣) في نسخة: جيبك.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ الأعراف: ٢٠، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ الأعراف: ٢٢، ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ الأعراف: ٢٦، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ الأعراف: ٢٧، ﴿يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ و ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ المائدة: ٣١، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ طه: ١٢١.

(٥) الآدم من الناس: الأسمر. (الصحاح: مادة ادم).

(٦) رواه مجاهد ووهب بن منبه. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٠٨.

بهاتَينِ الآيَتَينِ بعضَ ﴿ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أو لِنُرِيَكَ بهما الكبرىٰ من آياتنا، ويجوزُ أَن يكونَ التقديرُ: لنُريَكَ من آياتِنا فَعَلْنَا ذلكَ.

ولمَّا أَمَرَهُ سبحانَه بالذهابِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ عَرَفَ أَنَّه كُلِّفَ أَمراً عظيماً، فسأَلَ ربَّه أَن يشرحَ صدرَهُ حتَّىٰ لايَضْجَرَ ولا يَغْتَمَّ، ويستقبلَ الشدائدَ بجميلِ الصبرِ، وأَن يُسهِّلَ عليه أَمرَهُ الَّذي هو خلافَةُ ٱللهِ في أَرضه وما يصحبُها من مقاساةِ الخُطُوبِ الجليلةِ، وعن ابنِ عبَّاس: كانَ في لسانِه رُتَّةٌ[1] [2] لما رُوِيَ من حديثِ الجَمْرَةِ[3]، واختُلِفَ في زوالِ العقدةِ: فقيلَ: انحَلَّتْ عن لسانِه وزَالَتْ وهو الصحيحُ لقولِه: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[4]، وقيلَ: بَقِيَ بعضُها لقولِه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً﴾[5] [6].

والوَزيرُ منَ الوِزْرِ؛ لأَنَّه يتحمَّلُ عن المَلِكِ أَوزارَهُ[7]، أَو مِن الوَزَرِ[8] لأَنَّ المَلِكَ يَعتَصِمُ برأيِه[9]، أَو منَ المُوازرةِ وهي المُعاونَةُ ﴿وَزِيراً﴾ و ﴿هَـٰرُونَ﴾ مفعولانِ لِـ ﴿ٱجْعَل﴾ أَي: ٱجعَلْ هَارونَ وزيراً ﴿لِى﴾ فقُدِّمَ عنايةً بأَمرِ الوِزَارةِ،

---

(١) الرتّة بالضمّ: عجلة في الكلام وقلّة أناة، وقيل: هو أن يقلب اللام ياء، وقيل: هي ردّة قبيحة في اللسان من العيب، وقيل: هي العُجمة في الكلام. (لسان العرب: مادة رتت).

(٢) أُنظر تفسير ابن عباس: ص ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج٨ ص ٤١٠، وحديث الجمرة باختصار: أنّه أراد فرعون قتل موسىٰ عليه السلام وهو طفل لأنّه أخذ بلحيته ونتفها، فقالت له آسية زوجته: انّه صبي لايعقل وعلامة جهله أنّه لايميّز بين الدّرة والجمرة، فاحضر فرعون الدرة والجمرة لامتحانه، فأراد موسىٰ أن يأخذ الدّرة فصرف جبرائيل يده الى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه.

(٤) قاله السدي. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤١٠.

(٥) القصص: ٣٤.

(٦) وهو قول الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ١١٦.

(٧) في نسخة زيادة: ومؤنه.

(٨) الوَزَر: يعني الملجأ. (الصحاح: مادة وزر).

(٩) في نسخة زيادة: ويلتجئ إليه في أُموره.

وقيلَ: إنَّ المفعولَينِ ﴿لِي وَزِيراً﴾ و﴿هَـٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ[1]، وقرأ ٱبنُ عـامرٍ: «ٱشْدُدْ ... وَأَشْرِكْهُ» على الجوابِ[2]، والأَزْرُ: القُـوَّةُ، وأَزَرَهُ: قـوَّاهُ، أي: اجْـعَلْهُ شَرِيكي في الرسالةِ حتَّىٰ نَتَعَاونَ علىٰ عبادتِكَ وذكرِك ونَتَزايَدَ الخيرَ.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي: عالماً بأحوالِنا، وأنَّ هارونَ نِعمَ المـعينُ[3] لي والشَّادُّ لعَضُدِي، والسُّؤْلُ: الطَّلِبةُ، فُعْلٌ في معنى مفعول كـالخُبزِ والأُكْـلِ بـمعنى المخبوزِ والمَأكولِ.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَايُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَاتَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَاتَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَاتَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَاتُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٥٦.

(٢) أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٣) في بعض النسخ: النصير.

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ أي: أَلهَمْناها ﴿مَا﴾ يُلْهَمُ، وهو ماكانَ سببَ نَجاتِكَ من القَتلِ، أَو بَعَثْنَا إِليها مَلَكاً كما بعثْنَا إِلىٰ مريمَ. ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ ... فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ضَعيهِ وأَلقيهِ، وهي ﴿أَنِ﴾ المفسِّرَةُ؛ لأَنَّ الوحيَ بمعنى القولِ، والضمائرُ كلُّها تَرجِعُ إِلىٰ ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ وهو شَطُّ البحرِ، كأَنَّه أَمَرَ البحرَ كما أَمَـرَ أُمَّ موسىٰ، وهذا علىٰ طريقِ المَجازِ جَعَلَه كَذِي تمييزٍ، أُمِرَ بذلكَ ليُـطيعَ لمـا كـانت مشيئتُه عزَّاسمُهُ إِلقاءَهُ إِلى الساحلِ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهو فرعونُ؛ لأَنَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّ مُلكَه ينقرضُ علىٰ يدِهِ، و ﴿مِنِّى﴾ إِن تعلَّقَ بـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ فالمعنىٰ: إِنِّي أَحببتُكَ ومَن أَحَبَّهُ ٱللهُ أَحبَّتْهُ القلوبُ، وإِن تعلَّقَ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿مَحَبَّةً﴾ فالمعنىٰ: ﴿أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ واقعةً ﴿مِنِّى﴾ قد ركزْتُه أَنَا في القلوبِ وزرعْتُه فيها ولذلك أَحبَّكَ فـرعونُ وكـلُّ مـن رآكَ، و ﴿لِتُصْنَعَ﴾ مـعطوفٌ عـلىٰ عـلَّةٍ مُضمَرَةٍ[١]، مثلُ: «ليُعْطَفَ عليكَ» ونحوِهِ، أَو حُذِفَ المُعَلَّلُ أَي: «ولتُصنعَ فَـعَلْتُ ذلكَ» والمعنىٰ: ولتُرَبَّىٰ وتُغَذَّىٰ ويُحسَنَ إِليكَ وأَنا أُراعِيكَ كـما يُـراعـى الرجـلُ الشيءَ بعَينَيْه[٢] إِذا اعتنىٰ به، وكما تقولُ للصانعِ، اصنَعْ هذا علىٰ عيني أَنظُرُ إِليك ليكونَ صنيعُك علىٰ حَسَبِ ماأُريدُه منك، وقُـرِئَ: «وَلْـتُصْنَعْ» بـالجزمِ وسكـونِ اللّامِ[٣] أَوكسرِها على أَنَّه أَمرٌ. والعاملُ في ﴿إِذْ تَمْشِىٓ﴾: ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أَو ﴿تُصْنَعَ﴾ أَو يكونُ بدلاً من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾.

ورويَ: أَنَّ أُختَ موسىعليه السلام لمَّا قالت لها أُمُّه: قُصِّيهِ ٱتَّبَعَتْ مـوسىٰ مـتعرِّفةً خَبَرَه، فرَأَتهم يطلبونَ له مُرضِعَةً يَقْبَلُ ثَدْيَها لأَنَّه كان لايقبلُ ثَدْيَ ٱمرأةٍ، فقالَت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فجاءَت بأُمِّ موسىٰ فقبلَ ثَدْيَها[٤] ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ يعني: القـبطيَّ

---

(١) في نسخة: مقدَّرة. (٢) في بعض النسخ: بعينه.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر المدني. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٧.

(٤) رواه ابن اسحاق. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤١٤.

الَّذي استغاثَه عليه الَّذي هو من شيعتِه فوكزهُ فقتله ﴿فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ﴾ غَمِّ القصاص ومن بأس فرعونَ، و ﴿فُتُونًا﴾ يجوزُ أَن يكونَ مصدراً علىٰ فُعُولٍ في المتعدِّي كالشُّكورِ والثُّبورِ، وأَنْ يكونَ جمعَ فتنٍ أو فتنةٍ كبُدُورٍ في جمعِ بَدْرَةٍ، أَي: ﴿فَتَنَّـٰكَ﴾ ضُروباً من الفِتَنِ فتنةً بعدَ فتنةٍ، وذاك أَنَّه وُلِدَ في عامٍ كانَ يُقتَلُ فيه الوِلدانُ، وأَلقَته أُمُّه في البحرِ، وهَمَّ فرعونُ بقتلِه، وقَتَل القِبطيَّ، وآجر نفسَه عشرَ سنينَ، والفتنةُ: المحنةُ وكلُّ مايَشُقُّ على الإنسانِ، و ﴿مَدْيَنَ﴾ علىٰ ثماني مراحلَ من مِصرَ ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ علىٰ مقدارٍ من الزمانِ يُوحَىٰ فيه إِلى الأَنبياءِ وهو رأْسُ أَربعينَ سنةً، وقيلَ: معناه: سَبَقَ في قَدَري وقضائي أَن أُكلِّمَكَ في وقتٍ بعينِهِ[١]، فـ﴿جِئْتَ﴾ علىٰ ذلكَ القدَرِ. ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ اتَّخذْتُكَ صَنيعَتي وخالصتي، واختَصِصْتَ[٢] بكرامتي.

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ الوَنَىٰ: الفُتُورُ والتَقصيرُ، يعني: ولا تنسَياني ولا أَزالُ منكما علىٰ ذكرٍ حيثُما كنتُما، أَو يريدُ بالذِكرِ تبليغَ الرسالةِ أَي: لاتَضْعُفَا في ذلك ولا تُقصِّرا.

و«القولُ الليِّنُ» نحوُ قولِه تعالىٰ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[٣] ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[٤]، وقيل: عِدَاهُ شَباباً لايَهْرَمُ بعدَه ومُلكاً لايُنزَعُ منه إِلَّا بالموتِ[٥]، وٱذْهَبا علىٰ رجائكما وطمعكُما فِعلَ مَن يبذُلُ أَقصَىٰ وُسْعِه وطاقَتِه، وإِنَّما أَرسلَهما إِليه مع علمِه بأَنَّه لايؤمنُ؛ إِلزاماً للحجَّةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أَي: يتأَمَّلُ فيُنصِفُ من نفسِه ويُذعِنُ للحقِّ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَن يكونَ الأَمرُ كما تَصِفانِ.

---

(١) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٧٩.

(٢) في بعض النسخ: واختصصتك. (٣) النازعات: ١٨.

(٤) النازعات: ١٩.

(٥) قاله السدي: راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٩.

﴿نَخَافُ﴾ أَي: نخافُ ﴿أَن﴾ يَعْجَلَ ﴿عَلَيْنَآ﴾ بالعقوبةِ، يقالُ: فَرَطَ منه فِعلٌ أَي: سَبَقَ، وفَرَسٌ فُرُطٌ: يَسبِقُ الخَيْلَ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أَي: يُجاوِزَ الحدَّ في الإساءَةِ بِنا.

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالحفظِ والنُصرةِ، أَي: حافظُكُما وناصِرُكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مايجري بينكما وبينَه، وكانت بَنُو إِسْرَائيلَ في مُلكةِ فرعونَ، والقِبْطُ يُعذِّبونهم بتكليفِ الأَعمالِ الشاقَّةِ والسُخرةِ في كلِّ شيءٍ.

﴿قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أَي: بمعجزةٍ وبُرهانٍ علىٰ ماادَّعيناهُ ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ﴾ سلامُ الملائكةِ، أَو السلامةُ من عذابِ اللهِ ﴿عَلَىٰ﴾ المهتدينَ، و﴿ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ﴾ المكذِّبينَ.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾

خاطَبَ الاثنينِ ووجَّهَ النداءَ إِلىٰ مُوسىٰ؛ لأَنَّ الأَصلَ في النُبُوَّةِ موسىٰ، أَو حمَلَهُ خبثُه على استدعاءِ كلامِ موسىٰ دون كلامِ أَخيه لِمَاعرفَ من فَصاحةِ هارون.

﴿خَلْقَهُۥ﴾ مفعولٌ أَوَّلُ لِـ﴿أَعْطَىٰ﴾ أَي: أَعطىٰ خَلْقَهُ يعني: خليقتَهُ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ يحتاجونَ إِليه، أَو مفعولٌ ثانٍ بمعنىٰ: أَعطىٰ كلَّ شيءٍ صورتَه وشكلَه الَّذي يوافقُ المنفعةَ المنوطَةَ به كما أَعطَى العينَ الهيئَةَ الَّتي تُطابِقُ الإِبصارَ، والأُذُنَ

الشكلَ الَّذي يُطابقُ الاستماعَ، وكذلكَ باقي الأَعضاءِ وقيلَ: أَعطَىٰ كلَّ حَيَوانٍ نظيرَه في الخَلْقِ والصُورةِ أي: زَوْجَه (١)، وقُرِئَ: «خَلَقَه» (٢) أَي: كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ لم يُخلِه من عطائه وإِنعامِه.

﴿مَابَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَي: ماحالُ الأُممِ الماضيةِ في السعادةِ والشقاوة؟ فأَجابَ أَنَّ عِلْمَ أَحوالِهَا مكتوبٌ ﴿عِندَ رَبِّى فِى﴾ اللوحِ المحفوظِ، لا يُخطئُ شيئاً وَلَايَنْسَاهُ، وقيل: لايتركُه حتَّىٰ يُجازِيَه (٣) أَي: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ كما تضِلُّ أَنتَ ﴿وَلَا يَنسَى﴾ كما تَنسىٰ يامُدَّعيَ الرُبوبيَّة.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ صفةٌ لـ ﴿رَبِّى﴾ أَو خبرُ مبتدأ محذوف ﴿مَهْداً﴾ أَي: مَهَدَهَا مَهْداً، أَو يَمْهَدُونَها فهي لهم كالمَهدِ الَّذي يُمهَدُ للصبيِّ، وَقُرِئَ: «مِهَاداً» (٤) أَي: فِراشاً وبِساطاً، و ﴿سَلَكَ لَكُمْ﴾ أَي: حَصَّلَ لكم ﴿فِيهَا سُبُلاً ... فَأَخْرَجْنَا﴾، انتقلَ فيه من لفظِ الغيبةِ إِلىٰ لفظِ المتكلِّمِ علىٰ طريقةِ الالتفاتِ، ومثلُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (٥) وفيه تخصيصٌ بأَنَّا نحنُ نَقدِرُ علىٰ مثلِ ذلك ولا يدخلُ تحتَ قُدرةِ أَحدٍ ﴿أَزْوَٰجاً﴾ أَصنافاً، و ﴿شَتَّىٰ﴾ جمعُ شَتيتٍ، والنبَاتُ: مصدرٌ سُمِّيَ به النابتُ كما سُمِّيَ بالنبتِ فاسْتَوَى فيه الواحدُ والجمعُ، يعني: أَنَّها مختلفةُ النفعِ والطعمِ واللونِ والرائحةِ والشكلِ. والمعنىٰ: قائلينَ: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أَي: مُبيحينَ أَكلَها والانتفاعَ بها.

---

(١) قاله ابن عباس والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٠٦.

(٢) وهي قراءة نصير عن الكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٧٧.

(٣) قاله ابن عباس. في تفسيره: ص ٢٦٢.

(٤) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٥) الأنعام: ٩٩.

﴿أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآياتِ التسعَ، أَي: معجزاتِنَا الدالَّةَ علىٰ صدقِ موسىٰ عليه السلام ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميعِ ذلك ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَاناً سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَاتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾

قولُه: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تَعَلُّلٌ من فِرعونَ، وإِلَّا فلا يَخفىٰ علىٰ أَحدٍ أَنَّ ساحراً لايَقدرُ علىٰ أَن يُخرِجَ مَلِكاً مثلَه مِن أَرضه بالسحرِ، ويَلُوحُ من كلامِهِ هذا أَنَّه كانَ يَخافُ منه أَن يَغْلِبَه علىٰ مُلكِه.

﴿مَوْعِداً﴾ مصدرٌ بمعنىٰ «الوَعْدِ» على تقديرِ مضافٍ محذوفٍ، أَي: مكانَ مَوعِدٍ، والهاءُ في ﴿نُخْلِفُهُ﴾ للموعدِ، و ﴿مَكَاناً﴾ بدلٌ من المكانِ المَحذوفِ، وهو بمعنى الوقتِ في قولِه: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ أَي: وقتُ الوعدِ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يطابِقُ ماتقدَّمَ معنىً وإِن لم يُطابقْه لفظاً من حيثُ إِنَّ الاجتماعَ يومَ الزينةِ لابدَّ أَن يكونَ في مكانٍ مشهورٍ، فبذكرِ الزمانِ يُعلَمُ المكانُ، ويجوزُ أَن لايُقدَّرَ في الأَوَّلِ مضافٌ محذوفٌ ويكونَ المعنىٰ: ٱجعَلْ بينَنَا وبينَكَ وَعْداً لانُخْلِفُه، وينتصبَ ﴿مَكَاناً﴾

بالمصدرِ ويكونَ ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ معناه: وَعْدُكُم وَعْدُ يومِ الزينةِ، وقُرِئَ: «لَانُخْلِفْهُ» بالجزمِ[١] على جوابِ[٢] الأمرِ، وقُرِئَ: «سِوىً» و﴿سُوًى﴾ بكسرِ السينِ[٣] وضمِّها ومعناه: مَنْصَفاً بينَنا وبينَك أي: يستوي مسافتُه على الفريقينِ، وقُرِئَ: «يَوْمَ ٱلزِّينَةِ» بالنصبِ[٤] وهو مثلُ قولِك: قيامُك يومَ الجُمُعةِ، فيكونُ ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ مصدراً والظرفُ خبراً عنه أو علىٰ تقديرِ: إنجازُ مَوْعِدِكُمْ يَوْمَ ٱلزينَةِ، و﴿أَن يُحْشَرَ﴾ في موضِعِ جرٍّ، أي: موعدُكُم يومَ الزينةِ وحَشْرِ ﴿ٱلنَّاس﴾ فيكونُ معطوفاً علىٰ ﴿ٱلزِّينَةِ﴾، أو في موضِعِ رفعٍ أي: إنجازُ موعِدكم وحشرُ الناس ﴿ضُحًى﴾ في يومِ الزينةِ، وهو يومُ عيدٍ كانَ لهم في كلِّ عامٍ، وقيلَ: يومٌ كانُوا يَتَّخِذُونَ فيه سُوقاً ويتزيَّنُونَ ذلكَ اليومَ[٥]، وإنَّما واعدَهم ذلكَ اليومَ ليكونَ ظُهورُ دينِ ٱللهِ وعُلُوُّ كلمتِهِ وزهوقُ الباطلِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ ويَشِيعَ ذلك في الناس.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرفَ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: حيلَتَهُ ومكرَهُ وذلك جمعُهُ ٱلسَحَرَةَ.

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ أي: لَا تَكذِبُوا على ٱللهِ بأَنْ تَدعوا آياتِه ومعجزاته سِحراً، قُرِئَ: «فيَسْحَتَكُمْ»[٦] و ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾، والسَحْتُ والإسحاتُ بمعنىً وهو الاستئصال.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تَشاوَرُوا وتَجَاذَبوا أَهدابَ القولِ ﴿وَأَسَرُّوا۟

---

(١) وهي قراءة يزيد بن القعقاع وشيبة والأعرج. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢١٢.

(٢) في نسخة: وجوب.

(٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٤) قرأه الحسن. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٧١.

(٥) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٦) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٩.

﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾ يعني: السَحَرةَ، ونَجْواهُم: إنْ غَلَبَنا موسىٰ اتَّبعْنَاه، وقيلَ: إن كانَ ساحراً فسَنَغْلِبُه وإن كانَ مِنَ السماءِ فله أمرٌ [١]، ولمَّا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ ... قَالُوٓاْ﴾: ماهذا بقولِ ساحر.

قالَ فرعونُ وقومُه للسَحَرةِ: «إنَّ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ» [٢] وهي لغةُ بَلْحَرِثِ [٣] ابن كَعبٍ، جعلوا الاسمَ المُثنَّىٰ نحوَ الأَسماءِ الَّتي آخِرُها أَلفٌ كعصا وسلمَى ولم يُقلِّبوها ياءً في الجرِّ والنصب، وقيلَ: «إنَّ» هنا بمعنىٰ: نَعَمْ و «سَاحِرَانِ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: لَهُمَا سَاحِرانِ [٤]، وقُرِئَ: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ﴾ وهو مثلُ قولك: إنْ زيدٌ لمنطلقٌ، واللامُ هي الفارقةُ بينَ «إن» النافيةِ والمُخفَّفَةِ من الثقيلةِ، وقَرأَ أَبو عمرو: «إنَّ هَـٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ» [٥] على الوجهِ الظاهرِ، وقُرِئَ: «هَـٰذَانٍّ» بتشديدِ النونِ [٦] وهو لغةٌ.

و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ تأنيثُ الأَمثلِ، وهو الأَفضلُ والأَشبهُ بالحقِّ، والمعنىٰ: ﴿يُرِيدَانِ أَن﴾ يَصْرِفَا وجوهَ الناسِ إليهما، وقيلَ: الطريقةُ: اسمٌ لوجوهِ الناسِ وأَشرافِهم الَّذينَ هم قُدوَةٌ لغيرِهم [٧]، ويقالُ أَيضاً للواحدِ: هو طريقةُ قومِه، وقيلَ: إنَّ طَرِيقتَهمُ ٱلْمُثْلَىٰ: بنُو إسرائيلَ وكانوا أَكثرَ القومِ عدداً ومالاً [٨]، أَي: يُريدانِ أَن

---

(١) وهو قول قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٢٨.
(٢) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بتشديد «إن».
(٣) في نسخة: لحارث. و «بَلْحرث» مخفّف «بني حرث». والحرث بن كعب هو جدّ جاهلي. أُنظر القاموس المحيط: مادة «حرث».
(٤) قاله المبرّد واسماعيل بن اسحاق القاضي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٨٤.
(٥) أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٩.
(٦) قرأه ابن كثير. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٥١.
(٧) وهو قول ابن عباس وأبي صالح. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٨٥، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٢٣.
(٨) قاله ابن عباس وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٣٠.

﴿يَذْهَبَا﴾ بِهِم لأنفسِهم لقولِ مُوسىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [1].

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ أي: أزمِعُوه واجعلوهُ مُجْمَعاً عليه حتَّىٰ لاتختلفُوا، وهذا قولُ فرعونَ للسَحَرةِ أو قولُ بعضٍ لبعض، وقُرِئَ: «فَاجْمَعُوا» [2] ويعضُدُه قولُه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفّاً﴾ أي: مصطفِّينَ مجتمعينَ ليكونَ أشدَّ لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: فازَ مَنْ غَلَبَ وعَلَا.

﴿أَن تُلْقِيَ﴾ مرفوعٌ بأنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ إلقاؤُكَ أو إلقاؤُنا، أو منصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ معناهُ: اْختَرْ أحدَ الأمرَيْنِ، وهذا التخييرُ منهم حسنُ أدبٍ وخفضُ جَناحٍ له.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾: ﴿إِذَا﴾ هذهِ للمفاجَأةِ، والتقديرُ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ مُخيَّلةٌ ﴿إِلَيْهِ﴾ السعيَ، وقولُه: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فاعلُ [3] ﴿يُخَيَّلُ﴾ والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يَرجِعُ إلىٰ ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وقيلَ: إلىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ [4]، وقُرِئَ: «تُخَيَّلُ» بالتاءِ [5] على أنْ يَكونَ مُسنداً إلىٰ ضميرِ «الحِبَالِ» و «العِصِيِّ»، ويكونَ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدلاً من الضميرِ وهو بدلُ الاشتمالِ، كقولك: أعجَبَني زيدٌ علمُه.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) الآية: ٤٧.

(٢) قرأه أبو عمرو. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٠٠.

(٣) كذا في النسخ، والظاهر هو نائب فاعل لـ ﴿يُخَيَّلُ﴾ المبني للمجهول.

(٤) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤١٣.

(٥) وهي قراءة ابن عباس وأبي حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٢٢.

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَاجَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآأَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَايَمُوتُ فِيهَا وَلَايَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾

﴿أَوْجَسَ﴾ الخوفَ: أَضمَرَ شيئاً منه، وكانَ إيجاسُ الخِيفةِ من موسىٰ عليه السلام للجِبِلَّةِ البشريَّةِ عندَ رُؤيةِ أَمرٍ فَظيعٍ، وقيلَ: لأَجلِ أَن يَتَخَالجَ فيه شكٌّ على الناس فلا يَتَّبِعُوه[1].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فيه تقريرٌ لقهرِهِ[2] وغلبتِه، وتأكيدٌ بالاستئنافِ وبكلمةِ التحقيقِ وبتكرير الضميرِ وبلامِ التعريفِ وبلفظِ العُلُوِّ ـ وهو الغلبةُ الظاهرةُ ـ وبلفظِ التفضيلِ.

قُرِئَ: «تَلَقَّفُ»[3] بالرفعِ[4] على الاستئنافِ أَو على الحالِ، أَي: أَلْقِهَا مُتَلَقِّفَةً، وقُرِئَ: ﴿تَلْقَفْ﴾ بالتخفيفِ ﴿مَاصَنَعُوٓاْ﴾ أَي: ما زَوَّرُوا وٱفتعَلُوا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أَي: الَّذي صنعوهُ «كَيْدُ سِحْرٍ»[5] أَي: ذَوي سِحرٍ، أَو بُيِّنَ الكيدُ بسحرٍ كما يُبَيِّنُ

---

(١) قاله مقاتل والجبائي والبلخي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٢٤، والتبيان: ج ٧ ص ١٨٧.

(٢) في نسخة: لأمره.

(٣) لقفت الشيء ألقفه لقفاً: أي تناولته بسرعة. (الصحاح: مادة لقف).

(٤) وهي قراءة ابن عامر وابن ذكوان. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٣٥.

(٥) يظهر من عبارته أنّه اعتمد هنا ـ تبعاً للزمخشري ـ على هذه القراءة كما هو واضح.

المِائَةُ بدرهمٍ؛ لأَنَّ الكيدَ يكونُ سحراً أَو غيرَ سحرٍ، ومثلُه: علمُ فقهٍ، وقُرِئَ: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ وُحِّدَ لأَنَّ القصدَ معنى الجنسيَّةِ لا معنَى العددِ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أَي: هذا الجنسُ ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ هو كقولِهم: أَينما كانَ، وأَيَّةً سَلَكَ، وهاهنا حذفٌ أَي: فأَلقىٰ عَصَاهُ فتلقَّفَتْ ماصنعوا.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ وعن عِكْرِمةَ: لمَّا سجدُوا أَراهمُ ٱللهُ في سجودهم منازِلَهم الَّتي يصيرُونَ إِليها في الجنَّةِ[١].

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أَي: من غيرِ إِذني ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أَي: رئيسُكُم و[٢] أَسحرُكم و[٣] أُستاذُكم ومعلِّمُكُم ﴿مِنْ خِلَٰفٍ﴾ هو أَن يُقطَعَ اليدُ اليُمنَىٰ والرِجْلُ اليُسرَىٰ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ من العضوَينِ يُخالِفُ الآخَرَ بشيئين: بأَنَّ هذا يدٌ وذاكَ رِجلٌ وهذا يمينٌ وذاك شِمالٌ، و ﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغايةِ؛ لأَنَّ القطعَ مبتدأٌ[٤] من مُخالَفةِ العضوِ العُضوَ، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ، أَي: لأُقطِّعنَّها مختلفاتٍ ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شَبَّهَ تَمكُّنَ المصلوبِ في الجِذعِ بتمكُّنِ الشيءِ في وِعائه فهذا معنىٰ «في» ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أَيُّها السَحَرَةُ ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً﴾ يُريدُ الملعونُ نفسَه وموسىٰ عليه السلام، بدليلِ قولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾، واللامُ مَعَ الإِيمانِ لغيرِ اللهِ في القرآنِ كقولِه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقيلَ: يُريدُ اللهَ تعالىٰ[٦].

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أَي: لن نختارَكَ ﴿عَلَىٰ مَا﴾ أَتانَا ﴿مِنَ﴾ المُعجزاتِ ﴿وَ﴾ على ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أَي: خَلَقَنَا، أَو هو قسمٌ أَي: واللهِ الَّذي فَطَرَنا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أَي: فَاصنَعْ ما أَنتَ صانِعُه فإِنَّا لانَرجِعُ عن الإِيمانِ، أَو: فَاحكُمْ ما أَنتَ

---

(١) حكاه عنه الفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٨٦.

(٢) في بعض النسخ: «أو» بدل الواو.

(٣) في بعض النسخ: «أو» بدل الواو.

(٤) في نسخة زيادة: وناشٍ.

(٥) التوبة: ٦١.

(٦) حكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ٢٣١.

حاكِمُه ﴿هَـٰذِهِ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ منصوبةٌ على الظرف.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ رُوِيَ: أَنَّهم قالوا لفرعونَ: أَرِنا موسىٰ نائماً، ففعَلَ، فوجدُوه تَحرُسُهُ عصاه، فقالوا: ماهذا بسحرٍ، فإنّ الساحرَ إذا نامَ بَطَلَ سحرُه، فأَبَىٰ فرعونُ إلَّا أَن يعملوا، فذلك إكراهُهم[١] ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ لَنا منك ﴿وَ﴾ ثوابُه ﴿أَبْقَىٰٓ﴾ لنا من ثوابِك.

والآياتُ الثلاثُ بعدُ حكايةُ قولهم، وقيلَ: هي خبرٌ من اللهِ عزَّوجلَّ[٢] ﴿مُجْرِماً﴾ أي: كافراً، و ﴿ٱلْعُلَىٰ﴾ جمعُ العُليَا تأنيثُ «الأَعلىٰ»، و ﴿تَزَكَّىٰ﴾ تطَهَّرَ من أَدناس الذُنوبِ، وعن ابنِ عبَّاس: قالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ[٣].

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَّاتَخَـٰفُ دَرَكاً وَلَاتَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَارَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢) وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ

---

(١) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٢٥ عن عبدالعزيز بن أبان.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٧٧.

(٣) حكاه عنه الفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٩١.

وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) ﴾

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم لَيلاً من أَرضِ مصرَ، فاجعلْ ﴿لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً﴾ أَي: يابساً، من قولِهم: ضَرَبَ له في مالِه سَهْماً، أَو ضَرَبَ اللبنَ أَي: عَمِلَه، وأَصلُ اليَبَس مصدرٌ ﴿لَا تَخَـٰفُ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿فَاضْرِبْ﴾، وقُرِئَ: «لَاتَخَفْ»[١] على الجوابِ ﴿دَرَكاً﴾ هو اسمٌ من الإِدراكِ، أَي: لايُدرِكُكَ فرعونُ وجنودُه ولا يلحقونكَ، وإِذا قُرِئَ: «لَاتَخَفْ» بالجزمِ ففي ﴿لَاتَخْشَىٰ﴾ وجهانِ: أَن يكونَ مقطوعاً من الأَوَّلِ أَي: وأَنتَ لاتخشىٰ، وأَن يكونَ الأَلفُ للإِطلاقِ من أَجلِ الفاصلةِ كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾[٢].

﴿مَاغَشِيَهُمْ﴾ من جوامعِ الكَلِمِ المستقلَّةِ بالمعاني الكثيرةِ مع قِلَّتِها، وفيه تفخيمٌ للأَمرِ، و ﴿مَا هَدَىٰ﴾ تهكُّمٌ به لقولِه: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٣].

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خِطابٌ لهم بعدَ إِنجائهم من البحرِ وإِهلاكِ فرعونَ، أَي: قلنا لبني إسرائيلَ أَو للَّذينَ كانُوا في عهدِ نبيِّناﷺ: منَّ ٱللهُ عليهم بما فَعَلَ بأَسلافهم، وقُرِئَ: «أَنْجَيْتُكُمْ ... وَوَاعَدْتُّكُمْ ... وَرَزَقْتُكُمْ»[٤]، وقُرِئَ: «وَعَدْنَاكُمْ»[٥]، ذكَّرَهُمُ النعمةَ في نَجاتهم وهَلاكِ عَدُوِّهم وفيما وَعَدَ موسىٰعليه السلام من المناجاةِ بـ ﴿جَانِب ٱلطُّورِ﴾ وكَتْبِ التوراةِ في الأَلواحِ، ونَسَبَ المواعَدَةَ إِليهم حيثُ كانَت لِنَبِيِّهم ولِنُقَبائهم وإِليهم رجعتْ منافِعُها الَّتي بها قوامُ دينهم.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أَي: لاتَتَعَدُّوا حدودَ ٱللهِ تعالىٰ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أَي:

(١) وهي قراءة حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢١.
(٢) الأحزاب: ٦٧. (٣) غافر: ٢٩.
(٤) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٢.
(٥) قرأه أبو عمرو ويعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٩٢.

فيَجِبَ عليكم عقوبَتي، مِنْ حَلَّ الدَينُ يَحِلُّ: إذَا وجَبَ أداؤُهُ، وقُـرِئَ: «فَيَحُلَّ» بضمِّ الحاءِ(١) أي: فينزِلَ؛ لأنَّ الغضَبَ بمعنى العقوبةِ ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ بالضمِّ(٢) والكسرِ ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: هَلَكَ، وأصلُهُ: أن يَسقُطَ من جَبلٍ، كما قيلَ:

هَوَىٰ من رأسِ مَرْقَبَةٍ ففُتَّتْ تَحْتَها كَبِدُهُ(٣)

أو(٤) سَقَطَ سُقوطاً لا نُهوضَ بعدَهُ.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقامَ واستمرَّ عليه حتَّىٰ يموتَ. وعن الباقرِ عليه السلام: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى وِلاَيتِنا أهلَ البيتِ(٥).

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أيُّ شَيءٍ عَجِلَ بكَ عنهم؟! وكان قد مَضَىٰ مع النُقَباءِ إلى الطُورِ، ثُمَّ تقدَّمَهُم شوقاً إلىٰ كلامِ ربِّه. ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يُدركُونَني عن قريبٍ، وسبقتهم إليكَ حرصاً علىٰ تحصيلِ رِضاكَ.

﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ يُريدُ الَّذين خَلَّفَهُم معَ هارونَ، أَضافَ سبحانَه الفتنةَ إلىٰ نفسِهِ والضلاَلَ إلىٰ ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾ لِيَدُلَّ علىٰ أَنَّ الفتنةَ غيرُ الإضلالِ، أَي: ٱمتَحَنَّاهُم بخَلقِ العِجْلِ وحَمَلَهُم السامِريُّ على الضلالِ وأَوقَعَهم فيه بقولِه: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾(٦) والمرادُ بالفتنةِ: تشديدُ التكليفِ عليهم بما حَدَثَ فيهم من أَمرِ العِجْلِ ليظْهَرَ المُؤمِنُ المخلصُ من المنافقِ.

والوَعْدُ الحَسَنُ: هو أَنْ وَعَدَهُم إعطاءَ التوراةِ الَّتي فيها هُدىً ونورٌ(٧)،

---

(١) قرأه الكسائي وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٧.

(٢) وهي قراءة الكسائي. راجع العنوان في القراءات السبع لابن خلف: ص ١٣٠.

(٣) البيت منسوب لأعرابي يرثي ابناً له سقط من جبل. أنظر شرح شواهد الكشّاف: ص ٣٨١.

(٤) في بعض النسخ: «أي» بدل «أو». (٥) تفسير فرات الكوفي: ص ٩١.

(٦) الآية: ٨٨.

(٧) في نسخة زيادة: ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل، حكي لنا أنّها كانت الف سورة، كل سورة نزلت يحمل أسفارها سبعون جملاً.

و ﴿ٱلْعَهْدُ﴾: الزمانُ، يريدُ مدَّةَ مفارَقَتِهِ لهم، يُقالُ: طالَ عَهدِي بك أَي: طالَ زماني بسببِ مفارَقتِكَ، وهُم وَعَدُوه أَن يُقيمُوا علىٰ ماتركهم عليه من الإِيمانِ فأَخْلَفُوا موعِدَهُ بعبادتِهم العِجْلَ.

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَابِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦)﴾

﴿بِمَلْكِنَا﴾ قُرِئَ بالحركاتِ الثلاثِ[1]، أَي: ﴿مَآأَخْلَفْنَا مَـوْعِدَكَ﴾ بأَن مَلَكْنَا أمرَنَا، أَي: لو مَلَكْنَا أَمْرَنَا وخُلِّينَا ورَأْيَنا لَمَا أَخلفناهُ، ولكن غُلِبْنَا من جهةِ السامِرِيِّ وكيدِهِ، والمعنىٰ: «حَمَلْنَا»[2] أَحمالاً ﴿مِن﴾ حُلِيِّ القِبطِ الَّتي استَعَرْناها منهم ﴿فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ في نارِ السامريِّ الَّتي أَوقَدَها في الحُفرةِ وأُمِرنا أَن نطرحَ فيها الحُلِيَّ،

---

(١) فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم، ونافع وعاصم بفتحها، وحمزة والكسائي بضمّها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٢.

(٢) الظاهر أن القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بالتخفيف مبنياً للمعلوم.

وقُرِئَ: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ أي: جُعِلْنا نَحْمِلُ «أَوْزَارَ» القومِ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أَراهم أَنَّه يُلقي حُليّاً في يدِهِ[١]، وإِنَّما أَلقَى التربةَ الَّتي أَخَذَها من مَوطِئ فرسِ جبرئيلَ. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ من الحُفرةِ ﴿عِجْلاً جَسَداً ... فَنَسِيَ﴾ أَي: فَنَسِيَ موسىٰ أَن يطلُبَه هاهنا وذهَبَ يطلبه عند الطُّورِ ويكونُ من قولِ السامريِّ، أَو: فنسي السامريُّ أَي: تَرَكَ ماكانَ عليه من الإِيمانِ الظاهرِ.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ مَنْ رفعَهُ فَعَلَى أَنَّ «أَنْ» مخفَّفَةٌ من الثقيلةِ، ومن نصَبَهُ فعلىٰ أَنَّها الناصبةُ للفعلِ.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي: من قبلِ أَنْ يعودَ موسىٰ إِليهم، و «لَا» مَزيدةٌ، والمعنىٰ: «مَامَنَعَكَ ... أَنْ ... تَتَّبعني» في شدَّةِ الزجرِ عن الكفرِ وقتالِ مَنْ كفَرَ بمَن آمنَ، أَو مالَكَ لم تلحقْني؟ وكان موسىعَلَيْهِ السَّلامُ شديدَ الغضبِ للهِ ولدينِهِ مجبولاً على الحِدَّةِ والخُشونةِ في ذاتِ ٱللهِ، فلم يتمالكْ حين رأى القومَ يعبدونَ العِجْلَ بعدَ رؤيتهم المعجزاتِ والآياتِ أَن أَلقَى الأَلواحَ لمَا عَرَتْهُ من الدهشةِ غضباً للهِ وحَمِيَّةً، وعَنُفَ بأَخيه وخليفتِهِ علىٰ قومِه إِذ أَجراهُ مجرىٰ نفسِهِ إِذا غَضِبَ في القبضِ علىٰ شعرِ رأسِهِ ووجهِهِ.

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَي: لو قاتلتُ بعضَهم ببعضٍ لتفرَّقُوا وتَفَانَوا، فأَردتُ أَن تكونَ أَنتَ المتلاقِي لأَمرهم بنفسِكَ، وخَشِيتُ عِتابَكَ علىٰ تركِ ما أَوصيتني به حين قُلتَ: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾[٢].

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أَي: ما شَأْنُكَ وما دَعاكَ إِلى ما صَنَعْتَ؟ وهو مصدرُ خَطَبَ الأَمرَ: إِذا طَلَبَهُ، فكأَنَّهُ ﴿قَالَ﴾: ما طَلَبُك؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أَي: رأَيتُ مالم يَروه، أَو: علمتُ مالم يعلموه، من البصيرةِ، وعن ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ

---

(١) في نسخة زيادة: مثل ماالقوا.
(٢) الأعراف: ١٤٢.

والحسنِ: «فَقَبَصْتُ قَبْصَةً» بالصادِ(١)، ومعنى الضادِ(٢): الأَخذُ بجميعِ الكفِّ، والصادِ(٣): بأطرافِ الأصابعِ.

رُويَ: أَنَّ موسى عليه السلام لمَّا حَلَّ ميعادُ ذَهابِهِ إلى الطُورِ أَرسَلَ ٱللهُ تعالىٰ جبرئيلَ رَاكِبَ حَيْزُومِ فرس الحياةِ ليذْهَبَ به، فأَبصَرَهُ السامريُّ فقال: إنَّ لهذا شأناً. فَقَبَضَ ﴿قَبْضَةً﴾ من تُربةِ موطِئِه، فلمَّا سأَلَهُ موسىٰ عن قصَّتِهِ قال: قَبضتُ ﴿مِنْ أَثَرِ﴾ فرس ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ الَّذي أُرسِلَ إليكَ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العِجلِ، وكَمَا حَدَّثتُكَ يَاموسىٰ ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنتْ ﴿لِي نَفْسِي﴾ من أَخذِ القبضةِ وإلقائِها في صورةِ العِجْلِ(٤).

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (٩٨) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَاقَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْراً (١٠٠) خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (١٠٤)﴾

عوقبَ السامريُّ في الدنيا بأَنْ مُنِعَ من مُخالَطَةِ الناس منعاً كُـلِّياً، وحُـرِّمَتْ عليهم مكالمته ومبايعته ومجالسته ومؤَاكلته، وإذا ٱتَّفَقَ أَن يُمَاسَّ أَحداً، رجلاً كان أو ٱمرأَةً حُمَّ الماس والممسوسُ، فكان يهيمُ في البريَّةِ مع الوحش، وإذا لَقِيَ أَحداً

---

(١) حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٤٠.

(٢) في بعض النسخ زيادة: المعجمة.

(٣) في بعض النسخ زيادة: المهملة.

(٤) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ١١٠ عن علي عليه السلام.

قالَ: ﴿لَامِسَاسَ﴾ أي: لاتقربني ولا تمسَّني، وقيل: إنَّ ذلك بَقِيَ في وُلدِهِ إلى اليوم: إنْ مَسَّ واحدٌ من غيرهم واحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقتِ[1] ﴿لَن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن يُخْلِفَكَ ٱللَّهُ تعالىٰ موعدَهُ الَّذي وَعَدَكَ على الشركِ والفسادِ في الأَرضِ، يُنجِّزُهُ لك في الآخرةِ، فأَنتَ ممَّن خَسِرَ الدنيا والآخرةَ، وقُرِئَ: «لَنْ تُخْلِفَهُ» بكسرِ اللَّامِ[2] وهو مِنْ أَخْلَفْتُ المَوْعِدَ: إذا وجدتَّهُ خُلْفاً، وقُرِئَ: «لَنْ نُخْلِفَهُ» بالنون[3] حكايةً لقولِهِ عزَّوجلَّ ﴿ظَلْتَ﴾ أَي: ظَلَلْتَ، حُذِفَت اللامُ الأُولىٰ، وقُرِئَ: «لَنَحْرُقَنَّهُ»[4] وهي قراءَةُ عليٍّ عليه السلام[5]، ومعناه: لَنَبْرُدَنَّه بالمِبْردِ ولَنَحُتَّنَّه حَتّاً، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ مبالغةً في حَرَقَ: إذا بَرَدَ، وهذه القِراءَةُ تدُلُّ علىٰ أَنَّه كانَ ذهَباً وفضَّةً ولم يَصِرْ حَيَواناً.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعولُ ﴿وَسِعَ﴾، و﴿عِلْماً﴾ منصوبٌ على التمييزِ وهو في المعنىٰ فاعلٌ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلَ ذلكَ الاقتصاص وهو ماقصصنا عليكَ من قصَّةِ موسىٰ وفرعونَ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ﴾ سائرِ أَخبارِ الأُمَمِ السالفةِ وأَحوالهم تكثيراً في آياتِكَ ومعجزاتِكَ، والمرادُ بالذِكْرِ: القرآنُ؛ لأَنَّ فيه ذِكرَ كُلِّ مايُحتَاجُ إليه من أُمورِ الدينِ، أَي: ﴿ذِكْراً﴾ مشتملاً علىٰ هذه الأَقاصيص وعلى الأَخبارِ الحقيقةِ بالتفكُّرِ فيها، فمن أَقبَلَ عليه سَعدَ ونَجَا، و﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فقد شَقِيَ وَهَوىٰ، والمرادُ

---

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٠.

(٢) قرأه ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٠٥، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٨.

(٣) قرأه ابن مسعود على ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٨٥.

(٤) قرأه ابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٤٢.

(٥) أُنظر معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ١٩١.

بـ«الوِزْرِ»: العقوبةُ لما فيها من الثقلِ والصعوبةِ تشبيهاً بالحِملِ الثقيلِ الَّذي يَفْدَحُ حاملَهُ، أَو: لأَنَّها جزاءُ الوزرِ الَّذي هو الإِثمُ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حَمْلٌ علىٰ معنىٰ ﴿مَنْ﴾ ووُحِّدَ الضميرُ في ﴿أَعْرَضَ﴾ حَملاً على اللفظِ ﴿فِيهِ﴾ أَي: في ذلك الوِزْرِ أَو في احتمالِهِ ﴿وَسَآءَ﴾ حكمُهُ حكمُ «بِئْسَ»، وفيه ضميرٌ مبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿حِمْلاً﴾، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ لدَلالةِ الوزرِ الَّذي تقدَّمَ ذكرُه عليه، تقديره: وسَاءَ حِمْلاً وزرهم، ونحوُهُ: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ (١) جهنَّمُ، و ﴿لَهُمْ﴾ للبيانِ، مثْلهُ في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (٢).

وقَرأَ أَبو عمرو: «نَنْفُخُ» بالنونِ (٣)، وقيلَ في «الزُّرْقِ»: إِنَّ المرادَ: العَمَىٰ (٤)، وقيلَ: العُطاشُ (٥) يَظْهَرُ في عيونهم كالزُّرْقةِ (٦)، وقيل: زُرْقُ العيونِ: سودُ الوُجُوهِ (٧).

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ أَي: يَتَسارُّونَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ما ﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا﴾ عشرَ ليالٍ، وإِنَّما تخافتوا لِمَا ٱعتَرَاهُم من الرُّعبِ والهَولِ، استَقْصَروا مدَّةَ لَبْثهم في الدنيَا لاستطَالتهم في الآخرةِ، أَو مدَّةَ لَبثهم في القبورِ.

و﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أوفرُهُمْ عقلاً وأَصوبُهم رأياً عندَ نفسِهِ، ونحوهُ: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (٨).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً

(١) النساء: ٩٧ و ١١٥. (٢) يوسف: ٢٣.

(٣) أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٤.

(٤) ذهب اليه الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٩١.

(٥) العطاش: داء يصيب الإنسان يشرب الماء فلا يَروىٰ. (الصحاح: مادة عطش).

(٦) وهو قول الأزهري في تهذيب اللغة: ج ٨ ص ٤٢٨ مادة «زرق».

(٧) قاله الضحاك ومقاتل. راجع تفسير الرازي: ج ٢٢ ص ١١٤.

(٨) الكهف: ١٩.

صَفْصَفاً (١٠٦) لَّاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً (١١٢) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَاتَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً (١١٤) ﴾

﴿يَنسِفُهَا رَبِّى﴾ أَي: يجعلُها بمنزلةِ الرمْلِ، ثُمَّ يُرسِلُ عليها الرياحَ فتُذَرِّيها وتُفرِّقُها كما يُذَرَّىٰ الطعامُ. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أَي: فَيَذَرُ مَقَارَّها ومراكِزَها، أَو يكونُ الضميرُ للأَرض وإِن لم يَجْرِ لها ذِكرٌ. ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً﴾ أَي: أعوجاجاً ﴿وَلَآ أَمْتاً﴾ ولا نُتُوّاً[1] يسيراً، وعن الحسنِ: العِوَجُ: ما انخفَضَ من الأَرضِ، والأَمْتُ: ما ارتفعَ من الروابي[2].

وأَضافَ «اليَوْمَ» إِلىٰ وقتِ نَسْفِ الجِبالِ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَي: يومَ إِذْ نُسِفَتْ، ويجوزُ أَن يكونَ بدلاً بعدَ بدلٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[3]، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ صوتَ ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ إِلى المحشرِ، وهو إِسرافيلُ الَّذي ينفخُ في الصُورِ يدعُو الناسَ قائماً على صخرةِ بيتِ المَقْدِسِ، فيُقبِلونَ من كُلِّ أَوْبٍ[4] إِلىٰ صوتِهِ ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَي:

---

(١) نَتَأَ نَتْأً ونُتُوءاً ونُتُوّاً: انتبَرَ وانتفخ وارتفع. (لسان العرب: مادة نتأ).

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٣١.

(٣) الآية: ١٠٠.

(٤) يقال: جاءوا من كل أوْبٍ: أي من كل ناحية. (الصحاح: مادة أوب).

لايعوجُّ له مدعُوٌّ، بل يستوونَ إليه من غيرِ انحرافٍ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أَي: خفضتْ من شدَّةِ الفَزَعِ وَخَفَتَتْ ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ وهو الركزُ الخفيُّ ومنه الحروفُ المهموسةُ، وقيلَ: هو من هَميس الإبلِ وهو صوتُ أَخفافِها إِذَا مَشَتْ، أَي: لاتَسمَعُ إِلَّا خَفْقَ[١] الأَقدامِ ونَقْلَها إِلى المحشرِ[٢].

﴿مَنْ﴾ يجوزُ فيه الرفعُ والنصبُ: فالرفعُ على البدلِ من ﴿ٱلشَّفَـٰعَةُ﴾ بتقديرِ حذفِ المضافِ، أَي: ﴿لَّاتَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا﴾ شَفَاعةُ ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، والنصب على المفعوليّة، ومعنىٰ ﴿أَذِنَ لَهُ ... وَرَضِيَ لَهُ﴾: لأَجْلِهِ، كاللامِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[٣].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَي: ماتَقَدَّمَهم من الأَحوالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَي: مايستقبلُونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ بمعلوماتِهِ ﴿عِلْماً﴾.

﴿وَعَنَتِ﴾ وجوهُ العُصاةِ أَي: خَشَعَتْ وذَلَّتْ إِذا عاينتْ أَهوالَ يومِ القيامةِ، وقيلَ: المرادُ بِـ﴿ٱلْوُجُوه﴾ الرؤَساءُ والمُلوك[٤]، أَي: صَارُوا كالعُناةِ وهم الأُسَارَىٰ، وقولُه: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وما بعدَهُ اعتراضٌ.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً﴾ وهو أَنْ يؤخذَ بذنبٍ لم يعملْهُ، أَو لَا يُجزَىٰ بعمَلِهِ ﴿وَلَا هَضْماً﴾ وهو أَن يُكسَرَ من حقِّهِ فلا يُوفَى له، أَو يُبْطَلَ بعضُ حسناته، وقُرِئَ: «فَلَايَخَفْ» على النهي[٥]، والمعنىٰ: فليَأْمَنِ الظُّلمَ والهضمَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾[٦] أَي: مثلَ ذلكَ الإِنزالِ، و[٧] كما

---

(١) الخَفْق: صوت النعل وما أشبهها من الأصوات. (لسان العرب: مادة خفق).

(٢) وهو قول ابن‌عباس والحسن وعكرمة وابن‌زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٣) الأحقاف: ١١.

(٤) حكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ٢٦٥.

(٥) قرأه ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٤.

(٦) الآية: ٩٩.

(٧) في نسخة: «أو» بدل الواو.

أنزلْنا عليك هؤلاءِ الآياتِ المتضمِّنةِ للوعيدِ أنزلْنا القرآنَ كُلَّهُ ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ أي: وكرَّرنا ﴿فِيهِ﴾ آياتِ ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ وبيَّناها على ألفاظٍ مختلفةٍ لِيتَّقُوا المعاصيَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآنُ ﴿لَهُمْ﴾ شرَفاً بإيمانِهم به، أو اعتباراً بأن يَذَّكَّروا به عقابَ اللهِ للأُمم.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ استِعظَامٌ له سبحانَه، ولما يصرِفُ عليه عبادَه من أوامرِهِ ونواهيهِ ووَعْدِهِ ووَعيدِهِ، وما يُجْرِي عليه أُمورَ ملكوتِهِ.

ولمَّا ذَكَر القرآنَ وإنزَالَه قالَ علىٰ سبيلِ الاستطرادِ: وإذا لَقَّنَكَ جبرئيلُ الوحيَ فـ﴿لَا تَعْجَلْ﴾ بتلاوتِهِ قبل أن يفرغَ من قراءتِهِ، ولا تكنْ قراءَتُكَ مساوقةً لِقراءَتِهِ، ونحوُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ (1)، وقيل: معناه: لاتُقرِئْهُ أَصحابَك حتَّىٰ يُبَيَّنَ لك ماكَانَ مجملاً (2)، واستَزِدْ من اللهِ سبحانَه علماً إلىٰ علمك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾ إلىٰ علم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم

(١) القيامة: ١٦.

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٣.

مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾

عَطَفَ سبحانَه قصَّةَ آدمَ علىٰ قولِهِ: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، والمعنىٰ: ﴿وَ﴾ أُقْسِمُ قَسَماً ﴿لَقَدْ﴾ وَصَّيْنا أَباهُم بأَن لايقربَ الشجرةَ ﴿فَنَسِىَ﴾ العَهدَ ولم يَتذكَّرِ الوصيّةَ، يُقالُ: عَهدَ المَلِكُ إِلىٰ فلانٍ وأَوعَزَ إِليه وعَزَمَ عليه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ يجوزُ أَن يكونَ من الوجود الَّذي هو بمعنى العلمِ ومفعولاهُ ﴿لَهُ عَزْماً﴾، وأَن يكونَ نقيضَ العَدَمِ، كأَنَّه قالَ: وعَدِمْنَا له عَزْماً، وقيل: ﴿فَنَسِىَ﴾ معناه: فَتَرَكَ الأمر[١].

﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ بمُضْمَرٍ، أَي: وَٱذْكُرْ وقتَ ماجَرَىٰ عليه مِن مُعاداةِ إِبليسَ ووسوستِهِ إِليه، وتزيينِهِ له الأَكلَ من الشجرةِ ﴿أَبَىٰ﴾ جملةٌ مُستَأنَفةٌ كأَنَّه جوابُ قائلٍ يقولُ: لِمَ لَم يسجدْ؟ والوجهُ: أَن لايُقَدَّرَ له مفعولٌ وهو السجودُ، وأَن يكونَ معناهُ: أَظْهَرَ الإِباءَ وتَوَقَّفَ.

وقولُهُ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ معناه: فلا يكونَنَّ سبباً لإِخراجِكُما ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ أَسنَدَ الشقَاءَ إِلىٰ آدمَ دون حوَّاءَ بَعدَ اشتراكهما في الخروجِ؛ لأَنَّ المرادَ بالشقاءِ هنا: التعبُ في طلبِ القوتِ ومعاناةُ العملِ وذلك معصوبٌ برأسِ الرجلِ، وعن سعيدِ بنِ جُبَير: أَنَّه أُهبِطَ إِلىٰ آدمَ ثورٌ أَحمرُ فكانَ يحرثُ عليه ويرشحُ العرقُ من جبينهِ فذلك هو الشقاوَةُ[٢].

وقُرِئَ: ﴿وَأَنَّكَ﴾ بفتحِ الهمزةِ وكسرها[٣]، ووجهُ الفتحِ: العطفُ علىٰ ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ والتقديرُ: وَإِنَّ لَكَ أَنَّكَ لَاتَظْمَأُ، والكسرُ: على الاستئنافِ، والشبعُ

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٣٠.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٦٧.

(٣) وبالكسر هي قراءة نافع وعاصم برواية أبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٩.

والريُّ والكسوةُ والكِنُّ[١] هي الأَقطابُ الَّتي يدورُ عليها كفَافُ الإِنسانِ، فذَكَرَ سبحانَه استجماعَها له في الجنَّة، وأنَّه لايحتاجُ إِلىٰ كفايةِ كافٍ ولا إِلىٰ كَسْبِ كاسبٍ كما أنَّ أَهلَ الدنيا يحتاجونَ إِلىٰ ذلك، وذَكَرها بلفظِ النفي لنقائضِها الَّتي هي الجوعُ والعُرْيُ والظمَأُ والضُّحِيُّ لِيَطْرُقَ سمعَهُ بأَسامي أَصنافِ الشقْوَةِ الَّتي حذَّرَهُ منها حتَّىٰ يَتحرَّزَ عن السببِ المُوقِعِ فيها كراهةً لها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أَي: أَنْهَىٰ[٢] إِليه الوسوسةَ كما يقالُ: أَسَرَّ إِليه، وأَضافَ الـ﴿شَجَرَةِ﴾ إِلىٰ ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ وهو الخُلودُ؛ لأَنَّ مَن أَكلَ ﴿مِنْهَا﴾ خَلَدَ بزَعمِهِ.

وطَفِقَ يَفْعَلُ كذا مثلُ: جَعَلَ يَفعَلُ، وأَخَذَ يَفعَلُ، وحكمها حكمُ «كَادَ» في أَنَّ خبرَها الفِعلُ المضارعُ، وهي للشروعِ في أَوَّلِ الأَمرِ، و «كادَ» للدنُوِّ من الأَمرِ ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أَي: يُلزِقانِ بسوآتِهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ للتسَتُّرِ، وهو وَرقُ التينِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ أَي: خَالفَ ما أَمَرَه به ربُّه، والمعصيةُ: مُخالَفةُ الأَمرِ، سواءٌ كانَ الأَمرُ واجباً أَو ندباً ﴿فَغَوَىٰ﴾ أَي: فخابَ من الثوابِ الَّذي كان يستحقُّهُ علىٰ فعلِ المأمورِ به، أَو خَابَ ممَّا كان يَطمَعُ فيه بأَكلِ الشجرةِ من الخُلودِ، ويُستشهدُ علىٰ ذلك بقولِ الشاعرِ:

فَمن يَلْقَ خَيْراً يَحمَدُ ٱلنَّاسُ أَمرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لَايَعْدَم على الغَيِّ لائِماً[٣]

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أَي: اصطَفَاهُ رَبُّهُ وقَرَّبَهُ إِليه، من قولِهم: جبى إِليَّ كذا فاجتبيتُهُ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أَي: قَبِلَ توبتهُ وهداه إِلىٰ ذكرِهِ، وقيل: هَدَاهُ للكلماتِ الَّتي تَلَقَّاها منه[٤]. ولمَّا كان آدمُ وحوَّاءُ أَصلَي البشرِ جُعِلَا كأَنَّهما البشَرُ، فخوطبا

---

(١) الكنّ: البيت، والجمع: أكنان وأكنّة. (لسان العرب: مادة كنن).

(٢) الانهاء: الابلاغ. (الصحاح: مادة نهى).

(٣) والبيت للمرقّش الأصغر. تقدّم شرحه وبيان معناه.

(٤) قاله السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٥٧.

مخاطَبَتِهم فقيل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ على لفظِ الجماعةِ كما أُسنِدَ الفعلُ إلى السببِ وهو في الحقيقة للمُسبَّبِ، والمرادُ بالهُدَى: الكتابُ والشريعةُ.

وعن ابنِ عبّاس: ضَمِنَ ٱللهُ لِمَن اتَّبعَ القرآنَ أَن لا يَضِلَّ في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرةِ، ثُمَّ تلا قولَهُ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَومَ تُنسَىٰ (١٢٦) وكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن﴾ القرآنِ، وقيلَ: عن الدلائلِ[2] فلم ينظرْ فيها ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ أَي: عيْشاً ضَيِّقاً، والضنكُ مصدرٌ يستوي في الوصفِ به المذكّرُ والمؤنَّثُ، والمعنيُّ فيه: أَنّ مع الدينِ القَناعَةُ والتوكُّلُ على ٱللهِ والرضا بقسمتِهِ، فصاحبُهُ يُنفِقُ ممّا رُزِقَ بسُهولةٍ وسَماحٍ فيكونُ في رفاهيةٍ من عيشِهِ، ومن أَعرضَ عن الدينِ استولىٰ عليه الحرصُ والجَشَعُ، ويتسلَّطُ عليه الشُحُّ الَّذي يقبضُ يدَه عن الإنفاقِ فيعيشُ في ضَنْكٍ ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصرِ، وقيلَ: أعمىٰ

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٣١.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٥٨.

عن الحجَّةِ لايهتدي إِليها[١]، والأَوَّلُ أَوجَهُ[٢] لأَنَّه الظاهرُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلَ ذلك فعلتَ أَنتَ، ثمَّ فَسَّرهَ بأَنَّ آياتِنا ﴿أَتَتْكَ﴾ واضحةً مُنيرةً فلم تنظرْ إِليها بعينِ المُعتبِرِ وتَرَكْتَها وعَميتَ عنها فـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَتركُك علىٰ عَماك، ولا نُزيلُ غِطاءَه عن عَينَيْك.

ولَمَّا تَوَعَّد المُعرِضُ عن ذكرِه بعقوبتين: المَعيشةِ الضنكِ في الدنيا وحَشرِه أَعمىٰ في الآخرةِ، خَتَمَ آياتِ الوعيدِ بقولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كأَنَّه قالَ: وَلَلحَشرُ على العَمَى الَّذي لايَزولُ أَبداً أَشَدُّ من ضيقِ العيش المُنقضي، أَو أَرادَ: ولَتَرْكُنا إِيَّاه في العَمَىٰ أَشَدُّ وأَبقىٰ من تَرْكِهِ لآياتنا.

وفاعلُ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ الجملةُ بعدَه، والمرادُ: أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ هذا بمضمونه ومعناه، كما أَنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٣] معناه: تَرَكْنا عليه هذَا الكلامَ، ويَجوزُ أَن يَكونَ فيه ضميرُ اللهِ أَو الرَّسولِ، ويدلُّ عليه القراءةُ بالنونِ[٤] ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ يُريدُ: أَنَّ قريشاً يَتَقَلَّبونَ في بلادِ عادٍ وثمودَ ويُعاينونَ آثارَ إِهلاكِهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ لَعِبَراً ودَلالاتٍ لذوي العقولِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخيرِ جزائهم إِلى الآخرةِ ﴿لَكَانَ﴾ مثلُ إِهلاكِنا عاداً وثمودَ لازماً لهؤُلاءِ الكفَرةِ، واللزامُ: إِمَّا مصدرُ لازَمَ وُصِفَ به، وإِمَّا فِعالٌ بمعنى مِفْعَلٍ كأَنَّه آلةُ اللزوم؛ لفرطِ لزومِه كما قيلَ: لزازُ[٥] خصمٍ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿كَلِمَةٌ﴾ أَو على الضميرِ في ﴿كَانَ﴾ أَي:

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٥.

(٢) في بعض النسخ: أولىٰ.

(٣) الصافات: ٧٨ و ٧٩.

(٤) وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي وأبي رجاء العطاردي. راجع الفريد في اعراب القرآن للهمداني: ج ٣ ص ٤٧٠.

(٥) لزّه يلزّه لزّاً ولزازاً، أي: شدّه وألصقه، وكزٌّ لزٌّ اتباع له، رجل مِلَزٌّ: اذا كان شديد الخصومة، لزومٌ إذا طالب. (الصحاح: مادة لزز).

لكانَ الأَخذُ العاجلُ وأَجلٌ مُسَمّىً لازمَيْن لَه كما كانا لازِمَيْن لعادٍ وثمودَ.

وقولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، أَي: وأَنتَ حامدٌ لِـربِّكَ علىٰ أَن وَفَّقَكَ للتسبيحِ وأَعانَك عليه، والمرادُ بالتسبيحِ: الصلاةُ أَو هو على الظاهرِ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاةَ الفجرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظهرَ والعَصرَ؛ لأَنَّهما واقعتانِ في النصفِ الأَخيرِ من النهارِ بين زوال الشمس وغُروبها ﴿وَمِـنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ أَي: ساعاتِه، وعن ابنِ عبَّاس: هي صلاةُ الليلِ كلِّه [١]، وقيلَ: إنَّ قبلَ غروبها هو صلاةُ العصرِ و ﴿أَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هو الظُهرُ لأَنَّ وقتَه الزوالُ وهو طرفُ النصفِ الأَوَّلِ وطرفُ النصفِ الثاني من النهارِ [٢]، وقد تُؤُوِّلَ أَيضاً التسبيحُ فـي ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ بصلاةِ العَتَمَةِ وفي ﴿أَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ بـصلاةِ الفـجرِ والمـغربِ، فيكونُ تَكراراً علىٰ إرادة الاختصاص كما في قولِه: ﴿حَـٰفِظُواْ عَـلَى ٱلصَّـلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [٣] ومَن حَمَلَ التسبيحَ على الظاهرِ قالَ: أَرادَ المُداوَمَةَ على التسبيحِ والتحميدِ في عموم الأَوقاتِ «لَـعَلَّكَ تُـرْضَى» [٤] بـالشفاعةِ والدرجـة الرفيعةِ، وقُرِئَ بفتحِ التاءِ كما في قولِه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [٥].

﴿وَلَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَانَسْـَٔلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُواْ لَـوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَـيِّنَةُ مَـافِى ٱلصُّـحُفِ ٱلْأُولَـىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولاً

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٣٢.

(٢) وهو قول ابن جريج وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٧٧.

(٣) البقرة: ٢٣٨.

(٤) يظهر منه أنّه يعتمد على هذه القراءة بضم التاء مبنياً للمجهول هنا تبعاً للكشّاف.

(٥) الضحىٰ: ٥.

فَتَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

أَي: ﴿لَاتَمُدَّنَّ﴾ نظرَ ﴿عَيْنَيْكَ﴾، ومدُّ النظرِ تطويلُه وأَن لايكاد يَرُدُّه؛ استِحساناً للمنظور إليه وإعجاباً بِه، وتَمَنِّياً أَن يكونَ ذلكَ له.

وقد قالَ بعضُ الزُّهَّادِ: ويجبُ غَضُّ البَصَرِ[1] عن أَبنيةِ الظَلَمَةِ ومَلابِسِهم المُحَرَّمَةِ؛ لأَنَّهم اتَّخَذُوا ذلك لعيونِ النظارةِ[2]، فَالناظرُ إِليها مُحَصِّلٌ لغرضِهم وكأَنَّه يحملُهُم على اتِّخاذِها[3].

﴿أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ﴾ أَصنافاً من الكَفَرةِ، ويجوز أَن ينتصبَ حالاً من هاءِ الضمير، والفعلُ واقعٌ علىٰ ﴿مِنْهُمْ﴾، كأَنَّه قالَ: إِلَى الَّذي مَتَّعْنَا بِهِ وهو أَصناف بعضهم وناساً منهم، وفي انتصابِ ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وجوهٌ: أَن ينتصبَ على الذمِّ وهو النصبُ على الاختصاص، وعلى تضمينِ ﴿مَتَّعْنَا﴾ معنىٰ «أَعْطَيْنا» و «خَوَّلْنا» وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إِبدالِه من محلِّ الجارِّ والمجرورِ، وعلى إِبدالِه من ﴿أَزْوَٰجاً﴾ علىٰ تقديرِ: ذَوي زهرةٍ، والزهرةُ: الزينةُ والبهجةُ، وقُرِئَ بفتحِ الهاءِ[4] فيكونُ لغةً في «الزَهْرَة» كما جاءَ في «الجَهْرَة»: «الجَهَرة»، أَو يكونُ جمعَ زاهرٍ وصفاً لهم بأَنَّهم زاهِرُو الدنيا؛ لتهلُّلِ وجوههم وصفاءِ أَلوانِهم مـمّا يتنعَمونَ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبلوهم، أَو لنُعذِّبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ المدَّخَرُ لك في الآخرةِ ﴿خَيْرٌ﴾ منه وأَدْوَمُ، أَو: مارُزِقْتَ من نعمةِ النُبوَّةِ خيرٌ ممّا مَتَّعْناهُم به.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أَي: أَهل بيتِك ﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾ واستعينوا بها علىٰ خصاصتكم ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ واصبِرْ علىٰ فعلِها والأَمرِ بها، ولا تهتمَّ بأَمرِ الرزقِ والمعيشةِ،

---

(١) في بعض النسخ: الطرف.

(٢) في بعض النسخ: النظّار، وفي أُخرى: الناظرة.

(٣) حكاه عن هذا البعض الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٩٨.

(٤) وهي قراءة يعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٢٤.

فَإِنَّ رزقَكَ مكفيٌّ من عندنا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ﴾ أَن ترزُقَ نفسَكَ ولا أهلَكَ.

وعن أَبي سعيد الخُدْريِّ: لَمّا نزلتْ هذه الآيةُ كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يأتي بابَ فاطمةَ وعليٍّ عليهما السلام تسعةَ أشهرٍ وقتَ كلِّ صلاةٍ فيقولُ: الصلاةَ رَحِمَكُمُ اللهُ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١) (٢).

وعن بَكْرِ بنِ عبدِاللهِ المُزَنيِّ (٣): أَنَّه كانَ إذا أَصابَ أَهلَه خَصاصةٌ قالَ: قوموا فَصَلّوا، بهذا أَمَرَ اللهُ (٤) رسولَه، ثمَّ يَتلو هذه الآيَةَ (٥).

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَي: لأَهلِ التقوىٰ.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ﴾ اقترحوا علىٰ عادتهم في التعنُّتِ آيةً على النُبوَّةِ، فقيلَ لهم: ﴿أَوَلَمْ﴾ تأتكُم آيةٌ هي أَصلُ الآياتِ وأَجَلُّها في بابِ الإِعجازِ، يعني: القرآنَ، وذلك أَنَّ القرآنَ به يُستدَلُّ علىٰ صحَّةِ سائرِ الكتبِ المُنزَلَةِ، وجميعُها مفتقرةٌ إِلىٰ شهادتِه علىٰ صحَّةِ مافيها كما يحتاجُ المحتجُّ عليه إِلىٰ شهادةِ الحجَّةِ؛ لأَنَّه معجزةٌ وتلكَ الكتبُ ليست بمعجزاتٍ، وذكّرَ الضمير الراجع إِلىٰ «البيِّنةِ» في ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ لأَنَّها في معنى الدليلِ والبرهانِ.

﴿كُلٌّ﴾ أَي: كلُّ واحدٍ منَّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ للعاقبةِ، فنحنُ ننتظرُ وعدَ اللهِ لَنا فيكم، وأَنتم تتربَّصونَ بنا الدوائر، و ﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: الدينُ المستقيمُ.

وفي قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم﴾ الآية، دلالةٌ علىٰ وجوبِ اللُطفِ، وأَنَّه إِنَّما بَعَثَ الرسولَ لكونِه لطفاً، ولو لم يبعثْهُ لكانَ للخلقِ الحجَّةُ عليه سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) تفسير الحِبري: ص ٣٠٦ ح ٥٥، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ٤٧ ح ٦٦٨.

(٣) هو بكر بن عبدالله بن عمرو بن هلال المزني، أخو علقمة. راجع تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ١ ص ٤٨٤.

(٤) في نسخة زيادة: واو.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٩٩.

سورةُ الأنبيَاءِ

مكّية[1]، وهي مائة واثنتا عشرة آيةً كوفي، وإحدىٰ عشرة آية غيرهم، عدَّ الكوفي ﴿لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾[2].

في حديث أُبيٍّ: «مَن قرأ سورة الأنبياء حاسَبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلَّم عليه كلّ نبيّ ذُكر اسمه في القرآن»[3].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «من قَرأَها حُبّاً لها كان ممَّن رافق النبيِّين في جنَّات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس في الدنيا»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٢٧: هي مكية في قول قتادة ومجاهد، وهي مائة واثنتا عشرة آية في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري والمدنيّين.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٠: مكية، وآياتها ١١٢، نزلت بعد سورة ابراهيم.

وفي تفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ٢ ما لفظه: نزلت بمكّة كما أُخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، وفي البحر: أنّها مكّية بلاخلاف وأُطلق ذلك فيها، واستثنىٰ منها في الاتقان قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ الآية.

(٢) الآية: ٦٦.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٤٠ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥)﴾.

اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوكيد معنى إضافة «الحساب» إلى «الناس»، والأصل [١]: اقترابُ حسابِ الناس [٢]، ثمّ اقتربَ للناسِ الحسابُ، ثمّ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ والمرادُ: اقترابُ القيامةِ، وإذا اقتربَتْ فَقد اقتربَ ما يكون فيها من الحسابِ والثوابِ والعقاب وغير ذلك، وإنّما وُصفت بالقُرب لأنّ كلّ آتٍ وإن طالت مدّة ترقّبه قريبٌ، وإنّما البعيدُ هو الّذي وُجد وٱنقرض.

وفي كلام أميرالمؤمنين عليه السلام: «أنّ الدنيا ولّت حَذّاء [٣] ولم يبق منها إلّا صُبابة كصُبابة الإناء» [٤].

وَصَفهم بالغفلة مع الإعراض على معنىٰ: أنّهم غافلون عن حسابهم، ساهون لا يتفكّرون في عاقبتهم، وإذا نُبّهوا عن سِنَةِ الغَفلة بما يُتلى عليهم من الآيات أعرضوا عن التفكّر فيها والتدبُّر لها والإيمان بها، ثم قرّر سبحانه إعراضهم عن تنبيه المنبّه بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويُحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليتّعظوا، فما يَزيدهم استماع الآيِ والسُوَرِ إلّا لَعِباً وتلهّياً.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حالانِ مترادفتانِ أو متداخلتانِ، وأبدل

---

(١) أي: أصل العبارة قبل زيادة التوكيد عليه.

(٢) ليس في بعض النسخ جملة: «والأصل: اقتراب حساب الناس».

(٣) حذّاء: أي خفيفة سريعة النفاذ. (لسان العرب: مادة حذذ).

(٤) نهج البلاغة: ص ٨٤ خطبة ٤٢ ضبط صبحي الصالح.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ إذاناً بأنّهم الموسُومُونَ بالظلمِ فيما أسرُّوا به، أو يكون على لغة مَن قال: أكلوني البراغيث، أو هو مبتدأ وخبره ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ قُدِّم عليه، والمعنى: ﴿و﴾ هؤلاء ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفاتها، فوُضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أفعالهم بأنّه ظلم ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلامُ كلُّه في محلِّ النصب بدلاً من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ أي: وأسرّوا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلَّق بـ«قالوا» مضمراً. اعتقدوا أنّ الرسولَ من الله لا يكون إلَّا مَلَكاً، وأنّ كلّ مَن ادَّعى الرسالة من البشر وأتى بالمعجزات فهو ساحر، وما أتىٰ به فهو سحر، فلذلك قالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ﴾ تُعاينون أنّه سحر؟

وقُرئ: ﴿قَالَ رَبِّى﴾ على الخبر عن الرسول ﷺ، ولم يقل: يعلم السر؛ لأنَّ القولَ عامٌّ يشمل السرّ والجهر، فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادته[1]، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: العالم لذاته لا يخفىٰ عليه خافية.

ثم أضربوا عن قولهم: هو سحرٌ، إلى: أنّه تخاليط ﴿أَحْلَـٰمٍ﴾، ثم إلى: أنّه كلام مفترىً من عنده، ثم إلى: أنه قول شاعر؛ لأنَّ الباطل لجلجٌ، والمبطل متحيّر لا يثبتُ على قولٍ واحدٍ، وصحَّة التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنّه في معنى: كما أتى ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ بالآيات؛ لأنّ إرسال الرُسُل متضمّن للإتيان بالآيات، فلا فرق بين أن يقول: أُرسل محمد ﷺ، وبين قولك: أتىٰ محمد ﷺ بالمُعجز.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا

(١) في نسخة: «وزيادة».

جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَـٰلِدِينَ (٨) ثُمَّ صَـدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ (٩) لَـقَدْ أَنـزَلْنَآ إِلَـيْكُمْ كِتَـٰباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾

في قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ دلالةٌ على أنّهم أعتَىٰ من الأُمم التي اقترحت على أنبيائهم الآيات ووعدوهم أن يؤمنوا عندها، فلمّا جاءتهم خَالفُوا وأخلَفُوا الوعدَ فأهلَكَهُم الله، أي: فلو أعطيناهم ما ٱقترحوا لَكانُوا أنكث منهم.

واختلف في ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فقيل: هم أهلُ الكتاب[١]، وقيل: هم أهلُ العلم بأخبار مَن مضىٰ من الأُمم[٢].

وعن علي عليه السلام: «نحن أهلُ الذكر»[٣].

﴿لَا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة الجسد، والمعنى: وما جعلنا الأنـبياء قَـبلَه ذَوي جسدٍ غير طاعمين، ووحَّد «الجسد» لإرادة الجنس، كأنَّه قال: ذوي ضربٍ من الأجساد، وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾[٤]، ﴿وَمَا كَـانُواْ خَـٰلِدِينَ﴾ أي: ما أخرجناك[٥] وما أخرجناهم عن حدِّ البشريَّة بأن أوحينا إليهم.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي: في الوعد، فهو مـثل قـوله: ﴿وَٱخْـتَارَ مُـوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾[٦] أي: من قومه. ومنه قولهم: صـدقني سـنّ بكـره، وصَـدَقُوهم القـتَال ﴿فَأَنجينـٰهُم﴾ من أعدائِهِم ﴿وَ﴾ أَنجينا ﴿من نَّشاءُ﴾ من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهم المشركون، أسرفوا على أنفُسِهم بتكذيبهم الأنبياء.

---

(١) قاله الحسن وقتادة. راجع تفسير التبيان: ج ٧ ص ٢٣٢.

(٢) وهو قول الرماني والأزهري والزجّاج. راجـع التـبيان: ج ٦ ص ٣٨٤، ومـعاني القـرآن للزجّاج: ج ٣ ص ٢٠١.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٦، والطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٣٢.

(٤) الفرقان: ٧.

(٥) ليس في بعض النسخ: «ما أخرجناك».

(٦) الأعراف: ١٥٥.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم وَصِيتُكم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (١)، أو: موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناءَ وحُسنَ الذكر، كالسخاء وأداء الأمانة والوفاء وحُسن الجوار وصدْق الحديث وأشباهها من محاسن الأفعال.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيداً خَـٰمِدِينَ (١٥) وَمَآ خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾

هذا كلامٌ واردٌ عن غضبٍ شَديدٍ؛ لأنَّ القَصْمَ أفظعُ الكسر، بخلاف الفصم، وهو سبحانه قاصم الجبارين، وأراد بالقريةِ أهلَها ولذلك وَصَفَها بالظُّلم، والمعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين، وعن ابن عبَّاس: أنَّها «حضور»، وهي و«سحول» قريتان باليَمن، تُنسب إليهما الثياب (٢).

وفي الحديث: كُفِّنَ رَسُول الله ﷺ في ثوبين سحوليَّين، ويروىٰ: حضوريَّيْن (٣).

---

(١) الزخرف: ٤٤.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٥.

(٣) رواه أيضاً في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٥.

بَعثَ الله إليهم نبيّاً اسمُهُ «حنظلة» فقتلوه، فسلَّط عليهم «بَخْتَنُصَّر» كما سُلِّط على أهل بيت المَقْدِس فاستأصلهم.

وظاهر الآية على الكثرة، ولعلّ ابن عبّاس ذكر «حضور» بأنّها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فلمّا علموا شدّةَ بطشنا[1] بأجسامهم وشاهدوا عذابنا ركضوا من ديارهم، والركض: ضَرْب الدابة بالرِجْل، أي: هَربُوا وانهزموا من قَريتهم لمَّا أدركتهم مقدّمة العذاب، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ والقول محذوف، ويحتمل أن يكون القائل بعض الملائكة، أو مَنْ هناك من المؤمنين ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من العيشِ الرافهِ والحالِ الناعِمَة، والإترافُ: إبطارُ النعمةِ، وهي الترفُّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تَهكُّمٌ بهم، أي: ارجعوا إلىٰ نعمتكم ومساكنكم لعلّكم تُسألون غداً عمَّا جرىٰ عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علمٍ ومشاهدة، أو: ارجعوا واجلسوا في مجالسكم ومراتبكم كما كنتم كذلك حتّىٰ تَسألكم حشمُكم ومَن تَملكونَ أمرَهُ ويقولوا لكم: بِمَ تأمرون؟ وماذا ترسمون؟ كعادة المُنْعَمين، أو: يسألكم الناس في أنديتكم المعاونة في الخُطُوب النازلة، ويستشفون بآرائِكُم في المهمات الكادسة[2].

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلىٰ ﴿يَـٰوَيْلَنَآ﴾، والدعوى بمعنى الدعوة، أي: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الدعوىٰ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾، وإنّما سُمِّي الدعوىٰ لأنّ المُوَلْول كأنّه يدعو الويلَ فيقول: تعال يَا ويلُ فهذا وقتُكَ، والحَصِيدُ: الزرعُ المحصودُ، أي: جعلناهم مثلَ الحَصيد، شبّههم به في استئصالهم، أي: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، كما يقال: جعلته حُلْواً حامضاً أي: جامعاً للطَعْمَين.

---

(١) في نسخة: «بأسنا»

(٢) في بعض النسخ: «الكارثة».

وما جعلنا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أنواع الخلائق لِلَّهو واللعب، وإنَّما سوَّيناها للفوائدِ الدينيّة والحِكَم الالهيَّة. ﴿لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من جهة قُدرتنا، واللهو: الولدُ، وقيل: المرأة[١]، وقيل: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من الملائكة لا من الإِنس[٢]، وهو ردٌّ لولادة المسيح وعُزَير، بل إضراب عن اتِّخاذ اللَّهو، كأنَّه قال: سبحانَنَا أَنْ نَتَّخِذَ اللهو واللعب. ﴿بَلْ﴾ من موجب حِكْمتنا أن نَغْلِبَ اللهو بالجدِّ ونَدحض الباطلَ ﴿بِـالْحَقِّ﴾، واستعار لذلك القَذفَ والدفعَ تصويراً لإبطاله به ومَحْقِهِ، فجعلَه كأنَّه جُرمٌ صلْبٌ كالصخرة مثلاً قَذَفَ به على جُرمٍ رَخْوٍ أَجْوَفَ فدمغَه، ثم قال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ به ممّا لا يجوز عليه.

﴿ومَنْ عِندَهُۥ﴾ هُمْ الملائكة، يعني: أنَّهم منزَّلون منه منزلةَ المقرَّبين عند الملوك؛ لشرفهم على الخلق وكرامتهم عليه ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ ولا يملُّون. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: ينزِّهُونَ الله تعالىٰ عمَّا لا يليق بصفاته على الدوام في ﴿ٱلَّيْلَ وٱلنَّهَارَ﴾ لا يَضعفون عنه.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

---

(١) قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. راجع تفسير التبيان: ج ٧ ص ٢٣٦.

(٢) قاله ابن جريج. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٧٦.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٩) أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾

﴿أم﴾ هذه منقطعةٌ بمعنى «بل»، والهمزة فقد دلّت على الإضراب عمّا قبلَها، والإنكار لِمَا بعدَهَا، وهو أن يتّخذوا ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ آلهةً ﴿يُنشِرُونَ﴾ الموتىٰ، ومن أعظم المنكرات أَن يَنشرَ المَواتُ الأمواتَ، وإذا ادَّعَوْا لها الإِلهيَّة لَزِمَهُم أَنْ يدَّعوا لها الإِنشارَ؛ لأنَّه لا يستحقّ هَذا الاسم إلّا القادرُ علىٰ كلِّ مقدور، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من نحو قولك: فلانٌ من الكوفة، تريد: أنّه كوفيٌّ، فيه إيذان بأنّها الأصنام التي تعبد في الأرض، أو يريد: ﴿ءَالِهَةً﴾ من جنس الأرض؛ لأنَّها: إمّا أن تُنْحَتَ من بعض حجارة الأرض أو تُعْمَلَ من بعض جواهرها، وقُرئ: «يَنْشُرُونَ»[١]، ويقال: أَنْشَرَ اللهُ الموتى وَنَشَرَهَا، وهما لغتان.

ثم دلَّ سبحانه علىٰ توحيده فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وُصفت الآلهةُ بـ﴿إِلَّا﴾ كما تُوصَفُ بـ«غير»، كما لو قيل: آلهةٌ غير الله، ولا يجوز أن يكون بَدَلاً؛ لأنَّ البدل لا يسوغ إلّا في غير الموجب، كقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾[٢] وذلك أنّ أعمَّ العامِّ يصحّ نفيه ولا يصحّ إيجابُه، والمعنىٰ: لو كان يدبِّر أَمْرَهما آلهةٌ شتَّى غير الواحد الذي هو مُنشِئُهما ومُحْدِثُهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ ولم ينتظم أمرُهُما، وفي هذا دليل التمانع الذي بَنَىٰ عليه المتكلِّمون في مسألة التوحيد.

---

(١) قرأه الحسن ومجاهد. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٠٤.

(٢) هود: ٨١.

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنَّ أفعالَه كلَّها حكمةٌ وصواب، ولا يجوز عليه فعلُ القبيح ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ لأنّهم مملوكون مُستَعْبَدون، يقع منهم الحسَن والقبيح، فهم جُدراءُ بأنْ يقال لهم: لِمَ فعلتم في كلّ شيءٍ فعلوه؟

وكرّر ﴿أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ استعظاماً لكُفرهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ علىٰ ذلك من جهة العقل أو من جهة الوحي، فإنَّكم لا تجدون كتاباً من كُتبِ الأوَّلين إلَّا وفيه الدعاء إلى التوحيد والنهي عن الشرك ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: عِظَةُ الذي معي، يعني: أُمَّته ﴿وَذِكْرُ﴾ الَّذين ﴿قَبْلِى﴾ من أُمم الأنبياء ممّن نَجَا بالإيمان أو هَلَكَ بالكفر. وعن الصادق عليه السلام: يعني بـ﴿ذِكْرُ مَنْ مَّعِيَ﴾ مَن معه وما هو كائن، وبـ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ ما قد كان[1]. ثم ذمَّهم سبحانه بالجهل في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأمُّل والنظر.

وقُرئ: ﴿نُوحِىٓ﴾ و«يوحىٰ»[2] وهذه الآية مقرِّرةٌ لما قبلها من آي التوحيد.

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَداً﴾ هم خزاعة حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله ﴿سُبْحَـٰنَهُ﴾ نزَّه ذاتَه عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنَّهم ﴿عِبَادٌ﴾، والعبودية تنافي الولادة ﴿مُكْرَمُونَ﴾ أكرمهم الله وقرَّبهم. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يتَّبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتّىٰ يقوله، فلا يَسبق قولُهم قولَه، وكما أن قولَهم تابعٌ لقولِه فعملهم أيضاً كذلك مبنيٌّ على أمره، لا يعملون عملاً لم يأمرْهم به، وجميع ما يأتون ويذَرون ممَّا قدَّموا وأخَّروا بعين الله، يحيط عِلْماً بما عملُوا وما هم عاملُون، ولا يَجترِئون أن يَشفعوا ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ الله دينه، أو: ارتضى

---

(١) رواه الصفّار في بصائر الدرجات: ص ١٤٩ ح ١.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنون، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بالياء. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٨.

أن يُشفع فيه وأهَّلَهُ للشفاعة وهم المؤمنون، ثم إنَّهم مع هذا كلّه ﴿مِّنْ﴾ خَشيةِ الله ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وَجِلُونَ من التقصير في عبادته.

ثم أوعد بعذاب جهنَّم من أشركَ منهم إن كان ذلك علىٰ سبيل الفرض والتمثيل؛ تقطيعاً لأمر الشرك، كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [(١)] وقُرئ: «أَلَمْ يَرَ»، بغير واو [(٢)]، والمعنى: أنّ السماء كانت لاصقةً بالأرض لا فضاءَ بينهما، وكانت ﴿ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ﴾ متلاصقات وكذلك الأرضون لا فُرَجَ بينها فَفَتَقَهَا الله وفَرَج الله بينهما، وقيل: ﴿فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ بالمطر والنبات بعد ما كانت مُصْمَتَة [(٣)] وهو المرويُّ عنهم عليهم السلام [(٤)]، وإنَّما قال: ﴿كَانَتَا﴾ ولم يقل: «كُنَّ»، لأنّ المراد جماعة السماوات وجماعة الأرض، كما قيل: لِقاحان سوداوان أي: جماعتان، فَعلَ في المضمَر مثل ما فعل في المظهَر ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لا يخلو أن يتعدَّى إلى واحد أو اثنين، فإن كان الأول فالمعنىٰ: خلقْنا ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ﴾ حيوان كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [(٥)]، أو: كأنَّما خلقناه من الماء لحاجته إليه وقلّة صبره عنه كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [(٦)]، وإن كان الثاني فالمعنىٰ: صَيَّرنَا ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ بسبب ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لابدَّ له منه، ويكون ﴿مِنَ﴾ هنا كما في قوله عليه السلام: «ما أنا من دَدٍ ولا الدّدُ مِنّي» [(٧)].

---

(١) الأنعام: ٨٨.

(٢) وهي قراءة ابن كثير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٣.

(٣) قاله عكرمة و عطية و ابن زيد و المهدوي عن ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ص ٢٨٤.

(٤) رواه الطوسي في التبيان: ج ٧ص ٢٤٢ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

(٥) النور: ٤٥. (٦) الآية: ٣٧.

(٧) والدَدُ: اللعب، والمثل يضربه الرجل لمن لا يوافقه. انظر المستقصىٰ في أمثال العرب للزمخشري: ج ٢ ص ٣١٤.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾

﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالٌ ثوابت، أي: كراهةَ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وتضطرب، أو لأنْ لا تميد بهم، فحذف «لا» واللام، وإنما حذف «لا» لعدم الالتباس، كما زِيدَ لذلك في نحو قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (١) وهذا مذهب الكوفيِّين ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿فِجَاجاً﴾ أي: طُرُقاً واسعةً بينها، جَمْعُ «فَجٍّ» وهي صفة لـ«سُبُل»، فلمَّا تقدّمت عليها جُعلت حَالاً منها.

﴿سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ مِنْ أن يَسقطَ إلى الأرض ويتزلزل، أَو: محفوظاً بالشُهُب عن أن يتَسَمَّعَ الشياطين علىٰ سكّانه من الملائكة ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا﴾ أي: عمَّا وضَعَ الله فيها من الأدلّة والعِبَرِ بالشَمسِ والقَمرِ وسائر الكواكب ومَسائرها على الحسابِ القَويم والتَرتيب المُستَقيم الدالِّ على الحكمة البالغة، فَمَنْ أعرَضَ عن الاستدلال بها على عِظَمِ شأنِ مَنْ أَوجدَها وبَديعِ حكمتِهِ فلا جَهْلَ أعظمُ من جهله.

﴿كُلٌّ﴾ التنوينُ فيه عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: كلُّهم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، والضمير لـ﴿الشَّمْس وَٱلْقَمَر﴾ والمراد: جنس الطوالع كلَّ يومٍ وليلة، ولذلك جُعلت متكاثرةً لتكاثُرِ مَطالِعها، وهو السبب في جمعها بالشموس والأقمار وإن كانت الشمس واحدةً والقمر واحداً، وإنما جُعل الضمير «واو» العقلاء للوصف

(١) الحديد: ٢٩.

بفعلهم وهو السباحة.

كانُوا قد تَمنَّوا مَوتَهعليه السلام ليشمتُوا بذلكَ فَنفَى الله عَنه الشَماتة بهذا، أي: قضى الله أن لا يُخَلَّد في الدنيا بشراً، فإن ﴿مِتَّ﴾ أنت أيبقىٰ هؤلاء؟

وَ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرٌ مؤكَّد لـ﴿نَبْلُوكُم﴾ من غير لفظِه، أي: يختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجبُ فيه الشُكر من العطايا ﴿وَإِلَيْنَا﴾ مرجعُكُم فنُجازيكم علىٰ حَسبِ ما يوجد مِنكُم من الصَبرِ والشُكر.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

الذكر يكون بالخير وبالشرِّ، فإذا دلَّت الحال علىٰ أحدهما أطلق، تقول للرجل: سَمعتُ فلاناً يذكُركَ، فإنْ كان الذاكرُ صديقاً فهو ثَناءٌ، وإنْ كان عَدُواً فهو ذمٌّ، ومنه قوله: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[1]، والمعنىٰ: أنّهم يذكرون آلهتهم بما يجب أن لا تُذكَر به لكونِهم شُفَعاء وشُهداء، ويَسوءهُم أن يَذكرها ذاكرٌ بخلاف ذلك و﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ بما يجب أن يُذكَرَ اللهُ به من الوحدانية لا يصدِّقون به، فهم أحقُّ بأن يُتَّخذُوا ﴿هُزُوًا﴾ منك لأنهم مُبطِلُون وأَنت مُحِقٌّ، والجملةُ في موضع «الهزء» وهو الكفر بالله، ويجوز أن يكون في موضع الحال على حَذْفِ القول، أي: قائلين: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

---

(١) الآية: ٦٠.

كانوا يستعجلون عذاب الله ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، فأراد الله سبحانه نَهْيَهُم عن الاستعجال فقدَّم أولاً ذمَّ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ على العجلة وأنّه مطبوعٌ عليها، ثم نهاهم وزَجَرهم، فكأنّه قال: ليس بِبِدْعٍ منكم أنْ تَستعجلوا، فإنّكم مجبولون علىٰ ذلك وهو سجيّتكم، وعن ابن عباس: أنه أراد بالإنسان آدم، إنّه لمّا بلغ الروحُ صدرَهُ أراد أن يقوم[1]، والظاهرُ أن المرادَ به الجنس، وقيل: العَجل: الطين بلغةِ حِميْرَ[2] واستشهد بقول شاعرهم:

والنبعُ يَنْبُتُ بين الصَّخر صاخيةً والنخل يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[3]

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف أي: لو علموا لَمَا قامُوا على الكُفْر ولَمَا ٱستَعجلُوا، و﴿حِينَ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، أي: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الوقتَ الذي يستعجلون عنه بقولهم: متىٰ هذا الوعد، وهو وقتٌ صعبٌ يحيط بهم فيه ﴿ٱلنَّارَ﴾ من ورائهم وقدّامهم، فلا يقدرون على رَفْعِها من نفوسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء، ويجوز أن يكون ﴿يَعْلَمُ﴾ متروكاً بلا تعديةٍ بمعنىٰ: لو كان معهم عِلْمٌ ولم يكونوا جاهلين لَمَا كانوا مستعجلين، ويكون ﴿حِينَ﴾ منصوباً بِمضمَرٍ، أي: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ يعلمون أنّهم كانوا على الباطل. ﴿بَلْ﴾ تفجأُهُم الساعةُ أو النارُ الَّتي وُعِدُوا بها فتغلبهُم، ويقال

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١١٧.

(٢) قاله أبو عبيد على ما حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ١٧٢.

(٣) لم نعثر على اسم الشاعر الحِمْيَري فيما توفّرت لدينا من مصادر، وروي صدره:

والنبع في الصخرة الصمّاء منبته

يقول: النبع ـ وهو شجر تتخذ منه القسيّ ـ انّما نباته بين الصخور الصلبة لا في غيرها، بينما النخل ينبت في الارض الرخوة الليّنة والريّانة، فهو بين الماء والطين، والظاهر هما كناية على الصعب البخيل والسهل الجواد، أو على الشجاع والجبان لشدة الأول ورخاوة الثاني. أُنظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ص ٢٠١.

لمن غُلِبَ في الْحِجَاجِ: مَبْهُوتٌ، وفي قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ تذكيرٌ بإنظارِه وإمهالِه إيَّاهم، أي: لا يُمهَلُون بعدَ طول الإمهَال.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾

ثم سلَّىٰ سبحانه نبيَّهﷺ عن استهزائِهم به بأنَّ له في الأنبياء قبلَه أُسوةً، وأنّه يحلُّ بهم وَبَالُ استهزائهم كما حلَّ بأُولئك.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: من بأسِ الرحمـٰنِ وعذابِه، والْكَلاءةُ: الحِفْظُ، بل هـم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن ذِكْرِ ربِّهم لا يَخطرونه ببالهم فضلاً عن أَن يخافوا بأسَه، والمراد: أنّه أمر بسؤالهم عن الكالئ، ثم بيَّن أنّهم لا يصلحون لذلك؛ لإعراضهم عن ذِكْر مَن يكلؤُهم. ثم أضرب عن ذلك لِمَا في ﴿أَمْ﴾ من معنى «بَل»، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن﴾ العذاب تتجاوز مَنْعَنَا وحِفظَنا، ثم استأنف وبيَّن أنَّ ما ليس بقادر علىٰ نصرِ نفسه ومَنْعِها، ولا بمصحوب من الله بالنصر كيف يمنع غيره وينصره؟! ثم قال: ﴿بَلْ﴾ ما هم فيه من الكلاءة إنما هو منّا أمهلْناهم ومتَّعناهم بالحياة الدنيا كما متَّعنا ﴿ءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ﴾ الأَمدُ، فظنّوا أنّهم لا يُنزع عنهم ثوبُ الأمن والطمأنينة.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ نَنْقُص أرضَ الكُفر بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم علىٰ

أهلها، وقيل: نَنْقُصها بموت الْعُلَماء[١]، وعلى القول الأول ففي قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ تصويرٌ لِمَا كَان يُنجز به اللهُ على أيدي المسلمين من الْغَلَبة على ديار المشركين، والنقص من أطرافها.

وقُرِئ: «لا تُسْمِعُ الصُّمَّ»[٢] على الخطاب للنبي ﷺ.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾

أي: وإن مسَّهم ممَّا أُنْذِروا به أدنىٰ شيءٍ لذلُّوا وأقرُّوا بالظُّلمِ علىٰ أنفسهم، وفي «النَّفْحَةِ» معنى القِلَّة لبناء المرَّة، ولقولهم: نَفَحَتْهُ الدابة وهو ريحٌ يسير، وَنَفحَهُ بعطيَّةٍ إذا رضخه[٣].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ ذوات ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ فحذف المضاف، ووصفت ﴿ٱلْمَوَٰزِين﴾ بـ﴿ٱلْقِسْط﴾ وهو العدل مبالغةً، كأنّها في أنفسها قِسْطٌ ﴿لِـ﴾ أهل ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأجلِهم، أو هو كاللام في قولك: لخَمْسِ لَيَالٍ خَلَونَ من الشهر، ومنه قولُ النابغة:

تـوسَّمْتُ آيـاتٍ لهـا فـعرفتُها ... لِستَّةِ أعوامٍ وذا العام سـابعُ[٤]

---

(١) وهو قول عطاء والضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٤٩.

(٢) قرأه ابن عامر وحده. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٥٥.

(٣) رضخه رضخاً: إذا أعطاه عطيةً قليلةً. (لسان العرب: مادة رضخ).

(٤) وهو من قصيدة يعتذر بها الى النعمان بن المنذر ممّا وشت به بنو قريع، ومطلعها: ←

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لا يُنقص من إحسان مُحسنٍ، ولا يُزاد في إساءة مُسيءٍ ﴿وَإِن كَانَ﴾ الظلامة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها للمجازاة، ويجوز أن يؤنَّث ضمير «المثقال» لإضافته إلىٰ «الحبة»، كما يقال: ذهبتْ بعضُ أصابعه، وقرأ الصادقُ عليه السلام وابنُ عباس ومجاهد: «آتَيْنَا بِهَا» بالمَدِّ[١]، وهي مفاعلةٌ من الإتيان بمعنىٰ: المجازاة والمكافاة؛ لأنّهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء.

و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: التوراة، و﴿ضِيَآءً﴾ أي: وآتيناهما به ضياء ﴿وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنىٰ: أنَّه في نفسه ضياءٌ وذكرىٰ، أو يريد: أتيناهما بما فيه من الشرائع ضياءً وذكرىٰ، وقيل: ﴿ٱلْفُرْقَان﴾ فَلْقُ البحرِ[٢]، وقيل: المُخرجُ من الشُبهات[٣]. ومحلُّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جرٌّ على الوَصْفِ، أو نَصبٌ على المَدحِ، أو رفعٌ عليه. ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ وبركته: خيره ومنافعه، ودوام ذلك إلىٰ يوم القيامة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ (٥٢) قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذاً

← أُقارع عوفٍ لا أُحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادعُ

أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٢ ص ٤٥٣ وفيها: «توهّمت» بدل «توسّمت».

(١) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٤، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣١٦.

(٢) قاله الضحاك. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ١٢١.

(٣) وهو قول محمد بن كعب. راجع البحر المحيط لابن حيان: ج ٦ ص ٣١٧.

إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّـهُ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٩) قَالُواْ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠)﴾

الرُشدُ: الاهتداءُ لوجوه الصلاح، ومعنى إضافته إليه: أنّه رشدٌ مثلُه، وأنّه رشدٌ له شأن، وقيل: هو الحُججُ الموصلة إلى التوحيد[1]، وقيل: النبوة[2] ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسىٰ وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ أي: بصفاته الرضيّة وأسراره ﴿عَـٰلِمِينَ﴾ حتّىٰ أهّلْناه لِخلّتِنَا.

﴿إِذْ﴾ يتعلّق بـ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ أو بـ﴿رُشْدَهُ﴾، وقولُه: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تصغيرٌ لشأن آلِهَتِهِم، وتحقيرٌ لها، ولم ينوِ للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يَـتَعدّىٰ، أي: فاعلون للعكوف لها، ولو قصد التعدية لقال: ﴿عَـٰكِفُونَ﴾ عليها.

ورُوي عن الأصبغ بن نباتة أنّه قال: إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام مرَّ بـقومٍ يـلعبون بالشطرنج فقال: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾؟ لقـد عَـصَيتُم الله ورسوله[3].

اعترَفوا بتقليد الآباء حينَ لم يجِدُوا حجةً في عبادتها، وكفىٰ أهل التقليد عاراً وسُبّةً أنَّ عابِدي الأوثان منهم. ﴿أَنتُمْ﴾ من التـوكيد الذي لا يـصحُّ الكـلام مـع الإخلال به؛ لأنّ العطف على ضمير «هو» في حُكم بعض الفعل لا يجوز، أي: أنتم ومَن قلَّدتموهم قد انخرطتُم في سِلْكِ ضَلالٍ ظاهرٍ غير خافٍ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ له: هذا الذي ﴿جِئْتَنَا﴾ به أجِـدٌّ هـو وَحَـقٌّ ﴿أَمْ﴾ هـزلٌ ولَـعِب؟ إذ تعجَّبوا من تضليله إيَّاهم، واستبَعدوا أن يكونوا علىٰ ضلال.

---

(١) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٥٥.
(٢) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٥٠.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذمّ الملاهي: ص ٨٩، والبـيهقي فـي شـعب الإيـمان: ج ٥ ص ٢٤١ ح ٦٥١٨.

والضميرُ في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو لـ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾.

و ﴿تَاللهِ﴾ التاء فيها بدل من الواو المبدلة من الباء، وفي التاء زيادة معنىً وهو التعجّب، كأنه تعجَّب من تسهُّل الكيد علىٰ يدِه، وتأنِّيه لصعوبته، وتعذُّره علىٰ يده[١] في زمن النمرود مع فرط عُتُوِّه واستكبارِه، وعن قتادة: قال ذلك سِرّاً من قومه[٢].

ورُوي[٣]: أنّهم خرجوا في يوم عيدٍ لهم، فجعل إبراهيم أصنامهم جُذاذاً أي: قِطَعاً، من الجذِّ وهو القطع، كسَّرَها كلها بفأسٍ في يدهِ حتىٰ إذا لم يبقَ إلَّا الصنمُ الكبيرُ علّق الفأس في عنقهِ، وقُرئ: «جِذاذاً»[٤] جمع جَذيذ، وإنما استبقى الكبير؛ لأنّه غلب في ظنّه أنّهم لا يرجعون إلَّا ﴿إِلَيْهِ﴾ لِمَا كانوا يسمعون من إنكاره لدينهم وسبِّه لآلهتهم، فأراد أن يبكتهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾[٥] وعن الكلبي: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ﴿كَبِيرهمْ﴾ كَمَا يُرْجَع إلى العَالِمِ في حَلِّ المُشكلات[٦]، فيقولون له: ما لِهؤلاء مكسورةً وما لك صحيحاً والفأس علىٰ عاتقك؟ فتبيَّن لهم أنّه عاجز لا ينفع ولا يضرُّ، وأنّهم في عبادته علىٰ غاية الجهل ﴿إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَنْ فَعَلَ هذا الكَسْرَ والحَطْمَ إنَّه لَشديدُ الظلم؛ لِجُرأته علىٰ آلِهَتِنا ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو منادىٰ، والأوجهُ أن يكون فاعلَ «يقال»؛ لأنّ المرادَ الاسمُ لا المسمّىٰ.

---

(١) ليس في نسخة: «علىٰ يده».

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٤٧.

(٣) رواه السدي علىٰ ما حكاه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٣٨.

(٤) قرأه الكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٤.

(٥) الآية: ٦٣.

(٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٢٣.

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَالاَ يَنفَعُكُم شَيئاً ولا يَضُرُّكُم (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾

أي: فَجِيئُوا ﴿بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: معايَناً مُشَاهَداً بمرأىً من الناس ومنظرٍ، فهو في موضع الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما فعله، أو يحضُرون عقوبتنا له.

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ من معاريض الكلام، ولم يكن قصداً من إبراهيم عليه السلام إلىٰ أن ينسب الفعل إلى الصنَم، وإنّما قصد تقريره عليه السلام لنفسه علىٰ هذا الأُسلوب تبكيتاً لهم، كما لو قال لك صاحبك وقَد كَتبتَ كتاباً بخطٍّ رائقٍ وأنتَ مشهورٌ بحُسن الخطّ: أنتَ كَتبتَ هذا؟ وصاحبُك أُمِّي لا يُحسِن الكتَابةَ، فقُلتَ له: بل كَتبتَ أنتَ، وقصدُك بهذا الجواب تقريرُ الكتاب لك مع الاستهزاء به، لا نَفْيهُ عنك وإثباتُهُ لصاحبك الأُمّي، وقيل: إنّ تقديرَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ .... إنْ كَانُواْ يَنْطِقُونَ﴾ فآسألوهم، فعلّقَ الكلامَ بشرطٍ لا يوجد[1]، وقيلَ إنَّ التقدير: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ مَنْ فَعَله ويوقف عليه، ويبتدأ فيُقرأ ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[2].

---

(١) قاله القتيبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٤٩.

(٢) وهو قول الكسائي. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٠٠.

﴿فَـ﴾ لمّا ألقمهمُ الحَجر ﴿رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ على الحقيقة لا مَنْ ظَلمتُموه حينَ قُلتُم: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ونَكستُ الشيءَ: قَلَبْتُهُ فجعلتُ أَسْفَلَه أعلاه، وانتكسَ: انْقلبَ، والمعنىٰ: انتكسوا عن كونهم مُجَادِلين لإبراهيم وصاروا مُجادِلين عَنه حين نفَوا عنها القدرة على النُّطق، أو يريد: قُلِبُوا علىٰ ﴿رُءُوسِهِمۡ﴾ لفرط إطراقهم؛ خَجَلاً ممّا بَهَتَهُم به إبراهيمُ، فما أَجابوا جَواباً إلّا ما هو حجةٌ عليهم.

﴿أُفّٖ﴾ صوتٌ يُعْلَم به أنّ صاحبه متضجِّرٌ، تأفَّفَ بهم: إذا ضجره ما رأىٰ من ثباتهم علىٰ عبادتهم[١] بعد وضوح الحقّ وانقطاع العُذْر، واللّامُ لبيان المتأفّف به، أي: ﴿لَّكُمۡ﴾ ولآلهتكم هذا التأفُّف.

ولمّا غُلِبُوا أزمعوا علىٰ إهلاكه وتحريقه، فجَمَعوا الحطبَ حتّىٰ إنّ الرجل ليمرض فيوصي بمالِه يُشْتَرَىٰ به حطبٌ لإبراهيم! ثم أشعَلوا ناراً عظيماً كادت الطير تحترق في الجو من وهجها، ثم وَضَعوه في المَنْجنيق مقيَّداً مَغلُولاً فَرَمَوْا به فيها، وذُكِرَ أنّ جبرائيل عليه السلام قال له حين رُمِيَ به: هَل لَكَ حَاجَة؟ قال: أَمّا إليك فَلَا، قال: فاسأل ربَّك، قال: حَسْبِي من سُؤالي عِلْمُهُ بِحَالي[٢].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه قال: يا اللهُ يا وَاحدُ يا أَحَدُ يَا صَمَدُ يَا مَنْ لَم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَم يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، فحسرتِ النارُ عنه، وإنّه لَمُحْتَبٍ ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدَّثان في روضةٍ خضراء[٣].

﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ يعني: ذاتَ بَرْدٍ وسَلامٍ، فَبُولِغَ في ذلك، كأنَّ ذاتها بردٌ

---

(١) في نسخة: «عبادتها».

(٢) ذكره أُبيّ بن كعب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٥٠.

(٣) الكافي: ج ٨ ص ٣٦٩ ح ٥٥٩.

وسلام، والمُرادُ: ابْرُدِي فَيَسْلَمُ منكِ إبراهيمعليه السلام، وابْرُدِي بَرْداً غَيْرَ ضَارٍّ، وعن ابن عباس: لو لم يقلْ ذلك لأهلكته بِبَرْدِها[١]، نزعَ اللهُ عن النـار طَـبْعَهَا مـن الحـرِّ والإحراق وأبقاها على الإنارة والإشراق كما كانت، والتحقيق: أنّ النار من جهة مطاوعتها فِعْلَ الله تعالىٰ وإرادتَهُ كانت كمأمورٍ أُمِرَ بشـيءٍ فـامتثلَه، وأرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلّا مغلوبين مقهورين.

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْـنَا فِـيهَا لِـلْعَـٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ (٧٢) وَجَـعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّـلَوٰةِ وَإِيـتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ (٧٣) وَلُوطاً ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَـوْمَ سَـوْءٍ فَـٰسِـقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٧٥) ﴾

أي: نَجَّيْنَا إبراهيمَ ولوطاً ـ وهوِ ابن أخيه ـ من نمرود وكيده من كـوثى[٢] ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، وبركاتها الواصلة إلى العالَمينَ: إنّ أكثر الأنبياء بُعِثُوا فيها فانتشرت في العالمين شرائعهم، وقيل: إنّها بلاد خصبٍ يكثر أشجارها وثمارها ويطيب العـيش فـيها[٣]، رُوي: أنّـه نَـزلَ بـفلسطين، ولوط بالمؤتفكةِ، وبينهما مسيرةُ يومٍ وليلة[٤].

والنافِلَةُ: وَلَدُ الوَلَدِ، قيل: إنّه سأل الولَد فَأُعْطِيَ ﴿إِسْحَـٰقَ وَ﴾ أُعْطِيَ ﴿يَعْقُوبَ

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٢٧٣.

(٢) كُوثَىٰ: قرية في أرض بابل بسواد العراق، وبها مشهد ابراهيم الخليلعليه السلام وبها مولده. انظر معجم البلدان للحموي: ج ٤ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٣) قاله البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٥١.

(٤) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٥٢.

﴿نَافِلَةً﴾ أي: زيادةً وفضلاً من غير سؤال[١]، أي: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ للنبوّة والرسالة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقْتَدَىٰ بهم في دين الله ﴿يَهْدُونَ﴾ إلى طريق الحقِّ والدين القويم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ وكلُّ من صَلحَ أن يكونَ قُدوةً للخَلْق، فالهداية محتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها من جهة الله تعالى، وأولُها أن يهتدي بنفسه ليعمَّ الانتفاع بهداه، وتسكنَ النفوسُ إلى الاقتداء به.

و﴿لُوطاً﴾ منصوب بفعلٍ مضمرٍ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ يُفَسِّره ﴿حُكْماً﴾ أي: حكمةً وهو ما يجب فعلُه، أو فَصْلاً بين الْخُصوم، وقيل: هو النبوّة[٢]، و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ سَدُوم. ﴿فِى رَحْمَتِنَا﴾ أي: في أهلِ رحمتنا، أو في الجنة.

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلّاً ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠) ﴾

أي: ﴿مِن قَبْلُ﴾ هؤلاء المذكورين ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: جعلْناه منتصراً منهم، مِن: نَصَرتُه فانْتَصر ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ منهما، والنفْشُ: الانتشارُ بالليل

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٦٤.

(٢) قاله مقاتل. راجع تفسير الرازي: ج ٢٢ ص ١٩٢.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ جمعَ الضميرَ لأنّه أرادهما والمتحاكمين إليهما، والضَميرُ في ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ للحكومةِ أو للفتوىٰ، حَكَمَ داودُ عليه السلام بالغنم لِصَاحبِ الحَرْثِ، فقال سليمانُ عليه السلام وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة: غَيِّرْ هذا يا نبيَّ الله، أَرفِقْ بالفريقَين، فقال: وما ذاك؟ قال: يُدفع الغنمُ إلىٰ صاحب الْحَرث فينتفع بها، والحرثُ إلىٰ صاحب الغنم فيقوم عليه حتّىٰ يعود كما كان، فقال: القضاءُ ما قضيتَ، وأَمْضَى الحُكم بذلك.

والصحيح: أنّهما جميعاً حَكَمَا بالوحي، إلّا أنَّ حكومةَ سليمانَ نَسخَتْ حكومةَ داود؛ لأنّ الأنبياءَ لا يَجوزُ أن يحكمُوا بالظنّ والاجتهاد، ولهم طريقٌ إلى العِلم، وفي قولِهِ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دلالةٌ علىٰ أنّ كِلَاهما كان مُصِيباً.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حالٌ بمعنى: مسبِّحاتٍ، ويجوز أن يكونَ على الاستئناف، كأنَّ قائلاً قال: كيف سخَّرهنَّ؟ فقال: يُسبّحن ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: إمّا معطوفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ وإمّا مفعول معه، وكانت الجبالُ تجاوبُه بالتَسبيح، وكانت الطيرُ تسبِّح مَعه بالغَداةِ والعَشيِّ ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين علىٰ أن نفعل هذا وإن كان عَجَباً عندكم، وقيل: وكنَّا نَفعلُ مثلَ ذلكَ بالأنبياء (١).

واللبوس: اللباس، والمراد هنا الدِرْع، وأوّلُ مَنْ صنعَ الدِرْعَ داودُ عليه السلام، وإنّما كانت صفائح فَسَردَها (٢) وحَلَّقها فجَمَعَت الخفَّةَ والتَحصين، وقرئ: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالنون (٣) والتاء والياء (٤)، فالنونُ لله عزّوجلّ، والياءُ لداودَ أو للبوس، والتاءُ

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٧٤.

(٢) يقال: الخَرز مُسرود ومُسرَّد أي: مثقوبة، وكذلك الدرع، وقيل: سَرْدُها: نَسجُها، وهو تداخُل الحَلَقِ بعضها في بعض. (الصحاح: مادة سرد).

(٣) وهي قراءة أبي بكر عن عاصم ورويس وشيبة والمفضّل وابن أبي اسحاق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٤، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٢١.

(٤) وبالياء قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٠.

للصُنْعَةِ، والبأس: المرادُ به الحربُ والقِتالُ.

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

﴿ ٱلرِّيحَ ﴾ عطفٌ على ﴿ ٱلْجِبَالَ ﴾، كانت الريحُ مطيعةً ﴿ لِسُلَيْمَـٰنَ ﴾ إذا أراد أن تَعصف عَصَفتْ، وإذا أراد أن تَرخي رَخَتْ، وذلك قوله: ﴿ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [1]، وكان هبوبها علىٰ حسب ما يريد، ويحتكم آية إلىٰ آية ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾ تجري الأشياء علىٰ ما يقتضيه عِلْمُنَا وحِكْمَتُنا.

﴿ يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ في البحارِ فيستخرجونَ الجواهرَ ﴿ وَيَعْمَلُونَ ﴾ لَهُ أعْمالاً سَواءً من بناء المدائن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة، والله جلّ اسمه يحفظهم من أن يمتنعوا عليه ويَزيغوا عن أمره، أو يكون منهم فَسادٌ فيما عَمِلُوه.

ناداه، بـ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ والضُّرُّ بالضمّ: الضررُ في النفس من مرضٍ وهزالٍ، وبالفتح: الضررُ في كلّ شيء، أَلْطَفَ في السؤال حيث ذكرَ عن نفسِه ما يوجب الرحمة، وذكرَ رَبَّه بغاية الرحمة وكنّىٰ عن المطلوب ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ﴾ الضُّرّ [2] والأمراض، وكان أيّوب كثير الأولاد والأموال، فابتلاه الله تعالى بذهابِ وُلْدِهِ ومالِهِ وبالمرضِ في بَدَنِهِ ثلاث عشرة سنة أو سبع سنين وسبعة أشهر، فلمّا

(١) صٓ: ٣٦.

(٢) في نسخة: «الأوجاع».

كشف الله ضُرَّهُ أحيا ولْدَهُ ورَزَقَه مثلَهم ونَوافلَ مِنهُم ﴿رَحْمَةً﴾ مِنَّا، أي: لرَحْمَتِنا العابدين وذِكْرِنا إيَّاهم بالإحسان لا نَنساهُم، أو: ﴿رَحْمَةً﴾ منا لأيّوبَ وَتَذْكِرَةً لغَيره من العابدين ليَصبِروا كما صَبرَ حتّىٰ يثابوا كما أُثيب في الدنيا والآخرة.

﴿وَذَا ٱلكِفْلِ﴾ قيل: هو إلْيَاسُ [1]، وقيل: هو الْيَسَعُ [2]، وقيل: إنّه نبيٌّ كان بعد سليمانَ، يقضي بينَ الناسِ كقضاء داود عليه السلام، ولَم يَغضبْ قط إلاّ لله عزَّوجل [3].

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ (٩٠)﴾

﴿النُّونِ﴾ الحوتُ، وصاحبُه يونس بنُ مَتَّىٰ، بَرِمَ بقومه لطولِ ما ذكَّرهم فلَمْ يذَّكَّرُوا وأقاموا علىٰ كفرهم، فَرَاغَمَهُم فظنّ أنّ ذلك سائغٌ حيث لم يفعلْه إلّا غضباً للهِ وأَنَفَةً لدينه وبُغْضاً للكُفر وأهله، وقَد كانَ الأَوْلَىٰ به أن يُصابِرَ وينتظِرَ الإِذْن من الله جلَّ اسمُه في مهاجرتهم فابْتُلِيَ ببطن الحوت، ومعنىٰ مُغَاضَبَتِه لقومه أنّه أَغْضَبَهم بمفارقَتِه لِخَوفِهِم حُلولَ العقابِ عليهم عندها.

وسأل معاوية ابن عباس كيف يظنّ نبيُّ الله عليه السلام أن لا يُقْدَرَ عليه؟ فقال: هو من القَدَرِ لا من القُدْرَة، يعني: أَنْ لَن نُضَيِّقَ عليه كما في قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ

---

(١) قاله ابن عباس على ما حكاه عنه في السراج المنير: ج ٢ ص ٥٢٥.

(٢) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٦٤.

(٣) وهو ما روي عن أبي جعفر الثاني عليه السلام، رواه الراوندي في قصصه: ص ٢١٣ ح ٢٧٧.

رِزْقُهُ﴾ (١). وقيل: إنّه استفهام تقديرُه: أَفَظَنَّ أن لن نقدر عليه؟ فحذف الهمزة (٢)، وقيل: معناه: فظَنَّ أنْ لم تَعملْ فيه قُدرتُنا (٣) ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ أي: في الظُّلمة الشديدة في البحر في بطن الحُوتِ، أي: بأنّه ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، أو هو بمعنىٰ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: من الَّذين يقع منهم الظُّلم.

وقُرئ: ﴿نُنجِى﴾ و«نُنَجِّي» (٤) و«نُجِّي» بنون واحدة وبتشديد الجيم والنون لا تدغم في الجيم (٥)، وربّما أُخفِيَت فَحُذفَت في الكتابةِ وهي في اللفظِ ثابتةٌ، فظَنَّ الراوي ذلك إدغاماً.

سأل اللهَ تعالىٰ زكريّا أن يرزقَه وَارِثاً، ولا يدعه ﴿فَرْداً﴾ بلا ولد، ثم ردَّ الأمرَ إلى الله واستسلمَ فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يعني: إنْ لَم ترزقْني ولداً يرثُني فلا أُبالي فإنّك خيرُ وارثٍ. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي: وجعلْناها صالحةً لأَن تَلِدَ بعد أن كانت عاقِراً. وقيل: معناه: جعلناها حسنةَ الخُلقِ وكانت سيّئة الخُلق (٦). وقيل: رَدَدْنا عليها شبابَها (٧) ﴿إِنَّهُمْ﴾ الضميرُ للأنبياء المذكورين، أي: استَحقُّوا الإجابةَ منّا لمُسارعَتِهم ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ومُبادرتِهم إلى الطاعات ﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾ أي: راغبين وراهبين كقوله تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (٨)

---

(١) الطلاق: ٧.

(٢) قاله سليمان بن المعتمر. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٦٦.

(٣) وهو قول الفراء. راجع معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٢٠٩.

(٤) قرأه عاصم الجحدري وحده. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥.

(٥) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٥.

(٦) قاله ابن عباس وعطاء ومحمد بن كعب وعون بن عبدالله وابن كامل. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٦٨، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٣٦.

(٧) قاله سعيد بن جبير وقتادة. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ٨٧.

(٨) الزمر: ٩.

﴿خَـٰشِعِينَ﴾ أي: ذُلّلاً لأمرِ الله، وقيل: متواضعينَ لأمر الله تعالىٰ[1]، وعن مجاهد: الخشوع: الخوف الدائم في القلب[2].

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ (٩١) إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ (٩٤) وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٩٧)﴾

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إحصاناً كُلّياً من الحَلالِ والحَرامِ جميعاً، كقولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[3]، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فعلنا النفخ فيها من جهة رُوحنا وهو جبرائيل عليه السلام؛ لأنَّه نفخ في جَيْبِ دِرْعِهَا فوصلَ النفخُ إلىٰ جَوفِها، وإنْ جُعلَتْ نَفْخ الرُوح بمعنى الإحياء كما في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[4] أي: أحييتُهُ، فالمعنىٰ: فَنفَخنا الروحَ في عيسىٰ عليه السلام فيها أي: أحييناهُ في جَوفها، كما يقول الزامر: نفختُ في بَيتِ فلانٍ، أي: نفختُ في المزمار في بيته ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ لم يقلْ: آيتين؛ لأنَّ حالَهما آيةٌ واحِدَة وهي ولادتُها إيَّاه من غَيرِ فَحل.

والمراد بالأُمَّة: مِلَّةُ الإسلام، يعني: أنّ ملَّةَ الإسلام ملّتُكم التي يجبُ أن

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد. راجع تفسير ابن عباس: ص ٢٧٥، وتفسير ابن كثير: ج ٣ ص ١٨٨.
(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٦٧.
(٣) مريم: ٢٠.
(٤) الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢.

تكونُوا عليها لا تَنحرفون عَنها، يشار إليها ملّة ﴿وَ ٰحِدَةً﴾ غير مختلفة ﴿وَأَنَا﴾ إلهكم إلهٌ واحدٌ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ي.

الأصلُ: وتقطَّعتم، إلّا أنّ الكلام صُرِفَ إلى الغَيبة علىٰ طريقة الالتفات، كأنّه يقبّح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألَا ترَوْن إلىٰ عظيم ما ارتكبَ هؤلاء في دين الله تعالىٰ؟ والمعنىٰ: جَعلوا أمرَ دينهم فيما بينَهم قِطَعاً كما يتقسّم الجماعةُ الشيءَ فيَصيرُ لهذا نَصيبٌ ولذلك نَصيبٌ؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فِرقاً وأحزاباً شتّى يتبرّأ بعضُهم من بعضٍ، ثم أوعَدَهم بأنّ هؤلاء الفِرَق المختلفة إليه يُرْجَعُونَ فيُجازيهم بما عَملوا.

الكفران: مَثَلٌ في حرمانِ الثَواب، كما أنّ الشكرَ مثلٌ في الإثابة إذا قيل لله: شكور، أي: لا يكفَّر سعيه ﴿وَإِنَّا لَهُ كَـٰتِبُونَ﴾ أي: نحنُ كاتِبُون ذلك السعي، نُثبِتُهُ في صحيفة عمله.

﴿وَحَرَ ٰمٌ﴾ مستعارٌ للممتنع وجودهُ، كما في قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (١) أي: منعَهما منهم، وأبىٰ أن يكونا لهم، وقُرئ: «وَحِرْمٌ» (٢) ومعناه: ممتنعٌ مِن ﴿قَرْيَةٍ﴾ قَدَّرْنَا إهلاكَها وغَير متصوَّر رجوعهم من الكفر إلى الإسلام، و«لا» مزيدة، وقال الزجّاج: تقديرهُ: حَرامٌ علىٰ قريةٍ أهلكناها أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنّهم لا يرجعون (٣). وعلىٰ هذا فيكون ﴿حَرَامٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، ويجوزُ أن يكون التقدير: وحرامٌ عليها ذلك المذكور في الآية المتقدّمة من السَعي المشكورِ غير المكفورِ؛ لأنّهم لا يرجعون عن الكفر.

---

(١) الاعراف: ٥٠.

(٢) قرأه حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر والمفضّل ويحيىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣١.

(٣) معاني القرآن واعرابه: ج ٣ ص ٤٠٥.

وتعلَّقت ﴿حَتَّىٰ﴾ بـ﴿حَرَامٌ﴾ وهي غايةٌ له؛ لأنَّ امتناع رجوعهم لا يزول حتّىٰ يوم القيامة، وَ﴿حَتَّىٰ﴾ هذه هي التي يُحكىٰ بعدها الكلام، والجملة الشرطية هنا هي الكلام المحكي بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ أعني: ﴿إِذَا﴾ وما في حيِّزها، أي: فُتِحَ سَدُّ ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فحُذِفَ المضافُ، وقُرئ: «فُتِّحَتْ» بالتشديد[1]، وَالْحَدَبُ: النشرُ من الأرض، والنَّسَلانُ العَسَلانُ: الإسراع.

و«إذا» هي ظرف المفاجأة وتسدُّ في الجزاء مسدَّ الفاء، فإذا جاءَتِ الفاء معها تعاونتا علىٰ وصلِ الجزاء بالشَرطِ فيتأكّد، ولو قيل: إذاً هي شاخصةٌ أو: فهي شاخصةٌ لجاز، وهيَ ضميرٌ مبهمٌ يفسِّره الإبصار، و﴿يَـٰوَيْلَنَا﴾ تعلَّق بمحذوفٍ، والتقديرُ: يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا﴾ وهو في موضعِ الحالِ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ (١٠٥)﴾

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وَقودُها وحطَبُها ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل الأوثان والشياطين؛ لأنّهم بطاعتهم لهم في حُكْمِ عَبَدَتِهِم، والفائدة في مقارنَتهم بآلهتهم: أنّهم قدَّروا أنّهم يشفعون لهم عند الله تعالىٰ، فإذا صادفُوا الأمرَ علىٰ

(١) وهي قراءة ابن عامر ويعقوب. راجع والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٩٨.

عكسِ ما قَدَّرُوهُ لم يكنْ شيءٌ أبغضَ إليهم منهُم.

﴿الْحُسْنَىٰٓ﴾ الخصلةُ المفضَّلةُ في الحُسْن، وهي: السعادةُ أو البشارةُ بالثواب أو التوفيقُ للطاعات. والحَسِيسُ: الصوتُ الذي يُحَسُّ، والشهوَةُ: طلبُ النفسِ اللذةَ يقال: اشتهىٰ شهوةً.

وقُرئَ: «لَا يُحْزِنهم»(١)، و﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: النفخةُ الأخيرةُ، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(٢) وعن الحسن: حين يُؤْمَرُ بهم إلى النار(٣)، وعن الضحّاكِ: حينَ يُطبَّق على النَّارِ(٤)، وقيل: حين يُذبَحُ الموتُ علىٰ صُورةِ كبشٍ أمْلَح وينادَىٰ: يا أهلَ الجنَّة خلودٌ لا موت، ويا أهل النَّار خلودٌ لا موت(٥)، ﴿وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: تَستقبلهم علىٰ أبوابِ الجنَّة بالتَهنئةِ، يقولون: ﴿هَـٰذَا﴾ وقتُ ثوابكم ﴿ٱلَّذِى﴾ وعدكم ربُّكم قَد حَلَّ.

و﴿يَوْمَ نَطْوِى﴾ منصوبٌ بـ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾ أو بـ﴿تَتَلَقَّـٰهُمُ﴾، وقُرئَ: «يوم تُطْوَى ٱلسماءُ» على البناء للمفعول(٦)، و﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ الصحيفةُ، أي: كما يُطْوَى الطُومارُ(٧) للكتابة، أي: لِيُكْتَبَ فيه، أو: لما يُكتب فيه؛ لأنّ الكتابَ أصلُه المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب، وقُرئَ: ﴿لِلْكُتُبِ﴾(٨) والمراد بذلك المكتوبات أي: لما يُكْتب فيه من المعاني الكثيرةِ، قيل: السِجلُّ: مَلَك يطوي كُتُبَ بني آدم

---

(١) قرأه أبو جعفر وابن محيصن. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٤٦.

(٢) النمل: ٨٧. (٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٣٧.

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٠.

(٥) قاله مقاتل وابن شريح. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٨٠.

(٦) قرأه أبو جعفر المدني وشيبة بن نصاح والأعرج والزهري. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٤٦.

(٧) الطامور والطومار: الصحيفة، قيل: هو دخيل، قال ابن سيده: وأراه عربياً محضاً لأنّ سيبويه قد اعتدّ به في الأبنية فقال: هو ملحق بفُسطاط. (لسان العرب: مادة طمر).

(٨) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدىٰ المصنّف هي على المفرد دون الجمع.

إذا رفعت إليه (١)، وقيل: هو اسمُ كاتبٍ للنبيِّ صلى الله عليه وآله (٢)، وعلىٰ هذا فالكتاب: اسمٌ للصحيفة المكتوب فيها ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعولُ «نعيدُ» الذي يفسّره ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، و﴿مَا﴾ كافَّة للكافِ، والمعنىٰ: نُعيدُ أوَّلَ الخَلْق كَمَا بدأْنَاه؛ تَشبيهاً للإعادةِ بالابتداءِ في تَنَاولِ القُدرةِ لَهما على السواءِ، وأوّلُ الخَلْقِ: إيجادُه عن عَدَم، أي: فَكَما أَوجدْنَاهُ أوّلاً عن عدمٍ نُعيدُهُ ثانياً، وقولُهُ: ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ كقولِكَ: هو أَوّلُ رَجُلٍ جاءَني، تُريدُ: أَوّل الرجالِ، ولكنَّكَ نكَّرْتَهُ وَوَحَّدْتَه إرادةَ تَفْصيلِهم رجلاً رجلاً، فكذلكَ معنىٰ ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾: أوَّلُ الخَلْق، بمعنىٰ: أَوّلُ الخَلائقِ؛ لأنَّ «أَوّلَ الخَلْقِ» مصدرٌ لا يُجمع.

ويجوز فيهِ وَجْهٌ آخرَ: وهو أَن يَنْتَصِبَ الكافُ بِفِعْلٍ مضْمَرٍ يفسِّرُهُ ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ وَ﴿مَا﴾ موصُولةٌ، أي: نعيد مثلَ الذي بدأناه نعيدُهُ، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿بَدَأْنَآ﴾ أي: أوّل ما خلق، أو حالٌ من الهاء المحذوفِ من الصلةِ ﴿وَعْداً﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأنّ قوله: ﴿نُعِيدُه﴾ عِدَة للإعادة ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين علىٰ أن نفعل ذلك.

قيل: ﴿الزَّبُورِ﴾ اسمٌ لجنسِ ما أُنزل على الأنبياء من الكُتُب، و﴿ٱلذِّكْرِ﴾: أُمُّ الكِتَاب يعني: اللوح (٣)، وقيل: زبورُ داود عليه السلام، والذكرُ: التوراة (٤)، أي: ﴿يَرِثُهَا﴾ المؤمنون، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الآية (٥).

وعن الباقر عليه السلام: «هم أصحاب المهديِّ عليه السلام في آخر الزمان» (٦).

---

(١) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٢٢٨ عن علي عليه السلام.

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٣.

(٣) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٩٧.

(٤) وهو قول الشعبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٧١.

(٥) الأعراف: ١٣٧.

(٦) تفسير القمي: ج ٢ ص ٧٧.

وقيل: ﴿ٱلۡأَرۡض﴾ هي أرضُ الجنّة (١).

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٧) قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ (١١٠) وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (١١١) قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى المَذكورِ في السورةِ من الأخبارِ والمَواعِظِ ﴿لَبَلَٰغٗا﴾ أي: كفاية (٢) موصلةً إلى البُغْية.

كان صلواتُ الله عليه وآله ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ كافَّة، إذ جاء بما يُسْعِدُهم إن اتَّبَعُوه، ومَن لم يتَّبعْهُ فقد أَتىٰ من عندِ نَفسِهِ، وقيل: إنّ الوجه في كونِهِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ للكافرين: أنّ عقابَهم أُخِّر بسببِهِ، وأَمِنُوا به عذابَ الاستئصال (٣).

﴿إِنَّمَآ﴾ لِقَصْرِ الحُكْم علىٰ شيءٍ، كما يُقالُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، أو: لِقَصْرِ الشيء علىٰ حُكمٍ، كقولِكَ: إنَّما يقُومُ زيدٌ، وَقَد اجتمعَ كِلاَهُما في الآيةِ؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مَع فاعلِهِ بمنزلةِ: إنّما يقومُ زيدٌ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ بمنزلةِ: إنّما زيدٌ قائمٌ، وفائدة اجتماعِهما: الدلالةُ علىٰ أنَّ الوحيَ إلىٰ رسوله ﷺ مقصورٌ علىٰ أنّ الله عزَّ اسمه استأثر بالوحدانيَّة، وفي قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أنّ الوحي الواردَ علىٰ هذه الطريقةِ موجبٌ أن تُخلِصُوا التوحيد لله، ويجوزُ أن يكون ﴿مَا﴾ موصولةً، فيكون معناه: أنّ الذي يوحىٰ إليَّ.

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٣.
(٢) في نسخة: كفالةً.
(٣) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٥.

ومعنىٰ ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾: أعْلَمتُكُم، ولكنّه كثُرَ استعمالُه في معنى الإنذار، ومنه قول ابن حلِّزة:

آذنَتْنا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ[1]

والمعنىٰ: أنّي بعد إعراضِكُم عن قَبولِ تَوحيدِ الله تعالىٰ، وتنزيهِهِ عن الأنداد كرجلٍ بينه وبينَ أعدائه هدنةٌ، فنبذَ إليهم العهدَ وآذنهم جميعاً بذلك ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: مُسْتَوِين في الإعلام بِهِ لم يَطْوِهِ عن أحدٍ منهم، و﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ من غَلَبة المسلمين عليكم، أو: القيامة كائنٌ لا مَحالة إلّا أنّ الله تعالىٰ لم يطلعْني عليه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ السرّ والعلانية منكم، وهو مجازيكم علىٰ ذلك.

وما ﴿أَدْرِى﴾ لعلّ تأخيرَ هذا الموعدِ امتحانٌ ﴿لَّكُمْ﴾ لينظر كيف تعملونَ، أي: تَمتيعٌ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ليكون ذلك حجّةً عليكم.

وقُرئ: ﴿قَـلَ﴾ على حكاية قول النبيِّ ﷺ[2] و﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ على الاكتفاء بالكسرة، و«رَبُّ ٱحْكُمْ» على الضم[3] و«رَبِّـي احْكَمُ» علىٰ أفعل التفضيل[4]، أُمر عليه السلام باستعجال العذابِ لقومِهِ فعُذّبوا ببَدْرٍ، ومَعنىٰ قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: لا تُحَابِهِمْ، وافعلْ بهم ما يَستحقُّون ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال التي تَجري علىٰ خلافِ ما يَظنّونَ، وقد نَصَرَ رسولَ الله ﷺ عليهم، وخَذَلَهُم وخيَّب ظنونَهم.

۞ ۞ ۞

---

(١) وعجزه: ربَّ ثاوٍ يملّ منه الثواء. والبيت هو مطلع معلّقة الشاعر وهو الحارث بن حِلّزة من بني يشكر بن بكر بن وائل، قالها وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة. أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦، وج ٣ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) يستفاد من عبارته أنّه يعتمد على القراءة بصيغة الأمر كما هو ظاهر.

(٣) قرأه أبو جعفر المدني وابن محيصن وعن ابن كثير روايةً. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥ ـ ٩٦. وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٥١.

(٤) وهي قراءة الجحدري والضحاك وطلحة ويعقوب. راجع المصدرين السابقين.

سورةُ الحَجّ

مكّية(1)، وقيل: مَدَنيّة غير ستّ آيات(2)، وآياتها ثمانية وسبعون آيةً كوفيّ، خمسٌ بصريّ، عدَّ الكوفيُّ: ﴿الْحَمِيمُ﴾(3) ﴿الْجُلُودُ﴾(4) ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾(5).

وفي حديث أُبيٍّ: «مَن قَرأ سُورةَ الحجّ أُعطِيَ من الأجر كحجَّةٍ حَجَّها، أو عمرةٍ اعتَمَرها بعدد مَن حَجَّ واْعتَمَر»(6).

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قرأها في كلّ ثلاثة أيام لم تخرج سنته حتّىٰ يخرج إلىٰ بيت الله الحرام»(7).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَـوْمَ

---

(1) كذا في النسخ تبعاً لصاحب الكشاف، لكن المشهور أنّها مدنيّة.

ففي تفسير القمي: ج 2 ص 78: سورة الحجّ مدنية وآياتها ثمان وسبعون. وفي البرهان للبحراني: ج 3 ص 76: مدنية إلّا الآيات 52 و53 و54 و55 فبين مكة والمدينة، نزلت بعد النور. وفي التبيان: ج 7 ص 287: عن قتادة قال: هي مدنية إلّا أربع آيات فانّها مكية من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الى قوله: ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، وقال مجاهد وعياش بن أبي ربيعة: هي مدنية كلّها.

(2) انظر تفسير البغوي: ج 3 ص 273.

(3 و4 و5) الآية: 19 و20 و43 على التوالي.

(6) رواه الزمخشري في كشّافه: ج 3 ص 173 مرسلاً.

(7) ثواب الأعمال: ص 135.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)﴾

الزلزلةُ والزلزالُ: شِدَّةُ التَحريكِ والإزعاجِ، وأَن يُضاعف ذليلُ الأشياء عن مَراكزها ومَقارِّها، وهيَ مضافةٌ إلى الفاعل علىٰ تقدير: أنّ الساعةَ تُزلزلُ الأشياء، أو: إلىٰ تقدير المفعول فيها علىٰ طَريقةِ الاتّساعِ في الظرفِ وإجرائِـهِ مَجرى المفعولِ به، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [1]، علّلَ سبحانَه وجوبَ التَقوىٰ على الناس بذِكْرِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وَوصْفِها بأَهولِ صفةٍ ليتَصوَّروها بعقُولِهم ويتزوَّدوا لها.

فَرُوِيَ: أنّ هاتَين الآيتَين نَزلتا ليلاً في غزوةِ بني المصطلق فَقرأهُما رسول الله ﷺ ولم يُرَ أَكثَر باكياً من تلك الليلة، ولمّا أصبَحُوا لم يضربوا الخيامَ وقتَ النُزولِ ولم يطبخوا قِدْراً، وكانوا بَين بَاكٍ ومُفكِّرٍ [2].

﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ بـ﴿تَذْهَلُ﴾ والضمير له «الزلزلةِ»، والذُهولُ: الذِهابُ عن

---

(١) سبأ: ٣٣.

(٢) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٤ عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري.

الأمرِ بدَهشَةٍ، والْمُرْضِعَةُ: هي التي أَلقمت ثديَها الصبيَّ، والمُرضع ـ بغير هاء ـ التي من شأنها أن تُرضِع، والمعنىٰ: أنّ هولَ تلكَ الزلزلة إذا فَاجَأها وقد أَلقمت الرضيعَ ثديَها نزعته عن فيه؛ لِمَا يلحقها مِن الدهشةِ ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعِها، أو: عن الذي أرضعته، وعن الحسن: تَذهَلُ المُرضِعةُ عن ولدِها لِغير فطامٍ، وتَضعُ الحاملُ ما في بَطنِها لغير تمام[١]، وقُرئ: «سَكْرَى» و«بِسَكْرَى»[٢] فهو نظير عَطشىٰ من عطشان، ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ و﴿بِسُكَـٰرَىٰ﴾ نحو: «كُسالىٰ»، والمعنىٰ: وتراهم سكارىٰ على التشبيهِ لِمَا هُم فِيه مِن شدَّة الفَزَعِ، وما هُم بسُكارىٰ من الشراب ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ أذهبَ عقولَهم خوفُ ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾.

والمجادلُ ﴿فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث وكان يُنكر البعث ويقول: القرآنُ أساطيرُ الأوَّلين، والملائكةُ بناتُ الله[٣]، وقيل: هي عامَّةٌ في كلّ مَن تَعاطَى الجدال فيما يجوز على الله وفيما لا يجوز من الصفاتِ والأَفعالِ ولا يَرجعُ إلىٰ علمٍ ولا برهان[٤] ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: عَاتٍ مُتَجرّدٍ للفساد، يُغويه عن الهدىٰ ويَدعُوه إلى الضلال. وعُلم من حاله أَنَّ مَن جعلَهُ وليّاً له فإنَّ ثَمرةَ ولايتهِ الإضلالُ عن طَريقِ الجنَّة والهدايةُ إلى النار.

وقولُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ تمثيلٌ، والهاءُ للشيطان، أي: كأنَّما كُتِبَ إضلالُ مَنْ يتولَّاهُ عليه؛ لظهور ذلك في حالِهِ، وقُرئ: ﴿أَنَّهُ﴾ أي: فأنّه بالفتح والكسر[٥]، فأمَّا الفتحُ فَلأنّ الأول فاعل ﴿كُتِبَ﴾ والثاني عطفٌ عليه، والأَولىٰ أن يكونَ الفاءُ

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٩.

(٣) قاله ابن عباس وابن جريج وأبو مالك. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٠٩.

(٤) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٤٣.

(٥) وبالكسر قرأه النخعي عن أبي عمرو، والأعمش. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٦، وتفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ١١٥.

وما بعده في موضع جواب الشرط إن جُعِلَتْ ﴿مَن﴾ شرطاً، وفي موضع خبر المبتدأ إن جُعلَتْ ﴿مَن﴾ بمعنىٰ «الذي» لكونِهِ موصلاً بالفعل، والجملة في موضع خبر «انّ» الأُولىٰ. وأمّا الكسر فعلىٰ حكاية المكتوب كما هو، أي: كأنّما كُتِبَ عليه هذا الكلام، كما تقول: كَتبتُ إنَّ الله علىٰ كلّ شيء قدير، أو: علىٰ تقدير «قيل»، أو علىٰ: أن كُتِبَ فيه مَعنى القَول.

المعنىٰ: ﴿إن﴾ ارتبتُم في ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ فالذي يُزيل رَيبكم أن تَنظروا في مَبدأ خَلْقِكُم، وَالْعَلَقَةُ: القطعةُ الجامدةُ من الدم، وَالْمُضْغَةُ: اللحمةُ الصغيرةُ قدَر ما يُمضَغ، والمُخلَّقة: المسوَّاة الملساء من العَيبِ والنَقصِ، يقال: خَلَّقَ السِواك إذا سوّاه وملّسه، كأنّه سبحانه يَخلقُ بعضَ المضغ كاملاً أملسَ من العَيبِ وبَعضَها علىٰ عكسه، فيتفاوتُ لذلك الناسُ في خَلْقِهم وصُورِهم وتَمامِهم ونَقْصِهم ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قُدرتَنا وَحكمتَنا، وأنّ مَن قَدِرَ علىٰ خَلْقِ البَشرِ ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أولاً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثانياً، وقَدِرَ علىٰ أن يَجعلَ النُطفَةَ عَلْقةً والعَلْقةَ مُضغَةً والمُضغَةَ عِظاماً قَدِرَ علىٰ إعادة ما أبدأه ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي: ونُبقيَ ﴿فِى﴾ أرحَامِ الأُمّهات ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أن نقرّه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقتُ الوضع، وما لم نشأ إقرارَه أسقطَتْه ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾، ووحَّد قوله: ﴿طِفْلاً﴾ لأنَّ الغَرضَ الدلالةُ على الجنسِ، أو أَراد: ﴿ثُمَّ﴾ نُخرِج وكلَّ واحدٍ منكُم طِفلاً، ثمَّ ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ وَهُو حالُ اجتماعِ العَقْلِ وتمامِ الخَلْقِ وَالقُوةِ والتَميِيز، وهو من أَلفاظِ الجُموع التي لم يأتِ لها واحدٌ، كأنّها شدَّةٌ في غَيرِ شيءٍ واحدٍ فبُنيت لذلك علىٰ لفظِ الجَمع، و﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: الهَرَمُ والخَرَفُ حتّىٰ يَعودَ كَهيئَتهِ الأُولىٰ وقتَ الطفُولية ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: ليصيرَ نسَّاءً، بحيث لو كَسَبَ عِلْماً في شيءٍ زَالَ عنه من ساعَتهِ ولا يستفيد علماً، وينسىٰ ما كانَ عَلِمَهُ.

وَالهَامِدَةُ: المَيّتةُ اليابِسَة، وهذه دلالةٌ أُخرىٰ على البَعْثِ، ولكونها معاينة ظاهرة كرَّرها اللهُ في كتابِه ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحرَّكتْ بالنَباتِ، وٱنتفخَتْ لظُهورِ نَمائِها ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ﴾ جنسٍ مؤنقٍ حسن الصُورةِ سارٍّ للناظر إليه.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنَا من تَصريفِ الخَلْقِ وإحياءِ الأَرضِ وَما فيهما[1] من البَدائعِ والحِكَمِ حَاصلٌ ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابتُ الموجودُ، وأنّه قادرٌ علىٰ إحياءِ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وعلىٰ كلّ مقدورٍ، وهو حَكيمٌ لا يخلف الميعاد، وقَد وَعَدَ البَعثَ فَلابُدَّ أن يَفيَ بِوَعدِهِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروريٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: استدلالٍ وَنَظَرٍ يَهدي إلى المَعرفةِ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وهو الوَحي. ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: مُتكبّراً في نفسِهِ، فإنَّ تَنْيَ العِطْفِ عبارةٌ عن الخُيَلاءِ والكِبْر كَتَصعير الخَدّ ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا كَانَ جِدالُه مُؤدِيّاً إلى الضَلال جَعَلَ كأنّه الغَرضُ في الضَلال.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ

---

(١) في نسخة: فيها.

ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: عَلىٰ طَرفٍ في الدين، لا في وَسَطِهِ وقَـلْبِه، وهـذا مـثلٌ لكونِهم علىٰ قَلقٍ واضطِرابٍ في دينِهم لا علىٰ هيئةٍ وطمأنينةٍ، كالذي يكونُ علىٰ طَرفٍ من العَسكر، فإنْ أَحَسَّ بظَفَرٍ وغَنيمةٍ اطمأنَّ وقرَّ، وإلَّا انْهَزَمَ وَفرَّ، وقُـرئ: «خَاسِرَ الدُّنيا والآخرة»(١) وهو منصوبٌ على الحال.

و﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ مُستَعارٌ من ضلال مَنْ أبعدَ في التيه، فَبَعُدت مَسافةُ ضَلاله.

سفّه الله سبحانه هذا الكافرَ بأنّه يَعبُد جَماداً لا يَملكُ ضَرّاً وَلا نَفْعاً، وهو يَعتقدُ أنّه ينتفعُ به حينَ يَستشفعُ به، ثم قال: يقولُ هذا الكافرُ يومَ القيامة بدعاءٍ وصراخٍ حينَ يَرىٰ دخولَه النار بعبادةِ الأصنام، ولا يَرىٰ أثر الشفاعة التي أمِلَها منها ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، وكرَّر «يدعُو» كأنّـه قـال: يدعُو يدعُو من دون الله مالا يضرّه وما لا ينفعه، ثم قال: لَمَنْ ضَرُّه بكونهِ مَعبوداً أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ بكونهِ شَفيعاً لبئس المَولىٰ، والمَولىٰ: الناصرُ، والعشيرُ: الصَـاحبُ، كقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾(٢).

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ من أعادي رسولِ الله ﷺ وحُسّاده أَنَّ الله لا ينصره ويطمع

---

(١) قرأه مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن من طريق الزعفراني وقعنب والجحدري وابن مقسم والزهري وابن ابي اسحاق وروي عن يعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ١٨، وتفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ١٢٤.

(٢) الزخرف: ٣٨.

فيه، ويغيظه أنّه لا يظفر بمطلوبه، فليستفرغ جهدَه في إزالةِ ما يُغيظه بأن يفعلَ ما يفعله مَنْ بلغ به الغيظُ كلَّ مبلغٍ حتّى مدَّ حَبْلاً ﴿إِلَى﴾ سماء بيته فاختنق، فلينظرْ أنّه إنْ فَعَلَ ذلك ﴿هَلْ﴾ يُذْهِبُ نصرَ الله الذي يُغيظُه؟ وسمّى الاختناقَ قَطْعاً لأنَّ المختنقَ يَقطعُ نَفَسَه بحَبْس مَجاريه، ولذلكَ يقال لِلْبُهْر[1]: قطع، وسمّىٰ فعلَهُ «كَيْداً» لأنَّه وَضَعه مَوضعَ الكَيدِ حيث لم يقدر علىٰ غيره، أو: علىٰ سَبيلِ الاستهزاء لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه، إنّما كَادَ به نفسَه، والمرادُ: ليسَ في يدِهِ إلَّا ما ليس بمُذْهِبٍ لِمَا يَغيظه. وقيل: معناه: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ بحبلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ المُظِلَّة ليَصعدَ عليه و﴿لِيَقْطَعْ﴾ الوحيَ أن ينزلَ عليه[2]، وقُرئ: ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ بكسر اللّام[3] وسكونها، وأصلُ هذه اللّام الكسر، إلّا أنّه جازَ إسكانها مع الفاء والواو؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما لا يَنفردُ بنفسِهِ، فهو كحرفٍ من نفسِ الكلمةِ فَصارَ بمنزلة: فخذ وعضد، ثم شبَّه الميمَ في ﴿ثُمَّ﴾ بالواو والفاء كقولهم: أراك منتصباً.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال أَنزلنا القرآنَ كلّه ﴿ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ﴾، ولأنَّ ﴿ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به الذين عَلم أنّهم يؤمنون، أو: يثبِّت الذين آمنوا ويزيدهم هدىً أنزله كذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ

(١) البُهْر بالضم: تتابع النفس من الإعياء، وبالفتح: المصدر منه. (راجع لسان العرب: مادة بهر).
(٢) قاله ابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢.
(٣) قرأه أبو عمرو ورويس وورش وابن ذكوان وهشام. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (١٨)﴾

دخلَتْ ﴿إنَّ﴾ علىٰ واحدةٍ من جُزْأَي الجملةِ لزيادة التأكيد، كَما في قولِ جرير:

إنَّ الخليفةَ إنَّ الله سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلكٍ بِهِ تُرجَىٰ الخواتيم[١]

وَالْفَصْلُ: التَمييزُ بين المُحِقّ والمُبطِل، أو: الحُكمُ والقضاءُ بينهما، وسمِّيت مطاوعة هذه الأشياء لله عزَّوجلَّ اسمُهُ فيما يُحدثُ مِن أفعالهِ وتسخيرهِ لها «سُجُوداً» تشبيهاً لذلك بما يَفعلُه المكلَّفُ من السجودِ الذي كلُّ خضوع دونَه.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويَسجُد له كثيرٌ من الناس سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، وقيل: التقدير: وكثيرٌ من الناسِ استحقَّ الثوابَ إذ وحَّد الله وأطاعَهُ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ إذ أبى السجودَ ولم يوحّده جلَّ اسمه[٢] ﴿وَمَن﴾ يُهِنْهُ الله بأَن كَتَبَ عَليهِ الشَقاوةَ وأدخلَهُ النارَ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإكْرامِ والإهانة.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ

---

(١) البيت من قصيدة يمدح بها عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك بن مروان الأموي، يريد: أنَّ سلاطين الآفاق يُرسلون إليه خواتمهم خوفاً منه، فيضاف ملكهم الى ملكه. ويروىٰ «تزجىٰ» بالزاي. أُنظر ديوان جرير: ص ٤٣١ وفيه «يكفي الخليفة».

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٧٨.

مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤)﴾

﴿هَـٰذَانِ﴾ فَريقان أو جَمْعانِ مختصمان، والخَصمُ مصدرٌ وصِفَ به، فاستَوىٰ فيه الواحدُ والجمعُ، وقولُه: ﴿هَذَانِ﴾ للّفظِ و﴿ٱخْتَصَمُواْ﴾ للمعنىٰ، كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ [(١)]، ولو قال: هـؤلاء ﴿خَصْمَانِ﴾ أو اختصما كان جائزاً، وقيل: نزلت في النَفر الستة من المؤمنين والكافرين تبارزوا يَومَ بَدرٍ، وهو حمزة بن عبد المطلب قَتلَ عُتبةَ بن ربيعة، وعليٌّ عليه السلام قَتلَ الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقرنُه شَيبة بن ربيعة [(٢)] ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دين ربّهم وصفاته.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو فصلُ الخصومة المعْنِيُّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: أُلْبِسُوا مُقَطَّعَاتِ النيران وهي الثيابُ القِصارُ، كأنّه سبحانه يقدِّر لهم نيراناً علىٰ مَقادير جثثهم كَما يقطع الثياب الملبوسة، ونحوه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [(٣)]. و﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء الحارُّ، وعن ابن عبَّاس: لو سقَطَتْ منه نقطةٌ علىٰ جبالِ الدنيا لأذابتها [(٤)]. ﴿يُصْهَرُ﴾ أي: يُذاب ويُنْضَجُ بذلك الحميم أمعاؤهُم وأحشاؤهُم كما يُذاب به جلودُهم. المقامعُ: السِياط، أي: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ فخرجوا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وعن الحسن: أنّ النارَ تَضربُهم بلَهَبِها فَترفعُهم حتّىٰ إذا كانوا في أعلاها ضُرِبُوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً [(٥)]، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهو الغَليظُ من النار

---

(١) محمد: ١٦.

(٢) وهو قول أبي ذر وقيس بن عباد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٢٣.

(٣) ابراهيم: ٥٠.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٥٠.

(٥) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٤١.

المنتشر العظيم الإحراق.

وقُرئ: ﴿لُؤْلُؤاً﴾ بالنصب[1] علىٰ تقدير: ويؤتون لؤلؤاً. ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي: وهداهم الله إلىٰ أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[2]، وهداهم إلىٰ طريق الجنَّة، و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ هو الله المستحمد علىٰ عباده بنعمه.

وَالأَسَاوِرَ: جمع أسوار، وفيه ثلاث لغات: أُسوار، وسِوار، وسُوار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠)﴾

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: أنّ الصُدودَ يقع منهم علىٰ سَبيلِ الاستمرار والدوام ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للذين يَقعُ عَلَيهم اسمُ الناس، من غير فرقٍ بينَ حاضرٍ وبادٍ، وناءٍ وطارئ، وقُرئ: ﴿سَوَآءً﴾ بالرفع والنصب[3]، فالنصبُ علىٰ أنّه

(١) يظهر من عبارة المصنّف أنّه المعتمد في قراءة هنا ـ تبعاً للزمخشري ـ على قراءة الجرّ.

(٢) الزمر: ٧٤.

(٣) كلّهم قرأ ﴿سوآء﴾ رفعاً غير عاصم في رواية حفص فإنّه قرأها بالنصب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٥.

المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أي: جعلناه مستوياً ﴿ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، والرفعُ علىٰ أنّ الجملة في محل النَّصبِ على المفعول الثاني، وفيه دلالةٌ على امتناع جَوازِ بيعِ دور مكة، والمراد بـ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: الحرَمُ كلّه، كما قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (١)، والإلحادُ: العدولُ عن القَصد، وقولُه: ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ حَالان مترادفان، ومفعولُ ﴿يُرِدْ﴾ متروكٌ ليتناولَ كلّ مُتناولٍ، كأنّه قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مُراداً ما عادلاً عن القَصدِ ظَالِماً ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: أنّ الواجبَ علىٰ مَنْ كانَ فيه أن يسلكَ طريقَ العدلِ والسَدادِ في جَميعِ ما يَهمُّ به ويَقصدُه، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه، وتقديره: إنَّ الَّذين كَفَروا ويَصدُّونَ عن سبيلِ الله والمَسجدِ الحَرامِ نُذيقُهم من عَذابٍ أليمٍ، وكلّ مَن ارتكب فيه ذنباً فهو كذلكَ.

واذكرْ حِينَ جَعَلْنَا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مَبَاءَةً، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارةِ والعبادة، و﴿أَن﴾ هي المفسِّر، أي: تَعَبَّدْنَا إبراهيمَ وقُلنا له: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ من الأصنامِ والأقذارِ أن تُطرح حَوله. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ نَادِ فيهم، والنِّداءُ ﴿بِالْحَجِّ﴾ أن يقولَ: حُجُّوا، أو: عليكم ﴿بِالْحَجِّ﴾.

وَرُوِي: أنّه صَعَدَ أبا قبيس فقال: يا أيّها الناس، حجُّوا بيتَ ربّكم، فأَسمَعَ اللهُ صَوتَه كلّ مَن سَبقَ علمُهُ بأنّه يحجّ إلىٰ يَومِ القيامَة، فأجَابُوه بالتلبيةِ في أَصلابِ الرجال (٢).

وعن الحسن: أنّ الخطابَ لرسول الله ﷺ، أُمِرَ أن يُعْلِمَ الناسَ بوجوبِ الحجّ في حجّةِ الوداع (٣). ﴿رِجَالاً﴾ أي: مشاةً، جَمعُ راجل، كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الاسراء: ١.
(٢) رواه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٨.
(٣) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٨٣.

ضَامِرٍ﴾ حال معطوف علىٰ حال، كأنّه قال: رجالاً ورُكباناً ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ لأنّه في معنى الجَمع، وقرأ الصادقُ عليه السلام: «رُجَّالاً» بضمّ الراء مشدّدة، وقالَ: هُم الرجّالة[١]، وقرئ «يأتون» بالواو[٢] صفةً للرجالِ والرُّكبانِ ﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ طريق بعيد.

ونُكّر ﴿مَنَٰفِعَ﴾ لأنَّه أرادَ منافعَ مختصّةً بهذه العبادات دينيّة ودنيويّة لا توجد في غيرها من العبادات، وقيل: هي منافعُ الآخرةِ من العفو والمغفرة[٣].

واختُلِف في «الأيّام المعلومات»: فالمرويُّ عن الباقر عليه السلام: أنّها يومُ النحر والثلاثةُ بعده أيّام التشريق، و«الأيّامُ المَعْدُودات» عشر ذي الحجّة[٤]. وهو قول ابن عبّاس[٥] واختيار الزجاج، قال: لأنَّ الذكر هنا يدلّ على التسميةِ علىٰ ما يُذبح ويُنحر، وهذه الأيامُ تختصّ بذلك[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «هو التكبير بِمنَىٰ عقيب خمس عشرة صلاة أوّلُها صلاةُ الظهرِ من يومِ النَحر، يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر علىٰ ما هدانا والحمد لله علىٰ ما أولانا ورَزَقَنا من بهيمةِ الأنعام»[٧].

البهيمةُ: مُبهمةٌ في كلّ ذاتِ أربعٍ، فَبُيِّنَت بـ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي: الإبِلُ والبَقرُ والضَأنُ والمَعزُ، والأمرُ بالأكلِ منها أمر إباحة؛ لأنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا لا يأكلون

(١) أُنظر البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٦٤.

(٢) قرأه ابن مسعود وابن أبي عبلة والضحاك. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧، والبحر المحيط: ج ٦ ص ٣٦٤.

(٣) قاله سعيد بن المسيب والضحاك، وروي عن أبي جعفر عليه السلام. راجع التبيان: ج ٧ص ٣١٠، وتفسير الطبري: ج ٩ ص ١٣٧.

(٤) راجع التبيان: ج ٧ص ٣١٠ وليس فيه «يوم النحر».

(٥) ذكره عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٩.

(٦) معاني القرآن للزجاج: ج ٣ ص ٤٢٣.

(٧) تفسير القمي: ج ٢ ص ٨٤ باختلاف يسير لا يضرّ.

من نَسائِكِهِمْ، ويجوز أن يكونَ ندباً لِمَا فيه من المساواة للفقراء ومواساتهم ﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابَه بؤسٌ، أي: شدّة وقضاء.

التَفَثُ: قصُّ الشَارِبِ والأظفار والاستحدادِ[1] واستعمالِ الطِيب، والتفث: الوسخ، والمراد: قضاءُ إزالةِ التَفَثِ ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما وجب حجّهم، أو: ما عسىٰ ينذرونَه من أعمالِ البرِّ في حجّهم ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ طواف الزيارة، وروىٰ أصحابنا[2]: أنّه طوافُ النساء الذي يُستباح به وطءُ النساء، وذلك بعد طَوافِ الزيارة، والعتيقُ: القديمُ لأنّه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[3] وقيلَ: أُعتِقَ من الجبابرة، كَم من جبّارٍ سارَ إليه ليَهدمَه فمَنَعَهُ الله[4]، وقيلَ: أُعْتِقَ من الغرق[5]، وقيلَ: هو الكريمُ من قولهم عِتاقُ الطيرُ[6].

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ والشأنُ ذلك، والحُرمةُ: ما لا يحلّ هَتكُه، وجميعُ ما كلّفه الله بِهِ من مَناسكِ الحجِّ وغيرها فهو بهذه الصفة، فيحتملُ أن يكونَ عامّاً في جميعِ التكاليف، ويحتمل أن يكون خاصّاً في مناسك الحجِّ ﴿فَهُوَ﴾ خبرٌ له، فالتعظيمُ ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ ومعنى التعظيم: العلْمُ بأنّها واجبةُ الحفْظِ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آيةُ تحريمه، وذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية في سورة المائدة[7].

---

(١) الاستحداد: الحلاقة. (أقرب الموارد: مادة حدد).

(٢) انظر تهذيب الاحكام للطوسي: ج ٥ ص ٢٥٢ و٢٥٣ ح ١٤ و١٥.

(٣) آل عمران: ٩٦.

(٤) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن الزبير. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٨٥.

(٥) قاله ابن زيد، وروي عن أبي جعفر عليه السلام. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢١، والتبيان: ج ٧ ص ٣١١.

(٦) وهو قول ابن جبير. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٦٥.

(٧) الآية: ٣ منها.

ثم لمّا حثَّ اللهُ سبحانه علىٰ تَعظيمِ حُرماتِه أَمَرَ عقيبه باجتناب الأوثان وقولِ الزور؛ لأنّ توحيدَ اللهِ ونفيَ الشركِ عنه وصدقَ القول من أعظمِ الحُرمات، وقيل: ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وهو قولُ أهلِ الجاهلية: لَبّيكَ لا شَريكَ لَكَ إلّا شريك هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ[1].

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مستقيمي الطَريقةِ علىٰ أمرِ الله، مائلين عن سائرِ الأديان، وقُرئ: «فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ»[2] أي: فَتَتَخَطَّفُهُ فحُذِفَ تاء التفعّل، وهذا التشبيه يجوزُ أن يكونَ من المركَّب والمفرَّق، والمركَّبُ مثل أن يقولَ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فإنَّ حالَه كَحالِ مَن ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فاختطفته الطير، أي: أَخذَتْه بِسُرعةٍ فتفرَّق أجزاؤه في حواصِلها، أو عَصَفَتْ ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فَهَوتْ بهِ إلى الأماكنِ البَعيدةِ، والمفرَّقُ أن يكونَ الإيمانُ مشبَّهاً في علوّه بالسماء، وتاركُهُ مشبَّهاً بالساقِطِ من السَماء، والأهواءُ الموزعةُ أفكارُهُ بالطيرِ المختطفةِ، والشيطانُ الذي يستهويه في الضَلالةِ بالريحِ التي ﴿تَهْوِى بِهِ﴾ في المهاوي المهلكة.

---

(١) حكاه السيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٥ عن مقاتل.

(٢) وهي قراءة نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص٤٣٦.

وَتَعظِيمُ الـ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾ وهي الهَدايا؛ لأنّها مِن مَعالمِ الحجّ اسْتِسْمَانُها، واسْتِحْسَانُها أن يُتْرَكَ الْمِكَاسُ في شرائِها، فَقد كانوا يُغالُون في ثلاث ويكرهونَ المِكَاسَ فيهنّ: الهَدْي، والأُضحية، والرقبة.

وعن الباقر عليه السلام: «لا تماكِس في أربعة أشياء: في الأُضحية، وفي ثمن النسمة، وفي الكفن، وفي الكراء إلى مكة»(١).

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإنَّ تَعظيمَها من أفعالِ ذَوي تَقوى القُلوبِ، فحُذِفَت هذه المضافات، ولا يستقيمُ المعنىٰ إلَّا بتَقديرِها؛ لأنّه لابدّ من عائدٍ من الجزاء إلىٰ مَن ليرتبط به، وإنّما ذُكرت ﴿ٱلْقُلُوب﴾ لأنّها من مراكز التقوىٰ، فإذا تمكّنَتْ فيها ظَهرَ أثرُها في الجوارح.

﴿لَكُمْ﴾ في الشعائر ﴿مَنَٰفِعُ﴾ بركُوبِ ظُهُورِها وشُرْبِ أَلبانِها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ أن يُنحرَ ويُتصدَّقَ بلحومِها، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الوقت، فاستُعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنىٰ: أنّ لكُم في الهَدْيِ منافعَ كثيرةً في دينِكُم ودُنياكُم، وأعظمُ هذه المنافع ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ﴾ ومَحَلُّها: حيث يجبُ نَحرُهَا، أو: وقتُ وجوبِ نَحرِها، أو: وجوبُ نَحرِها مُنتهيةٌ إلى البيتِ كقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾(٢)، فإن كانَ الهَدْيُ للحجِّ يُنحَر بمِنَىٰ، وإن كانَ للعمرة بمكّة.

وقُرئَ: ﴿مَنسَكًا﴾ بفتح السين وكسرها(٣)، وهو مصدر بمعنىٰ النُسك، والمكسور بمعنىٰ: الموضع، أي: شَرَعْنا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أن ينسكُوا، أي: يذبحُوا لِوَجْهِ الله تعالىٰ لأنْ يذكُروا اسمَهُ على النَسائِك ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أَخْلِصُوا له

(١) الخصال للصدوق: ج ١ ص ٢٤٥ ح ١٠٢.
(٢) المائدة: ٩٥.
(٣) و بكسر السين هي قراءة حمزة و الكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٣٤.

الذِكْرَ خاصةً، واجعلُوه لوجهِهِ سَالِماً أي: خَالِصاً لا يشوبه إشراك، والْمُخْبِتُونَ: المتواضعون، من الخبت وهو المطمئنُّ من الأرض.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰـكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

﴿ ٱلْبُدْنَ ﴾ جمعُ بَدَنَةٍ، سمِّيَ بذلك لعِظَم بَدَنِهَا، وهي الإبلُ خَاصةً، وجُعل البقرُ في حُكم الإبل لقوله عليه السلام: «البدنةُ عن سبعة والبقرةُ عن سبعة»[1]، وهي منصوبٌ بإضمار الفعلِ الذي ظَهَر تفسيرُه ﴿ مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ من أعلام الشَريعةِ التي شرَّعها اللهُ، وإضافتُها إلى اسمه تَعظيمٌ لها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي: نَفْعٌ في الدنيا والآخرةِ، وَذِكْرُ ﴿ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أن يقول: بسم اللهِ واللهُ أكبر، اللّهمَّ مِنكَ ولَكَ ﴿ صَوَآفَّ ﴾ أي: قَائمات قد صَفَفْنَ أَيْدِيَهُنَّ وأرجلَهنَّ، قد رُبطت اليدان من كلِّ واحدةٍ منها ما بين الرُسغِ إلى الرُكبةِ، وعن الباقر عليه السلام: أنه قرأ «صوافِنَ»[2]، ورُوِيَ ذلك عن ابن

(١) رواه في الكشّاف: ج ٣ ص ١٥٨ مرفوعاً.

(٢) راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧ ـ ٩٨، وتفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٦٢.

مسعود وابن عبَّاس[١]، وهو من صفون الفرس، وهو أن يقومَ علىٰ ثلاثٍ وَينصبَ الرابعةَ علىٰ طَرفِ سُنبكِهِ، لأنَّ البدنةَ قد تَعقل إحدىٰ يدَيْها فتقوم علىٰ ثلاثٍ ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سَقَطتْ على الأرضِ، مِن وَجَب الحائطُ وجبةً، ووجبتِ الشمسُ جِبَةً، وهو عبارةٌ عن تَمامِ خُروج الروحِ منها ﴿فَكُلُواْ﴾ أي: فَحَلَّ لكم الأكلُ ﴿مِنْهَا﴾ والإطعام، و﴿ٱلْقَانِعَ﴾: السائلُ، من قنعتُ إليه وكنعتُ: إذا خضعتُ له وسألتُه قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ المعترض بغير سؤال، والقانع: الراضي يقنعُ بما أعطيتَهُ، والمعترُّ: المارُّ بكَ تُطْعِمُهُ، يقال: عراه واعتراه وعرَّه واعترَّه بمعنىً ﴿سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ﴾ تأخذُونَها مطيعةً منقادةً للأخذ فَتعقلُونَها، مَنَّ اللهُ سبحانه بذلكَ علىٰ عبادِهِ.

لَنْ يُصِيبَ رضاءَ اللهِ ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ الْمُهراقة بالنَحْر ﴿وَلَـٰكِن﴾ يصيبَ رضَاه ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ والإخلاصُ وصدقُ النية، وقُرئَ: ﴿يَنَالَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالتاء[٢] والياء.

ورُوِيَ[٣]: أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانُوا إذا نَحَروا لطَّخُوا البيتَ بالدَمِ، فلمَّا حَجَّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلتْ.

فكرَّر سبحانه تَذكيرَ النعمةِ بالتخيِّر، ثم قالَ: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهو أن يقالَ: الله أكبر علىٰ مَا هَدانا، وقيل: إنَّهُ ضَمَّنَ معنى الشُكر فعدَّاه تعديةً، أي: لتشكروا الله علىٰ هدايتكم لأَعلامِ دينِهِ ومَناسك حجّه، بأن تُكبِّروا وتُهلِّلُوا[٤].

ثمّ خَصَّ المؤمنينَ بالدَفْعِ عَنهُم والنُصرةِ لَهم كما قالَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

---

(١) راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧ ـ ٩٨، وتفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٦٢.

(٢) وهي قراءة يعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٦.

(٣) رواه ابن عباس في تفسيره: ص ٢٨٠.

(٤) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٢٠.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [١]، وجعل العلّةَ في ذلكَ أنّه لا يحبُّ أضدادَهُم الذين يخُونونَ اللهَ ورسولَه ويكفرونَ نِعَمَه، وقرئ: ﴿يُدَافِعُ﴾ [٢] أي: يبالغُ في الدَفْعِ عَنهم كما يبالغُ مَن يُغالِبُ فيه.

وقُرئ: ﴿أُذِنَ﴾ وَ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ على البناء للفاعل [٣] والمفعول جميعاً، والمعنىٰ: أُذِنَ لَهم في القتالِ، فحُذِفَ المأذون فيه لدلالةِ ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ عليه ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ بسبب كونِهم مظلومين، وهُم أصحابُ رسول اللهﷺ، وهي أوّلُ آيةٍ نَزَلتْ في القتال، والإخبار بكونِهِ قادِراً علىٰ نَصرِهِم عدَةً منه بالنَصرِ، وما قبل الآيةِ من قوله: ﴿يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مؤذنٌ بهذه العِدَةِ أيضاً.

و﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ مجرور الموضع على البدلِ من ﴿حَقٍّ﴾، أي: ﴿بِغَيْرِ﴾ مُوجبٍ سوى التَوحيدِ الذي كانَ ينبغي أن يوجبَ التمكينَ والإقرارَ لا الإخراج من الديارِ، والمعنىٰ: ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ تَسليطُهُ المسلمين على الكفّارِ ﴿وَلَوْلَا﴾ ذلك لاستولىٰ أهلُ الشركِ علىٰ أهل المِلَلِ وعلىٰ متعبّداتِهم فَهدمُوها، ولَمَا تركوا للنصارىٰ بِيَعَاً ولا لرُهبانهم ﴿صَوَٰمِعُ﴾ ولا لليهودِ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ ولا للمسلمين ﴿مَسَـٰجِدُ﴾ وسمِّيت الكنيسة صلاةً لأنَّها يُصلّىٰ فيها، وقرأ الصادقعليه السلام: «صُلُوَاتٌ» بضم الصاد واللام [٤]، وفسَّرها بالحصون والآطام [٥] وقرئ: «دِفَاعُ» [٦]

(١) غافر: ٥١.
(٢) يظهر من عبارة المصنّف هنا أنّه اعتمد على قراءة فتح الياء وإسكان الدال من غير ألف.
(٣) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٦.
(٤) حكاه عنهعليه السلام أبو حيان في البحر المحيط: ج ٦ ص ٣٧٥.
(٥) قال الجوهري: الأُطْمُ مثل الأُجم، يخفّف ويثقّل، والجمع آطام، وهي حصون لأهل المدينة، وباليمن حصنٌ يُعرف بأُطُمِ الأضبط. أُنظر الصحاح: مادة «أطم».
(٦) قرأه نافع ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٢.

وَ«لَهُدِمَتْ» بالتخفيف[1] ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: يَنصرُ دينَه وأولياءَه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾

هذا ثناءٌ من اللهِ عزَّ اسمُهُ على المؤمنينَ، وإخبارٌ عمَّا سيكون منهم بظهر الغَيبِ: أنْ مَكَّنهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبَسَطَ لَهُم في الدنيا من القيامِ بِأُمورِ الدين.

وعن الباقر عليه السلام أنّه قال: «نحنُ هم»[2].

و﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾ منصوب بدل من قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وقيل: هو تابعٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾[3] فيكون المعنيُّ بهم: المهاجرين ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجِعُهَا إلىٰ حُكمه وتقديره.

أي: لستَ بواحدٍ في التكذيب، فَقَد كذَّب الرُسلَ أقوامُهم، ولكَ بهم أُسوةٌ. وكُذِّب مُوسَىٰ أيضاً مع ظُهور معجزاته ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وتَغييري حيث أبدلتُهم بالنعمةِ نقمةً وبالمنحةِ محنةً، وبالعمارةِ خراباً.

والخاوي: الساقِطُ، من خَوَى النجم: إذا سَقَطَ، أو الخالي من خَوَى المنزل: إذا خَلَا من أهلِهِ، وَخَوىٰ بطنُ الحَاملِ. وكلُّ مرتفعٍ أظلَّكَ من سَقفِ بيتٍ أو أظلّةٍ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأيوب وقتادة وطلحة وزائدة عن الأعمش والزعفراني. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٧٥.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ ص ٨٧.

(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٦١.

أو كرمٍ فهو عرشٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ إن تعلّق بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾ فالمعنىٰ: أنّها سَاقِطةٌ، علىٰ سُقوفها، أي: خرّتْ سقُوفُها على الأرض ثم سَقَطَتْ حيطانُها عليها، أو: أنّها ساقطةٌ أو: خاليةٌ معَ بَقاءِ عُروشها، وإن كان خبراً بعد خبر فالمعنىٰ: هي خاليةٌ وهي مطلّةٌ علىٰ عروشها، علىٰ معنىٰ: أنّ العرشَ سَقَطتْ على الأرض وبَقيتْ الحيطانُ مشرفةً عليها، وقُرئ: «أَهْلَكْتُها»[1] ومعنىٰ «المُعَطَّلَةِ»: أنّها عامرةٌ، فيها الماءُ، ومعها آلاتُ الاستسقاءِ إلّا أنّها عُطِّلت أي: تُرِكَتْ لا يُستسقىٰ منها لهلاكِ أهلِها، أي: وكَم من ﴿بِئْرٍ﴾ عطَّلنَاها عن سِقائها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أخليناه عن ساكنيه، فحُذفَتْ لدلالة ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ عليه، وفي هذا دليلٌ علىٰ أن ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «مع» في ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، والمَشِيد المُرتَفعُ، وقيل: هو المُجَصَّص[2].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٥١)﴾

ثم حثَّ سبحانَه على السفار والاعتبار بمصارع مَنْ أهلكَهُ[3] اللهُ من الكفّار، أي: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يَجبُ أن يُعقل من التوحيدِ، و﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يجبُ سماعه

---

(١) وهي قراءة البصريين (أبي عمرو ويعقوب). راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٥٣.

(٢) قاله عكرمة ومجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣٢٤.

(٣) في نسخة: أهلكهم.

من الوحي ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للشأن والقصَّة، وقد يجيء مؤنثاً، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسِّره ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وفي ﴿تَعْمَى﴾ راجعٌ إليه، والمعنىٰ: أنَّ أبصارَهُم صَحيحةٌ لا عمىً بها وإنّما العَمىٰ بقلوبِهِم، أو يريد: أن لا ٱعتبار بعمَى الأبصار، فكأنَّه ليس بعمىً [١] بالإضافة إلىٰ عَمى القلوب، وقوله: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ توكيدٌ كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [٢]، وذلك لتقرير: أنَّ مكانَ العَمىٰ هو القلبُ لا البصر.

ثم أنكرَ استعجالَهُم للعذابِ المتوعّد به، أي: كأنَّهم يجوِّزون فوته والله عزَّ اسمه لا ﴿يُخْلِفَ .. وَعْدَهُ﴾ ولا مَحالةَ أن يصيبَهم ذلكَ إلَّا أنَّه عزَّ اسمه حليمٌ لا يَعجل، ومن حلمِهِ واستقصاره المُدَدَ الطويلة أن ﴿يَوْماً﴾ واحداً عندَهُ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ عندكم، وقيلَ: معناه: كيف يستعجلونَ بعذابِ مَنْ يومٌ واحدٌ من أيام عذابِهِ في طولِ ألفِ سنةٍ من سنيّكم؛ لأنَّ أيام الشدائد طوال [٣].

وكم ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ قد أَنْظَرْتُهُمْ حيناً ﴿ثُمَّ﴾ أخذْتُهم بالعذابِ ﴿وَإِلَيَّ﴾ الْمَرْجِع.

﴿سَعَوْاْ فِى ءَايَـٰتِنَا﴾ بالفسادِ: من الطعنِ فيها بأن سمَّوها سِحْراً وشِعْراً وأَسَاطِير الأوَّلينَ، ومن تَثبيط الناسِ عَنها ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ أي: مُسابقينَ في زعمِهِم وتقديرِهم، وقُرِئَ: «مُعْجِزِيْنَ» [٤] أي: مُسابقينَ عندهم طامِعينَ أنَّ كيدَهُم للإسلام يتمُّ لَهُم، أو: قاصدين تَعجيز رسولنا، يقال: عاجَزَهُ أي: سَابَقَهُ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتسابقينَ [٥] في طَلَبِ عَجز الآخر عناللِّحاقِ به، فإذا سَبَقَه قيل: أَعْجَزَهُ وَعَجَزَهُ.

---

(١) في بعض النسخ: لعمى. (٢) آل عمران: ١٦٧.
(٣) قاله عكرمة كما في تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٧٨.
(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٩.
(٥) في نسخة: المسابقين.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾

رُوِيَ: أنَّ السَببَ في نزولِ هذه الآية أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا سورةَ النجمِ وهو في نادي قومه، فلمَّا بلَغَ قولَه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[1] ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته: «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى»، فَسُرَّ بذلك المشركون، فَنزلَتْ الآيةُ تسليةً له صلوات الله عليه وآله[2]، ومعناه: أنّه لم يُبعث رسولٌ ولا نبيٌّ ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تَلا، حاولَ الشيطانُ تَغليطَه فَأَلْقَىٰ في تلاوتِهِ ما يُوهِمُ أنّه من جملةِ الوحي فيَرفعُ الله ما أَلقاه بِمُحْكَمِ آياته، وقيل: إنَّما أَلقىٰ ذلك في تلاوته بعضُ الكفَّارِ، فأُضيفَ ذلك إلى الشَيطانِ لمَا حَصَلَ بإغوائه[3]. وممّا يُبيِّن أنّ التمنّي يكون في معنى التلاوة، قول حسّان بن ثابت:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ ليلة وآخِرَهَا لاقَى حِمَامَ المقادِرِ[4]

---

(١) النجم: ٢٠.

(٢) رواه ابن عباس وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب ومحمد بن قبيس. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٧٤. ولا يخفىٰ أنّ العديد من المحقّقين من علماء المسلمين الأبرار قد صرّحوا أنّ ما روي في سبب نزول هذه الآية فهو من الموضوعات والخرافات التي لا أساس لها من الصحة، فما نقله بعض المفسّرين لا يعبأ به. راجع تفصيل ذلك في كتاب الهدىٰ إلىٰ دين المصطفى للعلامة البلاغي: ج ١ ص ١٢٣ وما بعده.

(٣) حكاه ابن عيسىٰ كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٥.

(٤) وروي الشطر الثاني: تمنّىٰ داود الزبورَ على رِسْلِ. قد تقدم ذكر البيت في ج ١ ص ١١٩.

وعن مجاهد: كان النبيُّ ﷺ إذا تأخّر عنه الوحي تمنّىٰ أن ينزلَ عليه فيُلقي الشيطانُ في أُمنيته بما يوسوس إليه، وينسخُ اللهُ ذلك ويُبطلُه بما يُرشده إليه من مخالفةِ الشيطان[١]. وقالَ: «تلك الغرانيق» إشارة إلى الملائكة، أي: هم الشُّفعاء لا الأصنام، والغرانيق: جمع غرنوق، وهو الشاب الجميل الممتلئ ريّاً[٢] ﴿فَيَنْسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: يذهب به ويُبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ ءَايَـٰتِهِ﴾ أي: يُثبتها حتّىٰ لا يَتطرّق عليها ما يُشعّثها.

﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَـٰنُ﴾ في الأُمنيَّة وتمكينه من ذلك ﴿فِتْنَةً﴾ أي: محنةً وابتلاءً، يَزدادُ المنافقون به شكّاً وظُلمةً، وهم الَّذِينَ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، والمؤمنون يقيناً ونوراً قد ازدادوا إيماناً إلىٰ إيمانِهم ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هُمْ المشركون المكذّبون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني: وإنّ هؤلاء المنافقين والمشركين، والأصلُ: «وإنّهم» إلّا أنّه وُضِعَ الظاهرُ موضعَ الضَميرِ ليقضيَ عليهم بالظُلمِ ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ أي: مشاقّةِ الله تعالىٰ.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وبحكمتِهِ ﴿أَنَّـهُ ٱلْـحَقُّ مِـن رَّبِّكَ﴾ فـي الحكمةِ فيصدِّقوا به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تطمئنّ وتسكن ﴿وَإِنَّ ٱللهَ﴾ لهادي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ﴾ أن يتأوّلوا ما يتشابَهُ في الدِينِ بالتأويلات الصَحيحةِ، فـلا تَعتَريهم شُبهةٌ ولا تُخالجهم مِرْيَةٌ.

والضمير في قوله: ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ للقرآنِ أو للرسولِ، والمرادُ باليومِ العقيمِ: يومُ بدرٍ، وَصَفَه بالعَقيمِ لأنَّ أولادَ النساءِ يقتلون فيه فيصرن كأنّهنَّ عُقْمٌ لم يلدْنَ، أو: لأنَّ المقاتلين يوصفون بأنّهم أبناء الحرب فإذا قُتلوا وُصِفَ يومُ الحربِ بأنّه

(١) حكاه عنه الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٣٠.
(٢) كذا في النسخ.

عقيم مجازاً، أو: لأنَّه لا مثل لهذا اليوم في عظم أمرهِ لِقتال الملائكة فيه، كما قيل:

عَقُمَ النساءُ فَمَا يَلدنَ شبيهَهُ إنَّ النســاءَ بِمثلِهِ لَعَقِيمُ[1]

وقيل: المرادُ به: يومُ القيامةِ، وسمَّاه عقيماً لأنَّه لا ليلة له[2]، وكأنَّه قال: ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ... أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ عذابُها، فوضِعَ الظاهرُ موضع الضمير.

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾

التقديرُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم يؤمنون، أو: يوم تزول مِرْيَتُهُم، سوَّىٰ بين مَن مات من المهاجرين في سبيلِ الله وبينَ مَنْ قُتل منهُم في المَوعدِ تفضّلاً منه، و﴿ٱللَّهُ﴾ عَلِيمٌ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تَفريطِ مَن فرَّط منهم بفضلِهِ وكَرَمِه.

ورُوي: أنّهم قالوا: يا رسول الله، هؤلاء الَّذين قُتِلُوا قد عَلِمْنَا ما أعطاهُم الله من الخير، ونحنُ نجاهدُ معكَ كما جاهَدُوا، فما لَنَا إن مِتْنَا معك؟ فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين[3].

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: وَمَن جَازَى الظَّالِمَ بمثل ما ظَلَمَه،

---

(١) البيت منسوب الى أبي دهبل يمدح عبدالله بن الأزرق المخزومي، وقيل: للحزين الليثي، ومعناه واضح. أنشده الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٤٣٤.

(٢) قاله عكرمة والضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٧.

(٣) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٦٧.

سمّي الابتداء بالمعاقبة من حيث إنّه سببٌ وذاك مسبَّبٌ عنه، كما حَملوا النظير على النظير والنقيضَ على النقيضِ للملابسة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ الضمير للمبغيِّ عليه ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ولا يَلومُه على تَرْكِ ما بَعَثَه عليه من العفوِ عن الجاني بقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [1]، ومَن عَفَا وأصلحَ فأجرُهُ على الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصرُ بسببِ أنّه قادرٌ، ومن آيات قدرتِهِ أنّه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أو: بسببِ أنّه خالقُ الليلِ والنهارِ فلا يَخفىٰ عليهِ ما يَجري فيهما علىٰ أيدي عبادِهِ مِن خيرٍ أو شرٍّ، فإنّه ﴿سَمِيعٌ﴾ لمَا يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يعملون.

وقُرئ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء [2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوصف بخلقِ الليلِ والنَّهارِ وبالإحاطةِ بما يجري فيهما بسببِ أنّه ﴿ٱللَّهَ ... ٱلْحَقُّ﴾ الثابت إلٰهيّته، وأنَّ كلّ ما يُدعىٰ إلهاً من دونه باطلُ الدعوةِ وأنّه ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ عن الأشباه، ولا شيء أعلىٰ منه شأناً وأكبرُ سلطاناً.

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) بالتاء قرأه الحرميان وابن عامر وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٥٣.

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ إنّما رفع لأنَّ المعنىٰ إثباتُ الاخضرار، ولو نُصب جواباً للاستفهام لآنقلب المعنىٰ إلىٰ نَفي الآخضرار ﴿لَطِيفٌ﴾ وأصلُ علمِهِ وفَضلِهِ إلىٰ عبادِهِ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمَصالحِهم.

﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البهائِمِ مذلّلةٌ للركوبِ في البرِّ، ومن المَراكب جاريةٌ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وغير ذلك من المسخَّرات ﴿أَن تَقَعَ﴾ أي: كراهةَ أن تقَعَ إلّا بمشيئته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدىً مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢)﴾

﴿لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحُودٌ يَجحد الخالقَ مع هذه الأدلّةِ الدالّةِ على الخلقِ.

﴿فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ﴾ نهيٌ لرسول الله عليه وآله، أي: لا تلتفِتْ إلىٰ قولهم، ولا تُمكِّنْهُمْ من أن ينازعُوك، أو: هو زجرٌ لهم عن مُنازعَتِهِ ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمرِ الدين.

رُوِيَ: أنّ بديل بن ورقاء وغيره من كفّار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قَتَلتُم ولا تأكلون ما قَتَلَه الله؟ يعنون الميتة[١].

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٦٩.

وإن أبوا إلَّا مجادلتك فادفعْهُم بأن تقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ بأعمالِكُم وبقُبحِها، فهو مُجازيكم عليها، وهذا وعيدٌ برفقٍ ولُطْفٍ. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يَفصل بينكُم [١] بالثوابِ والعقابِ، وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ ممَّا كان يَلقاهُ منهم، أي: وكيف تخفىٰ عليه أعمالُهُم وقد عُلِمَ بالدليل أنَّه سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ كلَّ ﴿مَا﴾ يَحدثُ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد كتبه في اللوحِ المَحفوظِ قبلَ حدوثهِ؟! وحفظُه ذلك وإثباتُه والإحاطة به عليه ﴿يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ مالم يتمسَّكوا في صحّةِ عبادتِهِ ببرهانٍ سماويٍّ، ولا عَرفوه بدليل عقليٍّ ﴿وَمَا﴾ لمن ظَلَمَ مثل هذا الظُّلم ناصرٌ يَنصرُه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ [٢] الفظيع من التجهُّم والعُبوس، أو: الإنكار كالمكرَم بمعنى الإكرام، و﴿يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبطشون من شدَّة الغيظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلاً قال: ما هو؟ فقال: النار، أي: هو النار ﴿مِن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: من سَطوِكُم على التالين للآيات وغَيظِكُم عليهم، أو: ممّا أصابَكُم من الغيظِ والكراهةِ بسببِ ما تُلِيَ عليكم ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ استئناف، أو تكون ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ خبرُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٧٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ

---

(١) ليس في نسخة: «أي يفصل بينكم». (٢) في بعض النسخ زيادة: «أي المنكر».

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾

قد تُسمَّى الصفة أو القصة الرائعة «مَثَلاً» لاستحسانها واستغرابها[١]، تشبيهاً ببعضِ الأمثالِ التي سيرت لكونها مُستحسَنةً عندهم، وقُرِئ: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالياء[٢] والتاء ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ في محلِّ النصبِ على الحال، كأنَّه قال: إنَّ خَلْقَ الذُّباب يَستحيلُ منهم مشروطاً عليهم اجتماعُهم لخلْقِه، وهذا مبالغةٌ في تَجهيل قُـريش حيث وَصَفوا[٣] صوراً ممثلةً يستحيل منها أن يقدروا علىٰ أقلِّ ما خَـلَقَ[٤] اللهُ وأحقَره ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ﴾ لذلك بالإلهيّة التي تَقتضي الاقتدارَ علىٰ كـلّ أجـناسِ المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، و﴿ٱلطَّالِبُ﴾ الذبابُ ﴿وَٱلْـمَطْلُوبُ﴾ الصنم، وقيل: بالعكس منه، والمعنىٰ: ضَعُفَ السالبُ والمسلوبُ[٥]، وقيل: معناه: جهلَ العابدُ والمعبودُ[٦].

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفُوه حقَّ معرفتِهِ، وما عظَّموه حقَّ عظمته حيث[٧] جعلوا الأصنامَ شركاء له.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي﴾ هذا ردٌّ لإنكارهم من أن يكون الرسولُ من البشرِ، وبيانٌ أنّ

---

(١) في بعض النسخ: لاستحسانهما واستغرابهما.

(٢) قرأه يعقوب والسلمي وأبو العالية. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٤، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٩٨.

(٣) في نسخة: وضعوا.

(٤) في نسخة: خلقه.

(٥) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٨٤.

(٦) قاله الضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٩٨.

(٧) في نسخة: حين.

رُسُلَ الله قد يكونون[١] ﴿مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ومن البَشَرِ. ثم ذَكَرَ أنّه سبحانه عـالمٌ بأحوال المكلّفين مَنْ مَضىٰ منهم وَمَنْ غَبَرَ، فلا يعترض عليه في حُكمه واختياره.

أمر سبحانه بالصلاة التي هي أجلُّ العبادات، ثم بغيرها من العبادات كالصوم والحجّ والزكاة، ثم بفعل الخيرات على العموم، وعن ابن عبّاس: أنّ ﴿ٱلْخَيْرَ﴾ صلةُ الأرحامِ ومكارمُ الأخلاق[٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افـعلوا هـذا كـلّه وأنـتم طامعون في الفلاح، لا تتكلّمون[٣] على أعمالكم.

وعن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، في سورة الحجّ سجدتان؟ قال: «نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما»[٤].

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أمَرَ بالغزوِ، أو: بمجاهدةِ النفسِ والهوىٰ وهو الجـهادُ الأكبرُ، كما رُوِيَ أنّه ﷺ رجع من بعضِ الغَزوات فـقال: «رَجَـعْنَا مـن الجـهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر في الله»[٥] أي في ذات الله، ومن أجلِه ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ كما يقال: هو حقُّ عالم أي: عالمٌ حَقّاً، فكان القياسُ: حقَّ الجـهادُ فـيه أو حـقَّ جهادُكُم فيه، إلّا أنَّ الجهادَ لمّا اختصَّ باللهِ من حيث إنّه يُفعل لوجهِهِ ومن أجلِهِ جازَتْ إضافته إليه؛ لأنَّ الإضافةَ قد تَكونُ بأدنَى ٱختصاص، ويجوز أن يـتّسع في الظَّرفِ، كقول الشاعر:

ويومَ شَهدْنَاهُ سُلَيْماً وعَامِراً[٦]

﴿ٱجْتَبَـٰكُمْ﴾ أي: اختاركم لدينِهِ ولُنصْرتِهِ ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ

---

(١) في بعض النسخ: يكون.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٧٢.

(٣) في بعض النسخ: تتكلون.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٩.

(٥) إتحاف السادة المتّقين للزبيدي: ج٦ ص ٣٧٩ و ج٧ ص٢١٨.

(٦) وعجزه: قليل سوى الطعن النهّال نوافله. وهو منسوب لرجلٍ من بني عامر، وفـيه يـمدح قومه. أنشده سيبويه في كتابه: ج ١ ص ٩٠.

حَرَجٍ﴾ أي: ضيقٍ، فلم يكلّفكُم مَالا تُطيقونه، ورخَّصَ لكُم عند الضرورات كالقصر والتيمّم، وجعلَ التوبةَ مخلّصاً لكم من الذُنوب، ونحوه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (١).

وفي الحديث: «إنَّ أُمَّتي أمةٌ مرحومةٌ» (٢).

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ نصبٌ على الاختصاصِ، أي: أعني بالدِينِ ملةَ أبيكم، أو بمضمون ما تقدّمها، كأنّه قال: وَسِعَ دينُكم تَوسعةً ملةَ أبيكم، ثم حُذِفَ المضافُ، وجُعِلَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبا الأُمَّة كلِّها؛ لأنَّ العربَ من وُلْدِ إسماعيل، وأكثرَ العَجَمِ من ولد إسحاق، ولأنَّه أبو رسول الله ﷺ وهو أبٌ لأُمته، والأُمَّة في حكم أولاده ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ الضميرُ لله تعالىٰ أو لإبراهيم ﴿مِن قَبْلُ﴾ القرآنِ في سائر الكُتُب ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ القرآن، أي: فضَّلَكُم على الأُمم وسمَّاكم بهذا الاسم ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بالطَاعةِ والقبُولِ ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى﴾ الأُمم بأنَّ الرُسُلَ قد بلَّغُوهُم، ومثله: ﴿كَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ﴾ الآية (٣)، وقيل: ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ أنّه قد بلَّغكُم ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بعدكُم بأن تبلِّغُوا إليهم ما بلَّغه الرسولُ إليكم (٤). وإذ خَصَّكم سبحانه بهذه الكرامة فَاعْبُدُوهُ وَثِقُوا به وتمسَّكوا بدينِهِ (٥) ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ المتولّي لأمرِكُم، وهو خيرُ مَوْلىً وناصر.

❁ ❁ ❁

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) أخرجه أبو حنيفة في مسنده: ص ١٤١، والحاكم في مستدركه: ج ٤ ص ٤٤٤.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٩٤.

(٥) في نسخة: «به» بدل «بدينه».

سورةُ المُؤمنُونَ

مكّيةٌ[1] مائة وثمان عشرة آية كوفي، وتسع عشرة آيـة غـيرهم، لم يـعدّ الكوفيّ ﴿وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾[2].

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَها بشّرتْهُ الملائكَةُ بالرَّوحِ والرَّيحانِ يومَ القـيامةِ، وَبمَا تَقرُّ به عينُهُ عندَ نزولِ مَلَكِ المَوتِ»[3].

وعن الصادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَها خَتَمَ اللهُ لَهُ بالسَعادةِ، [و] إذا كَانَ يُدْمِنُ قراءَتَها في كلّ جُمعةٍ كانَ منزلُهُ في الفِرْدَوسِ الأعلىٰ معَ النَبيِّينَ والمُرسَلينَ»[4].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّـذِينَ هُـمْ فِـى صَـلَاتِهِمْ خَـٰشِـعُونَ (٢)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٤٧: مكّية بلا خلاف، وهو قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة في البصري والمدنيّين، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، إلّا ما روي أنّهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً وشمالاً والى ماوراء، نسخ ذلك بقوله: ﴿فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ فلم يجيزوا أن ينظر المصلّي إلّا الى موضع سجوده.

وفي الكشاف: ج ٣ ص ١٧٤ ما لفظه: مكّية، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة عند الكوفيّين، نزلت بعد سورة الأنبياء. (٢) الآية: ٤٥.

(٣) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٢٠٧ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)﴾

الفَلَاحُ: الظَّفَرُ بالمُرادِ، وقيلَ: البقاءُ في الخَيرِ[١]، و﴿أَفْلَحَ﴾: دَخَلَ في الفَلَاحِ، كَأَبْشَرَ دَخَلَ في البشَارةِ. والخشوعُ ﴿فِى﴾ الصَّلاةِ: خشيةُ القَلبِ والتواضعُ، وأُضيفت الصلاةُ إليهم لأنَّهم المنتفِعُون بها، وهي عُدَّتُهُم وذخيرتُهم، والذي يصلُّون لَه جلَّ وتقدَّس عن الحاجةِ إليها. و﴿ٱللَّغْوِ﴾: ما لا يعنيك من قولٍ أو فعلٍ كالهزلِ واللعبِ، والمعنىٰ: أنّهم شغَلهم الجدُّ عن الهزلِ[٢] والباطلِ وجَميع المعاصي، ولمَّا وَصَفَهم بالخشُوعِ في الصلاة وَصَفَهم عقيبه بالإعراضِ عن اللغوِ ليجمعَ لهم الفعلَ والترك.

والزكاة: اسمٌ مشتركٌ بين عينٍ ومعنىً، فالعينُ: ما يُخرجه المزَكِّي، والمعنىٰ: فعلُهُ الذي هو التزكية، وهو المرادُ في الآية، وما من مصدرٍ إلَّا وقَد يعبّر عن مَعناه بالفعلِ، ويقال لِمُحْدِثِهِ: فاعل، كما يُقال للضارب: فاعلُ الضَربِ، وأُنشد لأُميَّة بن أبي الصلت:

المُطعِمُونَ الطَعامَ فـي السنَةِ الأ زمـةِ والفَاعِلُونَ للـزَّكَـوَاتِ[٣]

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٥.

(٢) في نسخة: «اللعب».

(٣) والأزمة: الشدّة والقحط، والبيت واضح المعنىٰ، انظر تفسير الكشاف: ج ٣ ص ١٧٦.

ويجوزُ أن يُرادَ بالزكاة: العين علىٰ تَقديرِ مضافٍ محذوفٍ وهو الأداءُ، ويُحمل البيت علىٰ هذا أيضاً.

﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: الأوَّالين علىٰ أزواجهم، والمعنىٰ: أنّهم ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾ في جميع الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حَالِ تزويجهم أو تسرّيهم، ويجوز أن يتعلّق ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمحذوفٍ يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كأنّه قالَ: يُلامون إلَّا علىٰ أزواجِهِم، أي: يُلامون علىٰ كلّ مباشَرٍ إلَّا علىٰ ما أُطْلِقَ لهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ عليه. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: طَلَبَ سِوَى الأَزواجِ والمملُوكَةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملُونَ في العُدوانِ المتَنَاهُونَ فيه.

وقُرئ: «لِأَمَانَتِهِمْ»[1] وَ﴿لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾، وَ«عَلَى صَلَاتِهِمْ»[2] و﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ عَلى الواحدِ والجمع، وسُمِّي الشيءُ المؤتَمنُ عليه والمعاهَدُ عليه أمانةً وعهداً، ومثلُهُ: ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾[3]، ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾[4]، وإنّما يؤدّىٰ المؤتَمَنُ عليه لا الأَمانةُ نفسُها، وكذلكَ الخيانة. ويَحتملُ العُمومُ في كلّ ما أُتمِنُوا عليه وعُهِدُوا من جهةِ الله ومن جهةِ المخلُوقينَ، والخُصوصُ فيمَا حَمَلُوه من الأماناتِ للنَاسِ وعُهُودِهِم.

وكَرَّرَ ذِكْرَ الصَلاةِ لأنَّ في الأولِ وصفَهم بالخُشُوع فيها، وفي الثاني وصفَهم بالمُحافظةِ عليها، وهو أن يُؤدُّوها في أوقاتِها ويُراعُوا أَركانَها، وكانَ أُولئكَ الجَامعُونَ لهذِهِ الصفَات هُم الأَحِقَّاء بأن يسمُّوا وُرَّاثاً دونَ من عَداهُم، ثم بيَّن

---

(١) قرأه ابن كثير. راجع التبيان: ج ٧ص ٣٥٠.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٤.

(٣) النساء: ٥٨.

(٤) الأنفال: ٢٧.

الوارثينَ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلفِرْدَوْسَ﴾ وأنَّثَ ﴿ٱلفِرْدَوْسَ﴾ على تأويلِ الجنَّة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَ ٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَـٰدِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَ ٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ (٢٠)﴾

السُّلالَةُ: خلاصةٌ تُسَلّ من بين الكدرِ، وعن الحَسَنِ: ماءٌ بين ظَهراني الطينِ[1]، والمعنىٰ: ﴿خَلَقْنَا﴾ جوهر ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أولاً ﴿مِّن طِينٍ﴾ ثُمَّ جَعَلْنا جَوهرَهُ بعدَ ذلكَ ﴿نُطْفَةً﴾، وَ﴿مِن﴾ الأول للابتداء و﴿مِن﴾ الثاني للبيان. والْقَرَارُ: المستقَرُّ، يريدُ: الرَّحِم، وَصَفَها بالمكانِ[2] التي هي صفةُ المستقرِّ فيها، كقولهم: طريقٌ سائرٌ، أو بمكانتها في نفسِها لأنَّها مكنت، بحيث هي وأحرزت.

وقُرِئَ: «عَظْماً فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ» على الإفرادِ[3] وعلى الجَمعِ في الموضعَين، وُضِعَ الواحدُ موضعَ الجمعِ لزَوالِ اللبسِ؛ لأنَّ الإنسان ذو عظام كثيرة، أي: ﴿خَلْقاً ءَاخَرَ﴾ مبايناً للخَلْقِ الأول، حيث جَعَله حيواناً بعد كونِهِ جَماداً، وأودعَ كلَّ جزءٍ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٧٨.

(٢) في نسخة: «بالمكانة».

(٣) قرأه أبو بكر وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٧.

من أجزائِه من عجائب فطرةٍ وغرائب حكمةٍ ما لا يُكْتَنَه بالوَصفِ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تَعالىٰ واْستَحقَّ التَعظيمَ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ أي: أحسنُ المقدِّرِينَ تَقديراً، فَترَكَ ذكْرَ المميّز لدَلالةِ ﴿ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ عليه.

والطرائقُ: السماوات؛ لأنّه طُورِقَ بعضُها فوقَ بعضٍ، وكلُّ شيءٍ فَوقه مثلُهُ فهو طَريقُه، أو: لأنَّها طُرُقُ الملائكةِ ومتقلَّباتُهم، أو: هي الأفلاك لأنّها طرائقُ الكَواكبِ وفيها مَسائرُها.

﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقديرٍ يَصلُون بهِ إلى المنفعة ويسلَمُون من المضرّة، أو: بمقدارِ ما عَلِمْنَا من مَصالِحِهم وحَاجَاتِهم بهِ ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَقولِهِ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(١)]، وكَما قَدِرْنَا علىٰ إنزالِهِ فنحنُ قَادرُونَ علىٰ رفعِهِ وإزالتِه، وقولُهُ: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ﴾ يَعني علىٰ وَجْهٍ من وجُوهِ الذهَابِ ﴿بِهِۦ﴾.

وخَصَّ هذه الأنواعَ الثلاثةَ من جُملةِ الأشجارِ لأنَّها أكرمُها وأجمعُها للمنافع، ووصف النَّخِيلَ وَالأَعنَابَ بأنَّ ثَمَرهما جامعٌ بين أمرَين: إنَّه فَاكِهةٌ يتَفَكَّهُ بهَا، وطَعامٌ يُؤكَلُ رَطباً ويَابسَاً، ولذلكَ أُتي بالواو، وَالزيتُونَ بأنّ دُهْنَه صَالِحٌ للاستصباحِ والاصطِباغ جَميعَاً.

﴿وَشَجَرَةً﴾ عَطفٌ علىٰ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾، وقُرئَ: ﴿سَيْنَآءَ﴾ بكَسْرِ السينِ[(٢)] وفَتحِها، فَمَن كَسَرَهَا فإنَّما يمنعُ الصَرفَ للتَعريفِ والعُجْمةِ أو للتأْنيثِ لأنَّها بُقعةٌ، لأنَّ «فِعلاء» بكَسْرِ الفَاءِ لا يَكُونُ أَلِفُهُ للتأْنيثِ كأَلفِ «صَحْراء» و«طور سيناء»، وطُورِ سينينَ لا يخلو: إمَّا أَن يكُونَ مُضَافاً إلىٰ بُقْعةٍ اسمُها: «سيناء» أو «سينُون»، وإمَّا أَن يكونَ اسمَاً للجَبَلِ مُرَكَّباً من مُضافٍ ومُضافٍ إليه كـ«امرئ الْقيس»

---

(١) الزمر: ٢١.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٧.

﴿بِالدُّهْنِ﴾ في مَوضِعِ الحَالِ، أي: تَنبتُ وفيهَا الدُهْنُ، وقُرِئَ: «تُنبتُ»[١]، وفيه وَجْهانِ: أَحدُهُما: أَن يكونَ «أنْبَتَ» بمعنىٰ «نَبَتَ» كما في بَيتِ زُهَيرٍ:

رَأَيتُ ذَوي الحَاجَاتِ حَولَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّىٰ إذَا أَنْبَتَ البَقْلُ[٢]

والآخرُ: أَن يكُونَ مفعُولُهُ محذُوفاً، والمَعنىٰ: يَنبُتُ زَيتُونُها، وفيهِ الزَيتُ.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾

القَصدُ بـ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ إلى الإبلِ لأَنَّها مَقرونَةٌ بِالْفُلكِ التي هي السُفُنُ، وهي سُفنُ البَرِّ، أي: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الركُوبِ والحَملِ وغَيرِ ذلكَ، وفيها مَنْفَعةٌ زائِدةٌ وهي الأكلُ الذي هو ٱنتفاع بذَواتها.

﴿غَيرُهُ﴾ بالرفع على المحل وبالجرّ على اللفظ[٣]، والجُملةُ ٱستِئْنافٌ يَجري مَجْرَى التَعليلِ للأَمرِ بالعبَادَةِ.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَطلُبُ الفَضْلَ عليكُم والرئَاسَةَ، ونَحوُهُ: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤]، ﴿بِهَـٰذَا﴾ أي: ما سَمِعْنا بهذا[٥] الكَلامِ، أو: بمِثْلِ هذا الذي يَدَّعِي أَنَّه رَسُولُ الله وهو ﴿بَشَرٌ﴾. والجِنَّةُ: الجنونُ أو الجِنّ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ورويس: راجع المصدر السابق: ص ٥٥٨.

(٢) أُنظر ديوان زهير: ص ٦٢، وفيه «قطيناً بها».

(٣) في نسخة: «الموضع».

(٤) يونس: ٧٨.

(٥) في نسخة: «بمثل هذا».

أي: به جِنٌّ يخيِّلونه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اصبرُوا عَلَيه إلىٰ زمانٍ، فإنْ أفاقَ من جُنونِهِ وإلَّا فَاقتلوه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّـٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾

أي: ﴿ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكِهم بسَببِ تَكذيبِهم إيّايَ، و﴿ٱنصُرْنِى﴾ بدلَ «ما كذَّبوني»، كما يُقالُ: هذا بذاك، أي: مكان ذاك، والمعنىٰ: أبْدِلْني من غمِّ تكذيبِهم النُصرةَ عَليهم، وٱنصُرني بإنجازِ ما وَعدْتَهم منَ العَذابِ، وهو ما كَذَّبُوه فيه حينَ قالَ لَهُم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحِفظِنا وكَلاءَتِنا، كانَ مَعهُ من الله حَفظَةٌ يكلَؤونَه بِعُيونِهم لئلّا يُتعرَّض لَه، ومنهُ قَولُهُم: عَليه من اللهِ عَينٌ كَالِئَةٌ ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأَمرِنا وتَعليمِنا إيّاك كَيفَ تَصنَعُ.

رُوِيَ: أنّه قيلَ لنُوحٍ عليه السلام: إذا رأيتَ الماءَ يفُورُ من التنّورِ فاركبْ أَنتَ وَمَن مَعكَ في السفينةِ، فلمَّا نَبعَ الماءُ من التنُّورِ أخْبرتْهُ امرأَتُهُ فركِبَ (٢).

وقيلَ: التنّور: وجهُ الأرضِ (٣)، وقَد مَرَّ ذكرُهُ وبيانُه (٤)، وَسَلَكَ فِيهِ: دَخلَه،

(١) الأعراف: ٥٩، الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٨٣.

(٣) قاله ابن عباس، علىٰ ما حكاه عنه في الكشّاف: ج ٣ ص ١٨٤.

(٤) تقدّم في ص ١٦٦ ضمن تفسير الآية: ٤٠ من هود.

وسلَكَ غيرَهُ وأَسْلَكَهُ بمعنىً ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي: ولا تُكلِّمْني ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بشأنِهم، نَهاهُ عن الدعاءِ لَهُم لكونِهم ظَالِمينَ، ولأنَّ الحكمةَ أَوجَبتْ إغراقَهم ليكونُوا عِبْرةً للمعتَبِرينَ.

وكما نَهىٰ عن ذلك أَمَرَ بالحَمدِ علىٰ هَلاكِهِم والنَجاةِ منهم، ثمَّ أَمَرَهُ أن يدعُوَه بدُعاءٍ هو أَنفَعُ له، وهو طَلَبُ أن ينزلَه في السَفينةِ أو في الأَرضِ عندَ خروجِهِ منها ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكاً﴾ يُبارَكُ له فيه، وأن يشفعَ الدعاءَ بالثناءِ عليه المُطابق لِمسأَلتِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وقُرِئَ: «مَنْزَلاً»[١] بمعنىٰ: إنزالاً، أو مَوضعَ إنْزالٍ.

﴿وَإِن كُنَّا﴾: ﴿إِن﴾ هي المخفَّفةُ من الثَقيلةِ، واللامُ هي الفَارقةُ بينها وبين النَافيةِ، والمَعنىٰ: وإنَّ الشَأنَ والقصّةَ كُنَّا مُبتَلينَ، أي: مُصيبينَ قوم نُوحٍ ببَلاءٍ عَظيمٍ، أو: مُختَبِرينَ بهذه الآياتِ عبادَنا لِيَعتَبِروا.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَىٰ ٱللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ (٤٠)﴾

---

(١) قرأه أبو بكر. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٢٨.

﴿قَرْناً ءَاخَرِينَ﴾ هُم عادٌ قومُ هود؛ لأنَّه المَبعوثُ بَعد نُوحٍ. ﴿أَنِ﴾ مُفسِّرةٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي: قُلنا لَهم علىٰ لسَانِ الرَسُول: ﴿اعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بلقاءِ مَا فِيهَا من الحِسَابِ والجَزاءِ ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ مِنْهُ، وحُذِفَ لدلالةِ ما قَبله عليه، أو حذف الضَمير، والمعنىٰ: مِن مشروبِكُم.

﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ في موضعِ الرفعِ بِأنَّه فاعلُ فعلٍ هو جَزاءُ الشَرطِ، كأنَّه قالَ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ وَقَعَ إخراجُكُم؟ والجملةُ الشَرطيةُ في موضعِ الرَفعِ بأنَّها خَبَرٌ عن ﴿أَنَّكُمْ﴾ أو كرَّر ﴿أَنَّكُمْ﴾ للتَأْكيدِ، فَيكُونُ ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ خَبراً عن الأول، وَحَسُنَ التكريرُ بفَصْلِ ما بينَ الأولِ والثاني بالظَرفِ، أو ارتفع قولُهُ: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بالظَرفِ علىٰ تقدير: أيَعِدُكُمْ أَنَّكم وَقْتُ مَوتِكُم وكَونُكُم ﴿تُرَاباً وَعِظَٰماً﴾ إخراجُكُم بِكَونِ الظَرف مع ما ارتفَعَ به خبراً لـ«أن».

وقُرِئَ ﴿هَيْهَاتَ﴾ بالفَتحِ والكَسر [١]، وعن الزجَّاجِ: معناهُ: أنّ البُعْدَ لِمَا تُوعَدون [٢]، فنزَّله مَنزلةَ المَصْدرِ، ويَجوزُ أن يكونَ اللامُ لبَيانِ المستَبعَدِ ما هو بعدَ التَصويتِ بكَلمةِ الاستبعادِ، كما أنّ اللَامَ في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [٣] لبَيانِ المهيت له.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾: ﴿هِيَ﴾ ضميرٌ لا يُعلَم ما يَعني به إلَّا بمَا يَتْلُوه من بَيانِه، وأصلُهُ: إنِ الحياةُ إلَّا حَياتُنا الدُنيا، ثمّ وُضِعَ ﴿هِيَ﴾ مَوضِعَ الحَياةِ لأنّ الخبرَ يَدلّ عَليها وَيُبَيِّنُها، ومثلُهُ: هيَ النفسُ ما حمّلتها تَتَحمّلُ، والمعنىٰ: لا حَياةَ إلَّا هذه الحَياةُ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يَموتُ بَعضٌ ويولدُ بَعضٌ، وينقرِضُ قرنٌ ويأتي قرنٌ.

﴿قَلِيلٍ﴾ صِفَةٌ للزَمان، كقَديمٍ وحَديثٍ في قولِكَ: ما رَأيته قَديماً ولا حَديثاً،

---

(١) وقراءة الكسر هي قراءة أبي جعفر المدني وشيبة وعيسىٰ. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٠٤.

(٢) معاني القرآن: ج ٣ ص ١٢.

(٣) يوسف: ٢٣.

وفي مَعناهُ: عن قَريبٍ، و«مَا» تَوكيدٌ بمعنىٰ: قلّة المدّةِ وقِصَرِها.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَآ بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾

﴿الصَّيْحَةُ﴾ صَيحةُ جبرائيلَ عليه السلام، صَاحَ بِهِم فدَمَّرهُم ﴿بِالْحَقِّ﴾ باستحقَاقِهم العَذاب أو: بالعَدْل مِنَ الله، وَالْغُثاء: حَميلُ السَيْلِ ممَّا ٱسْوَدَّ وبُلِيَ من العُودِ والورَقِ، وشبَّه دَمارَهُم بذلكَ ﴿فَبُعْداً﴾ أي: سُحْقاً، وهو من المَصادرِ الموضُوعة مَواضِع أَفعالِهَا، أي: بَعُدوا وَهَلَكُوا، يقالُ: بَعُدَ بُعْداً وَبِعْداً، قال:

إِخْوَتِي لا تَبْعُدوا أَبَداً ... وَبَلَىٰ واللهِ قَدْ بَعدُوا

و﴿لِلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بيانٌ لِمَن دُعِيَ عليه بالبُعد كما ذكرناه في ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. ﴿أَجَلَهَا﴾ الوقت الذي حلّ لهَلاكِها. ﴿تَتْرَا﴾ فَعْلَىٰ، والألف للتأنيث، أي: أرسلنَاها مُتواترةً يتبع بعضُهُم بعضاً، واحداً بعدَ واحدٍ، وقُرِئ: «تترىً» بالتَنوين[١]، والتاء بدل[٢] الواو، وأضاف «الرسل» إلىٰ نفسِهِ هنا وإلىٰ أُممِهِم

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون ج ٢ ص ٥٥٩.

(٢) في نسختين زيادة: «من».

في قولِهِ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ (١) لأنَّ الإِضافةَ تكونُ بالملابسةِ، والوصولُ يلابسُ المُرسِل والمُرسَل إليه جَميعاً ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأُمم والقُرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضاً﴾ في الإِهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أخباراً يَسمرُ بها، والأَحَادِيثُ: اسمُ جمعٍ للحَديث، ويكونُ جمعاً أيضاً للأُحدوثة التي هي مثلُ الأُعجُوبةِ والأُضحوكَةِ، وهي ما يَتَحدّثُ به الناسُ تَعجُّباً، وهو المرادُ هنا.

والمرادُ بـ«السُّلْطَانِ الْمُبِينِ»: العَصَا؛ لأنَّها كانت أُم آيات موسىٰ، وقد تعلَّقت بها معجزاتٌ شتَّىٰ، كانفلاق (٢) البَحرِ وانفجارِ العيُونِ منَ الحَجَر يَضربُهُما بها، فجُعلت كأنَّها لَيست بَعضَها، فَعطفتْ عليها كقوله: جبرائيل وميكائيل، ويجوزُ أن يُرادَ به الآياتُ أَنفُسها، أي: هي آياتٌ وحُجَّةٌ ظَاهرةٌ بيِّنَةٌ.

﴿قَوْماً عَالِينَ﴾ أي: متكبِّرين، من قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٣) أي: متطاولينَ على النَّاس بِبَغْيِهِم وظُلْمِهم.

﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ لإِنسانَين خَلْقهما مثلُ خلْقنا، والبشرُ يكونُ واحِداً وجَمعاً، و«مثلُ» و«غيرُ» يُوصف بهما الاثنانُ والجَمعُ والمذكّرُ والمؤنّثُ، كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ﴾ (٤) ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (٥) ويقالُ أيضاً: هما مِثْلاه، وهم أمثالُهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُوْنِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (٦)، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيلَ ﴿عَٰبِدُونَ﴾ أي: مُطيعُونَ لَنا طاعةَ العَبدِ لمولاه، أي: أَعطَينا قَومَ مُوسَى التَوراةَ لكي يَهتدوا إلىٰ طريقِ الحقّ، ويعملُوا بشَرائعها.

﴿ءَايَةً﴾ أي: حُجّةً علىٰ قُدرَتِنا على الاختراعِ، فهو مثلُ قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا

(١) الأعراف: ١٠١، يونس: ١٣، إبراهيم: ٩، الروم: ٩، فاطر: ٢٥، غافر: ٨٣.
(٢) في نسخة: «كانقلاب».
(٣) القصص: ٤.
(٤) النساء: ١٤٠.
(٥) الطلاق: ١٢.
(٦) الأعراف: ١٩٤.

وَٱبْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (١) وذلكَ أنّ الآيَةَ في كليهِمَا واحدةٌ، وهيَ: أنّ عيسىٰ عليه السلام خُلِقَ مِن غَيرِ ذَكَرٍ، ومَريمُ حَملَتْ من غَيرِ فَحْلٍ ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: وجَعَلْنا مكانَهما ومأواهُمَا أَرضاً مُرتفِعَةً، وهي أرضُ بيتِ المَقْدِسِ، فإنّها كبدُ الأرضِ، وأقربُ الأرضِ إلى السماءِ، وقيلَ: فَلسطينُ والرَملةُ (٢)، وقيلَ: هي حيرةُ الكوفةِ وسوادُها (٣)، وَالْقَرَارُ: المُستَقَرُّ من أرضٍ مستَويةٍ منبسطةٍ. وعن الباقرِ عليه السلام والصادقِ عليه السلام: «الْقَرَارُ: مسجدُ الكوفة» (٤). وَالْمَعِينُ: الفُراتُ، وأصلُهُ الماءُ الظاهرُ الجَاري علىٰ وَجهِ الأرضِ، واختُلِفَ في زيادَةِ ميمِهِ، فقيلَ: إنَّه مفعُولٌ مِن عَانَه: إذا أدركه بِعينه (٥)، وقيلَ: إنَّه فَعيلٌ من الماعُون وهو المنفعة (٦)، أي: نفَّاعٌ لظهُورهِ وجَرْيِهِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾

قيلَ: إنَّه خِطابٌ لنبيِّنا صلى الله عليه وآله (٧)، وفيه إعلامٌ بأنَّ كلَّ رسُولٍ في زَمانِهِ مأمورٌ

(١) الأنبياء: ٩١.
(٢) وهو قول أبي هريرة والحسن. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٢١٨.
(٣) قاله القمي علي بن ابراهيم في تفسيره: ج ٢ ص ٩١.
(٤) كامل الزيارات لابن قولويه: ص ٤٨، معاني الأخبار للصدوق: ص ٣٧٣.
(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٥.
(٦) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٩٠.
(٧) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣١٠، وتفسير الآلوسي: ج ١٨ ص ٤٠.

بذلك وموصىً به، والمرادُ بـ﴿الطَّيِّبَٰتِ﴾: ما طَابَ وَحَلَّ، وقيلَ: هنا كلُّ ما يُستطابُ ويُستلذُّ من الأكْلِ والفواكِه[1]، ويَشهدُ لذلكَ مجيئُه في إثرِ قولِهِ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، ويجوزُ أن يكونَ وَقْعُ هذا الإعلامِ عندَ إيواءِ عيسىٰ عليه السلام ومَريمَ إلى الرَبْوةِ، فذُكِرَ علىٰ سَبيلِ الحكَايةِ، أي: آويناهُما وقُلْنَا لَهما هذا، فعلَّمَهما أنَّ الرُسلَ كلَّهم خُوطِبُوا به، فكُلَا مِمَّا رزَقْناكما واْعمِلَا صَالحاً اقتداءً بالرُسُلِ.

وقُرِئَ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ﴾ بالكسر على الاستئنافِ، «وأَنَّ» بالفَتحِ[2] بمعنىٰ: ولأنَّ، «وَأَنْ» المخفَّفةُ من الثَقيلةِ[3]، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ مرفُوعةٌ مَعَها.

وقرئَ: ﴿زُبُرًا﴾ جَمْعُ زَبُور، أي: كُتُباً مختلفةً، يعني: جَعلُوا دينَهم أديـاناً، وقُرِئَ: «زُبَراً»[4] أي: قِطَعاً، استُعِيرَتْ من زُبرِ الفضّةِ والحَديدِ، و﴿كُلُّ﴾ فرقةٍ من فِرَقِ هؤلاء المختَلِفينَ الذين تَقَطَّعُوا دينَهم فَرِحٌ ببَاطِلِهِ، معتقِداً أنّه علىٰ الحقِّ، رَاضٍ بمَا عنده. ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: فيما هُم مغمُورونَ فيه من جَهْلِهم وعَمايَتِهِمْ، وأصلُ الغَمْرةِ: الماءُ الذي يغمرُ القَامَةَ، أو: شبَّههم الله باللاعبينَ في الغَمْرةِ لِمَا هُم عليه منَ البَاطلِ، قالَ ذُو الرمّةِ:

كَأَنَّني ضَاربٌ في غَمرةٍ لَعِبُ[5]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ أن يُقْتَلُوا أو يموتُوا، أي: يحسبونَ هذه الأمداد مُسَارَعةً

---

(١) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٦.

(٣) وهي قراءة ابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٤) قرأه ابن عامر والأعمش وأبو عمرو. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٤١٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٠٨.

(٥) وصدره: لَيالِيَ اللَهْوِ يَطْبِيني فَأَتْبعُهُ، ومعناه واضح. انظر ديوان ذي الرمّة: ص ٢٧.

﴿لَهُمْ فِى الخَيْرَٰتِ﴾ ومُعاجَلةً بالثوابِ قَبلَ وقتِهِ، وليسَ ذلك إلّا آستدراجاً لـهم إلى الهَلاكِ، و﴿بَلْ﴾ استدراكٌ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ أي: بَلْ هُم أشباه البَهائِمِ لا فِطْنة لَهم حتّىٰ يتأمَّلُوا ويتفكَّرُوا هو استدراجٌ أم مُسَارعةٌ في الخيرات، والراجِـعُ مـن خَبَرِ «أنَّ» إلىٰ اسمه مَحْذوفٌ، والتَقديرُ: نُسارِعُ به.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَـدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَآ عَـٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُـنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَـٰمِراً تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوْا﴾ أي: يعطُونَ ما أُعطُوا من الزكاةِ والصَدَقةِ، وقيلَ: أعمالُ البرِّ كلِّها[١] ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الصادقُ عليه السلام: «أي: خَائِفةٌ أن لا يُقبلَ منهم»[٢].

وعنه عليه السلام: «يُؤْتي ما آتىٰ وهو خَائِفٌ راجٍ»[٣].

وعن الحَسَنِ: المؤمنُ جَمعَ إحساناً وشفقةً، والمنافقُ جَمعَ إساءةً وأمْـناً[٤]، لأنَّهم أو بـ﴿ـأنَّهم إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ وحُـذِفَ الجَـارُ، أي: لإيـقانِهم بأنّـهم

---

(١) قاله ابن عباس وابن جبير. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤١٠.

(٢) روضة الكافي: ص ١٩٢ ح ٢٩٤.

(٣) كتاب الزهد للحسين بن سعيد الأهوازي: ص ٢٤ ح ٥٤.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٧٧.

راجِعُونَ إلى الله وَجِلَتْ قلوبُهم، إذ لم يأمَنُوا التَفريطَ.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ﴾ أي: هُم الَّذين يُبادرونَ إلى الطَاعَاتِ رَغبةً منهُم فيها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: فاعِلُونَ السَبقَ لأَجلِها، أو: سَابقُونَ النـاسَ لأجلها، أي: وهذا الَّذي وُصِفَ به الصَالحون ليسَ بخارجٍ من حدّ الوُسْعِ والطاقةِ، وكلّ ما عَملَه العبادُ من التكاليفِ مُثْبتٌ عندَنا في ﴿كِتَٰبٍ﴾ نَاطِقٍ بـالحقّ، وهـو صَحيفةُ الأعمالِ يَقْرؤون فيه[1] يومَ القيامةِ ماهُو صدُقٌ وعَـدْلٌ، لا زِيـادةَ فـيهِ ولانُقصَان، يُوَفَّوْنَ أُجُورِ أعمالِهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصُ من ثَوابِـهِم ولا يزداد في عقابِهم، ولا يُؤاخَذون بذَنْبِ غيرِهِم.

﴿بل﴾ قُلُوبُ الكفّارِ ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: غفلةٍ غَامرةٍ لَها ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ أي: من هذا الكتابِ المُشتملِ عَلى الوَعدِ والوَعيدِ وهو القرآن، أو: من هذا الَّـذي عـليه هؤلاء الموصُوفون من المؤمنينَ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ مُتجَاوزةٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: لِـمَا وُصِفَ المؤمنونَ به ﴿هُمْ لَهَا﴾ معتادونَ، وبها مشتَغِلُونَ.

﴿حَتَّىٰ﴾ يأخذهُم اللهُ ﴿بالعَذاب﴾: و«حتّىٰ» هذه هـي التـي يُـبتدأ بـعدها الكلامُ، والعَذَابُ: قَتلُهُم يوم بدر، أو: الجُوعُ حين دَعَا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «اللّهُمّ اشدُدْ وطأَتَكَ علىٰ مُضَرَ، واجْعَلْهَا عليهم سـنين كسـنيِّ يـوسف عليه السلام[2]» فابتَلاهُم الله بالقَحْطِ حتّىٰ أكلُوا الجِيَفَ والكِلابَ والعظامَ المحترقَةَ والقدَّ والأولاد «تَجْأَرُونَ» أي: تَصيحونَ وتَـصرخُـون بـاستغاثةٍ، أي: يـقالُ لهـم حـينئذٍ: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ﴾ فإنَّ الجُؤَارَ غيرُ نَافعٍ لَكُم ﴿إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي: لا تُـغاثُون[3] ولا تُمنعون مِنَّا، أو: من جهَتِنَا لا يَلحقُكُم نَصْرٌ ومَعونَةٌ.

---

(١) في نسخة: «منه».
(٢) انظر تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ١٣٥.
(٣) في نسخة: «لا تعاونون».

والضَميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ للبَيتِ الحَرامِ أو للحَرَمِ، وَالباءُ يـتعلَّقُ بـ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ كانُوا يستَكبرون[١] على الناسِ ويفخَرون بأنّهم وُلاتُهُ، أو يكُونُ الضميرُ لا يأتي لأنَّها في مَعنىٰ «كتابي»، ومعنىٰ أستكبارِهِم بالقُرآن: تكذيبُهُم به استكباراً، ضمَّن ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ معنىٰ «مكذِّبين» فعُدِّي تعديته، أو: استكبروا بسببِهِ فَلَمْ يقبلُوه، وعلىٰ هذا فالوقْفُ يكونُ علىٰ ﴿به﴾، ويجوزُ أن يتعلَّقَ البـاءُ بـ﴿سامراً﴾ أي: يستمرُّونَ بالطَعنِ في القرآنِ وتَسميتُه سِحْراً و[٢] شِعْراً، وبسَبِّ النبيِّ ﷺ، والسَامرُ: القومُ الذين[٣] يَسْمَرُونَ ليلاً، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أيضاً، أي: تهذُّونَ بذلكَ، وعلىٰ هذين الْوَجْهَين يجوزُ الوَقْفُ علىٰ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، وقُرئ: «تُهْجِرُونَ» بضمِّ التاءِ[٤]، من أهْجَرَ الرجُلُ في مَنْطِقِهِ أي: أفْحَشَ، والهُجْرُ بالضمّ: الفُحْشُ، و﴿تَهْجُرُون﴾ بالفَتْحِ يجوزُ أن يكونَ معناهُ: تَهجُرونَ آياتي وكتَابي، لا تَنقادونَ له وتكذِّبونَ به، من الهَجْرِ بالفَتْح.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُم إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ

(١) في نسخة زيادة: «به».
(٢) في نسختين: «أو» بدل «و».
(٣) ليس في نسخة كلمة «الذين».
(٤) قرأه نافع. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٠.

لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِالعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَـذَابٍ شَـدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾

﴿الْقَوْل﴾ القُرآنُ، يقولُ: ﴿أَفَلَم﴾ يتدبَّروا القُرآنَ ليَعرفُوا أنّه الحقُّ الدالُّ علىٰ صِدْقِ نبيِّنا، بل أجاءَهم ﴿مَا لَمْ يَأْتِ ءَاباءَهُمُ﴾ فلذلكَ استَبدعُوه[1] وأنكَروه، كما قَالَ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾[2]، أو: ليخافوا عندَ تدبُّرِ آياتِهِ مثل ما نَزَلَ بمَن قَبلَهُم من المكذِّبين ﴿أَمْ جَآءَهُمْ﴾ من الأمن[3] ﴿مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ﴾ حيث خافُوا الله فآمنوا به وأطاعُوه، وآباؤهم: إسماعيلُ وأعقابُه.

وعن النبيِّ ﷺ: «لا تَسبُّوا مُضَرَ ولا رَبيعةَ فإنَّهما كانَا مُسلِمَيْنِ، ولا تسـبُّوا حارثَ بن كَعْبٍ ولا أسد بن خزيمَة ولا تَميم بن مرَّة فإنَّهم كانُوا على الإِسلام، وما شَكَكتُم منه من شَيءٍ فَلا تشكّوا في أنَّ تُبَّعاً كانَ مُسلماً»[4].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ﴾ محمداً وشَرَفَه في نَسَبِهِ وصِدْقَ لسانِهِ وأمانَتِهِ، وأنّه كما قالَ أبو طالب في خطبته لنكاح خديجة: لا يُوزنُ برجلٍ إلّا رَجَح.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنونٌ وَهُم يَعلَمُونَ أنَّه بَريءٌ منها، وأنّه أَرجـحُ الناسِ عَقْلاً، وأجلُّهُم قَدراً، وأتقنُهُم[5] رأياً، ولكنّه جاءَهُم بِمَا خَالفَ أهواءَهُـم، ولَمْ يوافقْ ما أَلِفوهُ ونَشَأوا عليه، ولم يمكنْهم دفعُهُ[6]؛ لأنَّه الحقُّ المُبينُ، فقولُوا على البَهتِ من النسْبةِ إلى الجنونِ والسحرِ والشِعْر.

ثم عظَّمَ سبحانُه شأنَ الحقّ بأنّ السَماواتِ والأرضَ ومَن فيهنّ لم يقُمْ إلّا بِهِ

---

(١) في نسخة: «استبعدوه».
(٢) يسٓ: ٦.
(٣) في نسختين: «الأمر».
(٤) فتح الباري لابن حجر: ج ٧ ص ١٤٦.
(٥) في نسخة: «وأوثقهم».
(٦) في نسختين: «رفعه».

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ... أَهْوَآءَهُمْ﴾ لانقلبَ بَاطلاً، وَلَذَهَبَ ما يقومُ بـه العـالَمُ، ويـجوزُ أن يكونَ المرادُ بالحقّ الإِسلامُ، أي: وَلَو اتّبعَ أهواءَهُم وٱنـقلَبَ شِـرْكاً لأَهـلَكَ اللهُ العالَمَ، ولَجاءَ بالقيامةِ ولم يؤخِّرْهُ، وعن قَتادةَ: الحقُّ هو الله تعالى [١]، أي: لَو اتَّبعَ اللهُ أهواءَهُم وأَمَرَ بالشِرْكِ لَما كانَ إلهاً ﴿أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بالكتابِ الَّذي هو ذِكْرُهُم، أي: شَرَفُهُم وَصيتُهُم وفخرُهُمْ، أو: بالذِكْرِ الذي كانُوا يَتَمنّونه ويـقولُون: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [٢].

وأَصْلُ الخَرجِ والخَرَاجِ وَاحِدٌ، وهو ما تُخرجُهُ إلى الإِمامِ و [٣] والعامل مِن أُجرةِ أرضِك، والخَرجُ أخصّ من الخَراجِ، يعني: لم ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ علىٰ هدايتِكَ لَهم قَليلاً من عَطاءِ الخَلْقِ، فالكَثير [٤] من عَطاءِ الخَالقِ خَيرٌ.

أَلْزَمَهُم سبحانُه الحُجّةَ في هذه الآياتِ بأنّ الذي أَرسلَهُ إليهِم رَجلٌ مـعروفٌ أمرُهُ، مخبورٌ علانيتُه وسرُّه، صالحٌ لأَنْ يُصطَفَىٰ للرسالةِ، جَديرٌ به؛ لأنَّه لم يُعهَدْ منه إلَّا الصِدقُ ووفورُ العقْلِ والشَهامةُ والأَمانةُ حتّىٰ يَدَّعي النبوّةَ بباطلٍ، ولم يجعلْ ذلكَ ذريعةً إلى ٱستعطافِ أَموالِهم، ولَم يَدْعُهُم إلَّا إلى الصرَاطِ السويِّ الذي هـو دينُ الإِسلامِ، هذا مَع إبرازِ المكنونِ من أدوائهم، وهو إخلالُهُم بالتدبّرِ، وشَـغَفُهم بتَقليدِ آباء الضَلالِ من غَيرِ بُرهانٍ، وتعلُّلُهم بِأَنَّه مَجنونٌ بعدَ ثَباتِ تَصديقِهِ من الله بالمعجزاتِ والدَلالاتِ، وإعراضِهم عَمَّا فيه حظُّهُم من الذِكْرِ والشَرَفِ ﴿لَنَـٰكِبُونَ﴾ أي: عَادِلُونَ عن هذا الصِراطِ المذكُورِ.

ولمّا أسلَمَ ثُمامةُ بن أثال الحَنَفي ولَحِقَ باليمَامَةِ وَمنَعَ المِيرَةَ من أهلِ مكّـة،

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٩٦.

(٢) الصافات: ١٦٨ و١٦٩.

(٣) في نسخة: «أو» بدل «و».

(٤) في نسخة: «فالكبير».

وأخَذَهُم الله بالسنينِ حتّىٰ أَكلُوا العِلْهِزَ ـ وهو دمُ القِرادِ مع الصوف ـ جاءَ أبو سفيان بن حَربٍ إلىٰ رسول الله ﷺ فقالَ له: أَنشدك بالله والرَّحم، أَلسْتَ تزعَمُ أنّك بُعِثْتَ رَحمةً للعالمينَ؟ فقالَ: «بلىٰ»، قالَ: قَتَلْتَ الآباءَ بالسيفِ، والأبناءَ بالجُوعِ. والمَعنىٰ: لو كَشَفَ اللهُ تَعالىٰ عَنهُم هذا الضُرَّ وهو الهزالَ والقَحْطَ الذي أَصابَهُم برحمتِهِ عَليهم وَوَجَدُوا الخَصبَ لَرجعُوا إلىٰ ما كانُوا عليه من الاستكبار، ولَتمادُوا في غِوايتِهِم يَتَردّدونَ. وٱستشهدَ علىٰ ذلكَ بأنّا أَخذْناهُم بالسيُوفِ، وبمَا جَرَىٰ عَلَيهِم يومَ بَدْرٍ من قَتْلِ صَناديدهم وأَسْرِهِم، فما وُجِدَتْ منهم بعدَ ذلكَ ٱستكانةٌ ولا تَضَرُّعٌ، حتّىٰ فَتَحْنَا عليهم بابَ الجُوعِ الذي هو آلَمُ(١) العَذابِ وأشدُّ من الأَسْر والقَتْل، فَأُبْلِسُوا السَاعةَ وخَضَعتْ رِقَابُهُم، وجاءَ أعتاهُم في العِنادِ والاستكبارِ يَستعطفُكَ، أو: مَحَنَّاهُمْ بكلِّ محنةٍ من الجُوعِ والقَتلِ فما رُئِيَ مِنهُمْ لِينُ قيادٍ وَهُم كذلكَ حتّىٰ إذا عُذِّبوا بنَارِ جهنّمَ فحينئذٍ «يُبْلِسُونَ»، كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٢)، والإبلاسُ: اليأسُ من كلِّ خيرٍ، وقيلَ: هو السُكوتُ مع التَحيُّرِ(٣)، وَٱسْتَكَانَ:(٤) استفعلَ من الكَونِ، أي: انتقلَ من كَونٍ إلىٰ كونٍ، كاستحالَ: إذا ٱنتقلَ من حَالٍ إلىٰ حَالٍ، أو: هو ٱفتعلَ من السكُونِ أُشبِعَتْ فَتحةُ عينِهِ، كما قيل: ... بمنتزاح(٥).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا

(١) في نسخة: «أطمّ». (٢) الروم: ١٢.

(٣) في نسختين: «التحسير». وهو قول العجّاج على ما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٠٢.

(٤) في نسخة زيادة: «هو».

(٥) من قول ابراهيم بن هرمة يرثي ابنه:

فأنتَ من الفَوائل حين تُرمىٰ وعَن ذمّ الرجالِ بمنتَزَاحِ

أُنظر الخصائص لابن جنّي: ج ٢ ص ٣١٦ وج ٣ ص ١٢١.

تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون (٨٨) سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (٩٠)﴾

إنّما خَصَّ ﴿ٱلسَّمْعَ والأَبْصَـٰرَ والأَفْئِدَةَ﴾ لأنّه يَتعلّقُ بها من المَنافعِ الدينيّةِ والدنيويّةِ ما لا يَتعلّق بغَيرِها، وإحدىٰ مَنافعها أن يَستعملُوها في آياتِ الله تعالىٰ وأفعالِه، فَيستدلُّوا بذلكَ علىٰ تَوحيدِهِ، ويشكُروا نِعَمَهُ، فإنَّ مقَدّمةَ الشُكْرِ للنعمةِ الإقرارُ بالمُنعِمِ بها[1]، وأَن لا يُجْعَلَ مَعَه شَريكٌ، أي: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ شُكْراً قَليلاً، و«ما» مزيدةٌ للتأكيدِ.

ومعنىٰ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: خَلَقَكُم وبَثّكم بالتَناسلِ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تُجمَعُون بعد تَفرّقكُم.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المختَصُّ به، وهو يَتولّاه ولا يقدر علىٰ تَصريفِهما غَيرُهُ، وقُرئ: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» بالياء[2].

﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي: قالَ أهلُ مكّة كَمَا ﴿قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ المنكِرون للحشر.

---

(١) في نسخة: «لهم».

(٢) قرأه أبو عمرو. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٠.

وَالأَسَاطِيرُ: جمعُ أُسطُورة، وهي ما كَتَبَه الأوّلُونَ وسطَّروه ممّا لا حقيقة لَه.

ثمّ ٱحتجَّ عليهم بمَا فيه تَجهيلٌ لَهم، والمرادُ: أجيبوني عمّا استعملتُكُم فيه (١): إن كانَ عندَكُم فيه علمٌ ﴿أفَلَا﴾ تَتَذَكَّرُونَ فَتعلَموا أنَّ مَن فَطَرَ الأرضَ وَمَنْ فيها من العقلاء وغيرهم كانَ قادِراً على الإعادةِ إذ ليسَ ذلكَ بأعظم منه، وكانَ حقيقاً بأن لا يُشْرَكَ بِهِ في الإلهيَّة بعضُ مخلوقاتِهِ.

قُرئَ الأوّلُ ﴿لله﴾ باللّام، وفي الآيتينِ بعده باللّام وغير اللّام (٢). لأنَّ قولَكَ: «من ربُّه» و«لمن هو» في معنىً واحد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أَفَلا تخافونَه؟ فلا تَشركُوا بِهِ.

يقال: أجارَ الرجلُ فلاناً علىٰ فلانٍ أي: أغاثَه منه ومنعه، أي: مَن يجيرُ مَن يشاءُ علىٰ مَن يشاء ولا يُجيرُ عليه أَحدٌ من أرادَه بسوءٍ. ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيفَ تُخْدَعُون عن تَوحيدِهِ ويُموَّه عليكم؟! كما قالَ امرؤُ القَيسِ:

أرانَا مَوضَعين لِحتْمِ غَيْبٍ ونَسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَرَابِ (٣)

أي: نُخْدَعُ، والخَادِعُ هو الشَيطانُ، أو الهوىٰ. ﴿بَلْ﴾ جِئْنَاهُم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بأنّ الشِّركَ باطلٌ، ونسبةَ الولدِ إليه محالٌ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ بادِّعائِهم الشِّرك ونسبَتِهم إليه الولَدَ.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ولَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ(٩٣)

(١) في نسختين: «استعلمتكم منه».

(٢) وممّن قرأ الأُخريتين بغير اللام: أبو عمرو ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٠.

(٣) انظر ديوان امرئ القيس: ص ٧٢ وفيه «لأمر» بدل «لحتم».

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾

﴿إذاً﴾ تكونُ جَزاءً وجَواباً لكلامٍ مُقدَّمٍ، وها هُنا شَرطٌ محذُوفٌ، والتـقديرُ: ولَو ﴿كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لانفَرَدَ كلُّ واحدٍ من الآلهةِ بما خَلَقَه من الخَلْقِ واستبدَّ به، ولرأيتُم مَلِكَ كلِّ واحدٍ من الآلهةِ متميّزاً من مَلِكِ الآخَرين، ولَغَلبَ بعضُهم بَعْضاً، كما أنّ ملوكَ الدنيا يتغالَبُون ويَطلبُ بعضُهُم قَهرَ بعضٍ، وممالِكُهُم مُتَمايزَةٌ، فحينَ لَم تَروا أثَراً لِتَمايُزِ المَمَالكِ والتَغالُبِ فاعلموا أنّه إلـٰهٌ واحدٌ منزَّهٌ ﴿عمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأولادِ والأنْدادِ.

قرئ: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالجرّ صفةً لـ«الله»، وبالرفع [١] خبرَ مبتدأ محذوف.

والنون و«ما» مؤكّدتان، «لأنْ» أي: إن كانَ لابدّ أن ﴿تُرِيَنِّى﴾ ما وُعِدُوه من العَذَابِ في الدنيا أو في الآخرةِ فَلاَ تجعَلْني فيهم، وأَخْرِجْني من بينهِم إذَا أَردْتَ إحلالَ العذَابِ بِهِم. وعن الحَسَنِ: أَخْبَرَه الله تعالىٰ أنّ له في أُمّته نقمةً، ولم يُخبرْه أَفي حياتِهِ هي أَم بعدَ وفاتِهِ، فأمرَه أن يدعُو بهذَا الدُعاءِ [٢].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه، وجابر بن عبدالله: أنّه ﷺ قال في حَجَّة الوداعِ وهو بِمِنَىٰ: «لا تَرْجِعُوا بعدي كُفَّاراً يَضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ، وأيْمُ الله

---

(١) قرأه نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات: ص ١٣٧.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠١.

لَئِن فَعلتُموها لَتَعرِفُنِّي في كتيبةٍ يِضاربونَكُم»، فغُمز من خَلْفِهِ مَنْكِبُهُ الأيسر، فالتفتَ فقال: «أو عَليٌّ»، فنزلت الآيات(١).

وقولهُ: ﴿رَبِّ﴾ مرّتين قبلَ الشَرطِ وقبلَ الجَزاءِ، حَثٌّ علىٰ فَضلِ تضرّعٍ وجوارٍ ﴿وَإِنَّا ... لَقَـٰدِرُونَ﴾ علىٰ إنْجاز ما نَعِدُهُم، ولكن نُنْظِرُهُم ونُمْهِلُهُم.

﴿ٱدْفَعْ﴾ السيّئةَ بالحُسنىٰ، وهو الصفحُ عَنها ومقابلتُها بالإِحْسَانِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا﴾ يذكرونَه مِن أَحوالِكَ بخلافِ صفَتِها أو(٢) بوَصفِهِم وَسُوءِ ذكرِهِم، وأقدَرُ علىٰ جَزَائِهِم.

﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أَعتصِمُ بكَ ﴿مِنْ﴾ نَزَغَاتِ ﴿ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ والهَمزُ: النخسُ، ومنه: مهمازُ الرائضِ، والشَياطينُ يحثّونَ الناسَ على المعاصيَ كَما تهمزُ الراضَةُ الدَوابَ يَحثّونَها على المَشْي، ونحوُهُ: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(٣)، فأمَرَ عَزَّ اسمُهُ بالتعوّذِ من نخساتِهِم بلَفْظِ المتضرِّعِ إلىٰ ربِّه المكرِّر لندائِهِ، وبالتعوّذِ من أن يَحْضُرُوه أَصْلاً ويشْهَدوه، وعن ابن عبَّاسٍ: عندَ تلاوةِ القُرآنِ(٤)، وعن عكرمة: عند النزع(٥)؛ والأظهرُ أَنَّه في الأَحْوالِ كلِّها حتَّىٰ يَتَعلَّق بـ﴿يَصِفُونَ﴾ أي: لا يَزالونَ علىٰ سُوءِ الذكْرِ إلىٰ هذا الوقت.

﴿ٱرْجِعُونِ﴾ خطابٌ للهِ تعالىٰ بلفظِ الجَمع للتَعظيمِ، إذا أيقَنَ بالمَوتِ تَحسَّرَ علىٰ ما فرَّط فيهِ فَسَألَ ربَّه الرَجْعةَ وقالَ: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـٰلِحاً﴾ في الذي ﴿تَرَكْتُـ﴾ ـهُ من المَالِ، وفيما ضَيَّعته منَ الطَاعَاتِ، وقيلَ: هو في الزكاة(٦).

---

(١) شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج ١ ص ٤٠٤.

(٢) في نسخة: «أي» بدل «أو». (٣) مريم: ٨٣.

(٤) حكاه عنه أبو السعود في تفسيره: ج ٦ ص ١٥٠.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠٢.

(٦) وهو قول الصادق عليه السلام. رواه عنه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٥٠٣ ح ٣، والصدوق في ثواب الأعمال: ص ٢٨٠.

وسُئل الرضاعليه السلام: أيَعرفُ القَديمُ سبحانَه الشَيءَ الذي لَم يكنْ أنّه لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ؟ فقال: «أمَا قرأتَ قولَه عزَّ اسمُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي موضعٍ آخَرَ: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فَقَد عَرفَ الشيءَ الذي لَم يكنْ ولا يكون أن لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ، وقولُه سبحانُه [حين] حكىٰ قولَ الأشقياءِ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فَقَد عَلِمَ الشيءَ الذي لم يكنْ أن لو كانَ كيفَ كانَ يكون»[1].

و﴿كَلَّآ﴾ معناهُ: رَدْعٌ عن طَلَبِ الرَجْعةِ، وإنكارٌ واستبعادٌ ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ بلسانِهِ لا حقيقة لها، أو: هو قائِلُها وحدَه لا تُسمعُ منه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ والضَميرُ للجَماعةِ، أي: أمَامهم حَائلٌ وحَاجزٌ بينَهم وبينَ الرَجْعةِ إلىٰ يومِ البَعثِ منَ القُبور.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾

---

(١) رواه العياشي في تفسيره على ما حكاه في المجمع: ج ٧ ص ١١٧.

﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يتَواصَلُونَ بالأنْسابِ ولا يتَعاطفُون بها مَع معرفةِ بعضِهِم بعضاً، أو: يتفرّقُون مُعاقَبين ومُثابين.

وعن النبيِّ ﷺ: «كلُّ حَسَبٍ ونَسَبٍ مُنقَطعٌ يومَ القيامةِ إلَّا حَسَبي ونَسَبِي»(١).

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يَسألُ بعضُهُم بَعضاً عن حالِه وَخَبرِه؛ لشُغْلِ كلِّ واحدٍ منهُم بنفسِهِ، وأمّا قولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾(٢)، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(٣) فَقَد سُئل عنه ابنُ عبَّاس فقال: هذه تَاراتُ يوم القيامةِ(٤)، يعني: أنّ للقيامةِ أَحْوالاً مختلفةً يتَساءَلُون ويتَعارفُون في بَعضِها، ويَشغَلُهم عِظَمُ الْهَوْلِ عن المُساءَلةِ في بعَضِها.

وَالْمَوَازِينُ: جمعُ موزُون، وهي الموزُونات من الأعمالِ التي لَها قَدْرٌ ووزنٌ عند اللهِ، وقولُهُ: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ بدلٌ من ﴿خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ﴾، أو يكونُ خبَراً لـ﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ بعد خبَرٍ، أو خبَرَ مبتَدأ محذُوف. ﴿تَلْفَحُ﴾ أي: يُصيبُ وجُوهَهُم لَفحُ النار، وعن الزجّاج: اللَّفحُ والنَّفحُ واحدٌ، إلَّا أنّ اللفحَ أشدّ تأثيراً(٥). و«الْكُلُوحُ» أن تَتَقلَّصَ الشفَتان عن الأسنانِ.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكَتْنَا، من قولِهِم: غَلبني فلانٌ علىٰ كذا إذا أخذه منه، وقُرئَ: ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وَ«شَقَاوَتُنَا»(٦) ومعناهُما واحدٌ، وهو سوءُ العَاقبةِ الذي استَحقّوه لسوءِ أعمالِهم. ﴿اخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: ذُلُّوا فيها وانْزجِرُوا كَما تَنزجِرُ الكلابُ إذا زُجِرَت، يقال: خَسِئَ الكلبُ فَخَسَأَ، لازمٌ ومتعدٍّ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِـ﴾ ـي

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته: ج ٨ ص ٣٤٠.
(٢) يونس: ٤٥. (٣) الصافات: ٢٧.
(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٣١٨.
(٥) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٣.
(٦) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦١.

في رَفْعِ العَذابِ فإنَّه لا يُرفَع.

﴿سِخْرِيّاً﴾ قُرئ بضمّ السين [١] وكسرِها، وهو مصدرُ سَخِرَ كالسَخَرِ، إلّا أنّ في الياءِ زيادةَ قوةٍ في الفعلِ، وقيلَ: إنَّ المكسورَ من الهُزْءِ، والمضمُومَ من السُخْرَةِ والعبُوديّةِ [٢]، أي: سخرتُمُوهم وٱستعبدتُمُوهم ﴿حتى أَنسَوْكُمْ﴾ بتَشاغِلِكُم بِهِم عن تلكَ الصفَةِ ﴿ذِكْرِى﴾ فَتركتُمُوه، أي: تَركتُم أن تذكُروني فَتَخافُوني في أوليائي.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَـٰلَ كَـمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّـوْ أَنَّكُـمْ كُـنتُمْ تَـعلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُـفْلِحُ ٱلْكَـٰـفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾

قُرئ: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ وكَسرِها [٣]، فالفَتحُ علىٰ أنّه مفعولُ ﴿جَزَيْتُهُمْ﴾، والكسرُ ٱستئنافٌ، أي: قَد فازُوا حيثُ صَبَروا فَجُزُوا أحسنَ الجَزاءِ بصَبْرِهِم.

والضَميرُ في ﴿قَالَ﴾ لله تعالىٰ، أو للسَائلِ عـن لَـبْثِهِمْ، وقُـرئ: «قُـلْ» فـي الموضعين [٤] علىٰ معنىٰ: قُلْ أيّها السائل عن لَبْثِهِم، استَقْصَروا مدَّةَ لَبْثِهِم في الدُنيا بالإضَافةِ إلىٰ خُلُودِهِم في النَارِ، أو: لَمْ يشعُرُوا بطُولِ لَبْثِهِم فـي القُـبور لِكَـونِهِم

---

(١) قرأه نافع وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٨.
(٢) قاله الفراء والكسائي. انظر الكشاف: ج ٣ ص ٢٠٥.
(٣) وممّن قرأها بالكسر: حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦١.
(٤) قرأها حمزة والكسائي بصيغة الأمر في الموضعين، وقرأ ابن كثير الأول فقط كذلك. أنـظر المصدر السابق: ص ٥٦٢.

أمواتاً أو: لأنّ المنقَضِي في حُكْمِ مَا لَمْ يكن. وصَدَّقَهم اللهُ في تَقَالِّهِمْ[1] لسِنِّي لَبثِهِم في الدنيا، وَوَبَّخَهم علىٰ غَفلَتِهِم التي كانوا عليها.

والمراد بـ﴿ٱلْعَادِّينَ﴾ الملائكةُ؛ لأنّهم أَحصَوا أعمالَ العبادِ وأيّامَهُم، وقيلَ: هُم الحُسَّابُ[2]، أي: فاسألِ الملائكةَ الذينَ عَدُّوا أعمارَ الخَلْقِ، أو: من يَقدِر أن يُلقي فِكْرَهُ إلى العَدِّ فإنّا لا نَعرفُ عددَ تلكَ السنين إلّا أَن نَستقلّها ونَحسِبَها ﴿يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿عَبَثاً﴾ حالٌ، أي: عابثينَ، أو مفعولٌ لَه، أي: ما ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ للعَبَثِ بل للحكمةِ التي اقتَضَتْه، وهي أن نَتعبَّدكُم ونكلّفكُم الطَّاعَات ثم نُعِيدُكُم في دارِ الجَزاءِ لنُثيبَ ونُعاقبَ، وقُرئ: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بفَتح التاء[3].

و﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ الذي لا يَزولُ، أو: الذي يحقّ له الإلٰهيّةُ والمُلْكُ فَلا يَزولُ مُلْكُه، وكُلُّ مَلكٍ غَيرُه فَمُلْكُه مُستعارٌ، وإنَّما يَملكُ بعضَ الأشياء من بعضِ الوجوهِ، وهو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المالِكُ لجميعِ الأَشياء من جَميعِ الوجُوه ووُصِفَ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ بالكَرَمِ[4] لأنَّ الرحمةَ تَنزلُ منه، ويُنالُ الخيرُ والبرَكةُ من جهَتِهِ، ولِنِسْبَتِهِ إلىٰ أكرمِ الأكرمينَ.

﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُ بِهِ﴾ صِفَةٌ لازمةٌ، نحوُ قَولِهِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[5] جِيء بها للتوكيد، أو: هو اعتراضٌ بين الشَرطِ والجَزاءِ، كما يقالُ: مَنْ أَحْسَنَ إلىٰ فلانٍ لا أَحَقَّ بالإحسَانِ منه، فاللهُ مُثيبُه.

❁ ❁ ❁

---

(١) في نسخة: «مقالهم».
(٢) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٠١.
(٣) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٠.
(٤) في نسخة: «بالكريم».
(٥) الأنعام: ٣٨.

سورةُ النُّورِ

مدنيّة[1]، أربع وستّون آية.

في حديث أُبيّ: «مَن قَرأَها أُعطِيَ من الأجْرِ عشرُ حَسَناتٍ بعدد كلّ مـؤمنٍ ومؤمنةٍ فيما مَضىٰ وما بَقي»[2].

الصادقُ عليه السلام: «حَصِّنُوا أَموالَكُم وفُروجَكُم بـتلاوةِ سُـورةِ النُـور، وحـصِّنُوا بها نساءَكُم، فإنّ مَن أَدْمَنَ قـراءَتَـها فـي كـلِّ يـومٍ أو فـي كـلِّ ليـلةٍ لَـم يَـزْنِ أحدٌ مِن أهل بيته أَبَداً حـتّىٰ يـموتَ، فـإذا هـو مـاتَ شـيّعه الى قـبرِهِ سَـبعُون ألف ملكٍ كلُّهُم يَدعُونَ ويَستغفِرُونَ اللهَ لَهُ حـتّىٰ يَـدخُلَ فـي قـبرِهِ»[3] صـدق ولـيّ الله.

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٠٣: مدنيّة بلا خلاف، وهي أربع وستون آية في البصري والكوفي، واثنتان في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠٨: مدنيّة، وهي اثنتان وستون آية، وقيل: أربع وستون، نزلت بعد الحشر.

وفي تفسير الآلوسي: ج١٨ ص ٧٤ ما لفظه: مدنيّة كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، وحكىٰ أبوحيان الإجماع علىٰ مدنيّتها ولم يستثن الكثير من آيها شيئاً، وعن القرطبي أنّ آية ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَستَأذِنكُم﴾ الخ مكّية.

(٢) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٢٦١ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ موصوف بـ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ والخبرُ محذوفٌ أي: فيمَا يُتلىٰ عليكُم ﴿سُورةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، وقُرِئَ في الشواذِ: «سُورةً أنزلناها» بالنَّصبِ[١] علىٰ: زيداً ضربتُهُ، و﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ تَفسيرٌ للفعلِ المضْمَرِ، أو علىٰ: اقرأْ سورةً و﴿أنزلنَاهَا﴾ صفةٌ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا أحكامَها التي فيها، أي[٢]: جَعَلنَاهَا واجبةً مقطُوعاً بها، وأَصلُ الفَرضِ القطعُ، وقُرِئَ: «فَرَّضْنَاهَا» بالتَّشديدِ[٣] وهو للتوكيدِ وللمُبالغةِ في الإيجابِ، أو: لأنَّ فيها فرائض شتَّىٰ، تقولُ: فَرَضْتُ الفَريضةَ وفرَّضتُ الفَرائضَ، وقُرِئَ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتَشديدِ الذالِ[٤] وتَخفيفِها.

﴿الزَّانِيَةُ والزَّانِي﴾ رفعُهُما على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ، والتقديرُ: فيما

(١) قرأه عيسىٰ بن عمرو كما في شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠١.

(٢) في نسخة: «أو» بدل «أي».

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٥.

(٤) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٢٧٢.

فُرِضَ عَليكُم الزّانيةُ والزّاني أي: جَلْدُهُما، ويجوزُ أن يكونَ الخبرُ ﴿فاجْلِدُوا﴾ لأنّ الألف واللام بمعنى «الذي» و «التي»، والتقديرُ: الذي زَنىٰ والتي زَنَت فاجْلِدوهما، كما تقول: مَنْ زنَىٰ فاجلِدُوه. والجَلْدُ: ضَرْبُ الجِلْدِ، تقول: جَلَده كما تقول: ظَهَرَهُ وَبَطَنَهُ وَرَكِبَهُ، وهذا حُكْمُ مَنْ ليس بمُحصِنٍ من الزُّناة الأحرارِ البالغينَ، فأمَّا المُحْصِن فَحُكْمُه الرَّجمُ. وقُرئ: «رَأَفَةً» بفتح الهمزة[١]، والمعنىٰ: أنّ الواجبَ على المؤمنينَ أن يستعملُوا الجدَّ في دينِ الله، ولا يأخذهُم اللينُ والهَوادةُ في ٱستيفاءِ حدودِهِ، وقولُه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ من بابِ التَهييجِ وإلهابِ الغَضَبِ للهِ ولدينِهِ، وقيلَ: معناهُ: ﴿لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا﴾ رَحمةٌ تَمنَعكُم عن إقامةِ الحَدِّ عليهما فتعطِّلُوا الحدود[٢]، أو: من الضَربِ الشَديدِ، بل أَوْجِعُوهُمَا ضَرْباً ولا تُخَفِّفوا كَما يُخَفَّفُ في حدِّ الشَارِبِ.

والرجلُ يُجلَد قَائماً علىٰ حالتِهِ التي وُجدَ عَليها ضَرْباً وَسَطاً مُفرَّقاً على الأعضاءِ كُلِّها، لا يُستثنىٰ منها إلَّا ثلاثةٌ: الوجهُ والرأسُ والفَرْجُ، وفي لفظ: «الجِلْد» إشارةٌ إلىٰ أنّه لا ينبغي أَن يَتجاوزَ الألَمُ إلى اللَّحمِ. والمرأةُ تُجلَدُ قاعدةً عَليها ثيابُها قد رُبِطَتْ عليها حتّىٰ لا تَبدو عَورتُها.

وفي تَسميتِهِ «عَذَاباً» دَليلٌ علىٰ أنّه عقُوبةٌ، ويجوزُ أن يسمَّىٰ «عذاباً» لأنَّه يَمنَعُ من المُعاودةِ كما يُسمَّىٰ «نَكَالاً».

والطَّائِفَةُ: الفِرْقَةُ الحافَّةُ حَولَ الشيءِ، وَهُم ثلاثةٌ فصَاعِداً، وهي صفةٌ غالبةٌ، وعن الباقرعليه السلام وابن عبَّاس رضي الله عنه والحسن وغيرهم: «أنّ أقلَّها رجلٌ واحِدٌ»[٣].

(١) قرأه ابن كثير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٥.

(٢) قاله عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وابراهيم. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٠٦.

(٣) تفسير التبيان: ج ٧ ص ٤٠٦، تفسير الطبري: ج ٩ ص ٢٥٨.

وينبغي أن لا يشهدَ إلَّا خِيارُ الناسِ.

الْفَاسِقُ: الذي من شَأنِهِ الزِّنا لا يَرغبُ في نكاحِ الصَوالحِ من النساءِ اللَّاتي علىٰ خلافِ صفَتِهِ، وإنَّما يَرغبُ في زانِيَةٍ مثله أو مُشركةٍ، وكذلك الزَّانيةُ الْمُسَافِحَةُ المشهورةُ بذلكَ لا يَرغبُ في نكاحِها الصُلَحاء من الرجالِ وينفرونَ عَنها، وإنَّما يرغبُ فيها مَن هو من شكلها. وإنَّما قَرَنَ سبحانُه بين الزَّاني والمشركِ تَفخيماً لأمرِ الزِّنا واستعظاماً له، ومعنى الجملةِ الأُولىٰ: وَصْفُ الزَّاني بكونِهِ غَيرَ راغبٍ في العفائِفِ لكن في الزَّواني، ومعنى الجملةِ الثانيةِ: وَصْفُ الزَّانيةِ بكونِها غَيرَ مرغوبٍ فيها للأَعفّاءِ ولكن للزُّناة، وبينهما فرقٌ، وإنَّما قُدِّمت الزانيةُ على الزاني في الأُولىٰ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لعقوبتِهِما علىٰ جنايتِهِما، والمرأةُ منها مَنشَأُ الجنايةِ، وهي الأصلُ والمادةُ في ذلك، ثم قدَّم الزاني عليها في الثانية[1] لأنَّ الآيةَ مسوقةٌ لذِكرِ النكاحِ، والرجلُ هو الأَصلُ فيهِ والخَاطِبُ، ومنه مبدأُ الطلب. وحُرِّمَ الزِّنا[2] ﴿وَحُرِّمَ﴾ نكاحُ المَشهورات بالزِّنا على المؤمنين.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَداً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

ذَكَرَ سبحانُه حَدَّ الزِّنا، ثم ذَكَرَ حدَّ القَذْفِ بالزِّنا، أي: يقذفُونَ العفائفَ من النساءِ بالزِّنا والفجورِ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ﴾ عُدولٍ يشهدُونَ بأنَّهم شَاهَدُوهنَّ يَفعلْنَ ذلكَ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ والواجبُ أن يَحضَروا في مجلسٍ واحدٍ، فإن جاءوا متفرِّقينَ كانُوا قَذَفَةً.

---

(١) في جميع النسخ: «الثاني»، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) ليس في نسخة: «وحرِّم الزنا».

ويقتَضي نظمُ الآيةِ أن تكونَ هذه الجملُ الثلاثُ بأجمعِها جزاءً للشرطِ، فيكونُ التقديرُ: مَن قَذَف المحصناتِ فاجْلِدُوهم وردُّوا شهادتَهم وفسِّقوهُم، أي: فاجْمعُوا لَهم الجَلْدَ وردَّ الشهادةِ والتفسيقَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن القَذْفِ ﴿وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يغفرُ لَهم، فَلا يُجْلَدونَ ولا تُردُّ شهادتُهم ولا يُفسَّقُون.

والأَبَدُ: اسمٌ لزمانٍ طويلٍ انتهىٰ أو لَمْ ينتهِ، فإذا تابَ القاذفُ قُبِلَت شهادتُه، سواء حُدَّ أو لَمْ يُحَدَّ، عن أئمة الهدىٰ عليهم السلام وابن عبَّاس رضي الله عنه (١)، وهو مَذهبُ الشَافعي (٢). ومِنْ شَرطِ تَوبةِ القَاذِفِ أن يكذِّبَ نفسَه، فإن لم يفعلْ ذلكَ لَم تُقبلْ شهادتُه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٦) وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٨) وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

رويَ: أنّه لمَّا نَزَلَتْ آيةُ القَذْفِ قامَ عاصمُ بن عديٍّ الأنصاري فقال: يا رسول الله، إنْ رأىٰ رَجلٌ منَّا مع امرأتِهِ رَجلاً فأخبرَ بما رأىٰ جُلِدَ ثمانين! وإلىٰ أن يجيء بأربعةِ شُهَداء فَقَد قَضَى الرجلُ حاجَتَه ومضىٰ، قال: كذلك أُنزِلتْ يا عاصِم، فَخَرجَ فَلَم يصلْ إلىٰ منزلِهِ حتّى استَقبلَه هلالُ بن أُميَّة يَستَرجِع، فقال: ما وراءَك؟ قال: شَرٌّ، وجدتُ علىٰ بطنِ امرأتي خَولةَ شريكَ بن سَمحاء، فقال: هذا واللهِ سُؤالي،

(١) أُنظر الكافي: ج ٧ ص ٣٩٧ ب ١٨ شهادة القاذف والمحدود.
(٢) كتاب الأم للشافعي: ج ٧ ص ٤٥.

فَرجعَا، فأخبر عاصم رسول الله، فَبَعَثَ إليها فقال: ما يقولُ زوجك؟ فقالت: لا أدري، الغِيرةُ أدركَتْه أم بُخلاً على الطعام، وكانَ شريكٌ نَزيلُهم، فَنَزَلت الآيات ولَاعَن بينهما[١].

وقُرئ: «أَرْبَعَ شَهادَاتٍ» بالنَّصب[٢] لأنّه في حُكمِ المَصدرِ الذي هو ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وهي مبتدأٌ محذوفُ الخَبرِ، فيكونُ التَّقديرُ: فواجِبٌ أن يَشهدَ أحدُهُم أربعَ شهاداتٍ، ويكونُ ﴿بِاللهِ﴾ من صلةِ ﴿شَهَـٰدَاتٍ﴾، وفي الرفع يكون ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَاتٍ﴾ خَبَراً.

وقُرئ: «أَنْ لَعْنَةُ اللهِ» و«أَنْ غَضَبُ اللهِ» علىٰ تخفيفِ ﴿أَنَّ﴾ ورَفعِ ما بَعدَهُما[٣]. وقُرئ بنصب ﴿ٱلْخَـٰمِسَةَ﴾ الثانية[٤] علىٰ معنىٰ: وتَشهَدُ الخامسةَ.

وَصِفةُ اللِّعانِ: أن يوقَفَ الرجلُ بين يَدَي الحاكمِ والمرأةُ عن يمينه، فيقولُ الرجلُ أربعُ مرّاتٍ: أَشهد باللهِ أنّي لَمِنَ الصادقينَ فيما ذكرته من الفجور عنها، ثم يقولُ في المرّة الخامسةِ: لعنةُ الله عليَّ إن كنتُ مِنِ الكاذبينَ فيما رميتُها بِه. ويدرأ[٥] عن المرأة العذابَ ـ وهو حدُّ الزِّنا ـ أنْ تقول: أشهدُ بالله أنّه لَمِنَ الكاذبينَ فيما قَذَفَني به، أربعُ مرّاتٍ، مرّةً بعد أُخرىٰ، وتقول في الخامسة: غَضَبُ اللهِ عليَّ إن كانَ من الصادقينَ فيما قَذَفَني بِه، ثم يفرِّقُ الحاكِمُ بينَهما، ولا تَحِلُّ له أَبَداً، وكانَ عليها العدّةُ من وَقتِ اللِّعان. وإنْ نَكَلَ الرجلُ عن اللِّعان قبلَ ٱستكمال

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٢٧٣.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر، راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٢.

(٣) وهي قراءة نافع ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٦.

(٤) الظاهر من عبارة المصنّف أنّه اعتمد علىٰ قراءة الرفع هنا كما لا يخفىٰ.

(٥) في نسخة: «يدفع»، وأُخرىٰ: «يرفع».

الشَّهادات وَجَبَ عليه حدُّ القَذْف.

وجوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَتروكٌ، وَتَركُهُ دالٌّ علىٰ أمرٍ عظيمٍ لا يُكْتَنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـٰئِكَ عِندَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ ٱللهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

«الإِفْكُ»: أبلَغُ الكَذِب، وأَصلُهُ من «الإِفْك» وهو القَلْبُ، لأنّه قَولٌ مَأفوكٌ عن وجهِهِ، والمرادُ: ما أُفِكَ بِهِ علىٰ عائشة وصفوان بن المعطّل. والعُصْبَةُ: الجَماعةُ من العشَرةِ إلىٰ أربعين، وكذلك العِصَابةُ، وٱعصَوْصَبُوا: اجتَمعُوا، وهم: عبدالله بن أُبيّ وهو الذي ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: إثمه، ومسطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ومَنْ ساعدهم. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ﴾ من تلكَ العُصْبةِ نَصيبُهُ ﴿مِنَ الإِثـمِ﴾ علىٰ مِقْدارِ خَوضِهِ في الإِفْكِ، وَالعَذَابُ العَظِيم لابن أُبَيٍّ؛ لأنّ مُعظَمَ الشّرّ كانَ منه،

يُشيعُ ذلكَ في الناسِ ويقولُ: امرأةُ نبيِّكُم باتَتْ مع رجلٍ حتّىٰ أصبَحَتْ ثم جـاءَ يقودُها، واللهِ ما نجتْ منه ولا نَجَا منها.

والخطابُ في قولِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لعائشة وصفوان لأنّـهما المـقصُودانِ بالإفْكِ، وَلِمَن ساءَه ذلكَ من المؤمنينَ ولكلّ مَن رُمِيَ بسبٍّ، ومعنىٰ كونِهِ خَيراً لَهُم: أنّ الله تعالىٰ يعوِّضُهُم بصَبْرِهِم.

وكانَ سَبَبُ الإِفْكِ: أنّ عائشة ضاعَ عقدُها في غَزوةِ بَني المصطَلَق، وكانَتْ قَد خَرَجَت لقضاء حَاجَةٍ، فَرجَعَتْ طَالِبَةً لَه، وَحُمِلَ هَوْدَجُها علىٰ بَعيرِهِا ظَنّاً مـنهم أنّها فيهِ، فَلَمّا عَادَت الىَ الموضِعِ وَجَدَتْهُم قَد رَحَلُوا، وكـان صـفوانُ مـن وَراءِ الجيشِ، فلمّا وَصَلَ إلىٰ ذلكَ الموضعِ وعَرَفَها أناخَ بَعيرَه حتّىٰ رَكَبَتْهُ وهو يَسُوقُه حتّىٰ أَتَى الجيشَ وقد نَزَلُوا في قائمِ الظَهيرة. كذا رواه الزهري عن عائشة[١].

وقرئَ: «كُبْرَهُ» بضمّ الكاف[٢]، أي: عُـظْمَهُ ﴿بِأَنْـفُسِهِمْ﴾ أي: الذيـن هُـم كأَنفسِهِم، لأنّ المؤمنينَ كلّهم كالنَّفسِ الواحدَةِ. ونحوُه: ﴿وَلَا تَلْمِزُواْ أنفُسَكُم﴾[٣] و﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾[٤]، وقيلَ: مَعناهُ: هلّا ظَنَنتُم مـا تـظنّونَه بأنـفُسِكُم لو خلَوتُم بها[٥]، ولَم يقلْ: ظَنَنْتُم بأنفسِكُم خَيراً، عدولاً عن المُـضْمَرِ إلى المُـظهَر، وعن الخطابِ إلى الغَيبة، ليبالغَ في التَـوبيخِ بـطَريقةِ الالتـفات. ويـدلّ عـلىٰ أنّ الاشتراكَ في الإيمان مُقتَضٍ أن لا يُصدِّق مؤمنٌ علىٰ أخيه قولَ غائب، ومُوجبٌ أن يصرِّحَ ببراءةِ ساحَتِهِ وتَكذيبِ قاذِفِه.

---

(١) تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢) قرأه حميد ومجاهد وأبو البرهم ويعقوب وابن قطيب وأبو جعفر المدني. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤١٥، وشواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٢.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) النور: ٦١.

(٥) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤١٦.

﴿لَوْلَآ﴾ الأُولىٰ والثانية للتَحضيض، وهذه لامتناعِ الشيءِ لوجودِ غيرِه، والمعنىٰ: ولولا أنّي حَكَمْتُ بأن أَتَفضّلَ عليكُم في الدنيا والآخرة لعاجَلْتُكُم بالعقابِ فيما خضتُم فيه. يقال: أفاضَ في الحَديثِ وٱندفعَ وخَاضَ.

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أو لـ﴿أَفَضْتُمْ﴾، ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يأخذُه بعضُكم من بَعضٍ، يقالُ: تَلقَّى القَولَ وتلقَّنَه وتلقَّفَه بمعنىً، والأصلُ تتلقَّونَه، وَصَفَهم بارتكاب آثامٍ ثلاثةٍ، وعلَّق مَسَّ العَذابِ العظيمِ بها، وهو: التحدّثُ منهم بِهِ حتّى ٱنتشرَ وشَاعَ، وقولهُم بِأَفْوَاهِهِم ما لا علم لَهم به، وٱستحقَارهم لذلكَ.

وفَصَلَ بين ﴿لَوْلَآ﴾ وَ﴿قُلْتُمْ﴾ بالظَرفِ لفَائدةٍ، وهي بيانُ أنّه كان يَجبُ عليهم أوّلَ ما سمعُوا أن يَتفادَوْا عن التكلّم به، فكانَ ذكْرُ الوقتِ أهمّ، فَوَجَبَ تَقديمُهُ ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ فيه تَعجُّبٌ مِنْ عِظَمِ الأمرِ، أو تَنزيه اللهِ من أن تكونَ زَوجةُ نبيِّه فاجرةً. ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ في ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ من قولِكَ: وعظتُ فلاناً في كذا فتركه، أو كراهةَ أن تَعودُوا أبداً، أي: ما دمتُم أحياءً مكلّفين، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهييجٌ[1] لَهم، أو[2] تذكيرٌ بما يوجبُ تَرْكَ العودِ، وهو ٱتّصافُهم بالإيمان الصَارفِ عن القَبيحِ.

﴿تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ أي: تُشيعُونَها عن قَصدٍ إلى الإشاعة ومحبّة لها، وعَذَابُ الدُنيا: الحدّ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في القُلوبِ من الأسرار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ

(١) في نسخة: «تقبيح».
(٢) في نسخة: واو بدل «أو».

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥)﴾

﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي: ما طَهُرَ أحدٌ منكم من وَسْوسَةِ الشَّيطانِ، لكنّه سبحانَه يُطهِّر بلُطفِهِ مَن يشاءُ، وهو مَن لَه لطفٌ يَفعلُهُ به ليَزْكُوَ عندَهُ ويصلُحَ بِهِ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يَحْلِفْ، وهو ٱفتعالٌ من الأَلِيَّة، وقُرِئ: «وَلا يَتَأَلَّ»[١]، وعن الزَّجاج: يريد أن لا يؤتوا فَحَذَفَ «لا»، والمعنىٰ: لا يَحلِفُوا علىٰ أن لا يُحسِنُوا إلىٰ مَن يستحقّ الإحسان[٢] ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾ أُولُو الغنىٰ ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وقيلَ: معناهُ: لا يُقصّروا في أن يُحْسِنُوا إليهم وإن كانَتْ بينَهم وبينَهم إحنةٌ لجنايةٍ ٱقترفُوها[٣]، من قولِهِم: مَا أَلَوْتُ جُهْداً، إذا لم تدَّخِرْ منه شَيئاً، نَزَلَتْ في شأنِ مُسطَّح، وكان ابنُ خالة أبي بكر، وكانَ فَقيراً، وكانَ أبو بكر يُنفقُ عَلَيه، فَلمَّا خاضَ في الإِفْكِ حَلَفَ أن لا يُنفقَ عليه. وقيلَ: نَزَلَت في جَماعةٍ من الصَحابةِ حَلَفُوا أن لا يَتَصدَّقوا علىٰ مَن تَكَلَّمَ بشيءٍ من الإِفْكِ ولا يُواسُوهم[٤].

﴿ٱلْغَٰفِلَٰت﴾ عن الفَواحِشِ. وقُرِئ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ بالتاء والياء[٥]. وَالدِّينُ:

---

(١) قرأه الحسن وأبو جعفر المدني وزيد بن أسلم وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٤٠.

(٢) معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٦.

(٣) قاله ابن بحر كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٨٣.

(٤) قاله ابن عباس والضحاك كما في تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٣٤.

(٥) وبالياء قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٤.

الجَزاءُ، و﴿الحَقَّ﴾ صِفَةٌ للدينِ، أي: يُوفِّيهم الجَزاءَ الحقَّ الَّذي هُم أَهلُه ﴿أنَّ الله هُوَ الحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: العَادلُ، الظاهرُ العدلِ الذي لا ظُلْمَ في حُكمِه.

﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

﴿الْخَبِيثَـٰتُ﴾ من الكَلِمَ تُقالُ أو تُعَدُّ للخَبيثينَ من الرجالِ والنساءِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ منهم يَتَعرَّضُون للخَبيثات من القَولِ، وكذلكَ ﴿الطَّيِّبَـٰتُ ... والطَّيِّبُونَ﴾، و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطَّيِّبينَ، وأنَّهم ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ مِمَّا يقولُ الخبيثُونَ من خَبيثات الكَلِمِ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالخَبيثاتِ والطيّباتِ النساءَ، أي: الخَبائِثُ يَتزوّجْنَ الخباثَ، والخباثُ الخبائِثَ، فكذلك أَهلُ الطيِّبِ.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ فيه وجهان: أحدُهما: أنَّه من الاستئناس، خِلافُ الاستيحاشِ، لأنّ الذي يَطرقُ بابَ غَيرِهِ لا يَدري أيُؤذَن له أَم لا، فَهُو كالمستوحِشِ لخفَاء الحَالِ عَليه، فإذا أُذِنَ له استأنَسَ، فالمعنىٰ: حتّىٰ يُؤْذَنَ لَكم، فهو كقولِه: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1] فَوضِعَ الاستئناسُ مَوضعَ الإذْنِ، لأنّ الاستئناسَ يُرادِفُ الإذْنَ. والثاني: أنّه استفعَالٌ من أنسَ الشَيءَ: إذا أبْصَرَه مكشُوفاً، والمعنىٰ: حتّىٰ تَستعْلِمُوا وتَستكْشِفُوا الحالَ هل يُراد دُخُولُكم

(١) الأحزاب: ٥٣.

أَم لا؟ ومنه قولُهُم: استأْنَسْتُ فلَمْ أرَ أَحداً، أي: استَعْلَمْتُ وتـعرَّفتُ، ومـنه قـولُ النَابغةِ:

على مستأنسٍ وَحَدِ [١]

وعن أبي أيّوب الأنصاري: قلنا: يا رسول الله، ما الاستئناسُ؟ قال: «يَتَكلّم الرجلُ بالتَسبيحةِ والتَحميدةِ والتَكبيرةِ ويَتَنحنَحُ، يُؤْذِنُ أهْـلَ البـيت، والتَّسْـلِيمُ: أن يقولَ: السَّلامُ عليكم، أأَدْخُلُ، ثلاث مرّات. فإن أُذِنَ له وإلّا رَجع» [٢].

﴿ذٰلِكُمْ﴾ الاستئذانُ والتَّسليمُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من تَحيّةِ الجاهليةِ وهو قـولُهُم: حُيِّيتُم صَباحاً أو مساءً، أو من الدخُولِ بغَيرِ إذْنٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنْـزَلَ عليكُم هذا إرادةَ أن تَتَّعِظُوا وتعملوا بما أُمِرْتُمْ به في بَابَ الاستئذَانِ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ من الآذِنينَ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واْصـبِرُوا حـتَّىٰ تَجِدُوا مَنْ يأذَنُ لكُم، أو: إنْ لَمْ تَجدُوا فيها أَحَداً من أَهلها فلا تَدخلُوها إلّا بإذْنِ أَهلِها لأنَّه تَصرّفٌ في مُلْكِ غَيرِك، فلابدّ أن يكونَ برضَاهُ ﴿فَـارْجِعُوا﴾ ولا تَقِفُوا علىالأبوابِ منتَظرينَ، ولاتُـلِحُّوا [٣] فـي تَسهيلِ الحُـجَّابِ ﴿هُـوَأَزْكَـىٰ لَكُـمْ﴾ الرجوعُ أطْهَرُ لَكُم، لِمَا فيه من السَّلامةِ والبُعْدِ عن الرِّيبةِ لكم، وأنْفَعُ لَكُم وأنْـمَىٰ خَيْراً، ثم أوعَدَ المخاطَبينَ بأنّه ﴿عَـلِيمٌ﴾ بـما يأتُـونَ ومـا يَـذَرُونَ، فَـيُجازي بحسب ذلك.

ثم اْستَثْنىٰ من البيوتِ التي لا يجب علىٰ داخِلِها الاستئذانُ: ما ليسَ بمَسْكُونٍ

---

(١) كأنَّ رَحْـلي وقَـد زَالَ النَـهارُ بـنا ... بـذي الجُـلَيل عـلى مسـتأنسٍ وَحَـدِ
وهو من قصيدة نظمها في مدح النعمان بن المنذر، وفيه يصف حاله كحال المسافر يجدّ في السير بعدالزوال ليصل الى منزلٍ يجدفيه رفيقاً مؤنساًوعلفاًلدابّته. ديوان النابغة: ص ٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ٢ ص ١٢٢١ ح ٣٧٠٧.

(٣) في نسخة: «تلجّوا».

منها نحو: الفنادق وهي الخَاناتُ والرُّبط وحَوانيتُ الباعةِ والأَرْحيةُ والحمَّامات، والمَتَاعُ: المَنفعةُ والارتفَاقُ والبيعُ والشِّراءُ، وقيلَ: هي الخَرِبَاتُ المعطَّلةُ يُتَبَرَّزُ فيها، والمتاع: التبرُّز[١].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾

﴿مِنْ﴾ للتَبعيضِ، والمرادُ: غَضُّ البَصَرِ عمّا يَحرُمُ، والاقتصارُ بِهِ علىٰ ما يَحِلُّ. ويجوزُ عند الأخفشِ أَن يكونَ «مِنْ» مزيدةً[٢]، ولم يُجزه سيبويه[٣].

الصادق عليه السلام: «حِفْظُ الفُروجِ عبارةٌ عن التَّحَفُّظِ من الزِّنا في جَميعِ القرآنِ، إلَّا هُنا فإنّ المرادَ به السِّترُ حتّىٰ لا يَنظر إليها أحدٌ، ولا يَحلّ للرجلِ أن يَنظرَ إلىٰ فَرجِ أخيه، ولا للمرأةِ أن تَنظرَ الىٰ فَرجِ أُختها»[٤].

ثم أَخبرَ أَنّه ﴿خَبِيرٌ﴾ بأحوالِهم وأَفعالِهم، ويعلَمُ كَيفَ ﴿يَصْنَعُونَ﴾، فعليهم أن يكونُوا علىٰ حَذَرٍ واتقاءٍ في كلّ حَرَكةٍ وسكُون.

---

(١) قاله عطاء. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٧. (٢) أنظر معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص ٢٧٢.
(٣) أنظر كتاب سيبويه: ج ٤ ص ٢٢٤. (٤) الكافي: ج ٢ ص ٣٦ ح ١ قطعة.

وأَمَرَ النساءَ أيضاً بغضّ الأبصار وحِفْظِ الفُروجِ كَما أَمَرَ الرجالَ.

وعن أُمّ سَلَمة قالتْ: كنت عند النبيِّ صلى الله عليه وآله وعندَه ميمونةَ، فأَقْبَلَ ابن أُمّ مكتوم، وذلك بعَدَ أن أمَرَنا بالحجاب، فقال: احْتَجِبَا، فقُلْنا: يا رسول الله، أليسَ أَعْمىٰ لا يُبصرنا؟ فقال: أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما؟ أَلسْتُمَا تُبْصِرَانه [١]؟

الزِّينةُ: ما تزيَّنَتِ المَرأةُ من حُليٍّ أو كُحْلٍ أو خِضَابٍ، وهي ظاهرةٌ وباطنةٌ، فالظاهرُ لا يَجبُ سَتْرُها وهي الثيابُ، وقيلَ: الكُحلُ والخاتمُ والخِضَابُ في الكفّ [٢]، وقيل: الوجهُ والكَفَّان [٣]، وعنهم عليهم السلام: الكفَّانُ والأَصابعُ، والباطنة كالخلخالِ والسِّوارِ والقلادةِ والقُرطِ، فلا تُبدِيهِ إلّا لهؤلاء المذكُورين [٤].

وسئل الشعبي: لِمَ لَمْ يَذكرِ اللهُ الأعْمامَ والأخْوال؟ فقال: لئلّا يَصِفُها العَمُّ عند ابنِه، وكذلك الخال [٥].

وذَكَرَ الزينةَ دونَ مَواقِعِها للمُبالَغةِ في الأَمْرِ بالتَستُّرِ، لأنّ هذه الزِّيَنَ واقعةٌ علىٰ مواضعٍ من الجَسَدِ، لا يَحلُّ النَظَرُ إليها لغَيرِ هؤلاء، وأمّا الظَاهرةُ فَسُومِحَ فِيها لَهنَّ، لأنّ المَرأةَ لا تجدُ بُدّاً من ذلكَ، خصُوصاً في الشهادةِ والمُحَاكَمة.

والخُمُرُ: المَقانعُ، جمع خِمَار، أُمِرْنَ بإلقائِها علىٰ جُيوبهنّ لأنّها لو كانَتْ واسعةً تبدُو منها نُحورُهنّ، وكنَّ يُسدلْنَ الخُمُرَ من ورائهنّ فتبَقَىٰ مكشُوفةً، فأُمِرْنَ بِسَدْلِهَا من قدَّامِهنّ حتّىٰ تغطّيها. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالجيوبِ الصدور تَسميةً بما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ج ٥ ص ١٠٢ ح ٢٧٧٨.

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٩.

(٣) وهو قول سعيد بن جبير والحسن وعطاء والأوزاعي. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٣٠٤، وتفسير الماوردي: ج ٤ ص ٩١.

(٤) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٠١ برواية أبي الجارود عن الباقر عليه السلام.

(٥) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢٣ ص ٢٠٧.

يَليها، كما قيل: ناصحُ الجيب، وضَرْبُها بالخِمَارِ على الجيبِ وضعُها عليه، كقولك: ضربتُ بيدي على الحائطِ. وقُرئ: «جِيُوبِهِنَّ» بكسر الجيم[١] لأجل الياء، و«بِيُوتاً غَيْرَ بِيُوتِكُمْ»[٢] بكسر الباء[٣]. ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: النِسَاءُ المؤمنات، لأنّه ليس للمؤمنةِ أن تَتَجرَّدَ بين يدَي مشركةٍ أو كتابيّةٍ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: والظاهرُ أنّه عَنَىٰ بنسائهنَّ و﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ مَن في صُحبتِهِنَّ وخِدْمَتِهِنَّ من الحرائر والإِماء[٤]. وقيلَ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ هم الذكورُ والإناثُ جَميعاً[٥].

والتَّابعُ: هو الذي يَتْبعُكَ لينالَ من طعامِكَ، ولا حاجةَ له في النساءِ، وهو الأبله الذي لا يَعرفُ شيئاً من أَمْرِ النساء، وقرئ ﴿غَيْرِ﴾ بالنَصب[٦] على الاستثناءِ أو الحَالِ، وبالجرّ على الوَصفيّةِ، و﴿الإِرْبَةِ﴾ الحَاجةُ ﴿أَوِ الطِّـفْلِ﴾ وضع الواحِدُ موضع الجَمع لأنّه يفيدُ الجنسَ، و﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ هو إمَّا مِنْ ظَهَرَ على الشَّيء: إذا اطَّلَعَ عليه، أي: لا يَعرفُونَ ما العَورة، ولا يميِّزُونَ بينَها وبينَ غيرها، وإمَّا مِنْ ظَهَرَ علىٰ فلانٍ: إذا قَوِيَ عَلَيه، أي: لَمْ يَبلغُوا وقتَ القدرةِ على الوطءِ لِعدَم شَهوتِهِم.

وكانَتِ المَرأةُ تَضربُ الأرضَ برجلِها ليتقَعْقَعَ خِلْخالُها، وقيلَ: كانَتْ تضربُ بإحدىٰ رِجْلَيها الأُخرىٰ ﴿لِيُعْلَمَ﴾ أنّها ذاتُ خِلْخَالَيْن[٧]، وإذا نُهِينَ عَن إظهار صَوتِ الحُلِيِّ بعدَما نُهِيْنَ عن إظهارِ الحُلِيِّ عُلِمَ أنَّ النَّهيَ عن إظْهارِ مواضعِ الحُلِيِّ أبلغُ.

---

(١) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٣٠، وتفسير البغوي: ج ١ ص ١٦١.

(٢) الآية: ٢٧.

(٣) قرأه ابن كثير وابن عامر والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٤٠.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٣١.

(٥) وهو قول أُم سلمة وعائشة كما في تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٣٩.

(٦) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر وأبي جعفر. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦٧.

(٧) قاله السدي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٤٣٨.

وقُرِئ: «أَيُّهُ المُؤمنُونَ» بضمِّ الهاء [١]، والوجهُ فيه: أنّ الألفَ لمّا سقَطَتْ من «أيها» لالْتِقاء الساكنَين اتبعتْ حَرَكتُها حَرَكَةَ ما قَبلِها.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَـٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

الأَيَامَىٰ واليَتامىٰ أَصلُهُما «أيايِيم» و «تيايم» فقُلبا، والأَيِّم للرجلِ والمَرأةِ، وتأيَّما إذا لَم يتزوَّجا بِكْرَيْن كانا أو ثيِّبَيْن.

وفي الحَديثِ: «اللَّهم إنّا نَعوذُ بكَ من العَيْمةِ والأيْمةِ والغَيْمة» [٢].

أي: ﴿أنْكِحُوا﴾ من يأتمُّ منكُم من الأحْرارِ والحَرائرِ، ومَن كانَ فيه صلاحٌ من غلْمانِكُم وجَواريكُم، وهذا أَمرُ نَدْبٍ وٱستحباب.

وعنه عليه السلام: «مَن أحبَّ فِطْرتي فلْيَستَنَّ بسُنَّتي، وهي النكاح» [٣].

وعنه عليه السلام: «مَن كانَ لَهُ مَا يَتَزوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا» [٤].

وعنه عليه السلام: «إلْتَمِسُوا الرزْقَ بالنِّكاحِ» [٥].

---

(١) وهي قراءة ابن عامر. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٩.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٣٣ مرسلاً.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه: ج ٧ ص ٧٨. (٤) الكشاف: ج ٣ ص ٢٣٤.

(٥) أخرجه المتّقي الهندي في كنزالعمال: ج ١٦ ص ٢٧٦ ح ٤٤٤٣٦ نقلاً عن مسند الفردوس.

الصادقُ عليه السلام: «مَنْ تَركَ التزويجَ مخافةَ العيلَةِ فَقَد أساءَ الظَّنّ بربِّهِ، لقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»[1].

﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ أي: استطاعةَ تزوُّجٍ، ويجوزُ أن يُرادَ بالنكاحِ ما يُنكَحُ بِهِ مِنَ المَالِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، أو منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفسِّرُهُ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ كقولكَ: زيداً فاضْرِبْه، ودَخَلَتِ الفاءُ لتضمُّن مَعنَى الشَّرطِ. والمُكاتبةُ والكِتابُ أن يقولَ الرجلُ لمملوكِهِ: كاتبتُك علىٰ كذا، ومعناه: كَتَبتُ لكَ علىٰ نَفسي أن تُعتَقَ منّي إذا وَفَيْتَ بالمالِ وكَتَبْتَ لِي علىٰ نفسِكِ أن تَفِيَ بذلكَ، أو: كتبتُ عليكَ الوفاءَ بالمَالِ وكَتَبتَ عليَّ العِتْقَ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ أي: صَلَاحاً ورُشْداً، وقيلَ: قدرةً علىٰ أداءِ مَالِ الكتابة[2]. ﴿وَءَاتُوهُمْ﴾ أمرٌ بإعانَتِهم وإعطائِهم سَهمهم الذي جَعَلَه الله لَهم في قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[3]، أو: حظّهم من المالِ الذي عليهم وهو استحبابٌ. ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ﴾ إماءَكُم على الزِّنا، وكانَت إماءُ أهلِ الجاهليةِ يُساعِين علىٰ مواليهنَّ، وكانَت لعبدالله بن أُبَيٍّ ستّ جوارٍ يُكْرِهُهُنّ على البغاء، وَضَرَبَ عليهنَّ ضَرائبَ، فَشَكَتِ اثنتان منهنّ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت[4]. ويكنَّى بالفَتىٰ والفَتاة عن العبد والأمَة.

وفي الحديثِ: «ليقُلْ أحدُكُم: فَتايَ وفتاتي، ولا يقلْ: عَبدي وأَمَتي»[5].

و﴿البِغَآءِ﴾ مَصدرُ البَغْي، وإنّما شَرَطَ إرادة التَحصُّن لأنّ الإكراهَ لا يتأتّىٰ إلَّا مع إرادةِ التَحصُّنِ، وهو التعفُّفُ. وكلمةُ ﴿إِنْ﴾ وإيثارها علىٰ «إِذا» تُؤْذِنُ بأنّهنَّ كنَّ يفعلنَ ذلك برغبةٍ وطوعٍ، ومَن يُجبرُهنّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾

(١) الكافي: ج ٥ ص ٣٣٠ ح ٥.
(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٣١٤.
(٣) البقرة: ١٧٧.
(٤) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٧٣.
(٥) مسند أحمد: ج ٢ ص ٤٩٦.

وللمكرَهَات لا للمُكْرِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بهنَّ، وعن الصادقِ عليه السلام: «لهنّ غفورٌ رحيمٌ».

و﴿مبيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتٍ ظاهراتٍ في معاني الأحكام والحدود، و«مبيَّناتٍ» بالفتح: مُوضَحَاتٍ مفصَّلاتٍ ﴿وَمَثَلاً﴾ مِن أمثال ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وشبهاً من حالِهِم بحالِكُم.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾

قال: ﴿نُورُ السَّمَٰوَاتِ﴾، ثمّ قالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ و﴿يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ﴾، كما يقال: فلانٌ كرمٌ وجُودٌ، ثم يقول: يُنعشُ الناسَ بكَرمِهِ ويَشملُهُم جُودُه. ومعناه: ذو نُور السَّماوات وصاحبُ نُورِ السَّماوات، وإضافةُ النور إلى السَّماوات والأرض لأَحدِ معنَيَيْنِ: إمَّا لأنّ المرادَ أهلُ السَّماواتِ والأرضِ وأنّهم يَستضيئُونَ بنورِهِ، وإمَّا للدَّلالةِ علىٰ عُمومِ إضاءتِهِ وشُيوعِ إشراقه.

ورووا عن عليٍّ عليه السلام: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والمعنىٰ: نَشَرَ فيها الحقَّ فَأَضَاءَتْ بنورِهِ، أو نوَّر قُلوبَ أهلِها به(١).

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٢.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: صفةُ نُورِهِ العَجيبةُ الشأنِ في الإضاءةِ والإشراقِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: كصفَةِ مشكاةٍ، وهي الكُوَّةُ في الجدارِ غير النافذةِ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: سِرَاجٌ ثَاقبٌ ﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ زَهراءُ هي مشبهة في ظُهُورها[1] بـ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ من الكواكبِ المشهُورةِ بمزيد الضَوءِ والظُهور[2] كالمشتري والزُّهرة ونحوهما، وهو منسوبٌ إلى الدُّرّ، أي: أبيض متلألئٌ. وَقُرئ: «دِرِّيء» بالهمزة[3] علىٰ زِنَةِ «سِكِّيتٍ»، كأنّه يَدرَأُ الظلامَ أي: يَدفعُهُ بضيائِه، و«دُرِّيٍّ»[4] كَمُرِّيق، وهو العُصْفُر ﴿يُوقَدُ﴾ هذا المصباح ﴿من شَجَرَةٍ﴾ أي: مبدأُ تُقويهِ من شجرةِ الزيتُون، يعني: رُوِيَتْ ذُبالتُه بزَيتِها، ومَن قَرأَ «تُوقَد» بالتاءِ[5] فالفعلُ للزُّجاجةِ، والتقديرُ: مصباحُه الزجاجة، فحُذِفَ المضافُ، وقُرئ: ﴿يُوقَدُ﴾ بالياء أيضاً ﴿مُّبَارَكَةٍ﴾ كَثيرةِ البَرَكَةِ والمنفَعَةِ، لأنّه يُسرَجُ بدهْنِها، ويُؤْتَدَمُ بها، ويُوقَد بحَطَبِهِ وثفلِهِ، ويُغسلُ الإبريسمُ برَمَادِهِ، وهي أولُ شجرةٍ نَبتتْ بعد الطُوفانِ في الأرض التي باركَ اللهُ فيها للعَالمينَ، وقيلَ: لأنّ سبعينَ نبيّاً باركُوا فيها منهم إبراهيم عليه السلام[6] ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لأنّ مَنْبَتَها الشَّامُ، وهي بين المشرق والمغرب، وأجودُ الزيتُونِ زيتونُ الشَامِ، وقيلَ: لا يَفيءُ عليها ظلٌّ شرقٍ ولا غربٍ، بل هي ضاحيةٌ للشَمسِ لا يظلّها شجرٌ ولا جبلٌ، فَزَيْتُها يكونُ أصفى[7]، وقيل: ليست في مقنأة[8] لا تُصيبُها الشَمسُ، ولا في مَضْحىً لا يُصيبُها الظلُّ، لكنّ الشَمسَ والظلَّ

(١ و٢) في نسخة: «زهورها» و«الزهور».

(٣) قرأه النحويان (أبو عمرو والكسائي). راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦٨.

(٤) وهي قراءة المفضّل. راجع المصدر السابق.

(٥) قرأه حمزة والكسائي وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٨.

(٦) قاله ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٥٨.

(٧) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن سيرين. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٣٨.

(٨) المقنأة: الموضع الذي لا تطلع عليه الشمس، وضدّه: المضحاة. (لسان العرب: مادة قنأ).

يَتَعاقبانِ عليها[١]. وعن الحَسَنِ: لَيستْ من شَجَرةِ الدنيا فتكونُ شرقيةً أو غربيةً[٢] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ من صَفائِهِ وفَرطِ تَلأْلُئِهِ وضِيائِهِ من غَيرِ نارٍ، و﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هو نُورٌ مُتَضاعفٌ، قد تَظَاهَرَ فيه نورُ الزيتِ ونورُ المصباحِ ونورُ الزجاجةِ، فلم يَبْقَ ممّا يقوّي النورَ ويَزيدُ في إضاءَتِهِ بقيّةٌ.

واختُلفَ في هذا النورِ الذي أضافَهُ سبحانَه إلىٰ نفسِهِ وما شبَّهَهُ به، فذهب الأكثرُ من المفسّرينَ إلىٰ أنّه نبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وآله، فكأنّه قال: مَثَلُ محمدٍ صلى الله عليه وآله رسول الله وهو المِشْكاةُ، والمصباحُ قلبُهُ، والزجاجةُ صدرُهُ، شبَّهَهُ بالكَوكَبِ الدرِّي، ثمّ رَجَعَ إلىٰ قَلبِهِ المشبَّهِ بالمصباحِ فقال: يُوقَدُ هذا المِصْباحُ من شَجَرةٍ مُباركةٍ يعني: إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ أكثرَ الأنبياءِ من صُلْبِهِ، أو: شَجَرةُ الوحيِ لا شَرقيةٌ ولا غَربيّةٌ: لا نصرانيةٌ ولا يهوديةٌ؛ لأنّ النَصارىٰ تصلّي إلى المشرقِ واليهودَ إلى المغربِ ﴿يَكَادُ﴾ أعلامُ النبوّةِ تَشهَدُ له قبلَ أن يدعُو إليها، أو: يكادُ صدقُهُ في نبوَّتِهِ يتبيَّنُ ويتميَّزُ وإن لَمْ يُرَ شيءٌ من معجزاتِهِ، كما قال عبدالله بن رواحة:

لَو لَم تَكُنْ فيه آياتٌ مبيَّنةٌ كَانَتْ بَديهتُهُ تُنْبِئُكَ بِالخيرِ[٣]

وعن الباقرِ عليه السلام: «إنّ قولَهُ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ عَلَيها مِصْباحٌ هو نورُ العِلْمِ في صَدرِ النَّبي صلى الله عليه وآله، والزُجَاجَةُ صدرُ عليٍّ عليه السلام، علَّمه النبيُّ صلى الله عليه وآله عِلْمَهُ فصار إلى صَدره ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يكادُ العَالِمُ من آل محمدٍ صلى الله عليه وآله يتكلَّمُ بالعِلْمِ قَبل أن يُسْأَل ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: إمامٌ يؤيَّدُ بنورِهِ العِلْمُ والحِكمَةُ في إثرِ إمامٍ من آل محمدٍ صلى الله عليه وآله، وذلك من لَدن آدم إلىٰ قيام السَاعَةِ، هم خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ، وحُجَجُهُ علىٰ خَلْقِهِ، لا تَخلُو الأرضُ في كلّ عصرٍ من واحدٍ منهم»[٤].

---

(١) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٤٦.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٦٠.

(٣) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٢٣ ص ٢٣٧.

(٤) التوحيد للصدوق: ص ١٥٨.

وهذا يَقتَضي أن تكونَ الشَجَرةُ المباركةُ هي هـذه الشـجرةُ التـي أشـرَقَتْ الأَرضَ بنُورِها من عَهدِ آدم إلىٰ منقَرضِ العَالَم.

وقيلَ: إنّ نورَ اللهِ هو الحقّ[١]، كما في قَولِهِ: ﴿يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّـلُمَاتِ إِلَـى النُّورِ﴾[٢] أي: من البَاطِلِ إلى الحقّ، وعن أُبيّ بن كَعب: أنّه قَرأ «مثل نُورِ مَن آمَن به»[٣] يَهدي اللهُ بهذا النُورِ الثَّاقِبِ مَنْ يشاء من عبادِهِ، بأنْ يفعلَ به لُطفاً إذا عَلِمَ أنّه يَصلُحُ له، ويوفّقُهُ لاتِّباع دلائلِهِ.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلّقُ بمَا قَـبلَه، أي: كـمِشْكاةٍ فـي بَـعضِ بُـيُوتِ اللهِ، وهـي المَساجدُ، أو بما بعدَهُ وهو ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ... رِجَالٌ﴾ في بيوت. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ هُـو تَكريرٌ كما يُقالُ: زَيدٌ في الدارِ جَالسٌ فيها، والمرادُ بالإِذْنِ: الأمرُ ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي: تُبْنَىٰ، كقولِهِ: بَنَاها: رفَعَ سُمْكَها ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَـيْتِ﴾[٤]، أو: تعظم وترفع من قَدرِها، وقيلَ: هي بيوتُ الأنبياء[٥]، ورُوي ذلك مرفوعاً، وهو: أنّهعليه‌السلام لمّا قَرأَ هذه الآية سُئِلَ: أيُّ بُيُوتٍ هذه؟ قال: بُيُوتُ الأنبياءِ، فقامَ أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيتُ منها، وأشار إلىٰ بيت عليٍّعليه‌السلام وفاطمةعليها‌السلام؟ فقال: نعم، مِنْ أفاضِلِهَا[٦]. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: يُتْلَىٰ فيها كتابُهُ، ويُذكرُ أسماؤه الحُسْنىٰ، وقُرئَ: «يُسَبَّحُ لَه» على البناء للمفعولِ[٧]، وإسنادُه إلىٰ أَحَدِ الظُـروفِ الثَلاثةِ وهي: ﴿لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٢ ونسبه الى عليعليه‌السلام.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٤٢.

(٤) البقرة: ١٢٧.

(٥) قاله مجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٦٥.

(٦) رواه الآلوسي في تفسيره: ج ١٨ ص ١٧٤ عن أنس وبريدة.

(٧) قرأه ابن عامر وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٨.

ويرتفعُ ﴿رِجَالٌ﴾ بما دلّ عَليهِ ﴿يُسَبِّحُ﴾ أي: يُسبِّحُ رجالٌ، والآصَالُ: جَمعُ أُصُل وهو العَشِيُّ، والمعنىٰ: بأوقاتِ الغُـدُوِّ أي: بـالغَدَواتِ، والتِّـجَارَةُ: صـناعةُ التَاجِرِ، أي: لا يشغلُهُم عن الذكرِ والصَلاةِ، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ تَـركُوا التـجَارةَ وقامُوا إليها ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقَامتُها، فإنّ التاءَ في «إقامة» عِوَضٌ من العَينِ الساقِطَةِ، إذ الأصلُ «إِقْوَام» فلمّا أُضيفَتْ أُقيمَتِ الإضافةُ مقامَ حَرفِ التَـعويضِ فأُسقطَتْ، ونَحوُهُ:

وأَخْلَفُوكَ عِدَا الأَمرِ الّذِي وَعَدُوا[1]

وَتَقَلُّبُ الْقُلُوبِ وَالأَبْصَارِ: أَن تَضطَرِبَ من الهَوْلِ والفَزَعِ، و«تَشْـخَصُ» أي: تَتَقلَّبُ أَحوالُها فتفْقَهُ القُلوبُ وتُبصر الأَبصَارُ بعد أن كانَتْ لا تَفقَهُ ولا تُبصِرُ، أي: يُسَبِّحونَ ليَجزيَهُم جزاءَ أعمالِهم مُضاعفاً، ويُزيدَهُم على الثَّوابِ تَفضُّلاً، والتَفَضُّلُ يكونُ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) ﴾

---

(١) وصدره: إنّ الخَليطَ أجدّوا البَيْنَ فانجَرَدُوا. والبيت منسوب لزهير بن أبي سلمى من قصيدةٍ يمدح بها هرم بن سنان، وقيل: للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب. راجع ديوان زهير: ٢٦.

وَالسَّرَابُ: ما يُرىٰ في الفلاة يَسربُ علىٰ وَجْهِ الأَرْضِ كأنّـه مـاءٌ يَـجري، والقِيعَةُ: بمعنى القَاع أو جَمعُ القَاعِ، وهو المُستَوي من الأَرضِ، شَبَّهَ ما يَعملُهُ الكفّارُ من الأعمالِ التي يَحسبُها نَافِعةً عند الله بسَرابٍ، يَراهُ مَنْ غَلَبَهُ العَطَشُ فيَحسِبُهُ ماءً، فَيأتِيهِ فَلا يجدُ ما يرتَجِيه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ عِنْدَ عَمَلِهِ فَجازَاهُ علىٰ كُفْرِهِ، أو: وَجَدَ الله عندَه بالمِرصَادِ فأتمَّ لَهُ جَزَاءَه، وهذا في الظاهِرِ خَبَرٌ عن ﴿ٱلظَّمْـَٔانِ﴾ وفي المعنىٰ خبرٌ عن الكفّار، وفي معناهُ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَـمِلُواْ مِـنْ عَـمَلٍ فَـجَعَلْنَـٰهُ هَـبَآءً مَّنثُوراً﴾[1] ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾[2] ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[3].

وَالبَحرُ اللُّجِّيُّ: الكَثيرُ المَاءِ، منسوبٌ إلى اللُّجِّ وهو مُعظَمُ ماء البحرِ ﴿يَغْشَـٰهُ﴾ أي: يعلُو ذلكَ البحرَ ﴿مَوْجٌ﴾ مِن فَوقِ ذلكَ المَوجِ ﴿مَـوْجٌ مِـن﴾ فـوقِ المَـوجِ ﴿سَحَابٌ ... ظُلُمَاتٌ﴾ ظُلْمةُ البَحرِ وظُلْمةُ المَوجِ وظُلْمةُ السَحَابِ ﴿إِذَآ أَخْـرَجَ﴾ الواقِعُ فيها ﴿يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مبالغةً في: لَمْ يَرَها، أي: لَمْ يَقْرِبْ أَن يَـراهـا، وهذا تشبيهٌ ثانٍ لأعمَالِهِم في خلوِّها عن نُورِ الحقّ وظُلْمَتِها لِـبُطلانها بـظُلُماتٍ مترَاكِمَةٍ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً﴾ بتَوفيقِهِ ولُطْفِهِ فَهو في ظُلْمةِ الباطلِ لا نُورَ له. وقُرئ: «سحابُ ظلماتٍ» على الإضَـافةِ[4]، و«سـحابٌ» بـالرَفعِ والتَـنْوينِ «ظلماتٍ» بالجرّ[5] بدلاً من ﴿ظلماتٌ﴾ الأُولىٰ.

﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ يَصفُفْنَ أجنحتَهنّ في الهَواءِ، والضَميرُ في ﴿عَلِمَ﴾ لـ﴿كُلٌّ﴾ أو لـ﴿اللهِ﴾، وكذلكَ في ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كما أَلْهَمَها سَائرَ العُلُومِ الدَقـيقةِ التـي لا يَكادُ العقلاءُ يهتَدُونَ إلَيها.

---

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) الغاشية: ٣.
(٣) الكهف: ١٠٤.
(٤) قرأه ابن محيصن والبزي عن ابن كثير. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٨٤.
(٥) وهي قراءة قنبل. راجع المصدر السابق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤) وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾

﴿يُزْجِى﴾ يَسُوقُ، ومنه: البضاعةُ المُزْجَاةُ، يُزجِيهَا كلُّ أَحَدٍ لا يَرضَاهَا، والسَّحَابُ قَد يَكونُ واحداً كالغماء وجَمعاً كالرباب ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: بين أجزائِهِ بأن يَضُمَّ بعضَها إلىٰ بعضٍ، ولذلكَ جَازَ «بينَه» وهو واحدٌ، كَما قيلَ في قولِهِ:

بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْملِ [1]

والرُّكَامُ: المتَراكِمُ، والوَدْقُ: المَطَرُ ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فُتُوقِهِ ومَخارجِ القَطرِ منهُ جمع خَلَل، وقُرئَ في الشَّواذ: «مِنْ خَلَلِهِ»[2]. ذَكَرَ من جُملةِ الدلائلِ علىٰ ربُوبيتِهِ: تَسبيحُ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ وكلّ ما يَطيرُ، ثم ذَكَرَ سبحانَهُ: تَسخيرُ السَحَابِ، وإنْزالِ المَطَرِ منه، وما يَحدثُ فيه من الأفعالِ علىٰ ما تَقتَضيه الحكمةُ. و﴿مِنْ﴾ الأُولىٰ لابتداءِ الغَايةِ والثانيةُ للتَبعيضِ والثَالثةُ للتَبيينِ، أو: الأُولتانِ للابتداءِ، والآخرةُ للتَبعيضِ، علىٰ معنىٰ: يَنزلُ البَردُ منَ السَماءِ ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾،

---

(١) وتمام البيت:

قِفَا نَبكِ مِن ذِكْرىٰ حَبيبٍ ومنزلِ ... بسِقْطِ اللِوَىٰ بين الدَخُول فَحَوْمَلِ

لامرئ القيس وهو مطلع معلّقته المشهورة. انظر شرح المعلّقات السبعة للزوزني: ص ٤.

(٢) قرأه ابن عباس وابن مسعود والضحاك. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٤.

وعلىٰ الأوّلِ يكونُ ﴿مِن جِبَالٍ﴾ مفعولُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ وقُرئ: ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَٰرِ﴾ علىٰ أن يكونَ الباءُ مَزيدةً كما في قولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (١) أي: يكَادُ ضوءُ برقِهِ يَخْطَفُ البَصَرَ لشدّةِ لَمَعَانِهِ. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يصرِّفُهُما ويُخالِفُ بينَهُما بالطُّولِ والقِصَرِ.

ولمّا كانَ اسمُ «الدَّابّة» يَقعُ على المُميِّزِ وغيرِ المُميِّز غُلِّبَ حُكْم المميِّز بأن قالَ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى﴾ في الماشي علىٰ بَطنِهِ، والماشي علىٰ ﴿أَرْبَعٍ﴾ قوائِمِ، وَلَم يذكُرْ ما يَمشي علىٰ أكثرِ من أَربعٍ، لأنّه كما يَمشي علىٰ أربعٍ في مَرأى العَينِ. وعن الباقرِ عليه السلام: «وَمِنْهُم مَن يَمشي علىٰ أكثرِ من ذَلكَ» (٢). وإنّما نَكَّرَ قوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾ لأنّ المَعنىٰ: أنّه خَلَقَ كلَّ دابّةٍ من نَوعٍ منَ الماءِ مختصٍّ بتلكَ الدابّةِ، فمنها نَاسٌ، ومنها بَهائم، ومنها هَوامٌّ، ومن نحوِهِ قولُه: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ (٣). وسمَّى الزَحْفَ على البَطْنِ مَشياً علىٰ طريقِ الاستعارةِ، كما قَالُوا: مَشَىٰ هذا الأمرُ، أو: علىٰ طَريقِ المشاكَلَةِ لأنّه ذكَرَها مع الماشين. وقرئ: «خَالِقُ» (٤).

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰئِكَ

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٠٧ وفيه عن الصادق عليه السلام.

(٣) الرعد: ٤.

(٤) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٩.

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢)﴾

يعني بقَولِهِ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلىٰ رَسولِ اللهِ بدَلالةِ قَولِهِ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، كما قيلَ: أَعجَبَني زيدٌ وكَرَمُه، والمرادُ: كَرَمُ زيدٍ. ورُوي: أنّ رجلاً كانَت بينَه وبينَ عليٍّ عليه السلام خُصُومةٌ في مَاءٍ وأرضٍ، فقالَ الرجلُ: لا أُحاكِمُ إلىٰ محمدٍ صلى الله عليه وآله فإنّي أَخافُ أن يَحكُمَ لَه عَلَيَّ[1]. وذكر أبو القاسم البلْخِي: أنّها كانَت بينَ عليٍّ عليه السلام وبينَ عثمانَ، وكانَ قَد ٱشترىٰ أرضاً من عليٍّ عليه السلام، فَخَرجَتْ فيها أحجارٌ، فأرادَ ردَّها بالعَيْبِ، فقالَ: بيني وبينَك رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال الحكمُ بن أبي العاص: إنْ حاكَمْتَه إلى ٱبن عمِّه حَكَمَ لَهُ، فنَزَلَتْ[2].

﴿مُذْعِنِينَ﴾ مُسرعينَ مُنقادينَ، و﴿إِلَيْهِ﴾ صِلَتُه أو صِلَةُ ﴿يَأْتُوا۟﴾، والمعنىٰ: أنّهم يَنحَرِفُونَ عن المُحاكَمةِ إليكَ إذا كانَ الحقُّ عَلَيهم لِعِلْمِهم بأنّك لا تَحكُمُ إلّا بالحقِّ المُرِّ والعَدْلِ البَحْتِ، وإنْ ثَبتَ لَهُم حقٌّ علىٰ خَصْمٍ أَسرعُوا إليكَ ولَمْ يرضُوا إلّا بحكُومَتِكَ، لتأخذَ لَهُم ما ثَبتَ لَهُم في ذمّةِ الخَصْمِ. ﴿بَلْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: لا يخافُونَ أن يَحيفَ عَلَيهِم لِمَعرفَتِهم بحَالِهِ، وإنّما هُم ظَالمُونَ يُريدونَ ظُلْمَ مَنْ لَهُ الحقُّ عَلَيهم.

وقُرِئَ: ﴿يَتَّقْهِ﴾ بكَسْرِ القَافِ والهَاءِ مَعَ الوَصْلِ[3] وبغَيرِ وَصْلٍ[4]، وبِسكُونِ

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٤٨.

(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٥٠.

(٣) قرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وورش وقالون وابن سعدان عن اسحاق المسيبي عن نافع. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٥٢.

(٤) قرأه قالون عن نافع والأعشىٰ ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧٠.

الهاءِ[(١)]، وبِسكُونِ القَافِ وكَسْرِ الهَاءِ. شُبِّه «تَقِهِ» بكَتِفٍ فخفَّف، كقولِ الشَاعِرِ:

قَالَتْ سُلَيمىٰ: اشْتَرْ لَنا سُوَيْقاً[(٢)]

وعن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ يُطعِ اللهَ﴾ في فَرائِضِهِ ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سُنَنِهِ، ويَخشَىٰ ﴿اللهَ﴾ علىٰ ما مَضَىٰ من ذُنُوبِهِ ويَتَّقِه في المستَقْبل[(٣)].

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُواْ ٱللهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٥٥) ﴾

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أصلُه: يَجهدُونَ الأَيمانَ جُهداً، فَحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ فوضع موضِعُهُ مضَافاً إلى المفعول، كقَولِهِ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[(٤)]، وحُكمُ هذا المنصُوبِ حُكْمُ الحَالِ، كأنَّه قالَ: جاهِدينَ أيمانَهم، وجُهْدُ يَمينِهِ مُستعارٌ من جُهْدِ نَفْسِهِ إذا بَلَغَ أقصىٰ وُسْعِها، وذلك إذا بالَغَ في اليَمينِ وبَلَغَ غَايةَ وِكَادَتِهَا، وعن ابن عبَّاسٍ: مَن قالَ: بالله، فَقَد جَهدَ يَمينه[(٥)]. ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بِالْخُرُوجِ في غَزَواتِكَ

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وأبي بكر وابن عامر ويحيىٰ. راجع المصدر السابق.

(٢) وعجزه: وهات خبز البرّ أو دَقيقاً والبيت منسوب للعذافر الكندي، والسويق: ما تعمله العرب من الحنطة والشعير. أُنظر الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٩.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٢٩٨.

(٤) محمد ﷺ: ٤.

(٥) تفسير ابن عباس: ص ٢٩٨.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ خَبَرُ مبتدأ محذوفٌ، أي: أَمرُكُم، والذي يُطلَبُ منكُم طاعةٌ معلومةٌ لا يُشَكّ فيها كطَاعةِ المخلِصينَ لا أَيْمَانَ تقسِمُونَ بها بأفْواهِكُم وقُلوبُكُم لا تُطَابقها، أو: مبتدأٌ محذوفُ الخَبرِ أي: طاعةٌ معلومةٌ[1] أوْلَىٰ بكُم من هذه الأَيمانِ الكاذِبةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا﴾ في ضَمائِركم يُجازيكُم عَليه.

﴿فإنْ﴾ تَتَوَلَّوا عن طَاعةِ اللهِ ورسولِهِ فإنّما ضَرَّرتُم أَنفُسَكُم، فإنّ الرسُولَ ليسَ عَليه إلّا ما حَمَّلَهُ اللهُ وكلّفَهُ من أداءِ الرِّسالةِ، فإذا أدَّىٰ فَقَد خَرَجَ عن العُهدَةِ ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ ما كُلِّفْتُم من التَّلَقِّي بالقَبولِ والانقيادِ للطَاعةِ، و﴿ٱلْبَلَـٰغُ﴾: التبليغُ، كالأَداءِ بمعنى التأْدِيَةِ، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المَقْرونُ بالآياتِ والمعجَزاتِ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المُؤْمِنِينَ المُطيعينَ للهِ، ورسولِهِ أن يَنصُرَ دينَ الإِسلامِ على الكفرِ، وَيُورِثَهُمُ الأَرْض، وَيَجْعَلَهُم خُلَفَاءَ فيها كَمَا فَعَلَ ببَني إسرائيل إذ أَهلَكَ الجَبابرَةَ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وأن يُمَكِّنَ ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى﴾ أَمَرَهُم أن يدينُوا به، وتَمكينُهُ وتَثبيتُهُ وتوطيدُهُ وإظهارُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه، كما قال عليه السلام: «زُويتْ لِيَ الأرضُ فَأُرِيتُ مشارقَها ومغاربَها، وسَيَبلغُ مُلك أُمّتي ما زُوِيَ لي منها»[2].

ورَوَى المقدادُ عنه عليه السلام أنّه قالَ: «لا يَبقَىٰ علىٰ وجهِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلّا أدخَله الله كلمة الإِسلام بعزّ عزيز أو ذُلّ ذليل، إمَّا أن يُعِزَّهم اللهُ فيَجعلَهُم من أَهلِها، وإمَّا أن يذلَّهُم فيدينُون لها»[3].

وقُرِئَ: «كَمَا ٱسْتُخْلِفَ» بضمّ التاء[4] ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ من الأبدالِ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ استئنافٌ أو حالٌ من «وَعدهم».

---

(١) في نسخة: «معروفة».
(٢) سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٣٠٤ ح ٣٩٥٢.
(٣) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٥٥.
(٤) قرأه ابو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧١.

وروي عن عليّ بن الحسين عليه السلام، أنّه قَالَ: «هم واللهِ شيعتُنا أهل البيت، يفعلُ ذلكَ بهم علىٰ يَدَيْ رجلٍ منّا، وهومهديُّ هذهالأُمةِ، وهوالذي قال رسولالله صلى الله عليه وآله: لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يومٌ لَطوّل اللهُ ذلكَ اليومَ حتّىٰ يَليَ رجلٌ من عترتي اسمُه اسمي وكُنيتُه كُنيتي، يملأ الأرضَ قسطاً وعَدْلاً كما مُلِئَتْ ظُلْماً وجوراً»[1].

ورُوي ذلك عن الباقر عليه السلام والصادق أيضاً عليه السلام.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

﴿أقِيمُوا﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وجازَ وإنْ طالَ الفاصلُ بينَهما، لأنّ حقَّ المعطوفِ أن يكونَ غيرَ المعطوفِ عليه.

وقُرئ: «لَا يَحْسَبَنَّ» بالياء[2]، والوجهُ فيه أن يكونَ فاعلَهُ ضميرُ النبيِّ صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الميرزا المشهدي في كنز الدقائق: ج ٧ ص ١٠٩ عن العياشي.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧١.

لتقدُّمِ ذكرِه، أو يكونَ أحدُ المفعولَين محذوفاً، أي: ولا يَحسبنَّ الَّذين كَفَروا أنفسَهم مُعجِزين.

أمَرَ سبحانَه بأن يَستأذنَ العَبيدُ والأطفالُ الذين لم يحتلِمُوا من الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليومِ والليلةِ: ﴿قَبْلَ صَلَوٰةِ ٱلفَجْرِ﴾ لأنّه وقتُ القيامِ عن المَضاجِعِ ولُبْسِ الثِّياب، وبـ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾ لأنّه وقتُ وَضْعِ الثّيابِ للقائلة، و﴿بَعْدَ صلوٰةِ العِشَاءِ﴾ لأنّه وقتُ التجرُّدِ من ثيابِ اليَقْظَةِ والالتحافِ بثيابِ النومِ، وسمّىٰ كلّ وقتٍ من هذه الأوقات عَوْرَةً لأنّ الناسَ يَختلّ تَحَفُّظُهم وتسَتُّرهم فيها. والعَورَةُ: الخَلَلُ، ثم عَذَرَهَم في تَرك الاستئذانِ في غيرِ هذه الأحوالِ، وبيَّن وجهَ العُذْرِ في ذلكَ بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هُم خَدَمُكم يَطوُفون عَليكم للخِدْمةِ، فلا يجدُونَ بُدّاً من دُخُولهم عَليكُم ﴿بَعْضُكُمْ علىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يطُوفُ بعضُكُم وهُم المَماليكُ على المَوالي. وقُرئ: «ثَلاثَ عَوْرَاتٍ» بالنَصبِ [١] بدلاً عن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: أوقَات ثَلاثَ عَورات، وإذا رُفِعَتْ ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ كانَ قولُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ في محلّ ٱلرفعِ على ٱلوصفِ، والمعنىٰ: هُنَّ ثَلاثُ عَوْراتٍ مخصوصةٌ بالاستئذانِ، وإذا نُصبتْ كان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ كَلاماً مُستأنفاً مُقرّراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوالِ خاصّةً، و﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأٌ، والتقديرُ: بعضُكُم طَائفٌ علىٰ بعضٍ، فحُذِفَ لأنّ ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ يَدلّ عليه.

﴿بَلَغَ الأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ الأَحرارُ دونَ المَماليك، والمعنىٰ: أنّ الأطفالَ مأذونٌ لَهُم في الدخولِ بغير إذْنٍ إلّا في الأحوالِ الثَلاثِ، فإذا خَرَجُوا من حَدِّ الطفُوليّةِ ﴿فَلْيَسْتَئْذِنُواْ﴾ في جَميعِ الأوقاتِ كالرجالِ الكِبَارِ. وعن ابن مسعودٍ: عَليكُم أَن تستأذِنُوا علىٰ آبائِكم وأُمّهاتِكم وأخواتكم وإخوانكم [٢].

---

(١) قرأه حمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٥٩.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٥٤.

القاعِدُ: التي قَعَدَتْ عن الحَيضِ والوَلَدِ لكبَرِها ﴿لا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ لا يَطمَعْنَ فيه، والمُرادُ بالثِّيابِ: الثيابُ الظَّاهِرةُ[1] كالمِلْحَفَةِ والجلْبابِ الذي فوق الخِمارِ، وفي قراءةِ أهل البيتِ عليهم السلام: «أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ»[2] غيرَ مُظْهِرَاتٍ زينةً بوضعِ ثيابهنّ. وحقيقةُ التبرُّجِ: تكلُّفُ إظهارِ ما يَجبُ إخفاؤُهُ، واختصّ بأن تَنكشفَ المَرأةُ للرجالِ بإبداءِ زينَتِهَا، وإظْهارِ مَحَاسِنِها، والاستِعفَافِ بلُبسِ الجَلابيب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وإنْ سَقَطَ الحَرَجُ عَنهنَّ فيه.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾

كانَ المؤمنونَ يذهَبونَ بالضُعفاءِ وذَوي العَاهَاتِ إلىٰ بُيُوتِ أزواجِهِم وأولادِهِم، وإلىٰ بُيُوتِ أقربائِهِم وأصدقائِهِم فيُطعِمُونَهُم منها، فخافُوا أن يَلْحَقَهُم فيه حَرَجٌ فقيل: «لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاء وَلَا عَلَىٰ المَرْضَى وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ» يعني:

---

(١) في نسخة: «الظاهرة».

(٢) التبيان: ج ٧ ص ٤٦١.

لَيسَ عليكُم وعلىٰ مَن في مِثْلِ حَالِكُم من المؤمنينَ ﴿حَرَجٌ﴾ في ذلك، وقيلَ: كانَ هؤلاءِ يتوقَّونَ مُجَالَسةَ الناسِ ومُؤاكلتَهُم لَما عسىٰ أن يلحقَهُم من الكراهَـةِ مـن قِبَلِهِمْ[١]. وقيلَ: كانُوا يخرجُونَ إلى الغزوِ ويخلِّفون الضُعَفَاءَ في بيوتِهِم ويَدفعونَ إليهم المفاتيحَ ويأذنُونَ لَهم أن يأكُلوا من بيوتِهِم فكانُوا يَتحرَّجُونَ، فـقيلَ: ليسَ علىٰ هؤلاء الضعفاءِ حَرَجٌ فيما تحرجونَ عنه ولا عليكم ﴿أنْ تَأكُلُواْ﴾ من هـذهِ البُيُوتِ[٢]، ولَمْ يأْتِ ذِكْرَ الأولادِ لأنّ ذِكْرَهُم قَد دَخَلَ في قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ لأنّ وَلَدَ الرجلِ بعضُه، وحُكْمَهُ حُكْمُ نفسِه.

وفي الحديث: «إنّ أطيبَ ما يأكلُ الرجلُ من كَسْبِهِ، وإنّ وَلَدَه مِن كَسْبِه»[٣].

ومُلْكُ المَفَاتِيح: كونُها في يَدِهِ وحفظِهِ، و«الصَّديقُ» يكونُ واحِداً أو[٤] جمعاً، وكذلكَ العدوّ، والمعنىٰ: أو بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ، وعن أئمةِ الهـدىٰ عليهم السلام قـالوا: «لا بأس بالأكلِ لهؤلاءِ من بُيُوتِ مَنْ ذَكَرَه الله تعالىٰ بغير إذْنِهم قَدَرَ حَـاجَتِهِم مـن غَيرِ إسرافٍ»[٥].

وعن الحَسَنِ: أنّه دَخَلَ دارَه فإذا حلقة من أصدقائِهِ وقَدْ استَلُّوا سِلَالاً مـن تَحتِ سريرِهِ فيها الخَبيصُ وأطايب الأطعمةِ وهم يأكلونَ، فتهلَّلَ وجهُه سُـروراً وقال: هكذا وَجَدْناهُم ـ يريدُ كبراء الصَحابةِ ـ وكـانَ الرجـلُ مـنهم يَـدخُلُ دارَ صَديقِهِ وهو غَائبٌ، فَيَسألُ جاريَتَه كِيسَهُ فيأْخذُ ما شَـاءَ، فـإذا حَـضَرَ مَـولَاها فأَخْبَرتْهُ أَعتَقَها سُروراً بذلك[٦].

---

(١) قاله ابن عباس والضحاك والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢٢.

(٢) قاله سعيد بن المسيّب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٥٧.

(٣) مسند أحمد: ج ٦ ص ٣١ و٤٢، سنن البيهقي: ج ٧ ص ٤٨٠.

(٤) في نسخة: «و» بدل «أو».

(٥) التبيان: ج ٧ ص ٤٦٣.

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٥٨.

وعن جعفر الصادقعليه السلام: «من عِظَمِ حُرمةِ الصَديقِ أنْ جَعَلَهُ اللهُ من الأُنسِ والثِقَةِ والانبساطِ وَطَرحِ الحشمَةِ بمنزلةِ النَفْسِ والأَبِ والأَخِ والابنِ»[١].

﴿جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: مجتَمعينَ أو متفرِّقينَ، كانُوا لا يأكلُونَ إلّا مَعَ ضَيفِهِم، ويتحَرَّجُ الرجلُ أن يأكلَ وحدَه، و﴿إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوتِ فابدأوا بالسَلامِ علىٰ أهلِها الذين هُم منكُم ديناً وقرابةً ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ ٱللهِ﴾ ثابتةً بأمرِهِ، مَشروعَةً من لَدُنْهِ، ولأنّ التَسليمَ طَلَبُ سَلَامةٍ للمسلَّمِ عليه، والتَحيّةُ طَلَبُ حياةٍ للمحيَّىٰ من عندِ اللهِ، وَوَصَفَها بالبركةِ والطِّيبِ لأنّها دعوةُ مؤمنٍ لمؤمنٍ، يُرجَىٰ بها من اللهِ زيادة الخير وطيب الرزقِ. ومنهُ قولُهُعليه السلام: «سلِّمْ علىٰ أهلِ بيتِكَ يَكثر خَيْرُ بيتِكَ»[٢] وَ﴿تَحِيَّةً﴾ منصوبةً بـ«سَلِّمُوا» لأنّها في معنىٰ «تسليماً»، كما تقولُ: حمدتُ شُكْراً.

﴿وإِذَا كَانُوا﴾ مع النبيّصلى الله عليه وآله ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يَقتَضي الاجتماعَ عليه والتَعاونَ فيه، من حُضُور حَربٍ أو مشُورةٍ في أمرٍ أو صَلاةِ جُمعةٍ وما أشبهها ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَئْذِنُوهُ﴾ جَعَلَ تَرْكَ ذهابِهِم حتّىٰ يَستَأْذنُوه ثالثَ الإيمانِ باللهِ والإِيمانِ برسولِهِ مَعَ تصديرِ الجملةِ بـ﴿إِنَّما﴾، وإيقاع «المؤمنين» مبتدأ مُخْبَراً عنه بموصولٍ يُحيطُ صِلَتَهُ بذِكرِ الإِيمانَيْن، ثم أكَّد ذلك بأن أعادَ ذِكْرَهُ علىٰ أُسلوبٍ آخر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ضمَّنه شيئاً آخرَ، وهو أنّه جَعَلَ الاستئذانَ كالمِصْداقِ لصحّةِ الإِيمانَين، ثمّ خَيَّرَهُصلى الله عليه وآله بين أن يأْذَنَ وبين أَن لا يأذن، وهكذا حُكْمُ مَن قامَ مَقَامَهُ منَ الأئمّةِعليهم السلام.

﴿لَا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ

---

(١) رواه عنهعليه السلام الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٥٧.

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٥.

ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

أي: ﴿لَا تَجْعَلُواْ﴾ تَسمِيَتَهُ ونداءَهُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ كَما يُسمِّي بَعضُكُم بَعضاً ويناديه باسمِهِ، فلا تقولوا: يا محمدﷺ، ولكن: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، مَعَ التَوقيرِ والتَعظيمِ والتَواضِعِ وخَفضِ الصَوتِ، أو: لا تقيسُوا دعاء[١] إيّاكُم علىٰ ﴿دُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ ورجُوعِكُم عن المجمعِ بغير إذنِ الداعي، فإنَّ في القُعُودِ عن أمرهِ قُعُوداً عن أمرِ الله تعالىٰ، أو: لا تَجعَلُوا ﴿دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ لَكُم أو عليكُم مثلَ دعائِكِم، فإنّ دعوتَهُ مُستَجابَةٌ مسموعَةٌ ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ﴾ قَليلاً ﴿لِوَاذاً﴾ أي: مُلَاوذَةً، يلوذُ هذا بذَاكَ وذاكَ بهذا، المعنىٰ: يَتسلَّلونَ عن الجماعةِ في الخُفيةِ، يستَتِرُ بعضُهُم ببَعضٍ. و﴿لِوَاذاً﴾ حالٌ، أي: مُلاوذينَ، وقيلَ: نَزَلَتْ في حَفْرِ الخَندقِ وكان قومٌ يَتَسلّلونَ بغير إذنٍ[٢]، وقيلَ: كانوا يَتسلّلونَ عن الجهادِ يَرجعُون عنه[٣]، وقيلَ: عن خُطْبَةِ النبيّﷺ يوم الجُمُعة[٤]. يقالُ: خالَفَهُ إلى الأمر: إذا ذَهَبَ هو إليهِ دونَه، ومنهُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَٰكُمْ عَنْهُ﴾[٥] وخَالَفَهُ عن الأمر: إذا صَدَّ عنهُ دونَه، ومعناهُ: الذين يصدُّونَ عن أمرِهِ دونَ المؤمنينَ، والمفعولُ محذوفٌ، والضَميرُ في ﴿أَمْرِهِ﴾ للهِ أو للرَّسولِ، والمعنىٰ:

---

(١) في نسخة: «دعاءه».

(٢) قاله عروة ومحمد بن كعب القرظي. راجع الدر المنثور: ج ٦ ص ٢٢٩.

(٣) وهو قول مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢٨.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٦٢.

(٥) هود: ٨٨.

عَن طاعةِ اللهِ ودينِهِ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: مِحْنَةٌ في الدنيا تُظْهِرُ نفاقَهُم أو بليّةٌ. وعن جعفر بن محمدعليه السلام: «يُسلِّطُ عليهِم سُلْطاناً جائِراً، وعَذاباً أليماً في الآخرة»[١]، وهذا يَدلُّ علىٰ أنّ أوامرَ النبيِّ صلى الله عليه وآله على الوجوب.

أدْخَلَ ﴿قَدْ﴾ ليؤكّدَ عِلْمَه بما هُم عَليه من المُخالفَةِ، وتَوكيدُ العلم لِتَوكيد الوعيد، وذلك أنّ «قَدْ» إذا دَخَلَتْ على المُضَارعِ كانت بمعنىٰ «ربّما»، فوافَقَتْ «ربّما» في خروجها إلىٰ معنى التكثير في نَحوِ قولِهِ:

فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الغِنَاءِ فَرُبَّما أَقامَ به بعدَ الوفُودِ وفُودُ[٢]

ونحوه قولُ زُهَيرٍ:

أَخِي ثقةٍ لا تُهلك الخمرُ مالَه ولكنَّه قد يُهلكُ المالَ نائلُهُ[٣]

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد ٱختَصَّ جميعها به، خَلْقاً وَمُلْكاً وَعِلْماً، فكيفَ يَخفَىٰ عليهِ أَحوالُ المنافِقينَ وإنْ كانُوا يَجتَهدونَ في سِتْرِها عن العُيُونِ وإخفائِها، وسـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ يومَ القيامةِ بمَا أَبطَنُوه ويُجازِيهِم عليه.

والخِطابُ والغيبةُ في قولِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونَا معاً[٤] للمنافقينَ علىٰ طَريقِ الالتفاتِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامّاً و﴿يُرْجَعُونَ﴾ خاصّاً.[٥]

❁ ❁ ❁

(١) رواه عنهعليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢) البيت منسوب لابن عطاء السندي من قصيدة نظمها في رثاء ابن هبيرة لمّا قتله المنصور الدوانيقي، يقول: فإن هجر الناس بيتك الآن فلا حزن، لأنّه كثيراً ما اجتمعوا فيه في حياتك ومُنِحُوا خيراً. راجع شرح شواهد الكشاف للأفندي: ص ٦٢.

(٣) البيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر ويصفه بالكريم، يقول: إنّ ماله «لا يتلفه» شيء بقدر ما «يتلفه» عطاؤه المتواصل. راجع ديوان زهير: ص ٦٨.

(٤) في نسخة: «عامّاً».

(٥) في المخطوطة زيادة: بهم.

سورةُ الفُرْقَان

مكّيّةٌ إلّا آياتٍ[1]، وهي سبعٌ وسبعونَ آيةً بلا خِلَاف.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَها بُعِثَ يومَ القيامَةِ وهو مُؤمنٌ بأنّ السـاعَةَ آتـيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأُدْخِلَ الجنَّةَ بغير نصب»[2].

[عن إسحاق بن عمّار] عن أبي الحَسَـنِ مـوسىٰ عليه السلام قـال: «يـابنَ عـمّار، لا تَدَعْ قِراءَةَ سُورةِ ﴿تَبَارك ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرقَانَ عَـلَىٰ عَـبدِهِ﴾ فـإنَّ مَـن قَـرأَهـا في كلِّ ليـلةٍ لَـمْ يُـعذِّبْهُ اللهُ أبـداً، ولَـمْ يُـحاسِبْهُ، وكـانَ مـنزلهُ فـي الفِـردَوسِ الأعلىٰ»[3].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٦٦٩: قال مجاهد وقتادة: هي مكّية، وقال ابـن عباس: نزلت ثلاث آيات منها بالمدينة، من قوله: ﴿وَالَّذينَ لا يَدعُونَ مَعَ ٱللهِ إلَٰهاً آخَرَ﴾ الى قوله: ﴿رَحيمَاً﴾، عدد آياتها سبع وسبعون آية ليس فيها خلاف.

وقال القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١: مكّية كلّها في قول الجمهور، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ﴾ الىٰ قوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، وقال الضحّاك: هي مدنية، وفيها آيات مكّية قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦٢: مكية إلّا الآيات ٦٨ و٦٩ و٧٠ فمدنيّة وآياتها ٧٧، نزلت بعد يسٓ.

(٢) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٩٨ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَـذِيراً (١) ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنـفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَـفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰـهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٦) وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنـزِلَ إِلَـيْهِ مَـلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَـتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُـلاً مَّسْـحُوراً (٨) ٱنـظُرْ كَـيْفَ ضَـرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَـعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً (١٠) ﴾

البَرَكةُ: الكثرةُ من الخيرِ، ومنها: ﴿تَبَارَكَ﴾ اللهُ أي: عَظُمَتْ خيراتُه وكَـثُرتْ. وسمِّي القُرآنُ «فُرْقَاناً» لفَصْلِهِ بينَ الحقّ والباطلِ، أو: لأنّه لَم يَنزِلْ جُملةً واحدةً بل مُتفرِّقاً مفصُولاً بينَ بعضِهِ وبعضٍ في الإنزالِ ﴿لِيَكُونَ﴾ الضميرُ لـ﴿عَبْدِهِ﴾ أو لـ﴿الفُرْقَانَ﴾، ﴿لِلْعَـٰلمينَ﴾ للجنِّ والإنسِ ﴿نَذِيراً﴾ مُـنذِراً مُـخوِّفاً، أو: إنـذاراً كالنكيرِ بمعنَى الإنكار. ﴿الَّذِي لَهُ﴾ بَدلٌ من ﴿الَّذي نزَّل﴾، أو مَدحٌ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ هيَّأَهُ لِمَا يَصلُح له.

والخَلْقُ بمعنى الافتعال[١] في قَولِهِ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾[٢] أي: لا يَقدرونَ علىٰ شيءٍ من أفعالِ اللهِ ولا من أفعالِ العبادِ، فَلا يَفتَعِلونَ شيئاً وهم يُفتَعَلون، لأنَّهم عَبدتُهُم يَنحتُونَهم ويُصوِّرونَهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يستطيعُونَ ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ دَفعَ ضَررٍ عنها ولا جَلْبَ نفعٍ إليها، وإذا عجزُوا عن ذلك فَهُم عن المَوتِ والحَياةِ أعجزُ.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وَهُم اليهُودُ، وقيلَ: عدَّاس مَولىٰ حُويطِب بن عبد العزَّىٰ، ويَسار مَولَى العلاء بن الحضرمي[٣]. «جَاءَ» و«أَتىٰ» يُستَعمَلان في معنىٰ فَعَلَ، فيعدَّيَانِ تَعديتَهُ، ويجوز أن يُحذفَ الجارُ ويُوصَلُ الفِعلُ، وَظُلْمُهُم أنَّهم جَعَلُوا العَربيَّ يَتَلقَّنُ من العجميّ كَلَاماً عَربيّاً أَعْجَزَ الفُصَحاء[٤] بفَصَاحَتِهِ، وَالزُّورُ: بُهْتُهُم بنسْبَةِ ما هو بَريء مِنهُ إليه.

و﴿أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ما سَطَّرَهُ المتَقدِّمُونَ في كُتُبِهِم ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ كَتَبَها لنفسِهِ وأَخَذَها، كما تقول: إصْطَبَّ الماءَ: إذا صَبَّه لنفسِهِ وأَخَذَه، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلْقَىٰ عَلَيه مِن كتَابِهِ يَتحفَّظُها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: دائمَاً، أو: في الخُفْيَةِ قَبلَ أن ينتَشرَ الناسُ، وحينَ يأْوونَ إلىٰ مساكِنِهم، أي: يَعلَمُ الخَفيَّاتِ وبَواطِـنَ الأُمـورِ، ومن جُملَتِها: ما تُسرّونَه أَنتُم من الكَيدِ لرسولِهِ مَعَ عِلْمِكُم بأنّ ما تقولُونَه بـاطلٌ وزُورٌ ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ لا يعاجِلُ بعقَابِكُم مع ٱستيجابِكُم بمُكابَرتِكُم هذه أنْ يُصبَّ عليكُم العَذَابَ.

﴿مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ﴾ حَالُهُ مثلُ حَالِنا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كَما نأكلُ ﴿وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ﴾ لِطَلَبِ المَعَاشِ كما نَمشي وكانَ يجبُ أن يكونَ مستَغْنياً عن الأكلِ والتعيُّشِ بأن يكونَ مَلَكاً، ثم نَزَلُوا عن هذا إلى ٱقـتراحِ أن يكـونَ إنسـاناً مـعه

(١) في نسخة: «الاقتدار». (٢) النحل: ٢٠.

(٣) قاله الكلبي ومقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) في نسخة زيادة: «والبلغاء».

﴿مَلَكٌ﴾ يُعينُه على الإنذارِ والتخويفِ، ثم نَزَلُوا أيضاً بأَن قَالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يَستَظْهِرُ بِهِ وَ يَستَغْني عن طَلَبِ المعاشِ، ثُم نَزَلُوا فاتَّسعُوا بأن يكونَ رجلاً له بُستانٌ يَأكلُ منه ويَأكلُون منه، فَقَد قُرِئ: ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياء والنون[1] ﴿وقَالَ الظَّـٰلِمُونَ﴾ وُضِعَ الظاهِرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ، وإنّما أرادَهُم، وقولُه: ﴿فَيَكُونَ﴾ نَصْبٌ لأنّه جَوابٌ، ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنىٰ «هلّا»، وحُكمُه حُكمُ الاستفهامِ، وعطف ﴿يُلْقَىٰ﴾ و﴿يَكُونُ﴾ علىٰ ﴿أُنْزِلَ﴾ لأنّ محلَهُ الرفعُ، لأنّه في معنى «ينزلُ» بالرفعِ.

﴿ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَـٰلَ﴾ أي: قالُوا فيكَ تلكَ الأقوالَ النادرةَ من نُبوَّةٍ مشتركةٍ بين إنسانٍ ومَلَكٍ، وإلقاءِ كنزٍ عليكَ من السماءِ وغير ذلك، فَهُم متحيِّرونَ ضلّالٌ لا يجدُونَ قَولاً يستَقِرُّونَ عليه، أو: فَضَلُّوا عن الحقِّ لا يهتَدونَ إليه، تَكاثَرَ خَيرُ ﴿الَّذِىٓ إِنْ شَآءَ﴾ وَهَبَ لكَ في الدنيا خَيْراً ممّا قَالُوا. وقُرئ: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ بالرفعِ[2] والجزمِ عَطْفاً على ﴿جَعَلَ﴾ لأنّ الشرطَ إذا وَقَعَ ماضِياً جازَ في جَزائِهِ الجَزمُ والرَفعُ، كقولِ زهيرٍ:

وإنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَومَ مَسغَبَةٍ   يقُولُ لا غَائِبٌ مَالِي ولا حَرَمُ[3]

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَالِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

---

(١) وبالنون قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٢.

(٢) وهي قراءة ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر وابن عاصم. راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ٢ ص ١٤٤.

(٣) والبيت من قصيدةٍ يمدح بها هرم بن سنان، ومعناه واضح. أُنظر ديوان زهير بن أبي سلمىٰ: ص ٩١ وفيه «مسألة» بدل «مسغبة».

كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)﴾

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ﴾ عَطْفٌ علىٰ ما حكى عنهم، يقولُ: بَلْ أَتَوا بما هو أعجبُ من ذلك كلّه وهو تَكذيبُهُم بالساعَةِ، أو هو متّصلٌ بمَا يَليه أي: كيفَ يصدّقُون بذلكَ وهُم لا يؤمنونَ بالآخرةِ، والسَّعيرُ: النارُ المستَعرةُ. ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ نَسَبَ الرؤيةَ إلى النَّارِ، وإنّما يَرونَها هُم وهو كقولهم: دُورُ بني فُلانٍ تَترىٰ[1] أي: كانَ بعضُها يرىٰ بعضاً. فالمعنىٰ: إذا كانَتْ منهُم بمرائي النظر[2] سمعُوا صوتَ ٱلْتِهابِها، وشبَّه ذلكَ بصوتِ المتَغيِّظِ والزَّافرِ، وقيلَ: التَّغيُّظُ للنَّارِ والزَفيرُ لأهلِها[3].

﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ جمَعَ علىٰ أهل النارِ التَضييقَ والإرهاقَ، نعوذُ باللهِ منها. وعن ابن عبَّاسٍ: أنّه يَضيقُ عليهم كما يضيقُ الزجّ في الرمحِ، وهم معَ ذلكَ الضيقِ مُسَلْسَلونَ مُصَفَّدون، قُرِنَتْ أيديهِم إلىٰ أعناقِهِم في الجَوامع والأصفَاد[4]. وقيلَ: قُرِنُوا مع الشياطينَ في السَلاسِلِ[5]. والثُّبورُ: الهَلاكُ، ودعاؤه أن يقولُوا: واثُبورَاه،

(١) كذا في النسخ، وهو مصحَّف «تتراءىٰ» كما هو واضح.

(٢) في نسخة: «الناظر».

(٣) وهو قول قطرب. راجع تفسير الرازي: ج ٢٤ ص ٥٦.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٣٠١.

(٥) قاله يحيىٰ بن سلام. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٣٤.

أي: تعالَ فهذا زَمانُك. ﴿لاَ تَدْعُواْ﴾ أي: يقالُ لهم، أو: هم حَرِيٌّ بأن يقالَ لَهم ذلك وإن لم يكنْ هناكَ قولٌ، أي: وَقَعْتُمْ فيما ليسَ ثُبُوركم فيه بواحد، إنّما هو ثُبُورٌ كَثِيرٌ.

أي: وعِدَها المتَّقونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَـ﴾ ـهُ، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ أي: كانَ ذلكَ مكتُوباً في اللوحِ، أو: لأن موعدَ اللهِ في تحقّقه كأنّه قَد كانَ، والضَميرُ في ﴿كَانَ﴾ لـ﴿ما يَشَآءُونَ﴾ أي: كانَ ذلكَ مَوعُوداً واجباً ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ إنْجازُه، حَقيقاً بأن يسألَ ويطلبَ لأنّه ثوابٌ مستحقٌ، وقيلَ: ﴿مَسْئُولاً﴾ يَسأَله الملائكةُ والناسُ في دعواتهم[1] ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾[2] ﴿رَبَّنَا وَءاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[3].

وَقُرِئَ: ﴿يَحْشُرُهُم ... فَيَقُولُ﴾ كِلَاهُما بالنون[4] والياء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدون مَعبودَهُم من الملائكةِ والإِنسِ والأصنامِ إذا أنْطَقَهم اللهُ. والفائدة في ﴿أَنتُم﴾ و﴿هُمْ﴾ وإيلائهما حَرفَ الاستفهام: أنّ السؤالَ إنّما وقَعَ عن متولِّي الفعل لا عن الفعلِ ووجودِهِ، فقدِّم ليُعْلَم أنّه المسؤول عنه.

﴿قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهاً لكَ عن الشَريكِ، وهذا تَعَجّبٌ منهم ممّا قيلَ لَهم لأنّهم ملائكةٌ وأنبياءُ معصُومُونَ، أو: قالُوا سُبحانَك ليدلّوا علىٰ أنّهم المسَبِّحونَ الموسُومُونَ بذلكَ ﴿مَا كَانَ﴾ يصحُّ لَنا ولا يَستقيمُ أن نَتولّىٰ أَحداً دونَكَ، فكيفَ يصحّ لنا أن نَحمل غيرَنا علىٰ أن يَتولّانا دونَك؟ وقُرِئَ: «نُتَّخَذَ»[5]، ورويَ ذلك

---

(١) قاله محمد بن كعب القرظي. راجع المصدر السابق: ص ١٣٥.

(٢) غافر: ٨. (٣) آل عمران: ١٩٤.

(٤) قرأه ابن عامر والحسن وطلحة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٨٧.

(٥) قرأه أبو الدرداء وزيد بن علي عليه السلام والحسن وأبو جعفر والسلمي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٥، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٠.

عن الصادقعليه السلام (١). و«اتّخذَ» قد يَتَعدَّىٰ إلىٰ مفعولٍ واحدٍ وإلىٰ مفعولَيْنِ، فالقراءةُ الأُولىٰ من المتعدِّي إلىٰ مفعولٍ واحدٍ وهو ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، والأصلُ: «أن نتّخذَ أَولياءَ» فَزيدَتْ ﴿مِنْ﴾ لتأكيدِ النَّفْي، والثانية من المتَعدِّي إلىٰ مفعولَيْنِ و﴿مِنْ﴾ للتَبعيضِ أي: نتّخذ بعضَ أولياء، و﴿الذِّكْرَ﴾ ذكْرُ اللهِ والإيمانُ بِهِ، أو: القرآنُ والشَّرْعُ، وَالْبُورُ: الهَلاكُ يوصَفُ به الواحدُ والجَمعُ، أو: هو جمعُ بائرٍ كعَائذٍ وعُوُذٍ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ علىٰ أنّ بُطلانَ قولِ مَن يزعَمُ أنّ اللهَ تعالىٰ يَضِلُّ عبادَه على الحقيقةِ، حيثُ يقولُ للمعبُودينَ من دونه: ﴿ءَأَنْتُم أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى .. أَمْ هُمْ ضَلُّواْ﴾ بأنفُسِهِم، فَيتبرّؤُونَ من إضْلالِهِم ويَستعيذُونَ به من أن يكونُوا مضلِّين، ويقولونَ: بل أنتَ تَفضّلْتَ علىٰ هؤلاء وَآبَائِهِمْ، فَجَعَلُوا النعمةَ التي هي سَبَبُ الشُكرِ سَبَباً للكُفرِ ونسيانِ الذِكْرِ، وكانَ ذلكَ سَبَبُ هَلاكِهِم، فبرّؤا أَنفُسَهُم من الإضْلالِ ونزَّهوه سبحانَه أيضاً منه حيثُ أضافُوا إليهِ «التَّمتيع بالنِّعمةِ»، وأضافُوا نسيانَ الذِكْرِ الذي هو سَبَبُ البَوارِ إليهم، فَشَرحُوا الإضلالَ المَجَازي الذي نَسَبه اللهُ إلىٰ ذاتِهِ في قَولِهِ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ﴾ (٢)، ولو كانَ هو المُضِلُّ على الحقيقةِ لكانَ الجَوابُ أن يقولُوا: بَل أنتَ أَضْلَلْتَهم.

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ قُرِئَ بالتاء والياء (٣)، فالتاءُ علىٰ معنىٰ: فَقَد كَذّبوكُم بقولِكُم: لَهُم آلهةٌ، والياءُ علىٰ معنىٰ: فَقَد كذّبوكُم بقولِهِم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنا﴾ الآية، وقُرِئَ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاء والياء (٤) أيضاً، فالتاءُ علىٰ: فَما تَستَطيعونَ

---

(١) رواه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٦ ص ٤٨٩ عن أبي جعفرعليه السلام.

(٢) الرعد: ٢٧، النحل: ٩٣، فاطر: ٨.

(٣) وبالياء قرأه ابن أبي بزة عن ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٣.

(٤) وبالياء هي قراءة الجمهور وأبي بكر عن عاصم، وروي عن عليعليه السلام. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٣، والبحر المحيط: ج ٦ ص ٤٩٠.

أنتُم صَرْفَ العَذابِ عنكُم، وقيل: الصَرْفُ: التوبة[١]، وقيل: الحيلة[٢] من قولهم: إنّه لَيَتَصَرَّف، أي: لَيَحْتالَ، والياء علىٰ: فَما يَستَطِيعُ آلهـتُكُم ذلك ﴿نُـذِقْهُ عَـذَاباً كَبِيراً﴾ في الآخرةِ، والكافِرُ ظَالِمٌ لقولِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

والجملةُ بعد ﴿إِلَّآ﴾ صِفةٌ لمحذوفٍ، والمعنىٰ: وما أرسَلْنا أَحَداً من المرسَلينَ إلّا آكلينَ وماشينَ، وإنّما حُذِفَ لدلالةِ الجارِّ والمجرورِ عليه، ونحوُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[٤] أي: ومَا منَّا أحَدٌ، ورُوِيَ عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «ويُمشَونَ» على البناءِ للمفعولِ[٥] أي: يمشيهم حَوائِجُهُم أو الناس ﴿فِتْنَةً﴾ أي: مِحنةً وٱبتلاءً، وهذا تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وتصبيرٌ لَه علىٰ ما قالُوه وٱستبدَعُوه من أكْلِهِ الطعام ومَشْيِهِ في الأسواقِ، يعني: إنّا نبتَلي المرسَلِينَ بالمرسَلِ إليهم وأنواع أذاهُم. وموقعُ قَولِهِ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بعدَ ذكْرِ الفِتْنةِ مَوقعُ «أيُّكم» بعد الابتلاء في قولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٦]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي: عَالِمَاً بالصَوابِ فيما يُبتلى به وغَيرُه، فَلا يضيقَنَّ صدرُكَ بأقوالِهِم وٱصبِرْ، وقيلَ: هو تَسليةٌ له عمّا عيَّروه به من الفَقرِ حينَ قالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾[٧] أي: جَعَلْنا الأغنياءَ فتنةً للفُقَراءِ لننظرَ هل يَصبرونَ، وقيلَ: جَعَلْناكَ فتنةً لَهم لأنّك لو كنْتَ غَنيّاً صَاحِبَ كنوزٍ وجنّاتٍ لكانَ مَيلُهُم إليكَ وطاعتُهُم لكَ للدنيا أو ممزوجةً بها، فَبَعثْناكَ فَقِيراً لتكُونَ طاعَةُ من يطيعُكَ خَالِصَةً لَنا من غيرِ طَمَعٍ وغَرَضٍ دنيوي[٨]، وقيلَ: كانَ أبو جَهلٍ وأضرابُهُ يقولُون: إن أسلَمْنا وقَد أَسْلَمَ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٧١.

(٢) حكاه ابن قتيبة، نقله عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٣٨.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) الصافات: ١٦٤.

(٥) تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٣.

(٦) هود: ٧، والملك: ٢.

(٧) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٧٢، والآية: ٨ من هذه السورة.

(٨) قاله ابن عطية. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٨ ص ٢٥٥.

قَبلنا صُهيبٌ وبلالٌ وفلانٌ وفلانٌ، تَرفّعوا عَلَينا إذلالاً بالسابقةِ فذلكَ الفتنة [١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً (٢٣) أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُوراً (٣٠)﴾

أي: لا يأمُلونَ لقاءَنا بالخَيرِ لأنَّهم كفَرةٌ، أو: لا يخافُونَ لقاءَنا بالشرِّ، والرجاءُ: الخَوفُ في لُغةِ تِهَامَة، جُعِلَتْ الصيرورةُ إلىٰ دارِ جزائِهِ بمنزلةِ لقائِهِ لو كانَ ملْقيّاً، هَلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فتُخبرُنا بأنّ محمداً صَادقٌ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جَهْرةً فيأمُرُنا بتَصديقِهِ واتِّباعِهِ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأنْ أضْمَروا الاستكبارَ عن الحقِّ وَالعِنَادِ في قلُوبِهم، ونحوهُ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [٢]، و ﴿عُتُوّاً﴾ أي: تَجاوَزُواالحدَّ في الطُغْيانِ، وَوَصَفَ العُتُوَّ بالكَبيرِ فبالغَ في إفراطِهِ، أي: أنّهم لم يَجسِرُوا علىٰ هذا القولِ العظيمِ إلّا لأنّهم بَلَغُوا أقْصَى العتوِّ وغايةَ الاستكبارِ، واللامُ جَوابُ قسمٍ محذوفٍ.

---

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) غافر: ٥٦.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ مَنصوبٌ بما دلَّ عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يُمنَعُونَ البُشرىٰ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ، أو منصوب بـ«ذكر» أي: اذكر يومَ ﴿يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ثم ابتدأ ﴿لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ﴾، وقولُه: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ إمّا ظاهرٌ في موضعِ مضمَرٍ، وإمّا لأنّه عامٌّ، فَقَد تَنَاولَهُم بعمُومِهِ ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ تُرِكَ إظهارُه، قال سيبويه: يقولُ الرجلُ للرجلِ: أتفعل كذا وكذا؟ فيقول: حِجْراً[1]، وهو من حَجَره: إذا مَنَعَه. والمعنىٰ: أسألُ اللهَ أن يَحْجرَ ذلكَ حِجْراً، ومجيئُهُ علىٰ فعلٍ أو فعلٍ تصرّف فيه لاختصاصِهِ بموضعٍ واحدٍ، كما قيلَ: قُدِيتَ وَعَمْرُكَ، قال: عَوذٌ بِرَبِّي مِنْكُمْ وَحِجْرٌ، وهذه كلمةٌ كانُوا يقولُونَها عند لقاءِ عدوٍّ أو هجومِ نازلةٍ يضعُونَها موضعَ الاستعاذةِ ﴿مَحْجُوراً﴾ صفةٌ لـ﴿حِجْراً﴾ جاءَتْ لتأكيدِ مَعناهُ، كما قالُوا: مَوتٌ مائِتٌ. والمعنىٰ: أنّهم يطلبُونَ الملائكةَ، وإذا رأَوهم يومَ القيامةِ كَرِهُوا لقاءَهم وقالُوا عند رؤيتِهِم ما كانُوا يقولُونَه عند لقاءِ العدوِّ الموتورِ، وقيلَ: هو من قَولِ الملائكةِ[2]، ومَعناهُ: حَراماً مُحرَّماً عليكُم الغفرانُ والجنةُ أو البشرىٰ، أي: جَعَلَ اللهُ ذلكَ حَراماً عليكُم.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ ليسَ هنا قُدومٌ ولكنّ شَبَّه حالَهُم وأعمالَهُم التي عَمِلُوها في كفْرِهِم من صلةِ رحمٍ وَقَرْيِ ضيفٍ وإغاثةِ مَلهُوفٍ وغيرِها من المكارمِ بحَالِ قومٍ عَصَوا مَلِكَهُم فقَدِمَ إلىٰ أسبابِهِم وأمْلاكِهِم فأبْطَلَها ولم يَتركْ لَها أثَراً، وَالْهَبَاءُ: ما يَخرجُ من الكوَّةِ مع ضوءِ الشمسِ، شَبيهٌ بالغُبارِ ﴿مَنْثُوراً﴾ صفةٌ لـ﴿هَبَآءً﴾ أي: منتَشِراً متناثِراً.

---

(١) كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٩٣.

(٢) قاله قتادة والضحاك ومجاهد وعطية العوفي والحسن وعطاء وعكرمة وخصيف. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٨٣، وتفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤١.

المستَقَرُّ: المكانُ الذي يستقرّونَ فيه متَحادِثينَ، والمَقِيلُ: المكانُ الذي يأوونَ إليه للاستِرواحِ إلىٰ أزواجِهِم، وسمِّي مَقِيلاً علىٰ طريقِ التَشبيهِ، وفي لَفظِ ﴿أَحْسَنُ﴾ رَمزٌ إلىٰ ما يتزيَّن به مَقيلِهِم من حُسنِ الوجُوهِ والصُورِ وغير ذلك من التَحاسينَ.

وقُرِئ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ والأصلُ «تَتَشَقَّق» فحُذِفَ التاء في إحدَى القَراءتين وأُدغِمَ في القَراءةِ الأُخرىٰ ﴿بالغَمَـٰمِ﴾ الباءُ للحالِ، أي: تَتَشَقَّقُ السَماءُ وعَلَيها الغَمامُ، كما تقولُ: رَكِبَ الأميرُ بسلاحِهِ، أي: وعَلَيهِ سلاحُهُ ﴿وَنُزِّلَ ٱلمَلَـٰئِكَةُ﴾ ينزلُونَ وفي أيديهِم صَحائِفُ أعمالِ العبادِ، وقُرِئَ: «ونُنزِلُ المَلائِكَة»(١).

﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ الثَابتُ ﴿لِلرَّحْمَـٰنِ﴾، لأنّ كلَّ مُلْكٍ يَزولُ يومئذٍ ويبطُلُ ولا يَبقىٰ إلّا مُلْكُه، فـ﴿ٱلمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ له، و﴿الحَقُّ﴾ صفةٌ له، و﴿لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ خَبرُه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظَرفاً للخَبرِ، ويجوز أن يكونَ ﴿الحقُّ﴾ خبراً، والجارُّ والمجرورُ في مَوضعِ الحالِ.

الْعَضُّ على اليدَيْنِ، والسقوطُ في اليدِ، وأكلُ البَنانِ، وحَرقُ الإِرَّمِ، وقرعُ الأسنان، كناياتٌ عن الغَيظِ والحَسْرةِ لأنّها من رَوادفِهِما، واللّامُ في ﴿الظَّـٰلِمُ﴾ يجوزُ أن يكونَ للعَهْدِ فيكونَ مخصُوصاً علىٰ ما ذُكِرَ في الروايةِ، ويجوزُ أن يكونَ للجنْسِ فيتناولَ كلّ ظَالمٍ تَبعَ خَليلَهُ وتابَعه علىٰ إضلالِهِ تمنَّىٰ أنْ لو صَحبَ الرسولَ وسَلَكَ معه سَبيلَ الحقّ.

الأصلُ «يَا وَيْلَتِي» فقُلبتْ الياءُ ألفاً كما في «صحارىٰ» و«مدارىٰ» ﴿فُلَاناً﴾ كنايةٌ عن الأعلام، كما أنّ الهَنَ كنايةٌ عن الأجناس(٢).

---

(١) وهي قراءة ابن كثير. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٨٤.

(٢) في نسخة: «الأخباث».

﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ ذِكْرُ اللهِ أو القرآنُ أو متابعةُ الرسولِ، والشيطانُ إشارةٌ إلىٰ «خليله»، سَمَّاهُ شَيْطَاناً لأنّه أضلّه كَما يَضِلّ الشيطانُ ثم خَذَلَهُ ولَم يَنفعْهُ في العَاقبةِ، أو: أرادَ إبليسَ فإنّه الذي حَمَلَه علىٰ مخالّةِ المُضِلِّ ومُخالَفةِ الرسولِ ثم خَذَلَه، ويحتملُ أن يكونَ ﴿وكَانَ الشَّيطَـٰنُ﴾ حِكايةَ كَلامِ الظالمِ، وأن يكونَ كلامَ اللهِ الرسول[1] محمدﷺ وقَومه قُريش، حَكَى الله عنه شَكْواه قومه إليه.

﴿مَهْجُوراً﴾ أي: تَركُوه ولم يؤمنُوا به، وقيلَ: هُو من هَجَرَ إذا هَذَىٰ[2]، أي: جَعلُوه مَهجُوراً فيه، أي: زَعَمُوا أنّه هَذَيانٌ وباطلٌ، أو: هَجَروا فيه حينَ سَمعُوه كقولِهِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا القُرءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠)﴾

---

(١) في نسخة: «والرسول».

(٢) قاله ابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤٣.

(٣) فصّلت: ٢٦.

هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، أي: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كانَ كلُّ نبيٍّ قَبلكَ مُبتَلىً بعَدَاوةِ قومِهِ، وكفاكَ بي ﴿هَادِياً﴾ إلى الانتصارِ منهم، ونَاصِراً لكَ عليهم. والعَدوُّ يكونُ واحداً وجَمْعاً.

و﴿نُزِّلَ﴾ هنا بمعنىٰ «أنزل»، كخَبرَ وأَخبرَ، أي: هلَّا أُنْزِلَ ﴿عَلَيْهِ الْقُرْءانُ﴾ دفعةً في وقتٍ واحدٍ كما أُنزلت التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جَوابٌ لَهُم، أي: كذلكَ أُنزلَ مفرَّقاً. والحكمةُ فيه أنْ نُثَبِّتَ بِهِ قَلبَكَ ونقوِّيَه بتَفْريقِهِ حتّىٰ تَعيَه وتَحفظَهُ، لأنَّ المتَلقَّنَ إنّما يقوىٰ قَلبُهُ بأن يحفظَ العلمَ شَيئاً بعد شيءٍ، وأيضاً فإنَّ فيه ناسِخاً ومنسُوخاً وما هو جوابٌ للسائلِ علىٰ حَسب سؤالِهِ، ولا يتأتّىٰ ذلكَ فيمَا يَنزلُ جملةً واحدةً، ولأنّه كانَ عليه السلام أُمِّيّاً لا يقرَأُ ولا يكتبُ ولابدَّ لَهُ من التلقّنِ، فأُنزلَ عليه مفرَّقاً، وكانَ موسىٰ وعيسىٰ قارئَين وكاتِبَين ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ﴾ معطوفٌ على الفعلِ الذي تعلَّقَ به ﴿كَذَٰلِكَ﴾، كأنّه قالَ: فرَّقناهُ ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ﴾ أي: قدَّرنَاهُ آيةً بعد آيةٍ، وسورةً عقيب سورةٍ، أو: أَمَرْنا بتَرتيل قراءتِهِ وهو أن يُقْرَأَ بترتُّلٍ[(١)] وتَثَبُّتٍ، وأَصلُ التَرتيلِ: في الأسنانِ، يقالُ: ثَغْرُهُ رَتَلٌ ومُرتَّلٌ أي: مفلَّج، وقيلَ: هو تَنزيلُهُ علىٰ تَمكُّثٍ وتَمهُّلٍ في مدَّةٍ بعيدةٍ[(٢)].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ بسؤالٍ عَجيبٍ كأنّه مَثَلٌ في البُطْلانِ ﴿إِلَّا﴾ أتَيْنَاكَ بالجَوابِ الحقِّ الذي لا مَحيدَ لَهُم عنه، وبمَا هو ﴿أَحْسَنَ﴾ معنىً من سؤالِهِم، وُضِعَ «التَّفْسِير» موضع «المعنىٰ» لأنَّ التفسيرَ هو الكَشْفُ عمّا يدلّ عليه الكلامُ، يعني: أنّ تَنزيلَه مفرَّقاً وتحدِّيهم بسورةٍ سُورةٍ منها أدْخَلُ في بابِ الاعجاز من أن يَنزلَ جملةً واحدةً فيقالُ لهم: إئتوا بمثلِها في الفَصَاحةِ، كأنّه قالَ: إنّما يَحملُكُم علىٰ هذه

(١) في نسخة: «بترسّل».
(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٦٨.

السؤالات أنّكم تضلّلونَ سَبيلَه وتحقِّرونَ مكانَه ومنزلَتَه. وإذا سُحِبْتم ﴿علىٰ﴾ وجُوهِكُم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ عَلمْتُم أنّ مكانَكُم شرٌّ من مَكانِهِ، وسبيلُكُم أضلُّ من سَبيلِهِ، ويجوز أن يُرادَ بِالْمَكَانِ: الشَّرفُ والمنزلةُ، وأن يرادَ الدَّارُ والمسكنُ، كقولِهِ: ﴿أيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ [١].

﴿وَزِيراً﴾ أي: مُوَازِرَاً له علىٰ تأديةِ الرِّسالةِ. والمعنىٰ: فذَهَبَا إليهم فكذّبوهُما ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ فاختصَرَ لأنَّ المقصودَ من القصّةِ إلزامُ الحجّةِ بإرسالِ الرُّسُلِ واستحقاقِ التَدبيرِ بتكذيبِهِم. وروَوا عن عليٍّ عليه السلام: «فدمَّراهم» [٢] و«فدمِّرانّهم» على التأكيدِ بالنونِ المشدّدة [٣].

﴿كَذَّبُواْ الرُّسُلَ﴾ لأنّ تَكذِيبَهُم لَه تَكذيبٌ لجَميعِهِم، أو: كذَّبُوه وَمَنْ قَبلَه من الرُّسُلِ، أو: لم يَرَوا بعثةَ الرُّسُل كالبَراهِمَة ﴿وجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ أي: إغراقَهُم وقصّتَهُم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لَهُم، إلَّا أنَّه قَصَدَ تَظليمَهم فأَظْهَرَ، أو تناولَ الظالمينَ بعمومِهِ.

﴿وَعَاداً﴾ عَطْفٌ علىٰ «هُمْ» في ﴿جَعَلْنَـٰهُمْ﴾، ﴿وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ﴾ كانَ لَهم نبيٌّ اسمُهُ حنظلة، فقَتَلُوه فأُهلِكُوا، والرَّسُّ: البئرُ غيرُ المطويّة، وقيلَ: الرَّسُّ: قَريةٌ باليمامةِ يقالُ لَها فَلج [٤]، ورُوي عن الصادق عليه السلام: «أنّ نساءَهُم كُنَّ سَحَّاقَات» [٥].

﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور، كما يَحسِبُ الحَاسِبُ أعداداً كثيرةً ثم يقولُ: فذلكَ كذا، بمعنىٰ: فذلكَ المحسُوبُ أو المعدُودُ.

---

(١) مريم: ٧٣.

(٢) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٠.

(٣) انظر البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٩٨.

(٤) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٩٠.

(٥) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٩١.

﴿وَكُلاًّ﴾ منصوبٌ بمُضْمَرٍ وهو «أنذرنا» و«حذَّرنا»، ودلَّ عليه قولُهُ: ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَـلَ﴾ أي: بيَّنا له القَصَصَ العَجيبةَ ﴿وَكُلاًّ﴾ الثاني [(١)] بمضمَر وهو ﴿تَبَّرْنَا﴾ والتَّتْبيرُ: التكسيرُ.

وأراد بـ﴿ـالقَرْيَةِ﴾ سَدوم من قُرىٰ قَومِ لوطٍ، وكانَتْ خَمْساً، أهلكَ اللهُ أربعاً منها وبقيَتْ واحدةٌ، و﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾: الحِجَارَةُ، وكانَتْ قريشٌ يمرُّونَ في متاجرِهِم إلى الشَّام علىٰ تلكَ القَريةِ التي أُهلِكَتْ بالحجَارةِ ويَرَونها ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يَتَوقَّعونَ وضع الرَّجاءِ موضعَ التوقّع، لأنّه إنّما يتوقّعُ العاقبةَ من يكونَ مؤمناً، أو: لا يأملُونَ ﴿نُشُوراً﴾، أو: لا يخافُونَ فلذلكَ لم ينظرُوا ولم يتَذكّروا.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً (٤٨) لِّنُحْىِ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰماً وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٥٠)﴾

﴿إِنْ﴾ الأُولىٰ نافيةٌ، والثانيةُ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ، واللامُ هي الفارقةُ بينهما، أي:

---

(١) في نسخة زيادة: «منصوب».

ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا﴾ موضع هُزْءٍ ومَهزُوءاً به، ومعناهُ: يستَهزئُونَ بكَ ويقولُونَ: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي﴾ بَعثَه ﴿اللهُ﴾؟! وهذا آستِصْغارٌ.

وفي قولِهِم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ دليلٌ علىٰ بَذْلِ رسولِ الله ﷺ غايةَ المجهودِ في دعوتِهِم وعَرْضِ الآياتِ والمُعجزاتِ عليهم حتّىٰ قَارَبُوا أن يتركُوا دينَهُم إلىٰ دينِ الإسلامِ، و﴿لَوْلَآ﴾ هنا جارٍ مَجْرىَ التقييدِ للحكمِ المُطلقِ من حيث المعنىٰ وَ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَعيدٌ، وقولُهُ: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ كالجَوابِ عن قولِهِم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: مَنْ جَعَلَ هَواهُ مَعبودَهُ، أفتتوكّلُ عليه بأن تَدعُوهُ إلى الهدىٰ وتُجبرُه عليه وتقولُ: لابدَّ أن تُسلِمْ شئتَ أو أبيتَ؟ كما قالَ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [١] ﴿وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [٢].

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، أي: بَلْ أ﴿تَحْسَبُ﴾، ﴿بَل هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ لأنّ الأنعامَ تَنقادُ لِمَن يَتَعهَّدها، وتَعرفُ مَن يُحسِن إليها ممّن يسيء إليها، وتَطلبُ ما ينفعُها وتَجتنبُ ما يَضرُّها، وهؤلاء لا يَنقادونَ لربِّهم ولا يَعرفونَ إحسانَه إليهم من إساءةِ الشَّيطان، ولا يَطلبونَ الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع، ولا يَجتنبونَ العقابَ الذي هو أشَدُّ المضارّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أَلَمْ تَنظرْ إلىٰ صُنْعِ ربّكَ وقُدرتِهِ ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: جَعَلَه ممتدّاً منبسِطاً لينتفعَ به الناسُ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ أي: لاصِقاً بأصلِ كلِّ ذي ظلٍّ من بناءٍ أو شجرٍ فَلَمْ ينتفعْ به أحدٌ، سمَّىٰ سبحانَهُ انبساطَ الظلِّ وامتدادَهُ تَحرّكاً منه، وعدمَ ذلكَ سكُوناً. ومعنىٰ كونِ الشَمسِ ﴿دَلِيلاً﴾: أنّ الناسَ يَستدلّونَ بالشَمسِ وأَحْوالِها في مَسيرِها علىٰ أحوالِ الظلّ من كونِهِ ثَابتاً في مَكانٍ وزائلاً [٣]

(١) الغاشية: ٢٢. (٢) ق: ٤٥.

(٣) في نسختين زيادة: «ومنبسطاً».

ومتّسعاً ومتقلّصاً، ولولا الشَمسُ ما عُرِفَ الظلُّ، ولولا النُورُ لما عُرِفَتِ الظُلْمةُ.

ومعنىٰ «قَبَضَهُ إليه»: يَنْسِخَهُ بِضَحِّ الشَّمسِ ﴿قَبْضاً يَسِيراً﴾ علىٰ مهلٍ شيئاً بعد شيء، وفي ذلكَ منافع غيرُ محصورةٍ، ولو قُبِضَ دفعةً واحدةً لتَعطّلتْ أكثرُ مَرافقِ النَّاسِ بالظلّ والشمسِ جميعاً.

وأمّا فائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ في المَوضِعَينِ فهو أنّه بيانٌ لتَفاضل الأُمورِ الثلاثةِ تَشْبيهاً لتباعُدِ ما بَينَها في الفَضْلِ بتَباعدِ ما بينَ الحَوادثِ في الوقت.

وفي الآيةِ وجهٌ آخرُ وهو: أنّه سبحانَه مدَّ الظلَّ حينَ بنى السَّماءَ كالقُبّةِ، فأَلْقَتِ القُبّةُ ظلَّها علىٰ وجهِ الأرضِ ﴿وَلَو شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ مُستَقَرّاً علىٰ تلكَ الحالةِ، ثم خَلَقَ الشَمسَ وجَعَلَها علىٰ ذلكَ الظلِّ دليلاً متبُوعاً له كما يُتّبعُ الدَليلُ في الطريق، فهو يزيدُ بها وينقصُ، ثم نَسَخَه بها وقَبضَهُ قَبضاً سَهلاً يَسيراً غَيرَ عَسيرٍ. ويمكنُ أن يكونَ المرادُ قَبضَهُ عندَ قيامِ الساعةِ بقَبْضِ أسبابِهِ وهي الأجرامُ ذواتُ الظلّ، أي: نعدِمُهُ بإعدام أسبابِهِ كما أنشأَهُ بإنشاءِ أسبابِهِ، وفي قولِهِ: ﴿قَبَضْنَهُ إِلَيْنا﴾ دلالةٌ عليه، وكذلك في قوله: ﴿يَسِيراً﴾ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [١].

جَعَلَ ظَلامَ الليلِ مثلَ اللباسِ السَاترِ، والنَائمُ شبهُ الميّتِ، والسُباتُ: الموتُ لأنَّ في مُقابلتِهِ النُشُورَ، فالنَومُ واليقظةُ مشبَّهانِ بالموتِ والحياةِ، وقيلَ: ﴿سُبَاتاً﴾ راحةً لابدّ منها للناس [٢] وقَطْعاً لأعمالِهِم [٣] ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ يَنتشرُ الناسُ فيه لطَلَبِ مَعَاشِهِم، ويتفرَّقُونَ لحوائجِهِم، نَشْراً أي: إحْياءً، ونُشُرٌ جمع نَشُورٍ وهي المحيِيةُ، و«نُشْراً» تخفيفُ «نُشُرٍ».

---

(١) قٓ: ٤٤. (٢) في بعض النسخ: «لأبدان الناس».

(٣) قاله الخليل وأبو مسلم وابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤٧، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٣٩.

و«بُشْراً» تخفيفُ «بُشُرٍ» جمعُ بَشُورٍ وبُشْرى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: قُدَّام المَطَرِ ﴿طَهُوراً﴾ أي: بليغاً في طهارتِهِ، وقيلَ: طَاهِراً في نفسِهِ مُطهِّراً لغيرِهِ[١]، وهو صفةٌ في قولِكِ: ماءٌ طهورٌ، واسمٌ لِمَا يُتطهَّر به كالوضُوءِ والوقُودِ.

قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ لأنّ البلدةَ في معنى «البَلَد» في قولِهِ: ﴿فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَـلَدٍ ميِّتٍ﴾[٢]، وقُرِئَ: «نَسقيه» بالفتح[٣]، وسَقَىٰ وأَسْقَىٰ لُغَتان، وقيلَ: أَسقاهُ: جَعَلَ له سُقْيا[٤]، والأَناسِي: جمعُ إنسيٍّ أو إنْسانٍ، كالظَرابِي في جَمْعِ ظِربان، علىٰ قَـلْبِ النونِ من «أَناسين» و«ظرابينَ» ياءً.

﴿ولَقَدْ﴾ صَرَّفْنَا المَطَرَ بينَهُم في البلدانِ المختلفةِ والأوقاتِ المتَغايرةِ وعلى الصفاتِ المتفاوتةِ لِيَستدِلّوا بذلكَ علىٰ سعةِ مـقدورِنا، فَأَبَـوْا ﴿إِلَّا كُـفُوراً﴾ وأن يقولُوا: مُطِرْنا بِنَوءِ كذا[٥].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَـرْيَةٍ نَّـذِيراً (٥١) فَـلَا تُـطِعِ ٱلْكَـٰـفِرِينَ وَجَـٰـهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْـبَحْرَيْنِ هَـٰـذَا عَـذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُۥ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَـدِيراً (٥٤)

---

(١) قاله أحمد بن عيسىٰ. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٤.

(٢) فاطر: ٩.

(٣) قرأه المفضّل والأعمش عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٧٤.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٥.

(٥) قال أبو عبيد: الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلّها، يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلة نجمٌ في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكِلَاهما معلوم مسمّىٰ، وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجمٌ وطلع آخر قالوا: لابدّ من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح، فينسبون كلّ غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم، فيقولون: مُطِرنا بنوء الثريا والدبران والسماك. أُنظر لسان العرب: مادة «نوأ».

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً (٦٠)﴾

﴿لَبَعَثْنَا﴾ في كلّ قريَةٍ ﴿نَذِيراً﴾ يُنذرُها، وإنّما قَصَرْنا الأمر عليكَ تَفْضيلاً لكَ علىٰ سائرِ الرُّسلِ، فقابلْ هذا التَعظيمَ والتبجيلَ بالتَصَبُّرِ، و﴿لَا تُطِعِ الكَـٰفِرِينَ﴾ فيمَا يُريدونَكَ عليه.

والضَّميرُ في ﴿بِهِ﴾ للقرآنِ، أو: لتَركِ الطاعَةِ الذي دلّ عليه ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ والمرادُ: أنّ الكفّارَ يجتهدونَ في تَوهينِ أمرِكَ فقابلْهم من جدِّكَ واجتهادِكَ بما تغلبهُم به، وجعَلَه ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ للمشاقِّ العظيمةِ التي يحتملُها فيه. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: وجاهِدْهُم بسببِ كونِكَ نَذيراً للجميعِ جهَاداً كَبيراً جَامعاً لكلّ مُجاهدةٍ.

﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ﴾ خَلَّاهُما متجاورَيْن كما يُخَلَّى الخيلُ في المَرَجِ، والفُرَاتُ: البالغُ في العُذُوبةِ، والأُجَاجُ ضِدُّه ﴿بَرْزَخاً﴾ أي: حَائِلاً من قُدرتِهِ يَفْصُلُ بينهما ويمنَعُهما التَمازُجَ ﴿وحِجْراً مَحْجوراً﴾ مرَّ تفسيرُه[1]، وهو هنا مجازٌ، كأَنَّ كلَّ واحدٍ من البحرَين يتعوَّذُ من صاحِبِهِ ويقولُ له: حِجْراً محجُوراً، كما قال:

(١) تقدّم في تفسير الآية: ٢٢ فراجع إن شئت.

﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ [١] أي: لا يَبغي أحدُهُما علىٰ صاحِبِه، فانتفاءِ البغْيِ هناك كـالتَعوُّذ هنا، جَعَلَ كلَّ واحدٍ منهما في صورةِ الباغي علىٰ صاحبِهِ فهو يَتَعوَّذ منه.

﴿خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ﴾ أي: من النُطْفَةِ ﴿بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً﴾ أي: فـقَسَّمَ البَشَـرَ قسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكُوراً يُنْسَبُ إليهم، و﴿صِهْراً﴾ أي: إناثاً يُصاهرُ بهنَّ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ يخلُقُ من النُطْفَةِ الواحدةِ نوعَين: ذَكَراً وأُنثىٰ.

والظَّهيرُ بمعنى المُظاهِرِ، أي: يُظاهرُ الشَيطانُ علىٰ ربِّه بعبادةِ الأوثانِ.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ مَعناهُ: إلَّا فعْلُ مَن شاءَ أن ينفق المالَ في طَلَبِ رضـا ربِّـه، ويَتَقرَّبُ بالصَدَقةِ في سبيلِهِ، وهو معنى الاتّخاذ إلى الله سَبيلاً.

أي: تَمَسَّكْ بالتوكّلِ ﴿عَلَىٰ الحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وَثِـقْ بـه فـي اُسـتكفاءِ شرورِهِم، وعن بعضِ السَلَفِ أنّه قَرأَها فقال: لا يصحّ لذي عقل أن يـثقَ بَـعدَها بمخلوقٍ [٢] ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ الباءُ زائدةٌ، أي كفاكَ اللهُ ﴿خَبِيراً﴾ تمييزٌ أو حالٌ، أرادَ بهذا أنّه ليسَ إليه من أمرِ عبادهِ شيءٌ، آمَنُوا أم كَفَروا، وأنّه خبيرٌ بأحوالِهِم، كَافٍ في جَزَاءِ أعمالِهِم.

﴿الَّـذي خَـلَقَ﴾ مـبتدأ و﴿الرَّحَـمـٰنُ﴾ خـبرهُ، أو: هُـوَ صِـفَةٌ لـ﴿الحـيِّ﴾ و﴿الرَّحَمـٰنُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو بدلٌ عن الضمير المستكنّ في ﴿استوىٰ﴾. وقُرِئَ: «الرَّحْمـٰنِ» بالجر [٣] صِفَةٌ لـ﴿الحَيّ﴾، وقُرِئَ: «فَأَسْأَل» [٤]، والباءُ فـي ﴿بِهِ﴾ صِلَةُ «سَلْ» كقولِهِ: ﴿سَأَلَ سَائِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [٥] كما أنّ «عـن» صـلتُهُ

(١) الرحمن: ٢٠.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٨.

(٣) قرأه زيد بن علي كما في البحر المحيط: ج ٦ ص ٥٠٨.

(٤) وهي قراءة ابن كثير والكسائي في الوصل وحمزة في الوقف، كما في تفسير السراج المنير: ج ٢ ص ٦٧٠.

(٥) المعارج: ١.

في قولِهِ: ﴿لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [١]، فقولُكَ: «سألَ بـه» مـثلُ «اهْـتَمَّ بـه» و«اعتنىٰ به»، و«سألَ عنه» كـ«فتَّشَ عنه» و«بَحَثَ عنه». ويجوزُ أن يكونَ صلةَ ﴿خَبِيراً﴾ ويُجعلُ ﴿خَبِيراً﴾ مفعول «سَلْ»، والمعنىٰ: فسَلْ عنه رجلاً عَارفاً يُخبِرُكَ برحمتِهِ، أو: فَسَلْ رجلاً خبيراً به وبِرحمتِهِ، أو: فَسَلْ بسؤالِهِ خَـبيراً، كـما تـقول: رأيتُ به أسداً، أي: برؤيته، والمعنىٰ: إنْ سألْته وجَدتَه خَبيراً، أو تجعلُه حالاً عن الهاءِ تريدُ: فَسَلْ عنه عالِمَاً بكلِّ شيء. وقيلَ: الرَّحمـٰنُ اسمٌ من أسماءِ الله تعالىٰ مذكورٌ في الكتبِ المتقدّمةِ، ولم يكُونُوا يعرفونه، فقيلَ لهُ: سَلْ بـهذا الاسـمِ مَـن يخبرك به من أهلِ الكتابِ [٢].

﴿ومَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ أنكرُوا إطلاقَ هذا الاسمِ على اللهِ لأنّه لم يكنْ مستعملاً في كَلامِهِم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بالسجودِ له؟ فـحُذف عـلىٰ تَرتيبٍ، وقُرِئَ بالياء [٣] أي: لِمَا يأمُرُنا محمدٌ صلى الله عليه وآله، ويأمُرُنا المُسمَّىٰ بالرَّحمـٰن. ويجوزُ أن تكونَ «ما» مصدريةً أي: لأمْرِكَ لنا، وفي ﴿زَادَهُمْ﴾ ضَميرُ ﴿اسجُدُواْ للرَّحْمَـٰنِ﴾ لأنّه هو المَقُول.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِـيهَا سِـرَٰجاً وَقَـمَراً مُّنِيراً (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَـمْشُونَ عَـلَى ٱلأَرْضِ هَـوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَـالُواْ سَـلَـٰماً (٦٣) وَٱلَّـذِينَ يَـبِيتُونَ لِـرَبِّهِمْ سُـجَّداً وَقِيَـٰماً (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْـتَقَرّاً وَمُـقَاماً (٦٦) وَٱلَّـذِينَ إِذَآ أَنـفَقُواْ لَـمْ

(١) التكاثر: ٨.
(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٧٣.
(٣) قرأه حمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٠.

يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٧٠)﴾

يريدُ بالْبُرُوجِ: منازلَ الكَواكبِ السيارةِ، وهي اثنا عشر بُرْجاً، سُمِّيت بالبُرُوجِ التي هي القُصُورُ العاليةُ لأنّها لهذهِ الكواكبِ كالبُرُوجِ لسكّانها، والسِّرَاجُ: الشَمسُ. وقُرِئَ: «سُرُجاً»(١) وهي الشَمسُ والكواكبُ الكبار معها. وعنهم عليهم السلام: «لا تَقْرأ سُرُجاً إنّما هي سِرَاجاً، وهي الشَمسُ».

والخِلْفَةُ: الحالةُ التي يختلفُ عليها الليلُ والنهارُ، ويَخلُفُ كلّ واحدٍ منهما الآخرَ، والمعنىٰ: جعَلَهما ذَوي خِلْفَةٍ، أي: ذوي عقبةٍ، يعقبُ هذا ذاك وذاكَ هذا. وقُرِئَ: «يَذْكُرَ»(٢) و﴿يَذَّكَّرَ﴾، أي: لينظرَ في اختلافِهِما الناظرُ فيعلمُ أنّ لابدَّ لَهُما من مُغيِّرٍ ونَاقلٍ من حَالٍ إلىٰ حَال، ويَشْكُرَ الشَاكِرُ على النعمةِ فيهما من السكونِ بالليلِ والتصرّفِ بالنَهارِ، أو: ليكونا وقتاً للمتذكّرينَ والشاكرينَ، مَنْ فاتَهُ وِرْدُه في أحدِهِما قَضَاه في الآخَرِ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ﴾ مبتدأ خبرُهُ في آخَر السورة قولُهُ: ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ خبرُهُ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأرض ...﴾، ﴿هَوْناً﴾ حالٌ أو صِفَةٌ للمشي، أي: هيِّنينَ أو: مَشْياً هَيِّناً، إلّا أنّ في وَضْعِ المصدرِ موضعَ

(١) قرأه حمزة والكسائي وعبدالله وعلقمة والأعمش. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٥١١.

(٢) وهي قراءة حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٦.

الصِّفةِ مبالغةً، والهَوْنُ: الرِفْقُ واللِّينُ، وفي المَثَلِ: «إذا عزَّ أخـوك فـهُنْ»[١] أي: يمشُونَ بسَكينةٍ وتَواضعٍ ﴿سَلَاماً﴾ تسلّماً منكُم لا نُجَاهِلُكُم، ومتاركةً لا خَيرَ بينَنا ولا شرّاً، أي: نتسلَّم منكم تسلماً، فأُقيم السلامُ مَقامَ التسلُّمِ، وقيلَ: قالوا سداداً من القَولِ يسلَمونَ فيه من الإثمِ[٢]. والمرادُ بالجَهْلِ السفَهُ وقلّةُ الأدبِ.

«باتَ» خلافُ «ظَلَّ»، وصِفُوا بإحياءِ الليلِ أو أكثره ساجدينَ وقائمينَ.

﴿غَرَاماً﴾ أي: هَلَاكاً وخُسْراناً مُلِحّاً لازماً، قال:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُـنْ غَـراماً وإن يُـعـ ـطِ جَـزِيلاً فـإنَّه لَا يُـبَالِي[٣]

ومنه: الغريمُ لأنّه يلحُّ ويُلْزِم، يعني: أنّهم مَعَ عبادتِهِم واجـتهادِهِم خـائفُونَ متضرِّعُونَ إلى الله في استدفاعِ العَذَابِ عنهُم. ﴿سَآءَتْ﴾ في حُكْمِ «بِئْسَت»، فيها ضَميرٌ مبهمٌ يفسِّره ﴿مُسْتَقَرّاً﴾، والمَخْصُوصُ بـالذَمّ مـحذوفٌ، ومـعناهُ: سَـاءَتْ مستَقَرّاً ﴿وَمُقَاماً﴾ هي، وهذا الضَميرُ هو الذي رَبَطَ الجملةَ باسم «إنَّ» وجَـعَلَها خَبَراً لَها. ويجوزُ أن يكونَ «ساءَتْ» بمعنىٰ «أحزَنَتْ»، وفيها ضميرُ اسـم «إنَّ»، و﴿مستقراً﴾ حالٌ أو تَمييزٌ. التَعليلان يَصحّ أن يكونَا مَـتَداخـلَينِ ومـترادِفَـينِ، وأن يكونَا من كلامِ الله وحكايته لقولِهِم.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قُرئَ بكسرِ التاء[٤] وضمّها و«يُقتِرُوا» بضمّ الياء[٥]، والقترُ والإقتارُ نقيضُ الإسرافِ الذي هو مجاوزةُ الحدِّ في النَفَقَة، وَصَفَهُم بِالْقَصْدِ الذي هو بين الغلوِّ والتَقصيرِ، والقَوَامُ: العَدْلُ بين الشيئَيْن لاستقامةِ الطَرفَينِ واعتدالِهِما،

---

(١) وهو من الأمثال الشائعة، يعني: إذا عاسرك صديقك فياسره، فـإنّ مـياسرتك إيّـاه ليست بضيمٍ يركبك منه، إنّماهوحسن خلقٍ وتفضّل عليه. راجع مجمع الأمثال: ج ١ ص ٢٤.

(٢) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٤.

(٣) البيت للأعشىٰ، ومعناه واضح. راجع شرح ديوان الأعشى لكامل سليمان: ص ١٧١.

(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٦.

(٥) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٦.

ونظيرُهُ «السَواءُ» من الاستواء. ويجوز أن يكون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ و﴿قَوَاماً﴾ خبرَين مَعَاً، وأن يكونَ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ لغواً، و﴿قَوَاماً﴾ مستقراً، وأن يكونَ الظرفُ خَبَراً و﴿قَوَاماً﴾ حالٌ مؤكّدة.

﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ أي: حَرَّمَها، والمعنىٰ: حرَّم قَتْلَها، وتَعلَّقَ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بهذا القَتْلِ المَحذوفِ أو بـ﴿لا يَقْتُلُونَ﴾، نَفَىٰ عَنهُم هذه الخصالَ القبيحةَ، وبرَّأهُم منها تَعريضاً بما كانَ عليه أعداؤُهُم من الكفّار، كأنّه قال: والَّذِين بَرَّأهُم اللهُ ممّا أنتُم عليه، والقَتْلُ بِغَيْرِ حَقٍّ يدخلُ فِيه الوأدُ وغيرُهُ. والأثَامُ: جزاءُ الإِثْمِ كالوبالِ والنكالِ، وقيلَ: هو الإِثمُ[1]. والمعنىٰ جَزَاءَ أثَامٍ.

﴿يُضَاعَفْ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَلْقَ﴾ لأنّهما في معنىً واحدٍ، وقُرِئَ: «يُضاعَفُ» بالرفع و«يَخْلُدُ» بالرفع[2]، و«يُضَعَّفُ» بالرفعِ[3] والجزمِ[4]، والرفعُ على الاستئنافِ أو على الحَال.

وتَبْدِيلُ السَّيئَاتِ حَسَناتٍ أن تُمحىٰ السيّئةُ وتُثبتُ بَدَلَها الحَسَنَةُ، وقُرِئَ: «يُبْدِلُ»[5] من الإبدالِ، وقيلَ: يبدِّلُونَ بقَبائحِ أعمالِهِم في الشرْكِ مَحَاسنَ الأعمالِ في الإسلام[6].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ مَتَاباً (٧١) وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ

---

(١) قاله ابن عباس والسدي وأبو مسلم. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٨.

(٢) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧٥.

(٣) قرأه ابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٧.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وحده. راجع المصدر السابق.

(٥) قرأه عاصم برواية أبي بكر عنه. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٧.

(٦) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٨.

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰماً (٧٥) خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٧٦) قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧) ﴾

﴿وَمَنْ﴾ تَرَكَ المَعاصِيَ ونَدمَ عليها، ودَخَلَ في العَمَلِ الصَالحِ فإنّه يَرجعُ ﴿إِلَى ٱللهِ﴾ وإلىٰ ثَوابِهِ مَرْجِعاً حَسناً أيَّ مَرْجِعٍ، أو: فإنّه تَابَ بذلكَ إلى اللهِ ﴿مَتَاباً﴾ مَرْضِيّاً عنده.

﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: مَجالسَ الفُسَّاقِ، ولا يحضرونَ الباطلَ، وقيلَ: هو الغناءُ[1]، ورُويَ ذلك عن السيدَين الباقر والصادق عليهما السلام[2]، وفي مَواعظ عيسىٰ ابن مريم: «إيَّاكم ومجالسةَ الخطَّائين[3]». وقيلَ: لا يشهَدونَ شهادةَ الزورِ[4] فحُذِفَ المُضَافُ ﴿وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي: بأهل اللّغوِ والمشتَغِلينَ به ﴿مَرُّواْ كِرَاماً﴾ مُكرمينَ أنفُسَهُم عن التوقّفِ عليهم والخَوضِ معهم، مُعرضِينَ عنهم، واللَّغوُ: كلّ ما ينبغي أن يُلقىٰ ويُطرحُ. ﴿إذا ذُكِّرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وُعظوا بالقرآنِ والأدلّةِ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً﴾ ليسَ بنفيٍ للخُرُورِ، بل هو إثباتٌ لَهُ ونفيٌ للصَمَمِ والعَمَىٰ، أي: إذا ذُكِّروا بها أكبُّوا عَلَيها حِرْصَاً على ٱستِمَاعِها وهم سامِعُونَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرُونَ بعيونٍ راعيةٍ.

(١) قاله محمد بن الحنفية ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٩.
(٢) الكافي: ج ٦ ص ٤٣١ ح ٦ وص ٤٣٣ ح ١٣.
(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٩٥.
(٤) وهو قول عليٍّ والباقر عليهما السلام وعلي بن طلحة. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٠.

وقرئ: «وذُرِّيَّتِنا»(١)، سألوا ربَّهُم أن يرزقَهُم أزواجاً وأولاداً وأعْقَاباً تَقرُّ بِهِم عيونُهُم، وتُسرُّ بِهِم نفوسُهُم، وعن ابن عباسٍ: هـو الولدُ إذا رآهُ يَكـتُبُ الفِـقْه(٢) ﴿إِمَاماً﴾ أَرادَ أَئمةً، واْكتفىٰ بالواحدِ لدلالتِهِ على الجـنسِ، أو: أرادَ جـمع «آمٍّ» كصَائمٍ وصيّامٍ، و﴿مِنْ﴾ للبَيانِ، أي: ﴿هَبْ لَنَا ... قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ثم بيَّنَ القُرَّةَ بقولِهِ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـتِنَا﴾، وهو من قَولِهِم: رأيتُ منكَ أسداً أي: أنتَ أسدٌ. ويجوزُ أن يكونَ للابتداء بمعنى: هَبْ لَنا من جهتِهِم ما تَقرُّ به أعيُنَنا من صَلاحٍ وعلْمٍ، ونَكَّرَ القرّةَ بتنكير المُضافِ إليه، فكأنّه قال: هَبْ لَنا منهُم سُروراً وفَرحاً.

وعن الصادقعليه‌السلام في قولِهِ: ﴿وَاْجْـعَلْنَا لِـلْمُتَّقِينَ إِمَـاماً﴾ قـالعليه‌السلام: «إيَّـانَا عَنَىٰ»(٣). وَرُوِيَ عنهعليه‌السلام أنّه قال: «هذه فينا»(٤).

وعن أبي بصيرٍ قالَ: قلتُ: واْجعلْنا للمتَّقينَ إماماً؟ فـقالعليه‌السلام: «سأَلْتَ ربَّكَ عَظيماً، إنما هي: واجْعلْ لَنا مِن المتَّقين إماماً»(٥).

﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ يريدُ الغُرفات، وهي العَلالي في الجنّةِ، فَـوحَّدَ اْقـتصَاراً على الواحدِ الدالِّ على الجنسِ، يدلّ عليه قولُهُ: ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَـتِ ءَامِنُونَ﴾(٦)، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصَبْرِهِم على الطَّاعَاتِ وعن الشَّهَواتِ، وعـلى مـجَاهَدةِ الكـفّارِ ومُقاساةِ الفقْرِ ومشاقّ الدُنْيا، لشياعِ اللَفْظِ في كلّ مَصْبورٍ عليه. وقُرئ: ﴿يُلَقَّوْنَ﴾،

---

(١) قرأه عاصم برواية ابي بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعـيسى. راجـع كـتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٧، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٩٦.

(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١١٧.

(٤) رواه البرقي في المحاسن: ص ١٧٠ ح ١٣٦.

(٥) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١١٧.

(٦) سبأ: ٣٧.

وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ [(١)] و«يَلْقَوْنَ» [(٢)] كقولِهِ: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾، ﴿تَحِيَّةً﴾ قولاً يُسرُّونَ به، ودعاءً بالتَعمير تُحيِّيهُم الملائكةُ ويُسلِّمونَ عليهم، أو: يحيِّي بعضُهُم بَعْضاً ويسلِّم عليه، وقيلَ: يُعْطَونَ مُلْكاً عَظيماً وتَخليداً مع السَّلامةِ من كلّ آفة [(٣)]. ﴿مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ موضع استقرارٍ وموضع إقامةٍ.

﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ﴾ أي: ما يُبالي بكُم ربِّي، ولم يعتدَّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: عبادتُكُم، وقيلَ: «مَا» استفهاميةً في محلّ النَّصبِ، وهي عبارةٌ عن المصدر [(٤)]، كأنّه قالَ: أيُّ عَبْءٍ يَعبأُ بكُم لولا دعاؤُكُم، أي: لا تَستأهِلُونَ شيئاً من العَبْءِ بكم لولا عبادتُكُم، وحقيقةُ قولِهِم: ما عَبأتُ به: ما ٱعتددّتُ به من مهمَّاتي وما يكونَ عَبْأً عَلَيَّ، وقيلَ: لَولَا دعاؤُكُم إيّاه إذا مسَّكُم ضرٌّ رغبةً إليه وخُضُوعاً له [(٥)]. وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنّ الدعاءَ من الله بمكانٍ، وقيلَ: معناهُ: ما يَصنَعُ بكم ربّي لولا دعاؤُهُ إيّاكُم إلى الإسلام [(٦)] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بالتَوحيدِ وبمَنْ دَعَاكُم إليه ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العَذَابُ ﴿لِزَاماً﴾ أي: لازِمَاً لَكُم واقِعَاً بكم لا محالةَ، وهو القَتلُ يوم بَدرٍ أو عذابُ الآخرة.

۞ ۞ ۞

---

(١) الإنسان: ١١.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر والمفضّل والأعمش ويحيىٰ وخلف وطلحة ومحمد اليماني. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٥١٧.

(٣) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٦١.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٧٥.

(٥) قاله الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٦٢.

(٦) قاله الفراء في معانيه: ج ٢ ص ٢٧٥.

سورةُ الشُّعَرَاءِ

مكّية كلّها[1] إلّا قولَه: ﴿والشُعَراءُ يَتّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ الى آخرها، مائتان وسبع وعشرون آيةً كوفيٌّ، ستٌّ في غيرِهِم، ﴿طسٓمٓ﴾ كوفي، ﴿فَلَسَوْفَ تَعلمون﴾[2] غيرُهُم، ﴿أين ماكنتم تَعبدون من دون الله﴾[3] غيرُ البصريِّ.

في حديث أُبيٍّ: «من قَرأَ سورةَ الشُعَراءِ كانَ لَه من الأَجْرِ بعَدَدِ مَن صدَّق بنوحٍ وكَذَّبَ به، وهودٍ وشعيبٍ وصالحٍ وإبراهيمَ، وبعَدَد من كذَّبَ بعيسى، وصدَّق بمحمدٍ صلى الله عليه وآله»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قَرأَ الطَّواسين الثلاثَ في ليلةِ الجُمُعةِ كانَ من أولياء الله وفي جوارِهِ وكَنَفِهِ، ولَمْ يصبْهُ في الدنيا بُؤْسٌ أبداً، وأُعطي في الآخرةِ من الجنّةِ حتّىٰ يرضىٰ وفَوقَ رضَاه، وزوَّجَهُ اللهُ مائةَ حوراء من حور العين»[5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤: قال قتادة: هي مكّية، وقيل: أربع آيات منها مدنيّة من قوله: ﴿والشعراء...﴾ الى آخرها، وهي مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والمدني الأوّل، وستّ في البصري والمدني الآخر.

وفي تفسير الآلوسي: ج١٩ ص٥٨ مالفظه: وفي تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة، وقد جاء في رواية عن ابن عباس وابن الزبير اطلاق القول بمكّيتها.

(٢) الآية: ٤٩. (٣) الآية: ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٤٦ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) ﴾

«طَاء ويَاء وحَاء» من ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾: قُرِئ بالإمالةِ[١] والتَفخيمِ[٢]، وقرئ نونُ «سين» بالإظهارِ[٣] والإدغامِ[٤].

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو اللوحُ المحفوظُ يتبيَّنُ للناظرينَ في كلّ ما هو كائنٌ، أو: القرآنُ يبيِّنُ ما أودعَ من الحِكَمِ والشَرائعِ وأنواعِ العُلُومِ، أو: هو الظاهِرُ إعجازُهُ وصحةُ أنّه من عندِ الله.

وَالبَخعُ: الإهلاكُ، و﴿لَعَلَّكَ﴾ للإشفاقِ، أي: أَشْفِقْ علىٰ نفسِكَ أن تَقتلَها حَسْرةً علىٰ ما فاتَكَ من إسلامِ قَومِكَ ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: خيفةَ أن لا يؤمنُوا،

(١) ممّن قرأهنّ بالإمالة: حمزة والكسائي وخلف ويحيى والعليمي والأعمش والمفضّل وأبو بكر عن عاصم. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٨.

(٢) وممّن قرأهنّ بالتفخيم: ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٠.

(٣) ممّن أظهر النون: حمزة وأبو جعفر والأعمش وما روى الكسائي عن اسماعيل عن نافع. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣، وكتاب السبعة في القراءات: ص ٤٧٠.

(٤) وممّن أدغم النون: المدنيّون وأبو عمرو وعاصم والكسائي على ما حكاه النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ١٧٣.

أو: لأَن لا يؤمنُوا.

﴿إن نَّشَأْ نُنَزِّل ... آيَةً﴾ مُلْجِئَةً إلى الإِيمانِ، كَما نَتقَ الجبلَ علىٰ بني إسرائيل ﴿فَظَلَّتْ﴾ مَعطُوفٌ علىٰ ﴿نُنَزِّلْ﴾، والأَصلُ: فَظَلُّوا ﴿لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ فَأُقْحِمَتْ «الأعناقُ» لبيانِ موضعِ الخُضُوعِ، وتُرِكَ الكلامُ علىٰ أصلِهِ. ويجوزُ أن يكونَ «الأعناق» لمَّا وصِفَتْ بالخُضُوع الذي هو للعقلاءِ قيلَ: ﴿خَـٰضِعِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿لِى سَاجِدِينَ﴾[١]، وقيلَ: المُرادُ بالأعناقِ الرؤساءُ والمقدَّمون[٢]، شُبِّهُوا بالأعناقِ كَما قيلَ لَهُم: الرؤوس والصُدُور والنَواصي، قال:

في مَحْفَلٍ من نَواصِي النَاسِ مَشهُودُ[٣]

وقيلَ: ﴿أعنَـٰقُهُم﴾ جَماعاتُهُم[٤]. يقالُ: جاءَ عُنُقٌ من الناسِ أي: جَماعةٌ.

وما يجدِّدُ اللهُ بوحيِهِ مَوعِظَةً وتَذكيراً إلَّا جدّدوا إعراضاً عنه وكُفْراً به.

وَصَفَ «الزَّوْج» وهوِ الصِنْفُ من النبات بالكَرمِ والكَريمِ صفةً لكلّ ما يُرضىٰ ويُحمَدُ في بَابِهِ، يقالُ: وَجْهٌ كريمٌ مَرضيٌّ في حسنِهِ وبهائِهِ، وكِتَابٌ كَرِيمٌ مَرضِيّ في معانِيهِ، فالنباتُ الكريمُ هو المَرْضي في المنافعِ المتعلقةِ به.

﴿إنَّ في﴾ إنباتِ تلكَ الأَصْنافِ ﴿لآيةً﴾ علىٰ أنّ مُنْبِتَها قَادرٌ علىٰ إحياءِ الأمواتِ، وقد عَلِمَ اللهُ أنّ ﴿أَكثَرهُمْ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ٱنتقامِهِ منهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمَن يؤمن.

---

(١) قاله ابن عيسى كما في التبيان: ج ٨ ص ٦. والآية من سورة يوسف: ٤.

(٢) قاله ابن شجرة وقطرب. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٦٥.

(٣) لأمِّ قيس الضبية، وصدره: ومشهدٌ قد كَفَيتُ الغائبينَ بِهِ

وقد تقدّم ذكر البيت وشرحه في ص في سورة هود: ١٠٣.

(٤) قاله ابن عباس ومجاهد وأبو زيد والأخفش والنقاش. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٦٥، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٩.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢)﴾

﴿قَوْمَ فِرْعَونَ﴾ عَطْفُ بيانٍ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كَلامٌ مستأنفٌ، أي: أَمَا آنَ لَهُم أن يتَّقوا الله ويحذرُوا من أيّامِهِ.

﴿ويَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى﴾ بالرفعِ لأنّهما معطُوفانِ علىٰ خبرِ ﴿أن﴾، وقُرِئا بالنَصب[١] عطفاً علىٰ صِلَةِ ﴿أنْ﴾، والرفعُ يفيدُ أنّ فيه ثلاثَ عللٍ: خَوفُ التكذيبِ، وضيقُ الصَدْرِ، وٱمتناعُ ٱنطلاقِ اللِّسانِ. والنصبُ يفيدُ أنَّ خَوفَه يتعلَّقُ بهذه الثلاثة. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبرائيلَ ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ وٱجعلْه نبيّاً، وأُزُرْني به وَٱشْدُدْ به ظَهْري. ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ﴾ هو قتلُهُ القبطيّ، أي: ولَهُم عليَّ تَبِعَةُ ذنبٍ، وهي قَوَدُ ذلكَ القَتْلِ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ـي به، فحُذِفَ المضافُ، أو: سمَّىٰ تَبِعَةَ الذَنْبِ ذنباً، كما سمَّىٰ جَزاءَ السيّئةِ سيّئةً.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ارتَدِعْ يا موسىٰ عمّا تظنُّ، لأنّهم لَنْ يقتلُوكَ به، فإنّي لا أُسلّطُهُم عليكَ، فَاذْهَبْ أنتَ وهارون. وقولُهُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾

---

(١) قرأه يعقوب. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨.

من مجازِ الكَلامِ لأنّه تعالىٰ لا يُوصَفُ بالاستماع على الحقيقةِ، فـإنَّ الاسـتماعَ جارٍ مجرى الإصغاءِ، وإنّما يُوصَفُ بأنّه سميعٌ وسامعٌ، والمرادُ: إنّا لَكُما كالظَّهيرِ المُعِين إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه، فَأُظْهِرُكُمَا عليه وأكسِرُ شـوكَتَه عنكما. ويجوز أن يكُونَا خَـبَرَين لـ«أن»، وأن يكـونَ ﴿مُّسـتَمِعُونَ﴾ مسـتقِراً، و﴿مَعَكُم﴾ لَغواً.

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جَعَل «رسول» هنا بمعنىٰ الرسالة، فلمْ يُثَنَّ كـما ثنَّىٰ في قولِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (١)، كما يُفعَلُ في الصِفَةِ بالمصادر نحو: صَوْمٌ وزَوْرٌ. ويَجوزُ أن يوحَّدَ لأنَّ حُكْمَهُما واحدٌ بالاتّفاقِ والأُخوّةِ، فكأنّهما رسولٌ واحدٌ.

﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أَرْسِلْ لِتَضَمُّن الرسولِ معنَى الإرسالِ، وفي الإرسالِ معنَى القَولِ، كما في المناداة ونَحوِها. ومَعنىٰ هذه الارسال التـخليةُ والإطـلاقُ، كما يقالُ: أَرسِلْ البازي، والمُرادُ: خَلِّ بَني إسرائيل يَـذهَبُوا مَـعَنَا إلىٰ فـلسطينَ، وكانَتْ مَسكَنَهما.

وفي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُهُ: فَذَهَبا إلىٰ فرعونَ وبَلَّغَا الرسالةَ علىٰ ما أُمِرَا به، فَعِنْدَ ذلكَ ﴿قَالَ﴾ فرعونُ لموسىٰ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ وهذا النَوعُ من الاختصارِ كَثيرٌ في التَنزيلِ. الوَليدُ: الصبيُّ لقُرْبِ عَهْدِهِ بالولادةِ ﴿سِنِينَ﴾ قيلَ: لَبثَ عـندَهُم ثـماني عشرة سنة (٢)، وَقيلَ: ثلاثينَ سنة (٣)، وقَالَ الكلبيُّ: أَربـعينَ سـنة (٤). ﴿فَـعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ يعني: قَتَلْتَ القـبطيّ، أي: ﴿وَأَنْتَ﴾ لذلكَ ﴿مِـنَ الكَـٰفِرِينَ﴾ لِنـعْمَتي وحقِّ تَربيَتي.

---

(١) طٰه: ٤٧.

(٢) قاله ابن عباس كما في مجمع البيان: ج ٧ ص ١٨٦.

(٣) قاله ابن عباس ومقاتل. راجع مجمع البيان السابق.

(٤) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ٦٨.

وأجابَهُ موسىٰ بأنّ تلك الفَعْلَة إنّما فَرَطَتْ منه وهو ﴿مِنَ الضَّالِّين﴾ أي: الذاهبينَ عن الصَوابِ أو الناسينَ من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا الأُخْرَىٰ﴾[١]. كَذبَ فرعَونُ ودَفَعَ الوَصْفَ بالكُفْرِ من نفسه بأن وَضَعَ «الضالِّين» موضع «الكافرين» رياءً بمحلِّ مَن رشح للنبوّةِ عن تلك الصِفَةِ، ثم أبْطَلَ ٱمتنانَه عليه بالتَربيةِ، وأَبَىٰ أن يسمّي نِعْمتَهُ نِعْمةً بأن بيَّن أنَّ حقيقةَ إنعامِهِ عليه تَعبيدُ بني إسرائيل، لأنّ تَعبيدَهُم وقَصدَهُم بذبح أبنائِهم هو السَبَبُ في حصولِهِ عندَهُ وتربيتِهِ، فكأنّه منَّ عليه بتَعْبيدِ قَومِهِ، وتعبيدُهُم: اتّخاذُهُم عَبيداً وتذليلُهُم.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ خَصْلةٍ مُنْكرةٍ لا نَدري إلّا بتَفسيرِها، ومحلُّ ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ الرفعُ بأنّه عطفُ بيانٍ لـ﴿تِلْكَ﴾، وَنَظيرُهُ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾[٢]، والمعنىٰ: تعبيدُكَ بني إسرائيل نعمةٌ ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟! ويجوزُ أن يكونَ في محلّ نَصْبٍ، والمعنىٰ: إنّما صَارَتْ نعمةً عليَّ لأن عبَّدْتَ بني إسرائيل، أي: لَو لَمْ تفعلْ ذلكَ لكَفَلَني أهلي ولم يُلقوني في ٱلْيَم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَآ بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن

---

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) الحجر: ٦٦.

يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾

﴿وَمَا رَبُّ العَـٰلَمِينَ﴾ يُريدُ: وأيُّ شيءٍ هو من الأشياء المشاهَدَةِ؟ فأجابَهُ موسىٰ بمَا يستدلّ عليه من أفعالِهِ ليعرّفَهُ أنّه ليسَ بشيءٍ يمكنُ أن يُشاهَدَ من الأجسامِ والأَعْراضِ، وإنّما هو شيءٌ مُخالِفٌ لجميعِ الأشياء، ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، منشئُ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ﴾ ومُبدِعُهُما ﴿وما بَيْنَهُمَآ إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ بأنّ هذه الأشياءَ مُحْدَثةٌ مُنشَأَةٌ وليستْ من فعْلِكُم، والمُحدَثُ لابدّ له من مُحدِثٍ.

فلمّا أَجابَ موسىٰ بما أَجابَ عَجَّبَ فِرعَونُ قَومَه من جوابِهِ حيث نَسَبَ الربوبيةَ إلىٰ غيرِهِ. فلمّا ثنَّىٰ موسىعليه‌السلام بتقريرِ قولِهِ نَسَبَه فِرعَونُ إلى الجنونِ وأضَافَه إلىٰ قومِهِ حيث سمَّاهُ «رَسُولَهُم» طنزاً به[1].

فلمّا ثلَّثَعليه‌السلام بتقريرٍ آخرَ غَضبَ وقالَ: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِى﴾ وعارضَ موسىٰعليه‌السلام قولَه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ ... لَمَجْنُونٌ﴾ بقولِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحالِ، دَخَلَتْ عليها همزةُ الاستفهامِ، والمعنىٰ: أَتفْعلُ ذلكَ بي وَلو جِئْتُكَ ﴿بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي: جَائِياً بالمُعجِزِ الظَاهِرِ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ أَنّ المُعْجِزَ لا يَأتي به إلّا الصادقُ في دَعْواهُ، لأنّه يجري مَجْرى التَصدِيقِ من اللهِ تَعالىٰ، فلابُدَّ من يَدُلُّ على الصَّادقِ،

---

(١) طنز طنزاً به: سَخِرَ منه. (لسان العرب: مادة طنز).

وتَقديرُهُ: إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادقينَ في دَعْواكَ إئْتِ به، فَحُذِفَ الجَزاءُ لأنّ الأَمْرَ بالإِتيانِ به يدلّ عليه.

﴿ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الثعبانيَّة، لا شيء يُشبه الثُعبان. ﴿بَيْضَاءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ علىٰ أنّ بياضَها كانَ شَيئاً تَجتَمعُ النَظَارةُ على النَظَرِ إليه لخروجِهِ عن العَادةِ، فكانَ بَيَاضاً نُورانيّاً لَهُ شُعاعٌ يَغشى الأبصارَ ويَسُدُّ الأُفُق.

وقولُهُ: ﴿حَوْلَه﴾ منصُوبُ اللفظِ على الظَرفِ، ومنصُوبُ المحلّ على الحَالِ.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامَرةِ وهي المشَاوَرة، أو: من الأَمْرِ الذي هو ضـدّ النَّهْي، جَعَلَ العبيدَ آمرينَ وربَّهُم مأموراً؛ لِمَا دَهَاهُ من الدَهَشِ والحِيرَةِ حينَ أَبصَرَ الآيتينِ، واعتَرفَ لهم بِمَا توقَّعَهُ وأحسَّ بِهِ من جهةِ موسىٰ عليه السلام وغَلَبَتِهِ علىٰ مُلْكِهِ وأرضِه. و﴿مَاذَا﴾ مَنصُوبٌ: إمّا لكونِهِ في معنى المَصدرِ، وإمّا لأنّه مفعولٌ به من قولِهِم: أمرتك الخير.

وقُرِئَ: «أرْجِئْهُ» وقَد مرَّ بيانُه [١]. ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يَومُ الزينةِ، وميقاتُهُ وقتُ الضُحىٰ لأنّه الوقتُ الذي وقّتَهُ لَهم موسى عليه السلام من يَومِ الزينةِ. ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ استبطاءٌ لهم في الاجتماعِ، والمُرادُ منه: استِعْجَالُهُم، ومنه قولُ تأبّطَ شرّاً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لحَاجَتِنا؟ [٢]

يريدُ: ابْعثْهُ إلينا سَريعاً ولا تُبطِئ [٣]. ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ في دينِهِم إن غَلبُوا مُوسىٰ، ولا نتّبعُ موسىٰ في دينِه.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

---

(١) في ج ١ ص ٦٨٦ من سورة الأعراف: ١١١ فراجع.

(٢) وعجزه: أو عَبْدَ ربٍّ أخا عَوْنِ بنِ مخراقِ. أنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٨ ص ٢١٥.

(٣) في نسخة زيادة: «به».

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨)﴾

أَقْسَمُوا ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وهي من أَقْسامِ الجَاهليّةِ، وفي الإِسلامِ لا يصحُّ الْحَلْفُ إلّا بالله تعالىٰ أو ببعضِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وفي الحديث: «لا تَحلِفُوا إلّا باللهِ، ولا تَحلِفُوا بالله إلّا وأنتُم صَادِقُون»[(١)].

وعَبَّر عن الخُرُورِ بالإلْقاءِ علىٰ طَريقِ المشَاكَلَةِ إذ جَرىٰ ذِكْرُ الإلقاءِ، يَعني:

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣١٢ مرسلاً.

أنّهم إذا رأَوا ما رَأَوا رَمَوا بنفوسِهِم إلى الأرضِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ كأنّهم أُخِذُوا وطُرِحُوا وأُلْقُوا.

الضَّيْرُ: الضَّرُّ، أرادُوا: لا ضَرَرَ علينا في ذلكَ بل لَنا فيه أعظمُ النَّفعِ لِمَا يَحصلُ لنا في الصَبْرِ عليه من الثَوابِ العَظيمِ، أو: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لَنا في القَتْلِ إذ لابدَّ لَنا من الانقلابِ إلى ربِّنا بسَبَبٍ من أَسبابِ المَوْتِ، والقَتْلُ أَهْونُ أسبابِهِ وأرضَاها، لأنّنا نَنقلِبُ إلىٰ ربِّنا انقلابَ مَن يطمعُ في مغفرتِهِ ورحمتِهِ لِمَا رزقَنا من السَبْقِ إلى الإيْمانِ ﴿أَنْ كُنَّا﴾ مَعناهُ: لأَنْ كُنّا.

وعلَّلَ الأمرَ بالإِسْرَاءِ بقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ علىٰ معنى: أنّ التَدبيرَ في أمرِهِم أَن يتقدَّمُوا ويتْبَعَهُم فِرعَونُ وجنودُه ويَسلِكَوا مسالِكَهم في البحرِ فيُهلكهم الله بإطباقِ البَحرِ عليهم.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ﴾ مَحْكيٌّ بعد قَولٍ مُضْمرٍ، والشِّرْذِمَةُ: الطائفةُ القَليلةُ، ذَكَرَهُم بهذا الاسمِ الدالّ على القلّةِ ثم وَصَفَهُم بالقلّةِ. ويجوزُ أن يريدَ بالقلّة المذلّة والغمارة[١]، فلا يريدُ قلّةَ العَدَدِ، يعني: أنّهم لقلّتِهِم لا يُبَالَىٰ بِهِم. ﴿وإِنَّهُمْ﴾ يفعلُونَ أَفْعالاً تُغيظُنا، ونَحنُ قَومٌ من عَادتِنَا التيقّظُ والحَذَرُ واستعمالُ الحَزْمِ في الأُمورِ، فإذا خَرَجَ علينا خَارجٌ بادَرْنا إلىٰ حَسْمِ مادَّةِ فَسَادِهِ، وهذه مَعَاذيرُ اعتذَرَ بها إلىٰ أهل المَدائنِ لئلّا يُظَنَّ بِهِ ما يكسِرُ من سُلطانِهِ. وقُرِئَ: «حَذِرُونَ»[٢] و﴿حَٰذِرُونَ﴾، فالحَذِرُ: المتيقِّظُ، والحَاذِرُ: المستَعِدُّ.

﴿وَمَقَام كَرِيم﴾ مَنَازِلُ حَسنةٌ، وقيلَ: مَجالس الأُمراءِ التي تحتفّ[٣] بها

---

(١) في بعض النسخ: «والقماءة».

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧١.

(٣) في نسخة: «تحفّها».

الأتْباعُ[1]. ﴿كَـذَٰلِكَ﴾ الكافُ رُفِعَ لأنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأَمْرُ كَـذلِكَ، أو نُصِبَ أي: أَخرجْنَاهُم مثلَ ذلكَ الإِخْراجِ الذي وَصَفْنَاه. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فَلَحقُوهُم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخِلينَ في وقتِ الشُّرُوقِ.

﴿سَيَهْدِينِـ﴾ـي طَرِيقَ النَجَاةِ من إدراكِهِم. أي: فَضَربَ فانفلَقَ البَحرُ وظَـهَرَ فيه اثنا عَشَر طَرِيقاً، والْفِرْقُ: الجُزْءُ المتَفرّق فيه، والطَّوْدُ: الجَبَلُ العَظيمُ.

﴿وأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي: حَيثُ انفلَقَ البحرُ ﴿الآخَرِينَ﴾ يعني: قَومَ فِرعَونَ قَرَّبناهُم من بني إسرائيل، وأدْنَيْنَا بَعضَهُم من بَعضٍ، وجَمَعْناهُم حتّىٰ لا ينْجُو منهُم أَحَدٌ.

﴿إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً﴾ لا تُوصَفُ، قد عَايَنَها النَاسُ وما انتَبَهَ عَليها ﴿أَكْثَرُهُم﴾.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَـذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَـةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

---

(١) قاله ابن عيسى. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٢.

تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

سألَهُم إبراهيمُ عليه السلام وإنْ كانَ يعلَمُ عبادَتَهُم الأصنامِ ليريَهم أنَّ ما يَعبُدونَهُ بعيدٌ عن ٱستحقاقِ العبادةِ. ولابدَّ في ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ من تَقديرِ حَذفِ المضَافِ، معناهُ: هل يَسمعُونَ دعاءَكُم، وهل يقدرُونَ علىٰ ذلك؟ وجاءَ مضارِعاً مع إيقاعِهِ علىٰ ﴿إِذْ﴾ لأنّه حكايةُ حالٍ ماضيةٍ.

وإنّما قالَ: ﴿عَدُوٌّ لِّى﴾ علىٰ معنىٰ: أنّي فَكّرتُ في أَمري فرأيتُ عبادَتي لَها عبَادةً للعدوِّ الذي هو الشَيطانُ فاجتَنَبْتُها، وآثرتُ عبادةَ مَن الخَيرُ كلُّه مِنهُ، وأَراهُم بهذا القولِ أنّه نَصيحَةٌ نَصَحَ بهَا نفسَهُ، لينظرُوا فيقولُوا: ما نَصَحَنا إبراهيمُ إلّا بمَا نَصَحَ به نَفسَه، ويكُونوا إلى القَبولِ أقربَ، ولو قالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ﴾ لَكُم لَمْ يكنْ بهذه المَثابةِ. والعَدوُّ والصَديقُ يكُونانِ بمعنى الواحدِ والجَمْعِ، قال:

وقَــومٌ عَـلَـيَّ ذَوي مِـئْرَةٍ   أَراهُم عَدُوّاً وكَانُوا صَـدِيقَا

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كأنّه قالَ: لكنْ ربّ العالمينَ.

وقالَ: ﴿إِذَا مَرِضْتُ﴾ ولَمْ يقلْ: أَمْرَضَني لأنَّ كثيراً من أَسبابِ المَرَضِ يَحدثُ بتَفْرِيطٍ من الإنسانِ في طَعَامِهِ وشَرابِهِ وغَيرِ ذلك.

وإنّما قالَ: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ علىٰ سَبيلِ الانقطاعِ إلى الله تعالىٰ،

أو أرادَ: أَطْمعُ أن يَغفرَ لأجلي خطيئةَ مَن يُشَفِّعني فيه، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام مُنزَّهُون عن الخَطَايا(١) والآثامِ، فاستغفارُهُم مَحمُولٌ علىٰ تَواضِعِهِم لربِّهم وَهَضْمِهِم لأنفُسِهِم، ويدلّ علىٰ ذلكَ قولُهُ: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولَمْ يجزمِ القَولَ بالمغْفرةِ، وفيه تَعليمٌ لأُممِهِم. ﴿هَبْ لِى حُكْماً﴾ أي: حِكْمةً أو حُكْماً بين الناسِ بالحقّ، وقيلَ: الحُكْمُ: النبوّة(٢)، لأنّ النبيَّ ذو حُكْمٍ بين الناسِ وذو الحِكْمةِ والعِلْمِ ﴿وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ﴾ إجْمَعْ بيني وبينَهم في الجنّة. ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ من الخِزْيِ الذي هو الهَوانُ، أو: من الخَزَايَةِ التي هي الحَياء، وهذا أيضاً من نحو ٱستغفارِهِم مع عِصمَتِهِم وبُعْدِهِم عمَّا يُوجبُ الاستغفارَ، وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ضميرٌ للعِبَادِ لأنّه مَعلُومٌ. ﴿إِلَّا﴾ حَالٌ من ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهو من قولهم:

تحيةُ بَيْنِهِم ضَربٌ وَجيعُ(٣).

وبيانُهُ أن يقالَ لكَ: هل لزيدٍ مالٌ وبنون؟ فتقولَ: مالُهُ وبنُوه سَلامةُ قلبِهِ، تريدُ نفيَ المالِ والبنينَ عَنْه، وإثباتَ سَلَامةِ القلبِ لَه بَدَلاً من ذلكَ. ويجوزُ حملُ الكلامِ على المعنىٰ بأن يَجعَلَ المالَ والبنينَ في معنى «الغِنىٰ»، إلَّا غنَى مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، لأنّ غنَى الرجلِ في دينِهِ بسلَامةِ قلبِهِ، كما أنّ غناهُ في دنْياه بمالِهِ وبَنيه. ويجوزُ أن يكونَ مفعولاً لـ﴿ينفعُ﴾ أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بَنونَ إلَّا رَجُلاً سَلمَ قلبُهُ مع مالِهِ حيثُ أَنْفَقَهُ في طاعةِ الله، ومع بَنيه حيثُ أَرْشَدَهُم إلى الدينِ وعلَّمَهُم الشَرائعَ. وقيلَ: القلبُ السليمُ الذي أَسْلَمَ وسَالَمَ وٱستَسْلَم(٤). وعن الصادق عليه السلام:

---

(١) في نسخة: «الخطاء».

(٢) قاله السدي والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٦، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٩٠.

(٣) وصدره: وخيلٍ قد دَلَفتُ لَها بِخَيلٍ. وهو منسوب لعمرو بن معد يكرب، قد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٧٣ فراجع.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٢١.

«هو القلبُ الذي سَلِمَ من حبِّ الدُّنيا».

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قَربَتْ من موقِفِهم ينظُرُونَ إليها ويغتبطُونَ بمكانِهم منها. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ كُشِفَتْ للأشقياءِ يَتحسَّرون علىٰ أنّهم الْمَسوقُونَ إليها، قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (١) يَجمَعُ عَلَيهِم الْغُمُومَ، فتُجْعَلُ النارُ بمرأىً منهم ويقالُ لَهُم: أينَ آلهتُكُم هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ بنُصْرتِهِم لكم؟ أو: هَل ينفعُونَ أنفُسَهُم بانتصارِهِم لأنّهم ومَا كَانُوا يعبُدونَهُم وقودُ النارِ، وهو قولُهُ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ﴾ أي: الآلهة، والغَاوون أي: عَبَدَتُهُم، والكَبْكَبَةُ: تكريرُ الكبِّ، جَعَلَ التكريرَ في اللَفْظِ دليلاً على التَكريرِ في المعنىٰ، كأَنّه إذا أُلقِيَ في النارِ يُكَبُّ مرةً بعد مرّةٍ حتّىٰ يستقرَّ في قَعْرِ جَهنَّم، اللّهُمَّ أَعِذْنا منْها. وكَبْكَبَ مَعَهُم ﴿جُنُود إِبْلِيسَ﴾ أي: أَتْباعَه وشَياطينَه.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: يخاصِمُ بَعضُهُم بَعْضاً. و«إنْ» هي المخَفَّفةُ من الثَقيلة، أي: إنَّا كُنَّا في ﴿ضَلَـٰلٍ مُبِينٍ إذ﴾ سوَّيناكُم بالله في تَوجِيهِ العبَادةِ إليكُم.

والمرادُ بالْمُجْرِمِينَ الذينَ أضلّوهُم: رؤساؤُهم وكُبراؤُهم والذين اقتَدَوا بِهِم ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ (٢)، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَـٰفِعِينَ﴾ يَشفَعُون لَنا، ويسألُونَ في أَمرنا، كما نَرَى المؤمنينَ لَهُم شُفعاء من النبيِّين والأوصياءِ، ولا صَديقٍ كما نَرىٰ لَهُم أصدقاء.

الصادق عليه السلام: «واللهِ لنشفعنَّ في شيعتنا، قالَها ثلاثاً، حتّىٰ يَقولَ عدوُّنا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿من ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾» (٣).

وعن جابر بن عبدالله عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجلَ يقولُ في الجنَّة: ما فَعَلَ

---

(١) الملك: ٢٧. (٢) الأحزاب: ٦٧.

(٣) رواه في تأويل الآيات: ص ٣٨٦ نقلاً عن البرقي.

صَديقِي فُلانٌ، وصَديقُهُ في الجَحيمِ؟ فيقولُ اللهُ سبحانَه: أَخْرِجُوا لَه صَديقَهُ إلى الجنّةِ، فيقولُ مَن بَقِيَ في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[1].

والحَميمُ من الاحتمامِ، وهو الاهتمامُ، وهو الذي يهمُّهُ ما يهمُّكَ، أو من «الحامَّة» بمعنَى الخاصّة، وهو الصَديقُ الخاصُّ. وإنّما جَمَع «الشُفعاء» وَوَحَّدَ «الصديق» لكثْرَةِ الشُفَعاءِ وقلّةِ الصَديقِ الصَادقِ في الودادِ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالصَديقِ الجَمْعَ. والْكَرَّةُ: الرَجْعَةُ إلَى الدنيا، و«لَوْ» هنا في معنى التَمنّي، المعنىٰ: فَلَيْتَ لَنا كَرَّةً. ويمكنُ أن يكونَ «لَو» علىٰ أَصْلِ مَعناه، ويكونَ محذوفَ الجَوابِ والتقديرُ: لَفَعَلْنَا كَذَا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

(١) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١١٨.

«الْقَومُ» مؤنّثٌ، وتصغيرُهُ «قُوَيْمَة». ﴿أَخُوهُمْ﴾ مِثْلُ قَولِ العَربِ: يا أخَا بَني أَسَد، يُريدُون: يا واحِداً منهم، ومنه بَيتُ الحَمَاسَةِ:

لا يَسْأَلُونَ أخَاهُم حِينَ يَنْدُبُهُم   في النَائِباتِ علىٰ ما قَالَ بُرهَانَا[١]

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ علَى الرسَالةِ، أو كانَ مَشْهُوراً فيهم بالأَمانَةِ كمُحمدٍ صلى الله عليه وآله في قَريشٍ. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أدعُوكُم إليه من الإيْمانِ والتَوحيدِ. ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ﴾ علىٰ هذا الأمْر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يَعني علىٰ دُعائِهِ ونُصْحِهِ. ﴿فَاتَّقُواْ اللهَ﴾ في طَاعَتي، وكَرَّرَ ذلكَ ليقرَّرَهُ في نفُوسِهِم مع أنّ كلَّ واحدٍ منهُما قَد تعلَّقَ بعلّةٍ: جَعَلَ علَّةَ الأوّلِ كونَه أَميناً فيمَا بينَهُم، وعلَّةَ الثاني حَسْمَ طَمَعِهِ عَنْهُم.

وقرئ: «وَأَتْبَاعُكَ»[٢] جَمْعُ تَابعٍ كَشاهدٍ وأشهاد، أو جَمْعُ تَبَعٍ كبَطَلٍ وأَبطال. والواو للحالِ، والتَقْديرُ: وقَد اتَّبَعَكَ، فأضمَر «قد»، والرَذَالةُ والنَذَالَةُ: الخسَّةُ والدَنَاءةُ، وإنّما ٱستَرذَلُوهُم لاتِّضاع نَسَبِهِم وقلّة نَصيبِهِم من الدنيا، وقيلَ: كانُوا من أَهلِ الصناعَاتِ الدَنيئَةِ كالحياكَةِ ونَحوِها[٣].

﴿وَمَا عِلْمِى﴾ وأيّ شيءٍ عِلْمِي؟ والمرادُ: انتفاءُ عِلْمِهِ بسِرِّ أمرِهِم وباطِنِه، وإنّما قالَ هذا لأنّهم قَد طَعَنُوا مع ٱسترذالِهِم في إيمانِهِم، وادَّعوا أنّهم لَمْ يؤمِنُوا علىٰ بَصيرةٍ وإنّما آمنُوا هَوىً وبَديهة، كَمَا حَكَى الله عَنْهُم قَولَهُم: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾[٤]. ويجوزُ أن يكُونَ قَد فَسَّرَ نُوحٌ قَولَهُم: ﴿الأَرْذَلُونَ﴾

---

(١) البيت منسوب لقريط بن أُنيف العنبري، وهو أوّل أبياتٍ ثمانية نظمها عندما أغار عليه ناسٌ من بني شيبان فأخذوا له ثلاثين بعيراً، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فأتىٰ مازنَ تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه. أُنظر خزانة الأدب: ج ٧ ص ٤٤١.

(٢) قرأه عبدالله وابن عباس والأعمش وأبو حيوة والضحاك وابن السميقع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري وطلحة ويعقوب. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤١، وتفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٠٧.

(٣) قاله عكرمة ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٩، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٩٢.

(٤) هود: ٢٧.

بِمَا هو الرذَالَة عندَه من سُوءِ الأعمالِ وفَسَادِ العقيدَةِ، ثمّ بنَىٰ جَوابَهُ علىٰ ذلك فقالَ: ما عَلَيَّ إلّا اعتبارُ الظَواهِرِ دونَ الفَحْصِ عن الضَمائر، فإنْ كانُوا علىٰ ما وَصَفْتُم فاللهُ محاسِبُهُم ومُجازِيهُم ﴿وَمَا .. أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لا مُحاسِبٌ ولا مُجَازٍ، وليسَ من شَأني أَن أطردَ ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ طَمَعاً في إيمانِكُم.

﴿قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ﴾ أي: لَئِنْ لَمْ ترجعْ عَمَّا تقولُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحِجَارةِ أو بالشَتْمِ. ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إِنَّهُمْ ﴿كَذَّبُونِـ﴾ ـي في وَحْيِكَ ورسَالَتِكَ فاحكُمْ بيني وبينَهُم. والْفَتَّاحُ: الحَاكِمُ، والفُتَاحَةُ: الحكُومةُ.

و﴿الْفُلْك﴾ السَفينَة، وهو واحِدٌ هنا، وجُمِعَ في قولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [1] فالواحِدُ كقُفْل، والجَمعُ كأُسْد، جَمعُوا فَعْلَاء [2] علىٰ «فُعْلٍ» كما جَمعُوا «فَعْلَىٰ» علىٰ «فَعَل» لأنّهما أخوانِ في قولِكَ: العُرْبُ والعَرَبُ، والعُجْمُ والعَجَمُ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ، و﴿المَشْحُونِ﴾ المملُوء.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

---

(١) فاطر: ١٢.

(٢) في بعض النسخ «فَعَلاً».

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

الرِّيعُ: المكانُ المرتفعُ، والآيةُ: العلمُ، قيلَ: كانُوا يهتَدونَ بالنُّجُومِ في أسفارِهِم، فاتَّخَذُوا في طُرُقِهِم أَعْلاماً طِوَالاً فـعَبَثُوا بـذلكَ، لأنّـهم كـانُوا مسـتَغْنينَ عـنها بالنُّجُوم [١]، وقيلَ: كانُوا يبنُونَ أبنيةً لا يحتاجُونَ إليها لسُكْناهُم، فَجَعَلَ بـناءَ مـا يستغنُونَ عنه عَبثاً منهم [٢].

وعن النبيِّ ﷺ: «كلُّ بناءٍ يُبنىٰ وبَالٌ علىٰ صَاحبِهِ يومَ القيامَةِ إلّا ما لابدَّ منه» [٣].

وقيلَ: كانُوا يبنُونَ بالمواضِعِ المرتفعَةِ ليشرفُوا على المَارَّة فَيعبثُوا بِهِم [٤].

والْمَصَانِعُ: مَآخِذُ الماءِ، وقـيلَ: القُـصُورُ المشـيَّدةُ والحُـصُون [٥] ﴿لَـعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: تَرجُونَ الخُلُودَ في الدنيا، أو: يشبَهُ حالُكُم حالَ مَن يَخلُدُ.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بِسَوْطٍ أو سَيْفٍ ﴿بَطَشْتُمْ﴾ ظَالِمينَ عَالِينَ، وقـيلَ: الجـبَّارُ: الذي يقتلُ ويضربُ على الغَضَب [٦]، وعن الحَسَنِ: مُـبادرينَ تَـعجيل العَـذَابِ لا يَتَفكّرونَ في العَواقِبِ [٧].

ثم نبَّهَهُم علىٰ نِعَمِ الله تعالىٰ عليهم، فأَجْمَلَها بقولِهِ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَـعْلَمُونَ﴾، ثم فَصَّلَها وعَدَّدَها عليهم، وعرَّفَهُم المُنْعِمُ النِـعَمَ بـتَعديدها، أي: ﴿سَـوَآءٌ عَـلَيْنَآ

---

(١) قاله عكرمة ومجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٢٣.
(٢) قاله عطية والكلبي. راجع المصدر السابق.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ج ٤ ص ٣٦١ ح ٥٢٣٧ وليس فيه لفظة «يبنىٰ».
(٤) قاله الضحاك والكلبي. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١١٠.
(٥) وهو قول مجاهد والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨١، وتفسير البـغوي: ج ٣ ص ٣٩٣.
(٦) قاله الحسن والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٢، وتـفسير القـرطبي: ج ١٣ ص ١٢٤.
(٧) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٢٦.

أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ﴾ مِن أهلِ الوَعْظِ.

وقُرِئَ: «خَلْقُ الأَوَّلينَ» بالفَتحِ (١)، ومعناهُ: إنَّ ما جئتَ به ليسَ إلّا اختِلاقُ الأوَّلينَ وكَذبهُم، أو: ما خُلُقُنا هذا إلّا خُلُقُ القُرونِ المَاضيةِ، نَحيا كَما حيُوا، ونَموتُ كَمَا مَاتُوا ولا بَعْثٌ ولا حسَابٌ. وقرئَ: «خُلُقُ الأَوَّلين» بالضَمّ (٢)، أي: ما هذا الذي نَحنُ عليه من الحَياةِ والمَوتِ إلّا عَادَةٌ لم يَزَلْ عليها الناسُ في قَديمِ الدَهْرِ، أو: ما هذا الذي جئتَ به من الكَذِبِ إلّا عَادةُ الأوّلينَ كانُوا يلفِّقُونَ مثْلَه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَـاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِـيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَـنَّـٰتٍ وَعُـيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَـخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَـٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْـمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُـمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَّـعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَـمَسُّوهَا بِسُـوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْـبَحُواْ نَـٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٦.

(٢) وهي قراءة أبي قلابة والأصمعي عن نافع. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٧ ص ٣٤.

﴿فِي مَا هَـٰهُنَآ﴾ أي: في الذي ٱستَقَرَّ في هذا المَكانِ من النَعيمِ. ثم فَسَّرَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والمَعنىٰ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ فيما أَنتُم فيه من نَعيمِ الدنـيا لا تُزالُونَ عنه.

وَخَصَّ «النَّخلَ» بأفرادِهَا من جُملةِ الجَنَّاتِ لَفضلِهِ، أو: لأنَّـه أرادَ بـالجَنَّاتِ غَيرَ النَخلِ من الشَجَر ثم عَطَفَها عليها، والطَّلْعُ: الكُفُرّىٰ[١] لأنّه يَطْلَعُ من النَخلِ، والْهَضِيمُ: اللَطيفُ الضَامِرُ من قولهم: كَشحٌ هَضيمٌ، وفي طَلْعِ إناثِ النَخْلِ لطفٌ ليسَ ذلكَ في طَلْعِ فِحَالِهَا، وقيلَ: الهَـضيمُ: اللـيِّنُ النَـضِيجُ[٢]. وقـرئَ: «فَـرِهِينَ»[٣] و﴿فَـٰرِهِينَ﴾، والفَارِهُ: الكَيِّسُ الحَاذِقُ، أي: حَاذِقينَ بنَحْتِها، والْفَرِهُ: الأَشِرِ البَطِرِ.

أي: ﴿أَطِيعُونِ﴾ ـي فيمَا آمرُكُم بِهِ. ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ رؤَساءَكُم المفْسِدِينَ، ولا تَمتَثِلوا[٤] أو امرَهُم.

والْمُسَحَّرُ الذي سُحِّر كَثيراً حتّىٰ غُلِبَ علىٰ عَقْلِهِ، أي: سُحِرْتَ مَرةً بعد أُخرىٰ فَصِرْتَ لا تَدري ما تقُولُ، وقيلَ: معناهُ: أنْتَ من المـخلُوقينَ المـعلَّلينَ بـالطَعَامِ والشَرابِ مثلُنا، فَلِمَ صِرْتَ أَولىٰ بالنبوَّة منَّا؟![٥].

والشِّرْبُ: النَصيبُ من المَاءِ إذا كانَ يَوم شِرْبِها شَـربَتْ مـاءَهُم كُـلَّه، ولَـهُمْ ﴿شِرْبُ يَوْمٍ﴾ لا تَشربُ فيه المَاءَ، وإنَّما عَظَّمَ اليومَ لحلُولِ العَذابِ العَظيمِ فيه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَـهُمْ أَخُـوهُمْ لُـوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)

---

(١) قال ابن الأثير: كُفرَّىٰ بالضمّ وتشديد الراء وفتح الفاء وضمّها مـقصور: هـو وعـاء الطـلع وقشره الأعلى، وكذلك كافوره، وقيل: هو الطلع حين ينشقّ (النهاية: مادة كفر).

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٢.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٨.

(٤) في نسخة: «تقبلوا».

(٥) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٨.

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

أي: أَتَأْتُونَ من بين أولادِ آدمَ ذُكْرانَهم كأنَّ الإناثَ قد أَعْوَزَتْكُم؟ والمُرادُ بـ﴿ـالعَـٰلَمِينَ﴾ الناسُ، أو: أتأتُونَ أنتم من بين ما عَداكُم من العَالَمينَ الذُّكْرانَ؟ بمعنىٰ: أنَّكم يا قَوم لُوطٍ وحدكم مختَصُّونَ بهذه الفَاحِشَةِ. والمُرادُ بالعَالَمِينَ: كلُّ ما يُنكَحُ من الحَيوانِ.

في ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ تَبيينٌ لِمَا خَلَقَ ﴿عَادُونَ﴾ معتَدُونَ في الظُّلْمِ، متجاوِزُونَ فيه الحَدَّ. ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ﴾ عن نَهْيِنا، ولَمْ تمتَنِعْ عن تَقْبيحِ أَفْعالِنا ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ من جُملةِ مَنْ أخْرجْناهُ من بين أظْهُرِنا، وطَردْناه من بَلدِنا. ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أبْلَغُ من أن يقولَ: ﴿إنِّي لِعَمَلِكُم﴾ قَالٍ، كما يَقُولُ: فُلانٌ من العُلَماءِ، أي: مَعدُودٌ في جملَتِهِم معروفٌ بالعِلْمِ فيهم، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ: إنّي من الكامِلينَ في قِلَاكُم، والقِلَىٰ: البُغْضُ الشَديدُ، كأنَّه بُغْضٌ يَقلِي الفُؤادَ والكَبدَ ممّا يعلَمُونَ من عقُوبةِ عَمَلِهِم.

﴿إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: مقدَّراً غُبُورها في العذَابِ والهَلاكِ، قيلَ: إنَّها هَلَكَتْ مع مَنْ خَرَجَ من القريةِ بما أُمْطِرَ عليهم من الحجَارةِ[1]. قالَ قَتادة:

(١) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٥٥.

أمطَرَ الله علىٰ شُذاذِ القَومِ حجَارةً من السَمَاءِ فأَهْلَكَهُم [١]، وعن ابن زيدٍ: لَمْ يَرْضَ بِالائْتِفاك [٢] حتّىٰ أَتْبَعَهُ مَطَراً مِنْ حِجَارة [٣]، والتَقْديرُ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾ مَطَرُهُم فحُذِفَ، ولم يُرِدْ بالمُنذَرينَ قَوماً بأَعْيانِهِم إنّما هو للجِنْس.

﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَـهُمْ شُـعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٨٠) أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِـالقسْطَاسِ ٱلْـمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْـيَآءَهُمْ وَلَا تَـعْثَوْاْ فِـى ٱلْأَرْضِ مُـفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّـظُنُّكَ لَـمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَـا كَـانَ أَكْـثَرُهُم مُّـؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١)﴾

قُرِئ: ﴿أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ بالهَمزةِ وَبتَخفيفِهِ وبالجرّ على الإضـافةِ، وقُـرِئ بالفتح [٤] علىٰ أنّ «أيكة» اسمُ بَلَدٍ، ورُوِيَ: أنّ أصحابَ الأَيْكةِ كـانُوا أصـحابَ شَجَرٍ مُلْتفٍّ، وكانَ شَجَرُهُم الدُّوم [٥]. ولَم يَقُلْ: أخوهم شعيب كما في المَواضِعِ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٣١.

(٢) في نسخة «بالانقلاب». قال الجوهري: ائتفكتْ البلدةُ بأهلها أي: انـقلبتْ، والمـؤتفكاتُ: المدن التي قلبها الله تعالى على قوم لوطٍ عليه السلام. راجع الصحاح: مادة «أفك».

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٣١.

(٤) قرأه الحرميان وابن عامر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٧.

(٥) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١٣٥ عن قتادة.

المتقدّمةِ، لأنَّ شُعَيباً لم يكُنْ من أَصْحابِ الأَيْكةِ، وفي الحَديثِ: «أن شُعيباً أَخَا مَدْيَنَ أُرسلَ إليهم وإلىٰ أصحابِ الأَيْكة»[1].

بَخَسَه حَقَّه بمعنىٰ: نَقَصَه أيّاهُ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ أي: لا تَنقُصُوا النَاسَ حقُوقَهُم، وهو عَامٌّ في أن لا يُهضَمُ حقٌّ لأَحَدٍ، ولا يُغْصَب مُلْكٌ ولا يُتَصَرَّفُ فيه إلّا بـإِذْنِ مالِكِه، وعَثَا في الأرضِ يَعثُو، وعَثَا يَعْثي، وعَاثَ يَعيثُ بمعنىً، وذلكَ نَحوُ: قَطْعُ الطَرِيقِ وإهْلاكُ الزَرْعِ.

﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الخَليقَةُ، أي: ذَوي الجِبلَّةِ، وهو كقولِكَ: والخَلْقُ الأَوَّلين. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ دَخلَتِ الواو هـنا لِـمَعنىً، وهـو أنّـهم قَـصَدُوا أنَّ البشـريّةَ والتَّسْخِيرَ كِلَيْهِمَا مُنَافٍ للرسالةِ عندَهُم ﴿إِن﴾ المخَفَّفةُ من الثقيلَةِ، وهي وَلَامُـها تفرَّقَتا علىٰ فعل «الظَنّ» وثاني مفعُولَيْهِ، لأنَّهما في الأَصْلِ يَتفرَّقانِ علَى المـبتدأ والخبر، فَلمَّا كانَ باب «كان» وباب «ظننت» من جِنْسِ بابِ المبتدأ والخبر، قَالُوا أيضاً في البابينِ: إنْ كانَ زَيدٌ لَقَائِماً ﴿وإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وقُرِئَ: ﴿كِسَفاً﴾ بسكونِ السينِ[2] وفَـتْحِها، وكِـلَاهُما جَـمْعُ كِسْـفَةٍ، أي: إنْ كنتَ صَادقاً فادعُ اللهَ أن يُسقِطَ علينا كِسَفاً من السَمَاء. ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِـمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالِكُم وبمَا تَستَوجِبُونَ عليها من العقَابِ، فإنْ أرادَ أن يُعاقِبَكُمْ بإسْقاطِ كِسَفٍ من السَمَاءِ فَعَلَ، وإنْ أرادَ عِقَاباً آخَرَ فَعَلَ، فأخَذَهم اللهُ بـمثْلِ مـا ٱقترحُوه من عَذَابِ ﴿الظُّلَّةِ﴾، يُرْوىٰ: أنّه حَبَسَ عَنهُم الرِيحُ سَبْعاً، وسَلَّطَ عَلَيهِم الوَمَدَ[3] فأَخَذَ بأنفاسِهِم، فَخَرجُوا إلَى البرّيةِ فأظَلَّتْهُم سَحَابةٌ وَجَـدوا لَـهَا بَـرداً

---

(١) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٤ ص ١٦٣.

(٢) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً فانّه قرأ بفتح السين. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٨١.

(٣) الوَمَد: شدّة حرّ الليل. (الصحاح: مادة وَمَدَ).

ونَسيماً، فاجتَمعُوا تَحتَها فأَمطَرتْ عليهِم نَاراً فاحترَقُوا[1].

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾

﴿وَإِنَّهُ﴾ الضَميرُ للقُرآن، والمُرادُ بالتَّنزيلِ: المُنزَلُ. وقرئ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ الأَمِينُ﴾، و«نَزَّلَ به الرُّوحَ»[2]، والباءُ في كِلْتَا القراءتَين للتَعديةِ، أي: جَعَلَ اللهُ الرُوحَ الأمين نَازِلاً به. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفَّظَكَ وفهَّمَكَ إيَّاهُ وأثبتَهُ في قَلْبِكَ إثباتَ مَا لا يُنسىٰ، كقولِهِ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[3]. ﴿بِلِسَانٍ﴾ الباءُ يتَعلَّقُ بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتكونَ من الذينَ أَنذَرُوا بهذا اللسَانِ وهم خَمسةٌ: هودٌ وصالحٌ وشُعَيبٌ وإسماعيلُ ومحمدٌ صَلَوات الله عليهم أجمعينَ، أو يتَعلَّقُ بـ﴿نَزَلَ﴾

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٣٢٠ عن ابن عباس.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٣.

(٣) الأعلىٰ: ٦.

فيكونُ المعنىٰ: نزَّلَه باللِّسانِ العَربي لتُنذِرَ به، لأنَّه لو نزَّلَهُ باللِّسان الأعْجَميّ وقالوا: ما نَصنَعُ بما لا نَفْهَمُه؟ فيَتعذّرُ الإنْذارُ. وفي هذا الوجهِ أنَّ تَنزيلَهُ بالعربيةِ التي هي لِسانُكَ ولِسانُ قَومِكَ تَنزيلٌ له علىٰ قَلْبِكَ لأنَّكَ تَفْهَمُهُ وتُفَهِّمُهُ قَومَكَ، ولَو كانَ أعْجَميّاً لكانَ نَازِلاً علىٰ سَمعِكَ دونَ قَلْبِكَ، فكُنتَ تَسمَعُ أجراسَ حروفٍ ولا تَفْهمُ مَعَانيهَا ولا تَعِيهَا. ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعني القُرآنَ ﴿لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذِكْرُهُ مثبتٌ في سائِرِ الكُتُبِ السَماويةِ علىٰ وَجْهِ البشَارةِ به وبمحمَّدٍ ﷺ، وقيلَ: إنَّ مَعَانيه من الدُّعاءِ إلى التَوحيدِ وغَيرِهِ فيها[1].

وقُرِئَ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالتَذْكيرِ و﴿آيَةً﴾ بالنَصْبِ علىٰ أنَّها خَبرُهُ و﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ هو الاسمُ، وقُرئَ: «تَكُنْ» بالتأْنيثِ و«آيةٌ» بالرفع[2] علىٰ أنَّ في «تَكُنْ» ضَميرَ القِصّةِ و«آيةٌ» خبرُ المبتدأ الذي هو ﴿أنَ يَعْلَمَهُ﴾، والجُملةُ خَبرُ «كانَ»، والمعنىٰ: أَلَمْ يكُنْ عِلْمُ عُلَماءِ بني إسرائيلَ بمجيئِهِ دَلَالةً لَهم علىٰ صحّةِ نبوَّتِهِ، وهم عبدالله بن سلام وغَيرُه، كما قالَ سبحانَه: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[3].

والأَعْجَمُ الذي لا يُفصِحُ، يقالُ: في لِسَانِهِ عُجْمَةٌ وٱستِعْجَامٌ. ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ﴾ أي: كَما أنْزلْنا القُرآنَ عَرَبيّاً مُبيناً أَدْخَلْنَاهُ وأَوقَعْناهُ ﴿فِى قُلُوبِ﴾ الكافرينَ بأَن قَرأَهُ رسُولُنا عَلَيهم. ثم أسنَدَ تَرْكَ الإيمانِ إليهم بقَولِهِ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يَزالُونَ علَى التكذيبِ والجُحُودِ بِهِ حتّىٰ يُعاينُوا الوَعيدَ ويرَوا العذاب، فَيلْحَقُ بِهِم ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مُفَاجاةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئِهِ. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ تَبكِيتٌ لَهم وتَوبيخٌ.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٣٥.

(٢) وهي قراءة ابن عامر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٦١.

(٣) القصص: ٥٣.

ثمَّ قالَ: هَبْ أنّ الأمرَ كما يظنُّونَ من التَمْتيعِ والتَعْميرِ، فإذا أَتـاهُم العَـذَابُ ما يَنفَعُهُم حينَئذٍ ما مَضَىٰ من طُولِ أعمارِهِم وَطِيبِ عَيْشِهِم.

﴿لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أي: رُسُلٌ يُنذِرُونَهم. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مَنصُوبةٌ بمعنى «تذكِرةً»، إمَّا لأنّ «أنذرَ» و«ذكَّرَ» متقَاربانِ، فكأنَّه قالَ: مُذكِّرون تَذكِرةً، وإمَّا لأنَّها حَالٌ مـن الضَميرِ في ﴿مُنذِرُونَ﴾ أي: يُنذِرونَهُم ذَوي تَذْكِرةٍ، وإمَّا لأنَّها مفعُولٌ لَه بمعنىٰ: أنَّهم يُنذِرُونَهم لأَجْلِ التَذْكرةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ متعلّقةً بـ﴿أَهْـلَكْنَا﴾ مفعولاً له، والمعنىٰ: وَمَا أَهْلَكْنا من أهلِ قَريةٍ ظَالمةٍ إلّا بعدَما أَلْـزَمْناهُم الحـجَّةَ بإرسالِ المُنذِرينَ إليهِم ليكُونَ إهلاكَهُم تَذْكرةً وعبْرةً لغيرِهِم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنُهلِكَ قَوماً غيرَ ظَالِمينَ.

كانُوا يقولُونَ: إنَّما يتنَزَّلُ علىٰ محمدﷺ من جِنْس ما يُنزِّلُ به الشَياطِينُ على الكَهَنَةِ، فكَذَّبَهُم اللهُ بأنَّ ذلكَ ممّا لا يَتَسَهَّلُ للشَياطين ولا يقدِرونَ عـليه، لأنَّـهم مرجُومُونَ بالشُّهُبِ ﴿مَعْزُولُونَ﴾ عن ٱستماعِ كَلامِ أَهلِ السَمَاء.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْـمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنـذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِـنَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَـعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَـوَكَّـلْ عَـلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَـرَىٰـكَ حِـينَ تَـقُومُ (٢١٨) وَتَـقَلُّبَكَ فِـى ٱلسَّـٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَـلَىٰ مَـن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُـلْقُونَ ٱلسَّـمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ

وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

عَلِمَ عَزَّ ٱسمُهُ أنَّ ذلكَ لا يكُونُ، لكنَّه أرادَ أن يحرِّكَ منه لازدِيادِ الإخْلاصِ والتَقْوىٰ، وهي [١] لُطْفٌ للمُكلَّفينَ كَما قالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ [٢].

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ أُمِرَ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه بإنْذارِ الأَقْربِ فالأَقْرَبِ من قومِهِ، وأنْ يُقدِّمَ إنْذارَهُم علىٰ إنْذارِ غَيرِهِم. ورُوي: أنّه جَمَعَ بَنِي عبدالمطلب، وهم يومئذٍ أربعونَ رَجُلاً، الرجُلُ منهُم يأكلُ الجذَعةَ ويَشْربُ العُسّ [٣] علىٰ رِجْلِ شاةٍ وقَعْبٍ من لَبَنٍ، فأَكلُوا وشَربُوا حتّىٰ صَدَروا، ثمّ أَنذَرهُم فقال: «يا بَني عبدالمطلب، إنّي أنا النَذيرُ إلَيكم من اللهِ عزَّوجلَّ، فأسْلِمُوا وأطيعوني تَهتَدوا»، ثمَّ قالَ: «مَن يُؤاخِيني ويُؤازِرُني فيكُونُ وليِّي ووصيِّي بَعْدي، وخَليفَتي في أهل بيتي»؟ فَسَكَتَ القَومُ، وأعادَها ثَلاثاً، كُلُّ ذلكَ يَسْكُتُ القَومُ ويقولُ عليٌّ عليه السلام: أنا، وقالَ في المرّةِ الثالثةِ: أَنْتَ، فقامَ القومُ وهم يقُولُونَ لأبي طالبٍ: أَطِع ابنَك فَقَدْ أُمِّرَ عليك [٤].

و«خَفْضُ الْجناح» مَثَلٌ في التَواضِعِ ولِينِ الجَانبِ. ﴿فإنْ عَصَوْكَ﴾ فَتبرَّأْ منهم ومن أَعمالِهِم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى﴾ اللهِ يكْفِكَ شَرَّ مَنْ يَعصيكَ، وفَوِّضْ أمْرَكَ إلىٰ مَن يقْدرُ علىٰ نَفْعِكَ وضَرِّكَ، وقُرِئَ «فَتَوَكَّلْ» بالفاء [٥] ويكونُ عَطْفاً علىٰ: ﴿فَقُلْ﴾ أو ﴿فَلَا تَدْعُ﴾. ﴿الَّذِى يَرَىٰكَ﴾ ويَطَّلعُ عليكَ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للتهجُّدِ، والمُرادُ بـ﴿السَّٰجِدِينَ﴾ المُصَلُّونَ، وتَقلُّبُهُ فيهم: تَصرُّفُه فيمَا بينَهم بقيامِهِ وركُوعِهِ وسجُودِهِ وقعُودِهِ إذا أمَّهُم، وقيلَ: معناهُ: وتقلّبكَ في أَصلابِ الموحِّدينَ حتّىٰ

---

(١) في نسخة «فيه». (٢) الحاقة: ٤٤.

(٣) العُسُّ: القدح العظيم، والرفدُ أكبر منه، وجمعه: عِسَاسٌ. (الصحاح: مادة عسّ).

(٤) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٤٨٣ عن ابن عباس.

(٥) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٣.

أَخْرَجَكَ نبيّاً[١]، وهو المرويُّ عن أئمةِ الهدىٰ عليهم السلام[٢].

ثمّ ذكَرَ سبحانَهُ من ﴿تَنَزَّلُ﴾ عَلَيهِ الشَّيَاطِينَ ﴿كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هُمُ الكَـهَنَةُ: كَشِقٍّ وسطيح، والمُتَنَبِّئَةُ: كـمُسيلَمَة الكـذّاب وطُـلَيْحَة. ﴿يُـلْقُونَ السَّـمْعَ﴾ هُـمُ الشَياطِينَ كانُوا قَبل أن يُحجَبُوا بالرجْمِ يستَمعُونَ إِلى المَلأ الأعـلىٰ، فـيختَطِفُونَ بعضَ ما يتكلّمُونَ به ممّا اطّلعوا عليه من الغُيُوب، ثمّ ﴿يُلْقُونَ﴾ ما يَسمعُونَه أي: يُوحُونَ به إليهم.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّه لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِـهِ الشَّـيَـٰطِينُ﴾ ﴿هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَـٰطِينُ﴾[٣] أَخَوانٌ، فَرّقَ سبحانَهُ بينَهنَّ بآياتٍ لَيستْ في معناهُنّ لتَطرئَةِ ذِكْرِ مَا فيهنّ كرّةً بعد كرّة، فيدلّ بذلكَ علىٰ أنّ المعنىٰ الذي نَزَلَ فيه من المَعاني التي اشتَدّت كراهَةُ اللهِ لخِلافِها.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ مبتدأ و﴿يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ خبرُه، أي: لا يتّبعُهُم علىٰ كـذبِهِم وباطِلِهم وفُضُولِ قَولِهم، ومَا هُم عليه من الهجَاء وتَمزيقِ الأعْراضِ ومَـدْحِ مَـن لا يَستَحقّ المَدْحَ، ولا يُستَحسَنُ ذلكَ مـنهم إلّا الغـاوون السفهاء[٤]، وقـيلَ: الغَاوون: الرَّاوون[٥]، وقيلَ: الشَياطين[٦]، وقيلَ: هم شُعَراءُ المشركين: عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ، وأبو سُفيان بن الحارثِ بن عبدالمطلب، وأبو غرَّة، وأُميّة بن أبي الصلت وغيرهم، قَالُوا: نَحنُ نقولُ مثلَ ما قَالَ محمدٌ صلى الله عليه وآله وكانُوا يهجُونَه، ويَجتَمعُ إليـهم الأعْرابُ مِن قَومِهم يستَمعُونَ أشعارَهُم وأهاجيهم[٧].

---

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣١٥.

(٢) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٢٥ وفيه: «النبيّين» بدل «الموحّدين».

(٣) الآيات حسب الترتيب: ١٩٢، ٢١٠، ٢٢١.

(٤) في نسخة: «والسفهاء».

(٥) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣١٥.

(٦) قاله مجاهد وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٩.

(٧) قاله ابن عباس كما في تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٤٦.

وقولُهُ: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ مَثَلٌ لذهَابِهِم في كلّ شِعبٍ من القَـولِ، وقـلّةِ مُبالاتِهِم بالغلوّ في المَنْطقِ ومُجَاوزَةِ حدّ القَصْدِ فيه، وقَذفِ التقيّ وبَهتِ البَريء.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استثنى الشُعراءَ المؤمنينَ الذين يُكثِرُونَ ذِكْرَ اللهِ وتِلاوَةَ القُرآنِ، وكانَ ذلكَ أغْلب عليهم من الشِعْر، وإذا قَالُوا شِعْراً قالُوه في تَـوحيدِ اللهِ والحكمةِ والمَوعظةِ والآدابِ الحَسَنَةِ ومَدْحِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وصُلَحاءِ المـؤمنينَ، وكَانَ هجاؤهُم علىٰ سبيلِ الانتصَارِ والردّ علىٰ مَن هَجَا المسلمينَ، وهُم: عبدُاللهِ بنُ رَواحَة، والكَعْبان ـ كَعبُ بنُ مَالكٍ وكَعبُ بنُ زُهيرٍ ـ وحسَّانُ بنُ ثَابت.

قالَ عليه السلام لكَعبِ بن مَالكٍ: «اهْجُهُم، فوالذي نَفسي بيدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَـليهِم مـن النَّبْل» (١). وقالَ لحسَّانٍ: «قُلْ ورُوحُ القُدُسِ مَعَك» (٢).

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وَعِيدٌ بَليغٌ وتَهديدٌ شَديدٌ ﴿أَىَّ مُـنقَلَبٍ يَـنقَلِبُونَ﴾ أَيَّ منْصَرفٍ ينصَرفُونَ، أي: سيَعْلَمُونَ أنَّ ليسَ لَهُم وَجهٌ من وجُوهِ الانقلابِ وَهُو النَجَاةُ.

وقَرأَ الصَادقُ عليه السلام: «وسَيَعلَمُ الذين ظَلَموا آلَ مُحَمدٍ صلى الله عليه وآله حقَّهُم» (٣) ويُشـبهُ أَن تكونَ قِرَاءةً علىٰ سَبيلِ التَأويل.

✿ ✿ ✿

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٥.
(٢) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٠٤ عن البراء.
(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٢٥.

سورةُ النَّمْلِ

مكّية[1] أَربعٌ وتسعُونَ آيةً بَصريٌّ، ثَلاثٌ كوفيٌّ، عَدَّ البَصريُّ ﴿مِن قَوارِيرَ﴾ آيةً[2].

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَ طسّ سُلَيمَان، كانَ لَه من الأَجْر عَشرُ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صَدَّقَ بسُلَيْمانَ وكَذَّبَ بِهِ، وهُود وشُعيبٍ وصَالحٍ وإبراهيمَ، ويَخرُجُ من قَبرِهِ وهو يُنادِي: لا إلٰه إلّا الله»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٧٣: مكّية بلا خلاف، وهي خمس وتسعون آيةً حجازي، وأربع وتسعون آيةً بصري وشامي، وثلاث وتسعون آية في عدد الكوفيّين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٦: مكّية، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون، نزلت بعد الشعراء.

وفي تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٥٤ مالفظه: وتسمّىٰ أيضاً كما في الدر المنثور: سورة سليمان، وهي مكّية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير، وذهب بعضهم إلى مدنية في بعض آياتها، وعدد آياتها خمس وتسعون آية حجازي وأربع بصري وشامي وثلاث كوفي، وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد: أنّ الشعراء نزلت ثم طسّ ثم القصص.

(٢) في نسخة زيادة: «علىٰ سبيل التأويل».

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٩٠ مرسلاً.

(٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٨) يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأٌ و﴿ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ خَبرُه و﴿هُدًى﴾ خَبرٌ بعدَ خَبَرٍ، أو خَبرُ مبتدأ مضمَر، أو نَصبٌ علَى الحَالِ، أي: هَاديةً ومبشّرةً.

﴿وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: هؤلاء هم المُوقِنُونَ بالآخرةِ، ومَعناهُ: وما يُوقِنُ بالآخِرةِ حقّ الإيقانِ إلّا هؤلاء الجَامعُونَ بينَ الإِيمانِ وإقَامةِ الصَلاةِ وإيتَاءِ الزكَاةِ.

﴿زيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أسنَدَ تَزيينَ أعمالِهم إلىٰ ذاتِهِ، وقد أُسنِدَ ذلكَ إلَى الشَيطانِ في قَولِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [1]، وبين الإِسنَادَيْنِ فَرقٌ، وذلكَ أنَّ إسنادَهُ إلَى الشَيطانِ حَقيقةٌ، وإسنادَهُ إلَى اللهِ عزّ اسمُه استعَارةٌ أو مَجَازٌ حكميّ، فالاستعارةُ هي أنّه لمّا مَتّعهُم بطُولِ العُمُرِ والتَوسِعَةِ في الرِزْقِ فَجعَلُوا إنْعامَهُ بذلكَ ذريعةً إلَى اتِّباعِ شَهَواتِهِم وإيثارَهُم التَرفُّه ونِفارَهم عن لَوازِمِ التكليفِ، فكأنّه زيّنَ لَهم بذلكَ أعمالَهم، وإلىٰ هذا أشارَتِ الملائكةُ في قَولِهم:

---

(١) العنكبوت: ٣٨.

﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ﴾ [(١)]. وأمَّا المَجازُ الحُكميّ: هو أنّ إمْهالَهُ الشَيطانَ بتَخليتِهِ حتّىٰ زَيَّنَ لَهُم أعمالَهُم القَبيحةِ، وخَلْقَهُ فيهِم شَهوةَ القَبيحِ الداعيةَ لَهُم إليهَا، وحِرمَانَهُ إيّاهُم التَوفيقَ عقُوبَةً لَهُم علىٰ كُفرِهِم، كالأسبابِ للتَزيينِ، فلذلكَ أضَافَ التَزيينَ إلىٰ ذاتِهِ. والْعَمَهُ: التَحيّرُ والتَردّدُ.

و﴿سُوٓءُ الْعَذَابِ﴾ هو القَتلُ والأَسْرُ يومُ بَدرٍ، و﴿الأَخْسَرُونَ﴾ أَشَدُّ الناسِ خُسْراناً لأنَّهم يخسِرونَ الثَوابَ الدائِمَ ويَحصلونَ في العقابِ الدائِمِ.

﴿تُلَقَّى ٱلْقُرْءانَ﴾ أي: تُؤْتاه وتُلَقَّنُهُ من عندِ أيِّ ﴿حَكِيمٍ﴾ وأيِّ ﴿عَلِيمٍ﴾، وهذا معنىٰ مَجيئِهما نَكِرَتَين. وهذهِ الآيةُ تَمهيدٌ لِمَا يريدُ أن يقصَّهُ بعدَها من الأَقاصيصِ، لِمَا فيها من لَطائِفِ حِكمتِهِ ودَقَائقِ عِلْمِهِ.

﴿إِذْ﴾ منصُوبٌ بمُضْمرٍ وهو «اذكر»، كأنَّه قالَ علىٰ أثرِ ذلكَ: خُذْ من آثارِ حكمتِهِ وعلْمِهِ قصَّةَ موسىٰ ويجوزُ أن ينتصبَ بـ﴿عَلِيم﴾. لم يكنْ معَ مُوسىٰ غيرُ امرأتِهِ وقَد كَنَّى اللهُ تعالىٰ عنها بالأهْلِ، فتَبعَ ذلكَ ورودُ الخطابِ علىٰ لَفظِ الجَمْعِ وهو قولُهُ: ﴿امْكُثُواْ﴾ وَ﴿ءَاتِيكُمْ﴾، ﴿إِنِّي ءانَسْتُ نَاراً﴾ أي: أبْصَرتُها، والشِّهَابُ: الشُعلةُ، والْقَبَسُ: النَارُ المقبوسَةُ، وأضاف «الشهَابَ» إلىٰ «القَبَسِ» [(٢)] لأنَّه يكونُ قَبَساً وغَيرَ قَبَسٍ، وقرئ: ﴿بِشِهَابٍ﴾ منوّناً، فيكونُ ﴿قَبَسٍ﴾ بَدَلاً أو صِفةً لِمَا فيهِ من معنَى القَبَسِ، وقالَ: ﴿سَـاتِيكُمْ﴾ فجاءَ بسينِ التَسويفِ عِدَةً لأهلِهِ أنَّه يأتيهم بِهِ وإن أبطَأَ وجاءَ بلَفْظِهِ، أو لأنَّه بنَى الأَمرَ علىٰ أنّه: إنْ لم يَظفرْ بأحدِ الأَمرينِ لَم يعدمِ الآخر: إمَّا هِدايةُ الطَريقِ وإمَّا اقتباسُ النَارِ، لأنَّه كانَ قَد ضَلَّ عن الطَريقِ، وأرادَ بالْخَبَرِ: مَعرفةَ حَالِ الطَريقِ ﴿لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ﴾ تَستَدفِئُونَ بها، وما أَدْراه حينَ قَالَ ذلكَ أنَّه يَظفرُ علَى النارِ بعزِّ الدُنيا وعزِّ الآخرةِ.

---

(١) الفرقان: ١٨.

(٢) الظاهرمن عبارته أنّه قدّس سرّه اعتمدعلى قراءة الإضافة هنادون التنوين تبعاًللزمخشري.

﴿أَنْ بُورِكَ﴾ مفسِّرةٌ، لأنَّ النداءَ فيه معنَى القَولِ، أي: قيلَ لَهُ: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها﴾ والمعنىٰ: بُوركَ مَن في مكانِ النَارِ ومَن حَول مكانِها، ومكانُها البقعةُ التي حَصَلَتْ فيها وهي البقعةُ المباركَةُ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ أُبيٍّ: «تَباركَتِ الأرضُ ومَن حولها»[١]. والذي بُوركَتْ لَه البقعةُ وبُوركَ مَن فيها وحَواليها حُدوثُ أمرٍ دينيٍّ فيها، وهو تَكليمُ اللهِ جلَّ جلالُه موسىٰ عليه السلام واَستنباؤُهُ لَه وإظهارُ المعجِزاتِ عليه، وقيلَ: المرادُ بمَن بُوركَ: موسىٰ والمَلائكة[٢]، والظاهِرُ أنّه عامٌّ في كلّ مَن كانَ في تلكَ الأرضِ وذلكَ الوادي وحوالَيها من أرضِ الشَام، كما وَسَمَ سبحانَه أرضَ الشَامِ بالبركاتِ في قَولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[٣]. والفَائدةُ في اَبتداءِ الخطابِ من الله تعالىٰ بذلكَ أنّه بشَارةٌ من اللهِ تَعالىٰ لمُوسىٰ عليه السلام بأنّه قَد قُضِيَ أمرٌ عَظيمٌ ينتشرُ[٤] منه في أرضِ الشَامِ كلّها البَركاتُ والخَيراتُ ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إعلامٌ بأنّ ذلكَ الأمرِ من جَلائِلِ الأُمورِ، وأنَّ مكوِّنَه ربُّ العالَمِينَ.

﴿إِنَّهُ﴾ الضَميرُ للشَأْنِ ﴿أَنَا ٱللهُ﴾ مبتَدأٌ وخَبَرٌ، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفتَان لَه، أي: أنَا القَويُّ القَادرُ الذي لا يمتَنعُ عليه شيءٌ، المُحكِمُ لتَدابيره. ﴿وأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿بُورِكَ﴾ وكِلَاهُما تَفسيرٌ لـ﴿نُودِي﴾، والمعنىٰ: قيلَ لَه: بُوركَ مَن في النارِ، وقيلَ لَه: أَلْقِ عَصَاكَ، بدلالةِ قَولِهِ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ في سُورةِ القَصَص[٥] علىٰ تَكريرِ حَرفِ التَفسيرِ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لَمْ يَرجعْ، يقالُ: عَقَّبَ المُقَاتِلُ: إذا كَرَّ بعدَ الفَرارِ، قالَ:

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٩.
(٢) قاله السدي. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٥٨.
(٣) الأنبياء: ٧١.
(٤) في نسخة: «ينشر».
(٥) الآية: ٣١.

فَمَاعقَّبُوا إذْ قيلَ هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ ولا نَزَلُوا يَومَ الكَريهَةِ مَنْزِلا[1]

وإنَّما خَافَ لظَنِّه أنَّ ذلكَ لأَمْرٍ أُريدَ بِهِ، ويَدلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾

﴿إِلَّا﴾ بمعنَى «لكنْ»، لأنَّه لمَّا أطلَقَ نَفي الخَوفِ عن الرُّسُلِ كانَ ذلكَ مَظَنَّةً لطُروءِ الشُبهةِ، فاستدركَ ذلكَ بـ«لكنْ»، والمعنىٰ: لكن ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ من غيرِ المُرسَلينَ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ توبةً وندماً علىٰ ما فَعَلَه من السُوءِ، وعَزْماً علىٰ أن لا يعودَ فيمَا بَعد ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لظُلْمِهِ.

﴿فِى تِسْعِ ءايٰتٍ﴾ كَلامٌ مستَأنَفٌ، وحرفُ الجرِّ فيه يتعلّقُ بمحذُوفٍ، والمَعنىٰ: واذهبْ في تِسْعِ آياتٍ إلىٰ فِرعَونَ، ونحوُهُ:

فقُلتُ إِلـى الطَـعَامِ فَـقَالَ مـنهم فَريقٌ: نَحْسِدُ الإِنسَ الطَـعَاما[2]

ويجوزُ أن يكونَ المعنىٰ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ... وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ في جُملةِ «تِسْعِ آياتٍ» وعِدَادِهنّ.

---

(١) لم نعثر علىٰ قائله، وفيه يصف قوماً بالجبن، إذ لم يقدموا مرةً على العدو، ولم يلبّوا منادياً مستغيثاً فيدفعوا عنه. ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٥١.

(٢) البيت منسوب لسعير بن الحارث الضبي، و قيل: لتأبّط شرّاً، و قيل: شمر الغساني، و قيل: للفرزدق يصف نفسه بالجرأة و اقتحام المخاوف ضمن قصيدة أنشأها. انظر الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥١.

الْمُبْصِرَةُ: الواضِحَةُ البيِّنة، جَعَلَ الإبصارَ لَها وهو في الحَقيقةِ لمَتأمِّليها لأنّهم ملابِسُوها، وكانُوا بسَببٍ منها بنَظَرِهِم وتفكُّرِهِم فيها، أو: جُعِلَت كأنّها تَبصُرُ فتَهتَدي (١)، لأنَّ الأعْمىٰ لا يَهتَدِي فَضْلاً عن أن يَهدِي غَيرَه، ومِنْه قَولُهُم: عَوراء لأنَّها تَغْوي. وقرأ علي بن الحسين عليه السلام وقتادة «مَبْصَرَةً» (٢) وهي نحو: مَجْنَبَةً وَمَنْجَلَةً أي: مكَاناً يَكثرُ فيه التَبصرة (٣).

الواو في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واو الحَالِ، و«قد» مضمَرةٌ، والْعُلُوُّ: الكِبْرُ والترفّعُ عن الإيمانِ بما جَاءَ بِهِ موسىٰ، كقولِهِ: ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُون﴾ (٤) والمعنىٰ: جَحَدُوها بألسنَتِهِم واستَيقَنُوها في قُلوبِهِم، والاستيقانُ أبْلغُ من الإيقَان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحاً تَرْضَـٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٩)﴾

أي: ﴿عِلْماً﴾ جليلاً (٥) سَنِيّاً أو كَثيراً من العِلْمِ، أي: آتيناهُمَا عِلْماً فعَمِلَا به

---

(١) في نسخة: «فتهدي».

(٢) حكاه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥٢.

(٣) في نسخة: «التبصّر».

(٤) المؤمنون: ٤٦ و٤٧.

(٥) في نسخة: «جليّاً».

وعَلَّماهُ ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذي فَضَّلَنا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هـذا دَلالةٌ علىٰ شَرَفِ العِلْمِ وفَضْلِهِ وتَقدُّمِ أهلِهِ، وأنَّ نِعْمةَ العلْمِ من أجلِّ النِعَمِ، وأنَّ مَنْ أُوتيه فَقَد أُوتي فَضْلاً علىٰ كَثيرٍ من الأُمم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ فيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ الأنبياءَ يُورِّثونَ كتوريثِ غيرِهِم، لأنَّ إطلاقَ اللفظِ يَقتَضي ذلكَ ﴿وَقَالَ يَـٰأَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ فِيهِ تَشْهيرٌ لِنِعْمةِ اللهِ وٱعترافٌ بهَا، ودُعاءٌ للنَاسِ إلى التَصديقِ بذِكْرِ المُعْجِزِ الذي هـو عِـلْمُ ﴿مَـنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ وغَيرُ ذلكَ ممّا أُوتيهِ من جَلائِلِ الأُمور، والمَنْطِقُ: كلُّ ما يُصَوَّتُ بِهِ مـن المُفْرَدِ والمُؤلَّفِ، والذي عُلِّمَ سُليمانُ من مَنْطِقِ الطَيرِ هو ما يُفْهَمُ بَعضُه من بَعضٍ من مَعانِيهِ وأغْراضِهِ، كَما يُحكىٰ أنَّه مَرَّ علىٰ بُلبُلٍ في شَجَرةٍ فَقالَ: إنَّه يـقُولُ: أَكَـلْتُ نِصْفَ ثَمَرةٍ فَعَلَى الدُنيا العَفاء[1] ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُريدُ كَثرةَ مـا أُوتـيه ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ وعَنِ الصَادقِ عليه السلام: يَعني المُلْكَ والنبوّة[2].

سَخَّرَ اللهُ لَه الريحَ والجِنَّ والإِنْسَ والطَيرَ، فكانَ إذا خَرجَ إلىٰ مَجلسِهِ عَكَفَ عليه الطَيرُ، وقَامَ الجِنُّ والإنسُ حتَّىٰ يَجلسَ علىٰ سريرِهِ، وكانَ لا يَسمَعُ بمَلِكٍ في نَاحيةٍ من الأَرضِ إلَّا أَذلَّهُ وأدخلَهُ في الإسلام. ويُروىٰ أنَّه خَرجَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ مَعَ ستمائةِ ألفِ كُرْسي عَن يمينهِ ويَسَارِهِ، وأَمَـرَ الطَـيرَ فأَظَـلَّتْهم، وأَمَـرَ الريـحَ فَحَمَلَتْهم حتَّىٰ وَردَتْ بِهِم المَدائنَ، ثمَّ رَجعَ فَباتَ في اصطَخرٍ، فقالَ بعضُهم لبَعضٍ: هَلْ رأيتُم قَطُّ مُلْكاً أَعظَم من هذا أَو سَمعْتُم؟ قالُوا: لا، فنَاديٰ مَلَكٌ من السَـمَاءِ: لَثَوابُ تَسبيحَةٍ واحِدَةٍ في الله أَعْظَمُ ممَّا رَأَيتُم! ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحْبَسُ أَوَّلُهم علىٰ آخَرِهِم بأَن تُوقَفَ هَواديهم حـتَّىٰ يَـلْحَقَهُم تَـواليـهم، فـيكُونوا مَـجتَمعينَ

---

(١) حكاه فرقد السنجي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٢) حكاه عنه عليه السلام الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ١٧١.

لا يَتخلَّفُ منهم أحَدٌ، وذلكَ للكثْرةِ العَظيمَة.

فَسَارَ سليمانُ بجنُودِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وهو وَادٍ بالطائفِ أو بالشَامِ كَثيرُ النَمْلِ، وإنّما عُدّي ﴿أَتَوْا﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لأنّ إتيانَهُم كانَ من فَوقٍ، أو هُوَ مِن قَولِهِم: أَتىٰ علَى الشَيءِ: إذا أَنْفَذَهُ وبلَغَ آخرَهُ، كأنَّهم أرادُوا أن يَنزلُوا عند مَقْطَعِ الوَادي، لأنّهم ما دامَتِ الريحُ تَحملُهُم في الهَواءِ لا يخافُ عليهم الحطمُ. ويمكنُ أَن يكُونَ جنودُ سُليمانَ كانُوا رُكْباناً ومُشَاةً في ذلكَ الوقتِ ولَم تَحمِلْهُم الريحُ، أو كانَتِ القصّةُ قبلَ أن سَخَّرَ اللهُ الريحَ لَهُ. ولمَّا كانَ صوتُ النَمْلِ مفهُوماً لسليمانَ عَبَّرَ عنه بالقَولِ، ولمَّا جُعِلَتِ النَملةُ قَائِلةً والنَملُ مَقُولاً لَهُم كَما في «أُولي العُقُولِ» أجرىٰ خطَابَهُم، و﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جَوابُ الأمرِ أو نَهيٌ بَدلٌ من الأمر، لأنَّ «ادْخُلُوا في مَسَاكِنكُم» في معنَىٰ: لا تكُونُوا حيثُ أَنتُم، والمُرادُ: لا يَحْطمنَّكُم جنودُ سُليمانَ، فَجاءَ بِمَا هو أَبلَغُ، ونَحوُهُ: عَجَبْتُ مِن نَفسي ومِن إشْفَاقِها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ أي: أَخَذَ في الضحكِ، يعني: أنّه قَد تَجاوزَ التبسُّمَ إلى الضحكِ، وكذلكَ ضحكُ الأنبياءِ، وإنّما ضَحكَ لإعجابِهِ بما دلَّ من قَولِها علىٰ ظُهُورِ شَفَقَةِ جنودِهِ وشُهْرةِ حَالِهِم في التَقوىٰ حيثُ قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أو لسرورِهِ بمَا آتاه اللهُ من إدراكِهِ بسَمْعِهِ ما هَمَسَ به أصغرُ خَلْقِ اللهِ وإحاطتَهَ بمعنَاهُ، ولذلكَ قالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِى﴾ أي: اجعلْني أَزِع شُكْرَ نعمتِكَ عندي، وأَرتَبطُه لا يَنفلِتُ[1] عني، حتّىٰ لا أَزال شاكِراً لكَ وذاكِراً إنعامَكَ ﴿عَلَىَّ وعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ بأَن أكرمْتَهُ بالنبوّةِ وغَيرِها، وعلىٰ والدتي بأن زَوَّجتَها نبيَّك، جَعَلَ النعمةَ عليهما نِعمةً عليه يَلزمُهُ شكرَها ﴿وأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَىٰهُ﴾ استوقَفَهُ سبحانَه لزيادةِ العَملِ الصَالح فِي المستقبَلِ ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ﴾ إبراهيمَ

---

(١) في نسخة: «ينقلب».

وإسماعيلَ وإسحاقَ ومَن بعدَهُم من النَبيِّين، أي: أَدخِلْني في جُملتِهِم.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦) ﴾

﴿أَمْ﴾ منقَطعةٌ، نَظَرَ سليمانُ عليه السلام إلىٰ مكان الهُدهُدِ فَلَمْ يرَهُ، فقَالَ: ﴿مَـالِيَ﴾ لا أَراهُ؟ علىٰ مَعنَىٰ: أَنّه لا يَراهُ وهو حَاضِرٌ، لساترٍ أو غيرِهِ، ثمَّ ظَهَرَ له أَنّه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلكَ وَأَخَذَ يقُولُ: هو غَائِبٌ، كأنَّه يسألُ عن صحَّةِ ما ظَهَرَ له من غَيبتِهِ، فهو نَحوُ قَولِهِم: إنَّها الإبلُ أم شَاءَ.

ويُروىٰ أنّ أبا حنيفةَ سأَلَ أبا عَبدِاللهِ الصادقَ عليه السلام: كيفَ تَفقَّد سُليمانُ الهُدهُدَ من بين الطَيرِ؟ فقَالَ: لأنَّ الهُدهُدَ يَرَى المَاءَ في بَطْنَ الأَرضِ كَمَا يَرىٰ أَحدُكُم الدُّهْنَ في القَارورةِ، فَضحكَ أبو حنيفةَ وقَالَ: كَيفَ لا يَرَى الفَخَّ في التُرابِ ويَرَى المَاءَ في بَطْنِ الأرضِ؟! قال: يا نُعمان، أَوَ مَا عَلمْتَ أنَّه إذا نَزَلَ القَدَرُ غَشِيَ البَصَرُ[1].

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ﴾ بنَتْفِ رِيشِهِ وتَشميسِهِ، وقيلَ: بالتَفريقِ بينَه وبينَ إلْفِهِ[2]، وقُرئَ:

---

(١) رواه في مجمع البيان: ج ٧ ـ ٨ ص ٢١٧ عن العياشي.

(٢) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤١٢.

«لَيأْتِيَنَّنِي» بنُونَينِ أوَّلُهما مشدَّدة[١]، وبنونٍ واحِدَةٍ مشدَّدةٍ، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والعذرُ.

قُرِئَ ﴿فَمَكَثَ﴾ بفَتْحِ الكَافِ وضَمِّها[٢]، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كقَولِكَ: عَن قَرِيبٍ، وَصَفَ مَكْثَه بقَصْرِ المدّةِ للدلالةِ علىٰ إسراعِهِ خَوفاً من سليمانَ وتَسخيره لَه، وقُرِئَ: ﴿أَحَطتُّ﴾ بإدغامِ الطاءِ بالتاءِ بإطباقٍ[٣] وغير إطباقٍ[٤]. وعن ابن عَباسٍ: فأَتاه الهُدهدُ بحجّةٍ وعُذرٍ فقَالَ: اطَّلعتُ علىٰ ما لَمْ تَطَّلعْ عليه ﴿وَجِئْتُكَ﴾ بخَبَرٍ صَادقٍ لم تَعلَمْه[٥]. أَلْهَمَ اللهُ الهُدهدَ فَكافَحَهُ بهذا الكَلامِ مَع ما أُوتيَ من العُلُومِ الكَثيرةِ؛ ابتلاءً لَهُ في عِلْمِهِ وتَنبيهاً لَه علىٰ أنَّ في أدنىٰ خَلْقِهِ مَن أَحاطَ[٦] ﴿بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ ليكُونَ لُطفاً لَه في تَركِ الإعجابِ الذي هو فِتْنَةُ العُلَماءِ، وقرئ: ﴿سبإٍ﴾ بالهمزةِ مُنوَّناً وغير منوَّنٍ علىٰ مَنْعِ الصرفِ[٧]، و«سبا» بالألف[٨]، ومثلُهُ في سورةِ سَبأ: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ﴾[٩]، وهو: سبأُ بن يَشْجب بن يَعرب بن قَحطان، فَمَن جَعَلَه اسماً للقَبيلةِ لَم يَصرفْهُ، ومَن جَعَلَه اسماً للحي أو الأب الأكبر صَرَفَهُ، ثمَّ سمِّيتْ مدينةُ مَأْرَب بـ«سبأ»، وبينَها وبينَ صَنعاء مسيرةُ ثلاثة أيامٍ، كَمَا سمِّيتْ معافر بـ«معافر بن أدّ»، والنَّبأ: الخَبرُ الذي لَه شَأْنٌ.

﴿وَجَدْتُّ ٱمْرَأَةً﴾ وهيَ بلقيسُ بنت شَراحِيلَ أو شَرحِيلَ، كانَ أَبُوها مَلَكَ

---

(١) قرأه ابن كثير. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨٦.

(٢) قرأ عاصم وروح بفتح الكاف، وضمّها الباقون. راجع المصدر السابق.

(٣ و ٤) حكاهما الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥٩.

(٥) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٠٣.

(٦) في نسخة زيادة: «علماً».

(٧) وبغير التنوين على منع الصرف قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨٦.

(٨) وهي قراءة ابن كثير برواية قوّاص عنه. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤١٣.

(٩) الآية: ١٥.

أرضَ اليَمَنِ كلِّها ﴿وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا يَحتاجُ إليه الملُوكُ من زِينَةِ الدُنيا ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سَريرٌ أَعظَمُ من سريركَ، مقدَّمُهُ من ذَهَب مُرصَّعٍ بالياقُوتِ الأحْمرَ والزُمرّد الأخضرَ، ومؤخَّرُهُ من فضّةٍ، وكانَ عليه سَبعةُ أبياتٍ علىٰ كلّ بَيتٍ بَابٌ مُغلقٌ. وقَالَ أبو مُسلم: أرادَ بالعَرشِ المُلْك(١).

وقُرئَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ بالتّشديدِ علىٰ أنَّ المُرادَ: فَصَدَّهُمُ الشَّيطَانُ عَنِ السَّبِيلِ لأن لا يَسجُدُوا، فحُذِفَ الجارُّ، وقُرئَ بالتَخفيفِ وهو «أَلَا يَا اسْجُدوا»(٢): «أَلَا» للتَنْبيهِ، و«يا» حرفُ النداءِ، والمُنَادىٰ مَحذُوفٌ، كَما حَذَفَه مَن قالَ:

أَلَا يَا اسْلَمي ...(٣)

﴿الَّذِى يُخْرِجُ الخَبْءَ﴾ أي: المَخبُوءَ في السَماءِ(٤)، سَمَّاهُ بـالمصدَرِ، وهـو النَباتُ والمَطَرُ وغيرهُما ممّا خَبَّأه عزَّوجلَّ من غُيُوبِهِ، وقُرئَ: ﴿الخَبْءَ﴾ بتَخفيفِ الهَمزةِ بالحَذْفِ(٥).

وقيلَ: إنَّ الجَميعَ مِـن قَـولِهِ: ﴿أَحَـطتُ﴾ إلىٰ قـوله: ﴿الْـعَظِيمِ﴾ مـن كَـلامِ الهُدْهُدِ(٦)، وقيلَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ إلىٰ آخرِهِ كَلامُ ربِّ العِزّةِ، أمرَ جَـميعَ خَـلقِهِ بالسجُودِ(٧).

وفي إحدَى القَراءتَينِ أَمْرٌ بالسُجُودِ وفي الأُخرىٰ ذمٌّ لتَارِكِهِ، فَسَجْدةُ التلَاوةِ

---

(١) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ١٩٠.
(٢) وهي قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٨٥.
(٣) وتمام البيت:
ألا يا اسلمي يا دار ميَّ على البلىٰ ولا زال منهلاً بجرعائِكِ القطرُ
انظر ديوان ذي الرمّة: ص ٢٠٢. (٤) ليس في نسخة: من السماء.
(٥) وهي قراءة أُبيّ وعيسى. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ١١٠.
(٦) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٦٢.
(٧) المصدر السابق.

مَسنُونَةٌ في كِلْتيهِما، وإذا خَفَّفَ فالوقْفُ علىٰ ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ ومَن شَدَّدَ لَم يَقِف إلّا علىٰ ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، وقُرِئَ: ﴿تُخفُونَ﴾ وَ﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتّاء[١].

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ (٣٧)﴾

﴿سَنَنْظُرُ﴾ هُو من النَظَرِ بمعنَى الفِكْرِ والتَأمُّلِ، والمُرادُ: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ﴾ كَذبتَ، إلّا أنَّ قَولَهُ: ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾ أبلغُ. ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنَحَّ عنهُم إلىٰ مَكَانٍ قَريبٍ تَتَوارىٰ فيه ليكُونَ مَا يقُولُونَه يُسمَعُ منكَ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردُّونَ من الجَوابِ، ومنهُ قَولُهُ تعالىٰ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُم إلىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾[٢] قيلَ: دَخَلَ عَلَيها من الكُوَّةِ فَألْقَى الكتابَ إليها وتَوارىٰ في الكُوّةِ[٣].

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف يعتمد على اقراءة الياء فيهما هنا كما هو واضح.

(٢) سبأ: ٣١.

(٣) قاله ابن زيد ووهب بن منبه. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٥١٢.

وفي الكَلامِ اختصارٌ كَثيرٌ، أي: فَمَضَى الهُدْهُدُ وألْقَى إليهم الكتابَ، فَلَمَّا قَرأَتْهُ بَلقيسُ ﴿قَالَتْ﴾ لقومِها بَعد أن جَمَعَتْهُم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ﴾ يعني: الأشرافَ ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ وَصَفَتْه بالكَرمِ لأنَّه من عندِ مَلِكٍ كريم، أو كِتابٌ حَسَنٌ مَضْمونُهُ ومَا فِيهِ، أو مختومٌ لقولِهِ ﷺ: «كَرَمُ الكتَابِ خَتْمُه»[١]، أو: لأنَّه صدَّرَهُ ببسم اللهِ الرحمنِ الرَحيمِ. ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ استئْنافٌ وتَبيينٌ لِمَا أُلقِيَ إليها، كأنَّه قيلَ لَهَا: مِمَّن هُو، ومَا هُوَ؟ فقَالَتْ: إنَّه من سُلَيمانَ. و«أَنْ» في ﴿أَلَّا تَعْلُواْ﴾ مفسِّرةٌ، والمعنى: لا تَتَكبَّروا كَما يَفعلُ الملُوكُ ﴿وَأْتُونِى﴾ مُنقَادِينَ مستَسلِمينَ، أو: مؤمنينَ.

الْفَتْوَىٰ: الجَوابُ في الحَادثَةِ، وأرادَتْ أن يُشيرُوا عَليها بما عندَهُم فيمَا حَدَثَ لَها من الرَّأيِ والتَدبير، وقَصَدَتْ بالرجُوعِ إلَى استشارتِهِم استِعْطافَهُم ليوافِقُوها ويَقُومُوا مَعَها ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: فَاصِلَةً، لا أَقْطَعُ أمْراً إلَّا بحضُورِكُم.

﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ في الأَجسَادِ والآلَاتِ والعُدَدِ ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ﴾: أي نَجدَةٍ وبَلَاءٍ في الحَربِ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ مَوكُولٌ ﴿إِلَيْكِ﴾ ونَحنُ مطيعُونَ لَكِ، فَمُرينَا بأَمْرِكِ نُطِعْ أمْرَكِ ونَتَّبعْ رأيَكِ.

فَمَالَتْ إلَى الصُّلْحِ ورَأَتِ الابتداءَ بالأَحْسَنِ، وذَكَرَتْ في الجَوابِ لَهُم عَاقِبَةَ الحَرْبِ[٢] وسُوءَ مغبَّتها[٣]، و﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ قَسْراً وعُنوَةً خَرَّبُوهَا، وأَذَلُّوا أَعِزَّتَها، وقَتَلوا وأَسرُوا، ثمَّ قَالَتْ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وهذهِ عَادَتُهُم المستَمِرّةُ الثَابتَةُ التي لا تَتَغيَّر، وقيلَ: هو تَصديقٌ من اللهِ سبحانَه لِقَولِها[٤].

ثمّ ذكَرَتْ حَديثَ الهَديّةِ، وما رَأَتْ من الرَّأيِ في ذلكَ، أي: ﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) في نسخة: «الأمور».

(٣) غبُّ الأمر ومغبّته: عاقبته وآخره. (لسان العرب: مادة غيب).

(٤) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٦٥.

رُسُلاً ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أُمانِعُه[١] بذلكَ عَن مُلْكِي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: منتَظِرةٌ مَا يكونُ منهُم[٢] حتّىٰ أعملَ علىٰ حَسْبِ ذلكَ.

وقُرِئ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بحَذْفِ الياءِ والاجتزاءِ بالكَسرةِ، والهَديَّةُ اسمُ «المُهدَىٰ»، كَمَا أنَّ العَطِيَّةَ اسمُ «المُعطَىٰ»، فَيُضَافُ إلى المُهْدِي والمُهدىٰ لَهُ، والمُضَافُ إليهِ في قَولِهِ: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ هو المُهدَىٰ إليهِ، والمَعنىٰ: أنَّ ما عِنْدِي خَيرٌ ممَّا عندَكُم، وذلكَ أنّ اللهَ عزَّ اسمُهُ آتاني مَا لا مَزيد عَليهِ، فَلَا يُمَدُّ مِثْلي بمَالٍ ﴿بَلْ أَنتُم﴾ قَومٌ لا تَعلمُونَ إلَّا ظَاهِراً من الحَياةِ الدُنيا، فلذلكَ ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بِمَا تُزادُونَ ويُهدَىٰ إليكُم، لأنَّ ذلكَ مَبلَغُ همَّتكُم، ولَيسَ حَالي كَحَالِكُم، فَمَا أَرضَىٰ منكُم بشَيءٍ إلَّا بالإِيْمانِ، ولَمَّا أَنكرَ عليهِم إمْدادَهُ بالمَالِ أَضْرَبَ عن ذلكَ إلىٰ بَيانِ السَبَبِ الَّذي حَمَلَهُم عليهِ. ويجوزُ أن تَكونَ الهديَّةُ مضَافةً إلى المُهْدِيِّ، أي: بَل أنتُم بهديَّتِكُم هذهِ التي أَهديتُمُوهَا تفرحُونَ.

﴿ارْجِعْ﴾ خِطَابٌ للرَّسولِ ﴿لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طَاقَةَ، وحقيقتُهُ: المُقَابلةُ والمُقَاومَةُ، والمعنىٰ: لا يَقدرونَ أَن يقابلُوهُم مِنْها من أرضِها ومَملَكتِها وهُم ذَليلُونَ بذهابِ ما كانُوا فيه من العِزِّ والمُلْكِ ﴿صَاغِرُونَ﴾ بوقُوعِهِم في الاستعبادِ والأَسْرِ.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى

---

(١) في نسخة: «أُصانعه».

(٢) في نسخة: «منه».

غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيَ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٤)﴾

يُروىٰ أنَّها أَمَرَتْ عندَ خُروجِها إلىٰ سُلَيمانَ فَجُعِلَ عَرشُها في آخرِ سَبعةِ أبياتٍ، ووَكَّلَتْ بِهِ حَرَساً يحفظُونَه[1]، فأراد سُليمانُ أَن يُريَها بَعْضَ مَا يَخُصُّه بِهِ اللهُ تَعالىٰ من المُعجِزَاتِ الشَاهدةِ لنبوَّتِهِ.

وعن الباقِرِعليه‌السلام: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ عَفَارِيتِ الجِنِّ» والعِفْريتُ: المَارِدُ القَويُّ الدَّاهِي ﴿مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مَجلسِكَ الذي تَقْضِي فِيهِ ﴿وإِنِّى﴾ علَى الإِتيانِ بِهِ ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ آتِي بِهِ كما هُوَ لا أُبدِّله. و﴿الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وَزيرُ سُلَيمانَ وابْنُ أُختِهِ، وهُوَ آصفُ بن برخيا، وكانَ يَعرفُ اسمَ اللهِ الأعظمِ الذي إذا دُعِيَ به أَجَابَ، وهو قَولُهُ: «يا إلـٰهنا وإلـٰه كلِّ شيء، إلـٰهاً واحداً لا إلـٰه إلَّا أنت»، وقيلَ هو: «يا حيُّ يا قيُّوم»، وبالعبرانية: «آهيّا شَرَاهِيّا»[2]، وقيلَ هو: «يا ذا الجَلالِ والإِكرامِ»[3]، وقيلَ: الَّذي عندَهُ عِلْمٌ من الكتابِ مَلَكٌ أيَّدَ اللهُ به سُليمان[4]، وقيلَ: هو جبرئيلُ والكتابُ هو اللَّوح[5]، وقيلَ: من جنسِ كُتُبِ اللهِ

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٥٢٠ عن وهب بن منبه.
(٢) قاله الكلبي وعائشة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٢٠.
(٣) قاله مجاهد ومقاتل. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٥٢٣.
(٤) وهو قول ابن بحر كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢١٣.
(٥) قاله ابن عباس والنخعي. راجع البحر المحيط: ج ٦ ص ٨٦.

المُنزَلَةِ علَىٰ أنبيائِهِ(١)، وقيلَ: هو عِلْمُ الوَحْيِ والشَرائعِ(٢).

وقولُهُ: ﴿ءاتِيكَ﴾ في الموضِعَينِ يجوزُ أن يكونَ فعْلاً واسم فَاعل، «الطَّرْفُ»: تَحرِيكُكَ أجفانكَ إذا نَظَرْتَ، فوُضِعَ مَوضعُ النَظَرِ. ولمَّا كَانَ النَاظِرُ موصُوفاً بإرسالِ الطَرْفِ في نَحْوِ قَولِهِ:

وَكُنْتَ إذا أَرْسلتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ(٣)

وُصِفَ بردِّ الطَرْفِ، وَوَصَفَ الطَرْفَ بالارتدادِ، فَعلىٰ هذا يكُونُ معنىٰ قَولِهِ: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إنّكَ تَرسِلُ طَرفَكَ إلىٰ شَيءٍ فَقَبل أن تَردَّهُ أَبْصَرْتَ العَرشَ بين يَدَيكَ، ورُوِيَ: أنَّ آصفَ قَالَ لسُليمانَ: مُدَّ عينيكَ حتّىٰ تَنتَهي طَرفُكَ، فَمَدَّ عَيْنَيهِ فَنَظَرَ نَحوَ اليَمين، وَدَعَا آصفُ فَغَارَ العرشُ في مكانِهِ بمَأْرب ثمَّ نَبَعَ عندَ مجلسِ سُليمانَ بالشَامِ بقُدرةِ اللهِ قَبل أن يرتَدَّ طَرفه(٤).

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنَّه يَرتبطُ به النعمة، ويَحطُّ به عن نفسِهِ عِبْءَ الواجبِ، ويستَوجبُ المَزيد ﴿رَبِّى﴾ غنيٌّ عن الشُكرِ ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعامِ علَى الشاكرِ والكَافر.

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ إجعلُوه متنكِّراً متغيِّراً عن شكْلِهِ، أرادَ بذلكَ اعتبارَ عَقلِها ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ لِمَعرفتِهِ، أو للجَوابِ علَى الصَوابِ إذا سُئلَتْ عنه، أو للدِّينِ والإيمانِ بنبوَّةِ سُلَيمانَ إذا رَأَتْ تلكَ المُعجِزَة.

﴿أَهَٰكَذَا﴾ أربعُ كَلماتٍ: حَرفُ الاستفهامِ، وحَرفُ التَنبيهِ، وكافُ التَشبيهِ، واسمُ الإشارةِ. أي: أَمِثلُ هذا عَرشُكِ؟ ولَم يَقُلْ: أَهذا عَرشُكِ؟ لئلّا يَكونُ تَلْقِيناً

(١ و٢) وهو قول ابن لهيعة. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٣٦٧ و٣٦٨.

(٣) البيت لاعرابية تردّ خاطباً لها يسألها عن أحوالها، وقيل: هو لشاعر حماسي. انظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ٧٨.

(٤) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٠ عن ابن عباس.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وَلَم تَقُلْ هو هو ولا ليس به، وذلكَ من رجَاحةِ عَقلِها، إذ لَمْ تَقطَعْ في مَوضعِ الاحتمالِ ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ قيلَ: هو مِن كَلَامِ بلقيس [١] أي: وأُوتينَا العلمَ باللهِ وبقدرتِهِ وبصحّة نبوَّةِ سُلَيمانَ من قَبلِ هذهِ المُعجزةِ، أو: من قَبلِ هذهِ الحَالةِ، وقيلَ: هو من كَلَامِ سُليمانَ وقَومِهِ [٢] أي: وأُوتينا العلمَ بإسلَامِها ومَجيئِها طَائِعةً قَبلَ مَجيئِها، أو: أُوتينا العِلْمَ باللهِ وبقدرتِهِ قَبلَ عِلْمِها وَلَم نَزَلْ علىٰ دينِ الإِسلام. ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدّمِ إِلَى الإِسلامِ عِبَادَةُ الشَمسِ ونشُوؤُها بين الكفّار، وقيلَ: صَدَّهَا اللهُ أو سُليمانُ عَمَّا ﴿كَانَتْ تَعْبُدُ﴾ بتقديرِ حَذفِ الجَارِّ وإيْصَالِ الفِعل [٣].

والصَّرْحُ: القَصْرُ، وَالْمُمَرَّدُ: المُمَلَّسُ، وقيلَ: الصَرحُ: المَوضعُ البَسيطُ المُنكَشِفُ من غيرِ سَقفٍ [٤]، أَمَرَ سليمانُ الشَّياطينَ ببنائِهِ وأجرىٰ تَحتَه الماءَ، ثمّ وُضِعَ لَه فيه سَريرٌ فَجَلَسَ عَلَيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ بَلقيسُ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي مُعظَم المَاءِ ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لدخُولِ المَاءِ، فقَالَ لها سليمانُ: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ﴾ مُمَلَّسٌ ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ وليسَ بمَاءٍ ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ يُريدُ بكفرِهَا فيما تَقَدَّم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُواْ تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ

(١) انظر تفسير الرازي: ج ٢٤ ص ٢٠٠.
(٢) قاله مجاهد والجبائي. راجع التبيان: ج ٨ ص ٩٨.
(٣) قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ٢١٣.
(٤) قاله محمد بن كعب القرظي. راجع البحر المحيط: ج ٧ ص ٧٩.

ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّـا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِـى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٣)﴾

﴿هُمْ فَرِيقَانِ﴾ مبتدأٌ وخبَرٌ، و﴿إِذَا﴾ خَبَرٌ ثانٍ، و﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حَالٌ أو صفَةٌ لـ﴿فَرِيقَانِ﴾ أي: فَريقٌ مؤمِنٌ وفريقٌ كافِرٌ، يقولُ كلُّ فَريقٍ: الحَقُّ مَعي.

وَالسَّيِّئَةُ: العقُوبة، وَالْحَسَنَةُ: التَوبةُ من الشِرْكِ، ومعنَى ٱستعجالِهِم ﴿بِـالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ أنَّهم قَالُوا: إنْ كانَ مَا أتيتنا بِهِ حَقّاً فأْتِنَا بالعَذَابِ، هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ﴾ اللهَ من الشِّركِ بأَن تُؤمنُوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فَلَا تُعذَّبُونَ في الدنيا.

﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أي: تَطَيَّرْنَا بكَ، ومَعناهُ: تشَّاءَمْنَا بِكَ وبمَنْ علىٰ دينِكَ، وكانُوا قَد قُحِطُوا ﴿قَالَ طَـٰئِرُكُمْ عِندَ ٱللهِ﴾ أي: سَبَبُكُم الذي يَجيء به خَيرُكُم وشَرُّكُم عندَ اللهِ، وهو قَدَّره وقسَّمه، إنْ شَاءَ رَزَقَكُم وإنْ شَاءَ حَرَمَكُم. ويجوزُ أن يـريدَ: عَـمَلُكم مكتوبٌ عندَ اللهِ فمنهُ نَزَلَ بكُم ما نَزَلَ عقُوبةً لكُم وٱبتلاءً، ومنه قولُهُ: ﴿طَـٰئِرُكُـمْ مَعَكُمْ﴾[1] ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰئِرَهُ فِى عُنُقِهِ﴾[2]، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُختَبرونَ وتُبتَلُونَ أو تُعذَّبونَ.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي بها صَالحٌ، وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ﴾ أَنْفُسٍ سَعوا في عقْرِ النَّاقَةِ، وكانُوا عُتَاةَ قَومِ صالحٍ ومن أبناءِ أَشرافِهِم، أي: شَأْنُهم الإِفْسادُ البَحْت الَّذي لا يَختلِطُ بشيءٍ من الصَلاحِ. ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ يجوزُ أن يكونَ أَمْراً، ويجوزُ أن يكونَ خَبَراً في مَحَلّ الحَالِ بإضْمارِ «قد»، أي: قَالُوا متَقَاسمينَ: ﴿لَـنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: لَنقتُلَنَّ صَالِحاً وأَهلَه، وقُرِئ: «لَتُبَيِّتُنَّهُ» بالتَاءِ وضَمِّ التاءِ الثانيةِ «ثم لَـتَقُولُنَّ»[3]،

---

(١) يس: ١٩. (٢) الإسراء: ١٣.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٠١.

وعلىٰ هذا يكونُ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أمراً لا غَير، والتقَاسِمُ: التَّحالِفُ، وَالْبَيَاتُ: مباغَتَةُ العَدوِّ لَيْلاً. وقُرِئ: «مَهْلَكَ» من الهَلاكِ و«مُهْلَكَ» مِنَ الإِهلاكِ[١]. ﴿وَمَكَرُواْ مَكْراً﴾ بأَنْ أخفَوا تَدبيراً للفَتْكِ بصالحٍ وأهلِهِ ﴿وَمَكَرْنَا﴾ بإهلاكِهِم من حيث ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ شَبَّهَ بمكْرِ الماكِرِ علىٰ سَبيلِ الاستِعَارةِ.

«إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ»[٢] استئنافٌ، وَمَنْ قَرَأَ بالفَتحِ رَفَعَهُ بَدَلاً من «العاقبة»، أو: علىٰ أنَّه خَبَرُ مبتدأ محذوف وتقديرُهُ: هي تَدميرُهُم، أو نَصَبَه علىٰ خَبَرِ ﴿كَانَ﴾ أي: كَانَ عَاقِبةُ مَكْرِهِم الدَّمارَ، أو علىٰ معنى «لأَنَّا».

و﴿خَاوِيَةً﴾ نصبٌ على الحالِ من معنَى الإشارةِ؛ أي: فَارِغَةً خَاليةً بظُلْمِهِم وكُفرِهِم[٣]. وعن ابنِ عَباسٍ: أَجدُ في كتابِ اللهِ عزَّ اسمُهُ أنَّ الظُّلمَ يُخرِّبُ البيوتَ، وتَلَا هذهِ الآيةَ[٤].

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾

أَرسَلنا لُوطاً ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مِن: بَصَرَ القَلْبُ، أي: تَعلَمونَ أَنَّها فَاحشَةٌ لَم تُسْبَقُوا إِلَيها، أَو: تُبصِرُونَها؛ لأَنَّهم كانُوا يَرتَكِبُونَ ذلكَ مُعالِنينَ به، لا يَستَتِرُ بعضُهم

(١) قرأ عاصم برواية أبي بكر «مَهْلَكَ» وفي رواية حفص «مَهلِك»، والباقون «مُهلَك». راجع المصدر السابق.

(٢) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا هي بكسر الألف كما لايخفىٰ.

(٣) في نسخة: «شركهم».

(٤) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ٢١٥.

من بعضٍ خِلَاعةً أو مجانةً، أو: تُبصِرُون آثارَ العُصَاةِ قَبلكُم ومَا نَزَلَ بِهِم.

﴿تَجْهَلُونَ﴾ تفعلُونَ فِعْلَ الجَاهِلينَ بأَنَّها فَاحشَةٌ مَعَ عِلْمِكُم بذلكَ، أو: تَجهلُونَ العَاقِبة. ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يَتنزَّهُونَ عن هذا الفِعْلِ ويُنكِرُونَه، وعن ٱبنِ عباسٍ: هو ٱستهزاء[١].

أي: قَدَّرْنَاَ كَونَها ﴿مِنَ الْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: الباقِينَ في العَذَابِ، فالتَقديرُ واقِعٌ على الغُبورِ في المَعنَى.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ للهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللهِ تَعَـٰلَى ٱللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾

فِيهِ بَعْثٌ علَى الاستفتاحِ بالتَّحميدِ والسَّلامِ عَلَى المُصطَفينَ من عبادِهِ، والتَّيَمُّنِ بالذِّكْرَيْنِ، والاستظهارِ بِهِما علىٰ قَبولِ ما يُلقَى إِلَى السَّامعينَ، وقيلَ: اتَّصَلَ بما قَبلَهُ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٧٤.

إذا جُعِلَ تَحميداً علَى الهالكينَ من كُفَّارِ الأُمَمِ، والصَّلاةَ علَى الأنبياءِ وأَشْياعِهِم النَّاجِين (١).

وعنهم عليهم السلام: أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ محمَّدٌ وآله عليهم السلام (٢).

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لِمَن عَبَدَه أم الأَصنامُ لِعَابِدِيها؟ وهذا إلزامٌ للحجّةِ علَى المشركينَ بَعدَ ذكْرِ هَلَاك الكفّار. وعَن الصَادقِ عليه السلام: يقولُ إذا قَرأَها: «اللهُ خَيرٌ» ثَلاثُ مَرَّات (٣).

و«أَمْ» في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ متَّصِلةٌ، والمعنىٰ: أيُّهما خَيرٌ؟ وهي في: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ مُنقَطِعةٌ، والمعنىٰ: بَل أَمَّنْ خَلَقَ السَماواتِ والأَرضَ خَيرٌ. وفيهِ تَقريرٌ لَهُم بأَنَّ مَنْ قَدِرَ علىٰ خَلْقِ العَالَم خَيرٌ من جَمَادٍ لا يَقْدِرُ علىٰ شَيء. وفي قَولِهِ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ وٱنتقالِهِ إلَى التَكلُّمِ عن ذاتِهِ بَعدَ الإِخبارِ عن الغَيبةِ علىٰ طَريقِ الالتفاتِ تَأكيدٌ لمعنَى ٱختصاصِ الفعلِ بذَاتِهِ، وأنَّه لا يَقدِرُ علىٰ إنْباتِ الْحَدَائِقِ مَعَ بَهجَتِها وبَهائِها إلَّا هو وَحدَهُ. أَلَا تَرىٰ كَيفَ رشَّحَ مَعنَى الاختصاصِ بقولِهِ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ومَعنَى الكَينُونَةِ: الابتغاءُ، يَعني: أَنَّ تَأَتِّيَ ذلكَ من غَيرِهِ مُحالٌ، وكذلكَ قَولُهُ: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بَعدَ الخطَابِ أَبْلغُ في تَخطِئَةِ رأيِهِم. والحَديقَةُ: البُستانُ عَليه حَائِطٌ، من قَولِهِم: أحدَقُوا بِهِ أي: أَحَاطُوا بِهِ، و﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ بمعنَىٰ: جَماعَةُ حَدائِق ذَاتَ بَهْجةٍ، كَما يُقالُ: النِّساءُ ذَهَبَت، والبَهجَةُ: الحُسْنُ لأَنَّ النَاظِرَ يَبتَهجُ بِهِ ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغَيرُهُ يُقْتَرنُ بِهِ ويُجعَلُ شَريكاً لَه؟ وَلَكَ أَن تُحقّقَ الهَمزتَيْنِ وتُوسِّطَ بينَهُما مَدَّةً، وأَن تُخْرِجَ الثانيةَ بَينَ بَينَ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بِهِ غَيرَهُ، أَو: يَعدِلُونَ عن الحقِّ والتَوحيدِ.

---

(١) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٤.

(٢) رواه القمي في تفسيره: ج ٢ ص ١٢٩.

(٣) أنظر تهذيب الأحكام للطوسي: ج ٢ ص ٢٩٧ ح ٥١.

﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ وما بَعْدَه بَدَلٌ من ﴿أَمَّن خَلَقَ﴾ وحُكْمُهَا حُكْمُه ﴿قَرَاراً﴾ سوَّاهَا للاستقرارِ عَلَيها ﴿حَاجِزاً﴾ أي: بَرزَخاً.

الاضطرارُ: افتعالٌ من الضَرُورَةِ، وٱلمُضطَرُّ: الَّذي أَحْوَجَه مَرَضٌ أَو فَقْرٌ أَو نَازِلَةٌ من نَوازل الأَيامِ إِلَى التَضَرُّعِ إِلَى اللهِ تعالىٰ، يُقالُ: إضْطَرَّه إلىٰ كَذَا، والفَاعِلُ والمَفعولُ: مُضْطرٌّ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الشِّدّةَ وكلَّ ما يَسُوءُ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خُلَفاءَ فيهَا، تَتَوارثُونَ التَّصرُّفَ فيها خَلَفاً بَعدَ سَلَفٍ وقِرْناً بَعدَ قِرْنٍ، أو: أرادَ بالخِلَافةِ المُلكَ والتَسلُّطَ، و﴿مَا﴾ مَزيدةٌ أي: يَذَّكَّرونَ تَذْكيراً قَليلاً، والمعنىٰ: نَفْيُ التَذَكُّرِ، وقُرِئَ باليَاءِ مَعَ الإدغام، وبالتَاءِ مَعَ الإدغامِ والحَذْف[1].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ بالنُجُومِ في السَّماءِ، وبالعَلَاماتِ في الأَرضِ إذا جَنَّ عَليكم اللَيلُ وأَنتُم مُسافِرُونَ في البَحرِ أو البرِّ؟ ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَقرُّوا بالابتداءِ والإنشاءِ فَيلْزَمُهُم الإقرارَ بالإعادةِ بَعدَ الفَناءِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإنزالِ الأَمْطارِ ومنَ ﴿ٱلْأَرضِ﴾ بالنَّباتِ والثِّمار.

وجاءَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ علىٰ لغةِ بَني تَمِيم في قولِهِم: مَا أتاني زَيدٌ إلَّا عمرٌو، وقَولُ الشَاعرِ:

وَبَلْدَةٍ لَيسَ لَهَا أَنِيسُ إلَّا اليَعَافِيرُ وإِلَّا العِيسُ[2]

وإنَّما اختِيرَ هذا ليؤُولَ المعنَىٰ إلىٰ قَولِكِ: إنْ كانَ اللهُ ممَّن في السَماوات والأَرضِ فَفيهِم مَن يَعلَمُ الغَيبَ، كَما كانَ المَعنىٰ في البيتِ: إنْ كانَ اليَعافيرُ أَنيساً

---

(١) وبالياء قراءة أبي عمرو وابن عامر برواية هشام وابن ذكوان وروح والحسن والأعمش، وبالتاء الباقين. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٤، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٧ ص ٩٠.

(٢) لجران العَوْد وآسمه عامر بن الحارث بن كُلفة وقيل: كلدة، والبيت من قصيدة يذمّ فيهما امرأتيه ويشكو منهما. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١٠ ص ١٥ وما بعده.

فَفيها أنيسٌ ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنىٰ «مَتَىٰ».

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

قُرِئَ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ و«ادَّرَكَ» (١)، وأَصلُ «ادَّارك»: تَدارَكَ فأُدغِمَت التّاءُ في الدّالِ، و«ادَّرك» افتعَلَ، ومعنىٰ: ادَّرَكَ ﴿عِلْمُهُمْ﴾: انتهىٰ وتَكامَلَ، و﴿ادَّارَكَ﴾: تَتابَعَ واستَحكَمَ، يعني: أنَّ أسبابَ استحكامِ عِلْمِهِم وتَكامُلِهِم (٢) بأنَّ القيامَةَ كائنةٌ لا ريبَ فيها قَد حَصَلَتْ لَهُم، ومُكِّنُوا منها ومن مَعرِفَتِها، وهم شَاكُّونَ جاهِلُونَ، وذلكَ قولُهُم: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ يريدُ المشركينَ ممَّن في السماوات والأرضِ، لأنَّهم لمَّا كانُوا في جُملَتِهِم نُسِبَ فِعلُهُم إلى الجَميعِ، كَما يُقالُ: بنُو فُلان فَعَلوا كذا، وإنَّما فَعَلَه نَاسٌ مِنهُم.

وَوَجهٌ آخَرُ وهو: أَن يكُونَ «ادَّرك» بمعنىٰ «انتهىٰ» و«فَنِي»، من قولِكَ: ادَّرَكَتِ الثَمَرةُ، لأنَّ تلكَ غايتُها التي عندَها تُعدَمُ، وقَد فَسَّرَهُ الحَسَنُ بـ«اضمَحَلَّ

---

(١) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٥.
(٢) في نسخة: «تكامله».

عِلْمُهُم»[١]. وتَدَارَكَ مِن: تَدَارَكَ بنو فُلانٍ إذا تَتَابعُوا في الهَلَاكِ. ومعنَى الإِضْرابِ ثَلاث مَرّاتٍ أنَّـه وَصَـفَهُم أوَّلاً بأَنَّـهم «لا يَشْـعُرُونَ» وَقْتَ البَـعْث، ثُـمَّ بـأَنَّـهُم ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ بأَنَّ القيامةَ كائِنةٌ، ثُمَّ بأنَّـهم ﴿فِـي شَكٍّ﴾ يَسـتَطيعُونَ إزالَـتَه ولا يُزيلُونَه، ثمَّ بِما هو أَسوأُ حَالاً وهو العَمَىٰ، وَجَعَلَ الآخرةَ مبدأَ إعمائِهِم فلذلكَ عَدَّاه بـ«من» دُونَ «عَن»، لأنَّ الكُفْرَ بالعَاقبةِ هو الذي جَعَلَهُم كالبَهائِمِ لا يَتَدبَّرونَ.

والعامِلُ في ﴿إذا﴾ مَا دَلَّ عليهِ ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو تَخَرُّجُ؛ لأنَّ بين يَدي «عَمَلَ» اسم فاعلٍ فيه مَوانع مِـن العَـمَلِ، وهـي: هَـمزةُ الاسـتفهامِ و«إنَّ» ولامُ الابتداءِ، واحدةٌ مِنها كَافيةٌ، فكيفَ إذا اْجـتَمَعَ الجَـميعُ. والمُـرادُ: الإِخْـراجُ مِـن الأرضِ أو مِن حَالِ الفَنَاءِ إِلَى الحَياةِ، وتَكريرُ حَرفِ الاستفهامِ بإدخالِهِ علىٰ «إذا» و«إن» جَميعاً إِنْكارٌ علىٰ إنْكارٍ وجُحُودٌ بَعدَ جُحُودٍ، والضَّـميرُ فـي ﴿إِنَّـا﴾ لَـهُم ولآبائِهِم، لأنَّ كَونَهُم ﴿تُرَاباً﴾ قَد تَناولَهُم وآباءَهُم. فَـانْظُرْ ﴿كَـيْفَ كَـانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجرِمِينَ﴾ أي: الكافرينَ. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنَّهم لَم يـتَّبعُوكَ، والمـرادُ: لم يُسْلَمُوا ﴿وَلا تَكُنْ فِى﴾ حَرَجِ صَدْرٍ من مَكْرِهِم وكَيدِهِم، ولا تُبالِ بذلكَ، فإنَّ اللهَ يَعصِمُكَ مِنهُم، يُقالُ: ضَاقَ الشيءُ ضَيْقاً بالفتح والكسر، وقَد قُرئ بِهِما جَميعاً[٢].

إستَعجَلُوا العَذَابَ الموعُودَ، فقيلَ لَهُم: ﴿عَسَـىٰٓ أَنْ يَكُـونَ﴾ رَدِفَكُـم بَـعضُهُ وهوَ عَذَابُ يَوم بَدرٍ، فَزيدَتِ اللّامُ للتأكـيدِ كَـمَا زيـدَت البـاءُ فـي ﴿وَلا تُـلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾[٣]، أَو ضَمَّنَ ﴿رَدِفَ﴾ مَعنىٰ فِعْل يَتَعدَّىٰ باللّامِ نَحوُ: دَنَا لَكُـم وأَزِفَ لكُم، والمعنىٰ: تَبِعَكُم ولَحِقَكُم، و«عَسَىٰ» و«لعلَّ» و«سوف» فـي وَعـدِ المـلوكِ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٧٩.

(٢) قرأ ابن كثير والمسيبي واسماعيل كلاهما عن نافع بكسر الضاد، وقرأ الباقون بفتحها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٥.

(٣) البقرة: ١٩٥.

وَوَعيدِهِم يدُلُّ علىٰ صِدْقِ الأَمرِ وجدِّهِ، يعنُونَ بذلكَ أنَّهم لا يَعجلون بالانتقامِ لوثُوقِهِم بغَلبتِهِم، وبأنَّ الأمرَ لا يفُوتُهُم. والفَضْلُ: الإفضالُ أي: هو مُفْضِلٌ عَلَيهِم بتَأخيرِ العقُوبةِ، وأكثرُهُم لا يعرفُونَ حقَّ النِعْمةِ فيه ولا يشكُرونَه.

كَنَنْتُ الشيءَ وَأَكْنَنْتُهُ: سَتَرتُهُ، أي: يَعلَمُ ما يُخفُونَ وما يُعلنُونَ من عَداوةِ رَسولِ اللهِ وكَيدِهِ، وهو مُعاقِبُهم علىٰ ذلكَ علىٰ حَسبِ ٱستحقَاقِهِم.

التاءُ في «الغَائبةِ» و«الخَافيةِ» بمنزِلَتها في «العَاقبةِ» و«العَافيةِ»، والمَعنىٰ: الشَيءُ الذي يَغيبُ ويَخفىٰ، وهُمَا اسمان، ويجوزُ أن يكونَا صِفَتَيْن، والتاءُ تكونُ للمبالَغةِ كـ«الرَّاوية» في قَولِهِم: حمّادُ الرَاويةُ، كأنَّه قَالَ: وما مِنْ شَيءٍ شَديدُ الغَيبوبَةِ والخَفَاءِ إلَّا وقَد عَلِمَهُ اللهُ وأثبتَهُ في اللوح.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) ﴾

أي: ﴿يَقُصُّ﴾ عَلَيهم ما ٱختلفُوا فيهِ من أَمرِ المَسيحِ ومَريمَ وأَشياء كَثيرةٍ وَقَعَ بينَهُم الاختلافُ فيهِ من الأحكامِ وغَيرِها، وكانَ ذلكَ من مُعجزات نَبيِّنا صلى الله عليه وآله،

إذ كانَ لا يَدرسُ كُتُبَهُم وأَخبَرَهُم بمَا فِيها. ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بينَ مَن آمَنَ بالقُرآنِ ومَن كفَرَ به، أو: بينَ المختلفينَ في الدينِ يومَ القيامَةِ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بمَا يَحكمُ بِهِ وهو عَدْلُه، فَسَمّى المحكُومَ بِهِ حُكْماً، أو بحكمتِهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فَلا يُرَدُّ قَضاؤُهُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمَن يَقْضِي لَه وعَليهِ.

أَمَرَهُ بالتوكّلِ علَى اللهِ وقلَّةِ المُبالاةِ بأَعداءِ الدينِ، وعَلَّلَ التوكُّلَ بأنّه ﴿عَلَى الْحَقِّ﴾ وصَاحبُ الحَقّ حَقيقٌ بالوثُوقِ بنُصرةِ اللهِ. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ومَن سَمعَ آياتِ اللهِ وهو حَيٌّ صَحيحُ الحَواسِ فَلَا تَعيهَا أُذُنه، وَحَالُهُ كَحالِ المَوتَى الذين فَقَدوا مُصَحِّح السَّماعِ، وحَالُهُ كَحالِ الصُّمّ الذين يَنْعقُ بِهِم فلا يَسمَعُونَ. و﴿الْعُمْيِ﴾ الذينَ يضلُّونَ الطريقَ ولا يَقدرُ أَحدٌ علىٰ أن يَجعلَهُم هُداةً بُصَراء إلَّا الله، وقَولُهُ: ﴿إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تَأكيدٌ لحالِ الأصمِّ، لأنَّه إذا وَلَّىٰ عن الدَّاعي مُدبِراً كانَ أَبعد عَن إدراكِ صَوتِهِ، وقُرِئ: «وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ»[١] «وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ»[٢]. وهَداهُ عَن الضَلالِ كقولِهِ: سَقَاهُ عن العَيْمَةِ[٣] أي: أَبعَدَه عنها بالسَّقي، وأَبعَدَه عن الضَلالِ بالهدىٰ ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسْمِعُ ﴿إِلَّا﴾ مَن يَطلبُ الحَقَّ، ويَعلمُ اللهُ أنّه يؤمنُ بآياتِهِ ويُصَدِّقُ بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلِصُونَ.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: حَصَلَ ما وَعَدَهُ اللهُ من عَلاماتِ قيامِ الساعَةِ وظُهورِ أَشراطِها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾ تخرج من بين الصَّفَا والمَروةِ، فَتُخبِرُ المؤمنَ بأَنّه مؤمنٌ والكافرَ بأَنّه كافرٌ.

وعن حذيفةَ: أَنَّ النبيَّ صلّى الله عليه وآله قال: «دابّةُ الأرضِ طُولُها ستُّونَ

---

(١) قرأه ابن كثير وابن محيص وحميد وابن أبي اسحاق وعباس عن أبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٦، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٣٢.

(٢) قرأه حمزة. راجع كتاب السبعة السابق.

(٣) عَامَ الرجل الى اللبن يَعامُ ويعيم عَيْماً وعَيْمةً. (لسان العرب: مادة عيم).

ذِراعاً، لا يَدركُها طَالبٌ، ولا يَفُوتُها هَاربٌ، فَتَسِمُ المُؤمنَ بينَ عَينَيْهِ، وتَسِمُ الكَافِرَ بينَ عَيْنَيْهِ، وَمَعَها عَصَا موسىٰ، وخَاتمُ سليمانَ، فَتجلُو وجْهَ المؤمنِ بالعَصَا، وتَخْتِمُ أَنْفَ الكَافرِ بالخَاتمِ حتّىٰ يُقال: يا مؤمنُ، ويا كافِرُ»(١).

ورُوِيَ: «فَتضربُ المؤمنَ بينَ عَينَيْه بعَصَا موسى فَتَنكتُ نُكتةً بيضاءَ فَتَفشُو تلكَ النكتَةُ في وَجهِهِ حتّىٰ يَبْيَضَّ لَهَا وَجهُهُ، ويُكتَبُ بين عَيْنَيْه: مؤمنٌ، وتَـنكتُ الكافِرَ بالخاتمِ فَتفشُو النكتةُ حتّىٰ يَسوَدَّ لَهَا وَجْهُهُ، ويُكتَبُ بين عَيْنَيه: كافرٌ»(٢).

وعن السَّدي: تُكَلِّمُهُم ببُطْلانِ الأَديانِ كُلِّها سوىٰ دين الإِسلامِ(٣).

وعن محمد بن كَعبٍ قَالَ: سُئِلَ عليٌّ عليه السلام عن الدَّابةِ فقال: «أَمَا وَاللهِ مالَهَا ذَنَبٌ، وإنَّ لَهَا لَلِحْيَةً»(٤). وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أَنَّها من الإنْسِ.

وَقَد رُوِيَ عَنه عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا صَاحبُ العَصَا والمَيْسَم»(٥).

وعن ابن عباسٍ وغيرِهِ(٦): ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكَلمِ وهو الجُرحُ، والمُـرادُ بـهِ الوَسَمُ بالعَصَا والخَاتم، ويجوزُ أَن يكونَ تَكْلِمُهُم من الكَـلْمِ أيـضاً عـلىٰ مـعنَى التكثيرِ، يُقالُ: فلانٌ مكلَّمٌ أي: مُجَرَّحٌ، ويجوزُ أَن يُستدلَّ بالتَخفيفِ علىٰ أنَّ المُرادَ بالتَكْليمِ التَجريحُ، كَمَا فسَّر ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بقرَاءةِ عليٍّ عليه السلام: «لَنَحْرِقَنَّهُ»(٧)، ويُستَدلُّ

---

(١) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٩.

(٢) رواه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٢٦ عن ابن الزبير.

(٣) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٨.

(٤) رواه الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١١٩، والماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٢٦.

(٥) وهو ما رواه الكليني في الكافي: ج ١ ص ١٩٨ باب أنّ الائمة هم أركان الأرض، والصدوق في العلل: ص ١٦٤ ب ١٣٠ ح ٣.

(٦) كالحسن وسعيد بن جبير وأبي زرعة وأبي رجاء العطاردي وعـاصم الجـحدري. راجـع التبيان: ج ٨ ص ١٢٠، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٣٨.

(٧) حكاها عنه عليه السلام ابن خالويه في الشواذ: ص ٩٢، والآية من سورة طه: ٩٧.

بقراءةِ أُبـيٍّ «تُـنبّئُهُمْ»[١]، وبـقراءةِ ابـن مسـعودٍ: ﴿تُكَـلِّمهُمْ﴾ بـالتّشديدِ «بأنَّ النَّاسَ»[٢] علىٰ أنّه من الكَلَامِ.

وعن الباقرعليه‌السلام: كَلَمَ اللهُ مَنْ قَرَأ «تَكْلِمُهُمْ»، ولكن ﴿تُكَلِّمُهُم﴾ بالتشديد[٣].

وقُرِئَ: «إنَّ» بالكَسرِ[٤] علىٰ حكايةِ قَولِ الدابّةِ أو قولِهِ تَـعالىٰ عـندَ ذلك، وإذا كانَت حكايةً لقولِ الدابّةِ فمعنىٰ ﴿بِـٔايَـٰتِنَا﴾: بآيـات ربِّـنا، أو: لأنَّـها مـن خَواصِ خَلْقِ اللهِ أَضَافَتْ آيات الله إلىٰ نفسها، كما يقُولُ بعضُ خاصَّةِ المَلِكِ: بلادُنا وجندُنا، وإنَّما هي بلادُ مَولاهُ وجندُهُ. والقَراءةُ بفتحِ ﴿أَنَّ﴾ علىٰ حَذْفِ الجَارِّ.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحْبَسُ أَوّلُهُمْ علىٰ آخـرِهِم حـتّىٰ يـجتَمِعُوا ﴿وَيَـوْمَ نَحْشُرُ﴾ مَنصُوبٌ بمَا دَلَّ عليه ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ لأنَّ ﴿يَوْمَ﴾ هاهُنا بمنزلةِ «إذا».

وقد استَدَلَّ بعضُ الإماميةِ[٥] بهذه الآيةِ علىٰ صَحّةِ الرَّجعةِ وقَالَ: إنَّ المذكُورَ فيها: يومَ نحشر فيه ﴿مِنْ كُلِّ﴾ جماعةٍ فَوْجاً، وصفَةُ يومِ القيامةِ أَنَّهُ يُحشَرُ فـيه الخَلائقُ بأَسْرِهِم كَمَا قالَ سبحانَهُ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[٦].

وورِدَ عن آل محمدٍعليهم‌السلام: أنَّ اللهَ تعالىٰ يُحْيي عند قيامِ المهديعليه‌السلام قَوماً من أعدائِهم قَد بَلَغُوا الغايةَ في ظُلْمِهِم واَعتدائِهِم، وقَوماً من مُخْلِصِي أَوليـائِهِم قَـد اَبتَلَوا بمُعَانَاةِ كلّ عناءٍ ومحنةٍ في وَلائِهِم؛ لينتقمَ هؤلاء من أُولئكَ، ويَتَشَفَّوا مـمّا

(١ و٢) انظر معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٣٠٠.

(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٣٠ وفيه عن أبي عبداللهعليه‌السلام.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.

(٥) كالشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٢٠.

(٦) روى القمي باسناده الى أبي بصير عن ابي عبداللهعليه‌السلام في حديث الى أن قال: فقال رجلٌ له: إنّ العامة تزعم أنّ قوله: ﴿ويوم نحشر من كلّ أمّةٍ فوجاً﴾ عـنى يـوم القـيامة، فـقال أبـو عبداللهعليه‌السلام: أفيحشر الله من كلّ أمة فوجاً ويدع الباقين؟! لا، ولكنّه في الرجعة، وأمّا آيـة القيامة فهي: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾. راجع تفسير القمي: ج ٢ ص ١٣١.

تَجرَّعُوه من الغُمُوم بذلكَ، ويَنَالُ كلٌّ من الفَريقَيْنِ بعضَ ما ٱستَحَقَّه من الثَّوابِ والعقَابِ (١). وهذا غَيرُ مستَحيلٍ في العقُولِ فإنَّ أَحَداً من المسلمينَ لا يشُكُّ في أنَّه مقدورٌ للهِ تَعالىٰ، وقَدْ نَطَقَ القرآنُ بوقوعِ أمثالِهِ في الأُمَمِ الخَاليةِ كَـ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (٢)، والذي ﴿أَمَاتَهُ الله مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (٣) (٤).

ورُوِيَ عَنهُ عليه السلام: «سيكُونُ في أُمَّتي كُلُّ ما كَانَ في بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعلِ والقُذَّةِ بالقُذَّةِ» (٥). وعلىٰ هذا فيكونُ المُرادُ بالآياتِ: الأئمة الهادية عليهم السلام.

وقولُهُ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً﴾ الواو للحالِ، فكأَنَّهُ قالَ: أَكَذَّبْتُمْ بها بادئ الرأيِ من غَيرِ فكرٍ ونَظَرٍ يؤدّي إلىٰ إحاطة العلم بكُنْهِهَا، أو للعَطْفِ أي: أَجَحَدْتُموهَا وَمَعَ جُحُودِكُم لَم تقصدُوا مَعرفتَها وتحقّقها ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِن غَيرِ الكُفْرِ والتكذيبِ بآياتِ اللهِ، يعني: لَم يَكُنْ لَكُم عَمَلٌ في الدُّنيا غَير ذلكَ.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غَشِيَهُم العَذَابُ بسَببِ ظُلْمِهم فَشَغَلَهُم عن الاعتذارِ والنُّطْقِ به.

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

(١) أُنظر روضة الكافي: ص ٢٠٦ ح ٢٥٠. (٢) البقرة: ٢٤٣.
(٣) البقرة: ٢٥٩.
(٤) أُنظر الاعتقادات في دين الإمامية للصدوق: ب١٨ ص ٣٩ ـ ٤٣.
(٥) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص ٢٠٣ ح ٦٠٩.

ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

﴿مُبْصِراً﴾ معناهُ: ليُبْصِرُوا فيه طُرُقَ المَكَاسِب.

﴿فَفَزِعَ﴾ ولَمْ يقُلْ: فَيفْزَعُ ليُعلَمَ أَنَّه كائِنٌ لا محَالةَ، والمُرادُ: أَنَّ أهلَ السَّماواتِ والأرضِ يَفزعُونَ عندَ النَّفخةِ الأُولىٰ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ من الملائكةِ الَّذينَ ثبَّتَهُم اللهُ تعالىٰ وهم: جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ، وقيلَ: الشُهَداء[1]، وقُرِئَ: «وَكُلٌّ أَتُوهُ»[2] أي: فَاعِلُوه، وكِلَاهُما مَحمولٌ علىٰ مَعنىٰ «كلّ»، وَالدَّاخِرُ: الصَّاغِرُ، ومعنَى الإتيانِ: حُضُورُهُم الموقفَ بعدَ النَّفخةِ الثانيةِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: رجُوعُهُم إلىٰ أَمرِهِم وانقيادِهِم لَه.

﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ مِن جَمَدَ في المكانِ: إذا لَم يَبرَحْ منه، تُجمَعُ الجبالُ وتُسَيَّر كَما تُسَيِّرُ الريحُ السَّحابَ، فإذا نَظَرَ إليها النَّاظرُ حَسِبَهَا واقفَةً ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ مَرّاً حَثيثاً. وهكَذَا الأَجْرامُ العظامُ المتَكاثرةُ العَدَدِ إذا تَحرَّكَتْ لا يتبيَّنُ حَرَكَتُها، كما قَالَ النَّابغةُ الجعدي يصفُ جَيشاً:

بِأَرْعَنَ مِثلِ الطَّوْدِ تحسَبُ أَنَّهُم وقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تَهَمْلَجُ[3]

---

(١) قاله أبو هريرة كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٣٠.

(٢) وهي قراءة الجمهور إلّا حمزة وحفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.

(٣) الأرعن: الجبل العالي، والهملجة: السير السريع، يقول: إنّ جيشنا من الكثرة تظنّهم واقفين لحاجةٍ والحال أنّ ركابه تسرع السير. انظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ٩٩.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤكَّدٌ، وٱنتصابُه بمَا دَلَّ عليه ما تَقَدَّمَ من قولِهِ: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وجَعَلَ هذا الصُّنْعَ من جملةِ الأشياء التي أَتَىٰ بها علىٰ وجهِ الحكمةِ والإتقانِ وهو حسن الاتِّساقِ ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ﴾ بمَا يفعَلُهُ العبادُ، وما يستَحقُّونَه عليه فيُجازِيهم بِحَسبِ ذلكَ، وقُرئ: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتَّاءِ علَى الخطابِ[1].

وقُرئ: «مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» مجروراً بالإضافة[2] و«يومَئذ» مفتوحاً مَعَ الإضافةِ[3] لأنَّهُ أُضيفَ إلىٰ غَيرِ مُتَمكِّنٍ، ومنصُوباً مَعَ تنوين «فَزَع». وَمَنْ نَوَّنَ فَفي انتصابِ «يومَئذ» ثلاثةُ أوجهٍ: أَن يكُونَ ظَرْفاً للمصدرِ، وأَن يكُونَ صفةً لَهُ كأنّه قَالَ: مِن فَزَعٍ يَحدثُ يَومَئذٍ، وأَن يَتَعلَّقَ بـ﴿آمِنُونَ﴾ كأَنَّهُ قَالَ: وهُم آمِنونَ يومَئذٍ من فزعٍ شديدٍ لا يكتَنِهه الوَصْفُ، وهُو خَوفُ النَّارِ.

وعن عليٍّ عليه السلام: «الحَسَنةُ حُبُّنا أهلَ البيت، والسيئةُ بُغضُنا»[4].

ويؤيِّده ما رَووهُ عن جَابرٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنَّه قَالَ: «يا علي، لَوْ أَنَّ أُمَّتي صَامُوا حتّىٰ صَارُوا كالأَوتَارِ، وصَلُّوا حتّىٰ صَارُوا كالحَنَايَا، ثم أَبغضُوكَ، لأكبَّهُم اللهُ علىٰ مَنَاخِرِهم في النَّار»[5].

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ علىٰ إِضْمارِ القَولِ. ﴿هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكَّة، خَصَّها اللهُ سبحانَه بإضافةِ اسمِهِ إليها، وأَشَارَ إليها إشارةَ تَعظيمٍ لَها، وَوَصَفَ ذاتَهُ بالتَّحريمِ الذي هو خَاصٌّ، وَصْفُها: لا يُختلىٰ خَلَاها، ولا يُعضَدُ شَجَرُها، ولا يُنفَّرُ صَيدُها،

(١) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بالياء.
(٢) قرأه ابن كثير وابو عمرو ونافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.
(٣) قرأه ابن جمّاز وقالون وابن أبي أويس والمسيبي وورش كلّهم عن نافع. راجع المصدر السابق.
(٤) أخرجه الكليني في الكافي: ج ١ ص ١٨٥ ح ١٤، والطوسي في الأمالي ج ٢ ص ١٠٧.
(٥) العلل المتناهية لابن الجوزي: ج ١ ص ٢٥٧.

ومَن ٱلتجأَ إليها فهو آمنٌ، ومَن ٱنتهَكَ حُرمَتَها فهو ظَالمٌ، وهو مَالكُ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ فيحرِّمُ ما يَشاءُ ويَحلُّ ما يَشاءُ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتِّباعِهِ إيَّايَ فَمَنفَعةُ اهتدائِهِ رَاجِعةٌ إليه لا إليَّ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ ولَمْ يتَّبعْني فَلَا عليَّ، ومَا أَنَا إلَّا رَسُولٌ مُنذِرٌ، وليسَ عَلَيَّ إلَّا البَلَاغُ الْمُبِينُ.

ثم أمَرَ سبحانَه أن يَحمدَ اللهَ علىٰ مَا آتاه من نعْمةِ النبوَّةِ، وأَن يُهدِّدَ أعداءَهُ بمَا سَيُريهُم سبحانَه من الآياتِ التي تُلجِئُهُم إلَى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللهِ، وذلكَ حينَ لا تَنفعُهُم المعرفةُ، يعني: في الآخرةِ، وقيلَ: هي العَذابُ في الدُنيا والقَتلُ يوم بَدْرٍ فيشَاهِدُونها[1]، وقُرئَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ[2].

❁ ❁ ❁

(١) وهو قول مقاتل. راجع مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٣٧.

(٢) وبالياء قرأه ابن كثيرٌ وأبو عمرو وهشام. راجع الكشف عن وجوه القراءات: ج ٢ ص ١٦٩.

سورةُ القَصَصِ

مكّيةٌ[1]، وهيَ ثَمان وثَمانُونَ آيةٍ، ﴿طسٓمٓ﴾ كوفيٌّ، ﴿يَسقُونَ﴾ غَيرُهُم.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَها أُعطِيَ من الأَجْر عَشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صَدَّقَ مُوسىٰ عليه السلام ومَن كَذَّبَ به»[2].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٢٧: مكّية في قول قتادة والحسن عطاء وعكرمة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال ابن عباس: آية منها نزلت بالمدينة، وقيل بالجحفة، وهي قوله: ﴿انّ الذي فَرَضَ عَلَيكَ القرآنَ لَرادّكَ الىٰ معاد﴾، وهي ثمانون وثمان آيات بلا خلاف في جملتها، واختلفوا في رأس آيتين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٣٩١: مكّية إلّا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة، وآياتها ٨٨، نزلت بعد النمل.

وفي تفسير الآلوسي: ج ٢٠ ص ٤١ ما لفظه: مكّية كلّها علىٰ ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة، وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم ٱالكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾ فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنّها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أُحد، وفي رواية عنه أنّ الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة، وقيل: نزلت بين مكّة والجحفة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٧ مرسلاً، وزاد في آخره: «ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً أن كلّ شيء هالك إلّا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ (٦) ﴾

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ بعضَ ﴿نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: محقِّينَ كقَولِهِ: ﴿تَنْبُتُ بَالدُّهْنِ﴾ [1]، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سَبَقَ في عِلْمِنا أَنَّهم يُؤمنُونَ، لأنَّ التِّلاوةَ إنَّما يَنفعُ هؤلاء. ﴿إِنَّ فِرْعَونَ﴾ جُملةٌ مستأنفةٌ كالتفسيرِ لمَا تَقَدَّمَ ﴿عَلَا﴾ أي: بَغَىٰ وتَجَبَّرَ ﴿فِى﴾ أرضِ مصرَ، وتَجاوَزَ الحَدَّ في الظُّلْمِ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ أي: فِرَقاً يُشيِّعونَهُ علىٰ ما يُريدُ، أو: يُشيِّعُ بعضُهُم بعضاً في طاعتِهِ، أو: فِرَقاً مختلفةً قد أَوقَعَ بينَهم العَداوةَ، وهم: بنو إسرائيلَ والقبطُ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهُم بنو إسرائيلَ، وسَبَبُ ذَبحِ الأبناءِ أنَّ كَاهِناً قالَ لَهُ: يُولد مَولودٌ في بني إسرائيل يَذهَبُ مُلكُكَ علىٰ يدِهِ، ﴿يُذَبِّحُ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، و﴿يَسْتَضْعِفُ﴾: إمَّا حَالٌ من الضَّمير في ﴿جَعَلَ﴾ أو صِفَةٌ لـ﴿شِيَعَاً﴾ أو كلامٌ مُستَأنف.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ جُملةٌ معطُوفةٌ على الكلامِ المتقدِّمِ، لأنَّ الجَميعَ تَفسيرٌ لـ﴿نبأ مُوسَىٰ وفِرْعَونَ﴾، ﴿وَنُرِيدُ﴾ حِكايةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ، ويَجوزُ أن يكونَ حَالاً من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي: يَستَضْعفُهُم فِرعَونُ ونحنُ نريدُ أَن نَمُنَّ عَلَيهم

---

(١) المؤمنون: ٢٠.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ متقدِّمينَ في الدِّينِ والدُّنيا، وقَادةً في الخيرِ يُقْتَدىٰ بِهِم.

وعن سيِّدِ العابدينَعليه السلام: والذي بَعَثَ محمَّداًصلى الله عليه وآله بالحقِّ بَشيراً ونَذيراً، إنَّ الأبرارَ منَّا أَهلَ البيتِ، وشيعتَهُم بمنزلةِ مُوسىٰ وشيعتِهِ، وإنَّ عَدوَّنا وأَشياعَهُم بمنزلةِ فِرْعَونَ وأشياعِه.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ يرثُونَ فِرْعَونَ وقومَهُ ملكَهُم. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ في أَرضِ مِصْرَ والشَامِ، أي: نَجعلُها لَهُم مُمَهَّدةً لا تَنْبو بِهِم كَما كانَتْ في أيامِ الجَبابرةِ، ونُنْفِذُ أمرَهُم، ونُطْلِقُ أيديهم فيها ونُسلِّطُهُم عَلَيها. وقُرِئَ: «وَيَرَى» بالياء «فرعَونُ وجنودُهُ» بالرَّفعِ[١]، أي: يَرَوْنَ منه ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَـ﴾ـهُ من ذهابِ مُلكِهِم وهَلَاكِهِم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَـٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾

﴿الْيَمِّ﴾ البَحرُ وهو نيلُ مِصْرَ، يعني: أَلْهَمنَاهَا، أو أَتَاهَا جبرائيلُ بذلكَ ﴿أنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لَم تَخَافي عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ القَتْلَ فَاقْذِفِيهِ فِي النِّيلِ ﴿ولا تَخَافِى﴾ عليه الغَرَقَ والضَّياعَ، والفَرقُ بين الخَوفِ والحُزنِ: أنَّ الخَوفَ غَمٌّ يلحقُ الإنسانَ لمتوقَّعٍ، والحزنُ غمٌّ يلحقُهُ لواقعٍ، وهو فراقُهُ والإِخطارُ بِهِ، وقد

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٩٣.

نُهِيَتْ عن الأمرينِ جَميعاً، ووُعِدَتْ بمَا يُسلِّيها ويطمئنّ قَلبها ويُبهجُها، وهو رَدُّهُ إليها وجَعْلُهُ ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

واللّامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ لَامُ «كي» التي مَعْناهَا التَعليلُ، ولكن معنَى التَعليلِ فيها واردٌ علىٰ طَرِيقِ المَجَازِ، لأنَّه لم يكنْ دَاعيهُم إلى الالتقاطِ أَن يكونَ لَهُم ﴿عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ غير أنَّ ذلكَ لمَّا كانَ نتيجةَ التقاطِهِم لَهُ وثَمَرتَهُ شبَّه بالدَّاعي الذي يفعلُ الفِعْلَ لأَجْلهِ. وقُرئَ: «حُزْناً»[1] هما لُغَتانِ كالرُّشْدِ والرَّشَدِ ﴿كانوا خَـٰطِئِينَ﴾ في كلّ شيء، ولَيسَ خَطَأُهُم في تَربيةِ عَدوِّهِم ببدع منهُم، أو: كَانُوا مُجرمينَ مُذنبينَ فَعَاقَبهُم اللهُ بأَن ربَّىٰ عَدوَّهُم الذي هو سَبَبُ هَـلَاكِـهِم علىٰ أيـديهِم. وقُـرئَ: «خَاطِين» بتَخفيفِ الهَمزةِ[2]، أو: هُو مِن خَطَوتُ أي: خَاطِينَ الصَّوابَ إلَى الخَطَأ.

ورُويَ أَنَّهُم التقطُوا التابوتَ فَدَنَتْ آسية فَرأَتْ في جَوفِ التابوتِ نُوراً فَفَتَحَتْه فإذا بصبيٍّ يَمُصُّ إبهامَهُ فأَحبُّوهُ، فقالَتْ آسية لفرعونَ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: هُو قُرَّةُ عينٍ.

وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّ أَصحابَ فِرْعَونَ جـاءوا ليـقتلُوهُ فَـمَنَعتْهُم وقَـالَتْ: لا تَقْتلُوهُ، فَقَالَ فرعونُ: قُرَّة عينٍ لَكِ، فأمَّا لي فَلَا، ولَو أنَّه أَقرَّ بأَن يكونَ لَه قرَّة عَينٍ كَمَا أَقرَّت امرأتُهُ لهَدَاهُ اللهُ بِهِ كَمَا هَدَاها[3].

﴿عَسىَ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فإنَّ فيه مَخَايِلَ اليُمْنِ تَوسَّمتْ في سيمائِهِ النَجَابةَ المؤذنةَ بكونِهِ نَـفَّاعَاً ﴿أَوْ نَـتَّخِذَهُ وَلَـداً﴾ فـإنَّه أَهْـلٌ لأَن يكـونَ ولداً للـمُلُوكِ ﴿وَهُـمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّهم وَجَدوا المطلُوبَ الذي يَطلبونَهُ فَارِغاً من الهَمِّ حـين سـمعت بعطفِ فرعونَ عليهِ وتَبنِّيهِ له.

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٧٢.

(٢) حكاها الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٩٤.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٣.

وقيلَ: ﴿فَـٰرِغاً﴾ صِفراً من العَقْلِ حينَ سَمعَتْ بوقوعِهِ في يـدِ فِـرعَون[١]، ونحوُه: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٢] أي: لا عُقُولَ فيهَا. قَالَ حسَّان:

أَلا أَبْـلِغْ أَبَـا سُـفْيانَ عَـنِّي فَأَنْتَ مُجوَّفٌ نَخبٌ هَـواءُ[٣]

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ مَعْناهُ: أنَّها كادَتْ تَذْكُرُ موسىٰ فَتَقولُ: يا ابْنَاهُ، من شدَّةِ الوَجْدِ ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهامِ الصَّبرِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ﴾ المصدِّقينَ بوَعْدِ اللهِ في ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، وقيلَ: كادَتْ تُخبرُ أنَّها أُمُّه لمَّا رَأَتْه عندَ فِرعَونَ لِشِدَّةِ سُرورِها بِهِ[٤]، والهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لموسىٰ، والمُرادُ بأَمرِهِ وقِصَّتِهِ.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦)﴾

---

(١) قاله مالك كما حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ٢٥٥.

(٢) ابراهيم: ٤٣.

(٣) و هو من قصيدة يهجوبها أبا سفيان لمّا بلغه هجاؤه للنبي ﷺ. راجع ديوان حسان بن ثابت: ص ٢٨.

(٤) قاله ابن مسعود. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٥٦.

﴿وَقَالَتْ﴾ أُمُّ موسىٰ لأُختِ موسىٰ: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعي أَثرَهُ وتَتبَّعي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ عن بُعْدٍ، والمُرادُ: فَذَهَبَتْ فَوَجَدَتْ آل فِرْعَونَ أَخْرجُوا التابوتَ وأَخرجُوا موسىٰ، فَرَأَتْ أَخَاهَا مُوسىٰ وهُم لا يحسُّونَ بأنَّها أُختُه.

والتَّحْريمُ: استِعَارةٌ للمنْعِ، لأنَّ مَن حُرِّمَ عليه الشَيءُ فَقَد مُنِعَ ذلكَ، وذلكَ أنَّ اللهَ مَنَعَ موسىٰ أَن يَرضَعَ ثَدْياً، فَكَانَ لا يَقْبلُ ثَـدِيَ مُـرْضِعٍ حـتَّىٰ أَهَـمَّهُم ذلكَ، و﴿ٱلْمَرَاضِعِ﴾ جَمعُ مُرْضِعٍ وهي التي تُرضِعُ، أو جَمْعُ مَـرْضَعٍ وهـو الرَّضَـاعُ أو مَوضع الرَّضَاعِ يعني الثَدْي من قِبَلِ قَصِّها أَثَره.

ورُويَ أَنَّها لمَّا قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ﴾ قَالَ هَامَان: إنَّها لَتعرفه، وتَعرِف أَهلَهُ، فَقَالَتْ: إنَّما أَردْتُ: وهُم للمَلِكِ نَاصِحُون[١]. والنُّصحُ: إخلاصُ العَمَلِ مـن شَائِبِ الفَسَاد. فانطلَقَتْ إلىٰ أُمِّه فَجَاءَتْ بها، والصَبيُّ علىٰ يدِ فِرْعَونَ يقبِّله شَفَقَةً عليه، إذ أَلْقَى اللهُ محبَّتَهُ في قَلبِهِ، وهُو يَبكي بطلب الرضَاعِ، فحينَ وَجَدَ ريـحَهَا استأْنَسَ إليهَا وٱلتَقَمَ ثَدْيها، فَقَالَ فِرعَونُ: وَمَنْ أَنْتِ مِنْه؟ قَالَتْ: إنِّي امـرأَةٌ طـيِّبَةُ اللَّبَنِ، لا أُوْتَىٰ بصبيٍّ إلَّا قَبِلَني، فَدَفَعَهُ إليها وأَجرَىٰ عليها، وذَهَبَتْ بِهِ إلىٰ بَـيتِها، وأَنْجزَ اللهُ وعْدَهُ في الرَّدِّ، فَعِندَ ذلكَ ٱستَقرَّ عندَها أَنَّه يكـونُ نـبيّاً، وذلكَ قـولُهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ والمُرادُ: لِـيثبُتَ عِـلْمُها ويَـتَمَكَّنَ ﴿وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ كَمَا عَلِمَتْ.

﴿وَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: اعتدَلَ وٱستَحكَمَ وبَلَغَ المبلَغَ الَّـذي لا يُـزادُ عـليه وهـو أربعُونَ سَنة ﴿ءاتَيْنَـٰهُ حُكْماً﴾ وهو النُّبوَّةُ ﴿وَعِلْماً﴾ وهو التوراةُ.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني: مصرَ، وقيلَ: مدينةٌ من أرضٍ مصر[٢] ﴿عَلَىٰ حِينِ

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٤٠ عن طرق.
(٢) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٤١.

غَفْلَةٍ﴾ يعني: مَا بَين العشاءَينِ، وقيلَ: وقتُ القائلةِ[1] ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ ممَّن شايَعَهُ علىٰ دينِهِ من بني إسرائيلَ ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من مُخَالفيهِ من القبطِ. وَالْوَكْزُ: الدَّفعُ بأَطرافِ الأَصَابعِ، وقيلَ: بِجُمعِ الكَفِّ[2] ﴿قَالَ هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيطَـٰنِ﴾ يعني: أنَّ العملَ الذي وَقَعَ القَتْلُ بسببِهِ من عَمَلِ الشَيطانِ إذْ حَصَلَ بوسْوَسَتِهِ ﴿إنَّه عَـدُوٌّ﴾ لِبني آدمَ ﴿مُضِلٌّ﴾ ظاهرُ الإضْلالِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بهذا القَتلِ لأنَّ القَومَ لَو عَلِمُوا بذلكَ لَقَتَلُونِي، وقيلَ: إنَّما قالَهُ علىٰ سبيلِ الانقطاعِ إلَى اللهِ، والاعترافِ بالتَقصيرِ عن أداء حقوقِ نِعَمِهِ[3].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢١) ﴾

﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوزُ أَن يكونَ قَسَماً جَوابُهُ محذُوفٌ، والتَقديرُ: أُقْسِمُ بإنعامِكَ عليَّ لأَتَحَفَظَنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وأَن يكونَ مَعناهُ:

---

(١) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٤٢.

(٢) قاله مجاهد. راجع المصدر السابق: ص ٤٥.

(٣) قاله السيد المرتضى كما في مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٤٥.

﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من القوّةِ فَلَنْ أَستعملَها إلّا في مظاهرةِ أُولئك[١] المؤمنين، ولا أَدَعُ قبطيّاً يَغلِبُ أَحَداً من بني إسرائيلَ.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ المكرُوهَ وهو أَن يُستَقَادَ منه، أو ينتظرُ الأَخبارَ في قَتْلِ القبطي ويَتَجَسَّسُ، لأَنّه خَافَ من فِرعَونَ وقومِهِ أَن يكونُوا عَرفُوا أَنَّه قَتَلَهُ، وَقَالَ للإِسرائيلي: ﴿إِنَّك لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ لأَنَّه كَانَ سَبَبَ قَتلِ رجلٍ وهو يُقاتِلُ آخَر.

﴿فَلَمَّآ﴾ أَخَذَتْهُ الرِّقةُ علَى الإِسرائيلي و﴿أَرَادَ﴾ أَن يَدفَعَ القبطيَّ الذي هو عدوٌّ لموسىٰ والإِسرائيلي عنه و﴿يَبطِش﴾ بِهِ، وقُرِئَ: «يَبْطُشُ» بالضمّ[٢]، والجَبَّارُ: الذي يَفْعَلُ ما يريدُ من الضَّرْبِ والقَتْلِ بظُلْمٍ، لا يَنظُرُ في العَواقِب، وقيلَ: هو المُتَعظِّمُ الذي لا يَتَواضَعُ لأَمْرِ اللهِ[٣].

فَلَمَّا قالَ للإِسرائيلي هذا اشتَهَرَ أَمرُ القَتْلِ في المَدينةِ، وأُنْهي إلىٰ فِرْعَونَ وهمُّوا بقَتْلِهِ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قيلَ: هو من آلِ فِرْعَونَ وكان ابن عم فِرعَون[٤]، و﴿يَسْعَىٰ﴾ يجوزُ أَن يكونَ في مَحَلِّ الرَفعِ وَصْفاً لـ﴿رَجُل﴾، ويجوزُ أَن يكونَ مَنصُوباً حَالاً عنه، لأَنّه قد تَخَصَّصَ بوصْفِهِ الذي هو ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويجوزُ أَن يكونَ صِلَةً لـ﴿جَاءَ﴾ فيكونُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفَةً لـ﴿رَجُل﴾ لا غير، ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ يَتَشَاورونَ بِسَبَبِكَ، يُقالُ: تَأَمَّرَ القَومُ وٱئتَمَرُوا، و﴿لَكَ﴾ ليسَ بِصِلَةٍ لـ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بَل هو بيانٌ. ﴿فَخَرَجَ﴾ موسىٰ من مِصْرَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ التَّعرُّضَ لَهُ في الطَرِيقِ، أو: أَن يُلحَقَ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ﴾ فِرعَونَ وقَومِهِ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ

---

(١) في نسخة: «أوليائك».

(٢) حكاها الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٣٧.

(٣) قاله الزجاج. راجع المصدر السابق.

(٤) قاله قتادة والضحاك والكلبي. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٩.

ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ ما خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾

﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ صَرَفَ وجهَهُ نَحوَهَا، وهي قَريةُ شُعَيبٍ، وعن ابن عبَّاسٍ: خَرَجَ ولَيسَ لَهُ عِلْمٌ بالطَريقِ إلّا حُسن ظَنِّهِ بربِّهِ(١) و﴿سَوآء ٱلسَّبِيلِ﴾ وَسَطُهُ، وقيلَ: خَرَجَ خافياً(٢) لا يَعيشُ إلَّا بورَقِ الشَجرِ(٣).

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ الذي يسقُونَ منهُ وكَانَ بِئراً، وورُودُهُ: مَجيئُهُ والوصُولُ إليهِ ﴿وَجَدَ﴾ فوقَ شَفيرِهِ ومستَقَاه ﴿أُمَّةً﴾ جَماعةً كثيرةَ العَدَدِ من أُناسٍ مختلفينَ ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ أي: مَكَانٌ أَسفَلَ من مكانِهِم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ عَنهُما، والذَّودُ: الطَّرْدُ والدَفعُ، كانَتَا تكرهَان المُزَاحَمةَ علَى الماءِ، وقيلَ: كانَتَا لا تَتَمكَّنانِ من السَقْي، لأنَّ علَى الماءِ من هو أَقوىٰ منهما(٤) ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾

(١) تفسير ابن عباس: ص ٣٢٥. (٢) خائفاً خ ل.
(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٠٠.
(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٣٩.

ما شَأْنُكما، وأَصلُه: ما مخطُوبُكُما أي: مَطلوبُكُما من الذيادِ. وقُرِئ: «يَصْدُرَ الرِّعاءُ»[(١)] أي: يَصْدرُوا مواشيهم من ورُودِهِم، والرِّعَاءُ: جَمعُ الرَّاعي كالصِّيامِ والقيامِ. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فَسَقَىٰ غَنَمَهُما لأَجلِهما، ورُوِيَ: أنّ الرِّعاءَ كانُوا يضعُونَ علىٰ رأسِ البئر حَجَراً لا يُقِلُّهُ إلاَّ سبعةُ رجال، وقيلَ: عشرةٌ[(٢)]، وقيلَ: أَربعون[(٣)]، فَأَقَلَّهُ وحدَهُ، وسأَلَهُم دَلواً فأعطوه دلْوَهُم، وكانَ لا يَنزعُها إلاَّ عشرةٌ، فاستَقَىٰ بهَا وحدَه مرةً[(٤)] فروَّىٰ غَنَمَهُما وأَصدرَهُما، وإنَّما فَعَلَ ذلكَ رغْبةً في المعروفِ وإغاثةً للملهُوفِ. ولم يذكُرْ مفعول ﴿يَسْقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾ و﴿لا نَسْقِي﴾ لأنَّ الغَرضَ هو الفعلُ لا المفعُول. والوَجْهُ في مُطَابقةِ جوابِهِما لِسُؤالِهِ أنَّه سَأَلَهُما عن سَبَبِ ذَودِهِما الغنَمِ، فَقَالَتا: سَبَبُ ذلكَ أنَّهما ضَعيفَتانِ لَم تَقدرا علىٰ مُزَاحَمةِ الرِّجالِ، ولابُدَّ لَهُما من تَأخيرِ السَقْي إلىٰ أن يَصدرُوا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ضَعيف[(٥)] لا يقْدِرُ علىٰ تولِّي السَّقْي بنفسِهِ، وكأنَّما قَالَتَا ذلكَ تَعريضاً للطَلَبِ منه الإعَانَة علىٰ سَقْي غَنَمِهما، وإبلاءً للعُذْرِ في تولِّيهمَا السَّقْي بأنفسِهِما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى﴾ ظلِّ سَمُرَةٍ من شدّةِ الحرّ وهو جَائعٌ فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ قَليلٌ أَو كَثيرٌ ﴿فَقِيرٌ﴾ وإنَّما تَعدَّىٰ ﴿فَقِير﴾ باللّامِ لأنّه ضُمِّنَ معنىٰ «سائل» و«طالب». ورُويَ أنَّه قالَ ذلكَ وخُضْرةُ البَقْلِ تُرىٰ في بَطنِهِ من الهُزالِ، ومَا سَأَلَ إلّا خُبزاً يأكُلُه.

﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في مَوضعِ الحَالِ، أي: مُستَحيِيةً خَفِرَةً، وذلكَ أنَّهما لمَّا رَجَعَتَا إلىٰ أبيهِمَا قَبلَ النَاسِ وأَغنامهُما حُفَّلٌ بِطانٌ وقَالتَا: وَجَدْنا رجلاً صالحاً

---

(١) قرأه ابن عامر وأبو عمرو. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧١.

(٢) قاله شريح. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٢.

(٣) قاله الزجّاج على ما حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ٢٦٩.

(٤) في المخطوطة زيادة: واحدة.

(٥) في نسخة زيادة: «كبير السنّ».

رحِمَنا وَسَقَىٰ لَنَا، قَالَ لإحداهُما: عَلَيَّ بِهِ، فرَجَعَتْ فَتبعَها موسىٰ، فألْصَقَتِ الرِّيحُ ثَوبَها بِجَسَدِها فوَصَفتْهُ، فقَالَ لَهَا: إمْشِي خَلْفِي وأَريني السَّمتَ بقَولِكِ، فَلَمَّا قَصَّ عليهِ قُصَّتَهُ ﴿قَالَ لا تَخَفْ﴾ فَلَا سُلطانَ لِفرْعَونَ بأَرضِنَا، و﴿ٱلْقَصَص﴾ مَصدرٌ سُمِّي به المَقْصُوصُ.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي كُبراهُمَا، وهي التي ذَهَبَتْ بِهِ، وهي التي تَزَوَّجَها. ورُوِيَ أَنَّ شُعَيباً قَالَ لَهَا: وكيفَ عَلِمْتِ قوَّتَهُ وأَمانَتَهُ؟ فَذَكَرتْ إقْلال الحَجَرِ ونَزْعَ الدَّلْوِ، وأنَّه صَوَّبَ رأْسَهُ حتَّىٰ أبلَغَتْه رسَالَتَهُ وأمَرَها بالمَشْي خَلْفَهُ، وفي قَولِهَا حِكْمَةٌ جَامعةٌ[1] لأنَّه إذا حَصَلَتِ الأَمانةُ والكفَايَةُ في القيامِ بالأَمرِ فَقَد تَمَّ المُرادُ.

﴿تَأْجُرَنِى﴾ من أَجرتَهُ إذا كُنتَ لَهُ أَجيراً، و﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظَرفٌ لَهُ ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: فَإتْمامُهُ من عندكَ، يعني: لا أُوجبُهُ عليكَ ولا أُلْزِمُكَهُ، ولكنَّكَ إنْ فَعَلْتَ فهُو تَبرُّعٌ منك ﴿ومَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإتْمَامِ الأَجَلَينِ وإيْجابهِ ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ في حُسْنِ المُعَاملةِ ولِينِ الجَانِب. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتَدأٌ و﴿بَيْنِى وبَيْنَكَ﴾ خَبرُهُ، أي: ذلكَ الذي قُلْتُه وعَاهَدتَني فيه قَائِمٌ بينَنا لا نَخرجُ عَنهُ، أَيَّ أَجَلٍ ﴿قَضَيْتُ﴾ من الأَجَلَيْنِ: الثَّماني أو العَشر، فَلَا يُعتَدىٰ ﴿عَلَيَّ﴾ في طَلَبِ الزيادةِ عَلَيْهِ، و﴿مَا﴾ مُؤكِّدةٌ لإِبْهامِ «أيٍّ» زائدةٌ في شياعِها، والوَكِيلُ: الَّذي وُكِّلَ الأَمرُ إليه، ولمَّا ٱستُعمِلَ بمعنَى الشَاهِدِ والمُهَيمنِ عُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٠)

(١) في نسخة: «بالغة».

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ (٣٥)﴾

قُرِئَ: ﴿جَذْوَةٍ﴾ بالحَرَكَاتِ الثَلاث[١]، وفيها اللُّغاتُ الثَلاث، وهيَ العُودُ الغَليظُ في رأسِهِ نَارٌ. و﴿مِنْ﴾ الأُولىٰ والثانية لابتداءِ الغَايةِ، أي: أَتَاهُ النِّداءُ من شَاطِئِ الوادِي من قِبَلِ الشَّجَرةِ. و﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ من ﴿شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ﴾ وهو بَدَلُ الاشتمالِ، لأنَّ الشَجرةَ قد نَبَتَتْ عَلى الشَاطئ.

والرَّهْبُ: الخوف، وَالجَنَاحُ المُرادُ به اليد، لأنَّ يَدَ الإِنسانِ بمنزلةِ جناحَي الطَّائرِ، وإذا أَدْخَلَ الإِنسانُ يَدَهُ اليُمنىٰ تَحتَ عضدِهِ اليُسرىٰ فَقَد ضَمَّ جناحَه إليهِ، من الرَّهْبِ أي: من أَجْلِ الرَّهْبِ، يَعني: إذا أَصابَكَ الرَّهْبُ عندَ رُؤيةِ الحَيَّةِ فاضْمُمْ إليكَ جناحَكَ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ قُرئَ مُخفَّفاً ومشَدَّداً[٢]، فَالمُخفَّفُ تَثنيةُ «ذاكَ» والمشدَّدُ تثنية «ذلكَ»، ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حُجَّتَان[٣]، وسُمِّيتُ الحجَّةُ بُرهاناً لبَيَاضِهَا ووضُوحِهَا، وقَالُوا: امرأةٌ بَرَهْرَهَةٌ أي: بيضاء، وأبْرَهَ الرَّجلُ: جَاءَ بالبُرهانِ، وكذلكَ «السُّلْطَانُ» مشتَقٌّ من السَّليطِ وهو الزَيتُ لإنارتِهِ.

---

(١) قرأ عاصم بفتح الجيم، وحمزة وخلف بضمّها، والباقون بكسرها. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٤.

(٢) وبالتشديد قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع المصدر السابق: ص ١٤٧.

(٣) في نسخة زيادة: «يثبتان».

والرِّدْءُ: اسمُ مَا يُعانُ به، فِعْلٌ بمعنَىٰ مفعول به، كالدِّفءُ لِمَا يُدْفَأُ بِهِ، قال:

وَرِدْئِــي كُــلُّ أَبْـيضَ مَشـرفيّ شَحيذِ الحَدِّ عَذبٍ ذِي فُـلُولِ(١)

وقُرِئَ: «رِداً» علَى التَخْفيفِ(٢)، وقُرِئَ: ﴿يُصَدِّقُنِى﴾ بالرَفعِ والجَزمِ(٣) صِفَةً وجَواباً كقولِهِ: ﴿وَلِيّاً يَرِثُنِى﴾(٤) سواء، والمُرادُ بالتَّصديقِ أَن يخلِّصَ بلسَانِهِ الحقَّ ويُجَادلَ بِهِ الكُفَّارَ كَمَا يَفْعَلُه الْمِصْقعُ البَليغُ، فإنَّه يَجري مَجْرَى التَصديقِ، كما أنَّ البُرهانَ يُصدِّقُ القولَ، أو يبيِّنَ كَلامَهُ حتّىٰ يصدِّقَهُ الذي يَخافُ تَكـذيبَهُ. وأسـندَ التصديقَ إليهِ لأَنَّه السَبَبُ فيه علىٰ سَبيلِ الاستعارةِ، ويَدلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

ومعنىٰ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوِّيكَ بِهِ ونـؤيِّدُكَ بأَن نَـقْرِنَهُ إليكَ فـي النبوَّةِ، لأنَّ العَضُدَ قَوامُ اليَدِ، قَالَ طَرفةُ:

أَبَــنِي لُــبَيْنَىٰ لَسْتُمُ بِـيَدٍ إلَّا يداً لَيْسَتْ لَهَا عَـضُدُ(٥)

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً﴾ أي: غَلَبةً وتَسَلُّطاً، أو حُـجَّةً وبُـرهَاناً ﴿بِآيَـٰتِنَا﴾ يَتَعلَّقُ بـ﴿نَجْعَلُ لَكُما سُلْطَـٰناً﴾ أي: نُسـلِّطُكُما، أو تَـعَلَّقَ بـ﴿لا يَـصِلُونَ﴾ أي: تُمتَنعانِ منهم بآياتِنا، أو: هو بيانٌ لـ﴿الْغَـٰلِبُونَ﴾ لا صِـلَةٌ، لأنَّ الصِـلَةَ لا تَـتَقدَّمُ على الموصُولِ، أو علىٰ تَقديرِ: إِذْهَبَا بآياتِنَا.

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، يقول: وردئى الذي أتوقّىٰ به المكاره كلّ سيف قاطع أبيض. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٢) قرأه نافع. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٩٤.

(٣) قرأ حمزة وعاصم بالرفع والباقون بالجزم راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٧.

(٤) مريم: ٥ و٦.

(٥) البيت منسوب لطرفة بن العبد، وقيل: لأوس بن حجر، يهجو بني لبينىٰ من بني أسـد بـن وائلة، يقول في مقام ذمّهم: لستم مثل يدٍ من الأيدي في القوة إلّا مثل يد لاعضد لها، فهي صعبة ومشلولة. راجع ديوان طرفة: ص ١٤٧، وديوان أوس: ص ٢١.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾

أي: ﴿سِحْرٌ﴾ ظَاهِرٌ افتراؤُهُ، وليسَ بمُعْجِزٍ من اللهِ ﴿فِي ءَابائِنَا﴾ حَالٌ عَن هذا، أي: كَائناً في زَمانِ آبائِنا، أي: لَم يُسْمَعْ بكَونِ مَا يدَّعيهم [1].

﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ مِنكُم بحَالِ من يُؤَهِّلُهُ النُبوَّةَ ويَبعثُهُ بالهُدىٰ، يعني نفسه، ولَوْ كانَ كَمَا تَزعمُونَ كَاذباً مُفترِياً لَمَا أَهَّلَهُ لذلكَ، لأنَّه غنيٌّ حَكيمٌ، لا يُرسِلُ الكَاذبينَ والسَّاحرينَ، و﴿لا يُفْلِحُ﴾ عندَهُ ﴿الظَّـٰلِمُونَ﴾، وَ﴿عَـٰقِبَةُ الدَّارِ﴾ هي العَاقِبةُ المحمُودةُ، يَدلُّ عليه قولُهُ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ [2] والدَارُ هي الدُنيا، وعُقْباهَا وعَاقبتُها أن يُختَمَ للعبدِ بالرِّضوانِ والرَّحمةِ. وقُرِئَ: «قَالَ مُوسَىٰ» بغَيرِ واوٍ [3]، و﴿تَكُونُ﴾ بالتَاءِ واليَاءِ [4].

---

(١) في بعض النسخ: «لم نسمع بكون ما تدَّعيه فيهم».

(٢) الرعد: ٢٢ و٢٣.

(٣) قرأه ابن كثير. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧١.

(٤) وبالياء هي قراءة أهل الكوفة إلّا عاصماً. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٥١.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ (١) واتَّخِذ الآجُرَ فاجعلْ لِي قَصراً وبِناءً مُرتفعاً عَالياً ﴿لَعَلِّيٓ﴾ أَقِفُ علىٰ حَالِ ﴿إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأَشْرفُ عليهِ، وهذا تَلبِيسٌ من فِرعَونَ وإيْهامٌ علَى العَوام، إنَّ الذي يَدعُو إليهِ موسىٰ يَجري مَجْراهُ في الحَاجَةِ إلَى المكانِ، وقَصَدَ بِنَفْي عِلْمِه بإلهٍ غيره نَفْيَ وجودِهِ، يعني: مالَكُم من إلهٍ غيري، أو: يُريدُ أنَّ إلهاً غيرَهُ غَيرُ معلومٍ عندَهُ لكنَّه مظْنُونٌ، والطُّلُوعُ وَالاطِّلاعُ: الصُّعُودُ. وكُلُّ مُسْتَكْبِرٍ متكبِّرٌ سوَى الله عزَّوجلَّ، فاستكبارُهُ ﴿بِغَيْرِ ٱلحَقِّ﴾، وهو جَلَّ جَلالُهُ المُتَكبِّرُ علَى الحقيقةِ، أي: المُبالغُ في كبرياءِ الشَّأْنِ.

قَالَ عليه السلام فيمَا حَكَاهُ عن ربِّه عزَّ ٱسمه: «الكبرياءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَنْ نازَعَني واحِداً منهمَا أَلْقَيتُهُ في النَّار» (٢).

وقرئ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالضَمِّ والفتح (٣). ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكَلَامِ الدَّالّ علىٰ عظَمِ شأْنِهِ وجَلَالِ كبريائِهِ، شبَّهَهُم ٱستحقَاراً لَهُم ـ وإنْ كانُوا الجَمَّ الغَفيرَ ـ بكفٍّ من تُرابٍ أَخَذَها الإنسانُ بكفِّهِ وَطَرَحَهُ في البَحرِ!

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: دَعَوْنَاهُم (٤) دعاةً إلَى النارِ، وقُلْنا: إنَّهم أئمَّةٌ دُعَاةٌ إلىٰ النَّارِ، مِن قَولِكَ: جَعَلَهُ بَخيلاً، أَي: دَعَاهُ وقَالَ: إنَّه بخيلٌ. وَمَعْنَاهُ: إنَّهم دُعاةٌ إلىٰ مُوجباتِ النَارِ من الكُفْرِ والمَعَاصِي، ويجوزُ أن يكُونَ المعنىٰ: خَذَلْنَاهُم حتّىٰ كَانُوا أئمّةَ الكُفْرِ ومَنَعْنَاهُم أَلْطَافَنا، وإنَّما يَمْنَعُ الألطافَ مَن عَلِمَ أَنَّها لا تَنفَعُ فيهِ، وهُو المصمِّمُ علَى الكُفْرِ الذي لا تُغْني عَنه الآيَاتُ وَالنُّذُرُ، فكأنَّه قَالَ: صَمَّمُوا علَى الكُفر حتّىٰ كَانُوا أَئمّةً فيهِ دُعاةً إليه. وَلَولاَ ذَلكَ لَمَا خَذَلْنَاهُم و﴿هُمْ﴾ يَومَ القيامَةِ

---

(١) في بعض النسخ زيادة: «أي فأجّج النار على الطين».

(٢) رواه أحمد في المسند: ج ٢ ص ٤١٤.

(٣) وبالفتح قرأه نافع وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٤.

(٤) في نسخة زيادة: «أنّهم».

مَخذُولُونَ لا يُنْصَرُونَ ﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المَطْرودينَ المُبعَدِينَ.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٤٤) وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَآ يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٠) ﴾

إنْتَصبَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ علَى الحَالِ، والبَصيرةُ نُورُ القَلبِ الذي يُستبصَرُ بِهِ، كَمَا أنَّ البَصَرَ نُورُ العينِ الذي تُبْصِرُ بِهِ، يَعني: آتَيْنَاهُ الكِتابَ أَنواراً للـقُلُوبِ ﴿وَهُدًى﴾ وإرشَاداً ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَن آمَنَ بِهِ.

و﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾: المَكَانُ الواقِعُ في شَقِّ الغَربِ، وهو المَكَانُ الذي وَقَعَ فيه ميقاتُ موسىٰ عليه السلام من الطّورِ، والخِطَابُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، أي: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حَاضِراً المَكَانَ الذي أَوْحَيْنا فيهِ إلىٰ موسىٰ وَلاَ ﴿كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ للوَحْي إليهِ أو عَلَى الوَحْيِ إليه، حتّىٰ تَقِفَ بالمُشَاهَدَةِ علىٰ ما جَرىٰ من أَمْرِهِ. ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾

بُعدُ عَهْدِ الوَحْيِ إليهِ إلىٰ عَهْدِكَ ﴿قُرُوناً﴾ كَثيرَةً ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ علىٰ آخِرِهُم، وهُـو القَرنُ الذي أَنتَ فيهِمْ ﴿العُـمُرُ﴾ أي: أَمَـدُ انـقطاعِ الوَحْـي واَنْـدَرَسَتِ العـلُومُ فَأَرسَلْنَاكَ وأَوْحَينا إليكَ قَصَصَ الأنبياءِ وقِصَّةَ مُوسىٰ ﴿وَمَـا كُـنْتَ ثَـاوِياً﴾ أي: مُقيماً ﴿فِيَ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهُمْ شُعَيب والمؤمنونَ بِهِ ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـتِنَا﴾ تَعَلُّماً منهُم، يُريدُ الآياتِ التي فِيهَا قصَّةُ شُعَيب وقَومِهِ ﴿وَلَـكِـنَّا﴾ أَرسَلْنَاكَ وعَلَّمْنَاكَهَا وأَخْبَرنَاكَ بِهَا. ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ مُوسَىٰ، يُريدُ لَيلةَ المُنَاجَاةِ ﴿ولَـكِن﴾ عَلَّمنَاكَ ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ هُم العَرَبُ ﴿مَا أَتَـهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ في زَمانِ الفَترةِ بينَكَ وبينَ عيسىٰ، وهو خَمسمائة وخَمسُونَ سنة، ونَحوُهُ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤهُمْ﴾ [1].

﴿لَوْلآ﴾ الأُولىٰ امتناعية وَجَوابُها مَحذُوفٌ، والثَّـانيةُ تَـحضِيضيَّةٌ، وإحـدَى الفاءَينِ للعَطْفِ، والأُخرىٰ جواب ﴿لَولآ﴾ لِكَونِها في حُكْمِ الأَمرِ من حَـيثُ أَنَّ الأَمرَ يَبعَثُ علَى الفعلِ، والباعِثُ والمُحرِضُ من بَابٍ واحدٍ. والمعنىٰ: لَولَا أَنَّـهم قائِلُونَ إذا عُوقِبُوا بكُفْرِهِم: هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ يَحتَجُّونَ عَلَينَا بذلكَ لِمَا أَرسَلْنا إليهِم، يُريدُ: أَنَّ إِرْسالَ الرسُولِ إِنَّما هو لإِلْزامِ الحُجَّة إيَّاهُم، و﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰاللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [2]، ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [3] ﴿لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءايَـتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [4].

ولَمَّا كانَتْ أَكثَرُ الأَعْمالِ بِالأَيْدِي اتَّسَعَ فيهِ حتّىٰ عَبَّرَ عن كلّ عَمَلٍ بِـتَقْديمِ الأَيدي، وإنْ كَانَ مِنْ أَعْمالِ القُلُوبِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلحَقُّ﴾ وهُو الرَسُولُ المصدَّقُ بالمُعْجَزاتِ ﴿قَالُواْ لَوْلآ أُوتِـيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسىٰ﴾ من فَلْقِ البَحْرِ وقَلْبِ العَصَا حيَّةً، أو: الكِتَابُ المُنزَلُ جُملةً

---

(١) يس: ٦.
(٢) النساء: ١٦٥.
(٣) المائدة: ١٩.
(٤) طه: ١٣٤.

واحِدَةً، إلىٰ غَيرِ ذلكَ من اقتراحَاتِهِم المبيِّنة علَى التعنُّتِ والعَنَادِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ يَعني: أبناء جِنْسهم ومِن مَذهبِهِم وعنادِهِم، وهُم الكفّارُ في زَمنِ موسىٰ ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ قَالُوا في موسىٰ وهَارُون «سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا» أي: تَعَاوَنَا، وقُرئ: ﴿سِحْرَانِ﴾[1] أي: ذَوَا سِحرٍ، جَعَلُوهُما سِحْرَين مُبالَغَةً في وَصْفِهِما بالسِحْرِ، أو أرادُوا: نوعَانِ من السِحرِ و﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ واحِدٍ منهُمَا ﴿كَافِرُونَ﴾.

و﴿مِن قَبْلُ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾، وإنْ تَعَلَّقَ بـ﴿أُوتِىَ﴾ انقلَبَ المعنىٰ إلى: أَنَّ أهلَ مكّة الذين قَالُوا هذه المَقَالَةَ كَمَا كَفَرُوا بمحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبالقُرآنِ فَقَد كفَروا بموسىٰ والتَوراةِ، فَقَالُوا في مُوسىٰ ومحمَّد: سَاحِران ﴿تَظَـٰهَرَا﴾، أو: في الكتَابَينِ ﴿سِحْرَانِ﴾ وذلكَ حينَ بَعَثُوا الرَّهْطَ إلىٰ رُؤَساءِ اليَهود بالمدينةِ يَسألونَهُم عن محمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأَخبرُوهُم أنَّ نَعْتَهُ وَصِفتَهُ في كتَابِهِم، فَقَالُوا: ذلكَ ﴿هُوَ أَهْدَىٰ﴾ ممَّا أُنْزِلَ علىٰ موسىٰ وممّا أنزلَ عَلَيَّ.

أي: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ دُعاءك إلى الإتيانِ بالكتَابِ الأَهْدَىٰ فاعلَمْ أَنَّهُم قَد أُلْزِمُوا، ولَمْ يَبْقَ لَهُم حُجَّةٌ إلّا اتّباعِ الهَوَىٰ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ﴾ لا يتَّبعُ في دينِهِ إلَّا ﴿هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لَا يَلطفُ بالقَومِ الثَابتينَ علَى الظُلْمِ، وَقَولُهُ: ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ في مَوضعِ الحَالِ، أي: مَخْذُولاً.

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤)

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف يعتمد علىٰ قراءة فتح السين وألف بعدها هنا تبعاً للزمخشري في الكشّاف.

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨)﴾

أي: آتيناهُم القُرآنَ متتَابِعاً مُتَواصِلاً، وَعْداً وَوَعِيداً، وعِبَراً ومَواعِظَ، إرادةَ أَنْ يَتَذكَّروا فَيُفلِحُوا، فنزَّلْناه[1] عَلَيهم نُزُولاً متَّصلاً بَعضُهُ في إثْرِ بَعضٍ.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الكِتَـٰبَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: مِنْ قَبلِ محمدٍ ﷺ أو القُرآنِ، وَهُمْ مؤمِنُو أهلِ الكتَابِ، وَقيلَ: هُم أربعُونَ من أَهلِ الإنْجيل، جاءوا مَعَ جعفر بن أبي طالب من أَرضِ الحَبَشةِ، وثَمانيةٌ من الشَامِ، منهم بُحَيرَا[2].

﴿إِنَّه ٱلحَقُّ﴾ تعليلٌ للإيمانِ بِهِ، لأنَّ كونَهُ حَقّاً من اللهِ يُوجبُ أن يُؤْمَن بِهِ، و﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ بَيَانٌ لقَولِهِم: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ أَخْبَروا أَنَّ إيمانَهُم بِهِ مُتَقَادِمٌ، و«الإسلامُ» صِفَةُ كلِّ مُوحِّدٍ مُصدِّقٍ بالوَحْي. ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصَبْرِهِم علَى الإيمانِ بالتَوراةِ والإيمانِ بالقُرآنِ، أَو: بِصَبرِهِم علَى الإيمانِ بالقُرآنِ قَبلَ نُزُولِهِ أو بَعدَ نُزُولِهِ، أَو: بصَبْرِهِم علىٰ أذَى المُشركينَ وأهل الكتاب، ونحوه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[3]، ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ بالإيمانِ والطَاعَةِ المَعَاصيَ المتقدِّمَةَ أو بالحلمِ الأَذىٰ.

---

(١) في نسخة: «أو أنزلنا».

(٢) قاله سعيد بن جبير وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٥٧.

(٣) الحديد: ٢٨.

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مُتارَكَةٌ وتَوديعٌ. وعَنِ الحَسَنِ: كلمةُ حلْمٍ من المُـؤمنينَ[١] ﴿لا نَبْتَغِي الجَـٰهِلِينَ﴾ لا نُريدُ مُخَالَطَتَهُم، ولا نَطلبُ مُجالَسَتَهُم ومُصاحَبتَهُم.

﴿لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تَقدِرُ أَن تُدخِلَ في الإيمانِ كُلَّ مَن أَحْبَبْتَ أن تُدخِلَ فيهِ من قَومِكَ وغَيرِهِم ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُدخِلُ فيهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو مَن عَـلِمَ أَنَّ الألطافَ تَنفعُ فيهِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بالَّذينَ يهتَدُونَ باللُّطف، وكَانَ النبيُّ صلى الله عليه وآله حَريصاً علىٰ إيْمانِ قَومِهِ وإقْرارِهِم بنبوَّتِهِ، فأَخْبَرَهُ سبحانَه بأَنَّ ذلكَ ليسَ في مَقْدورِهِ.

وَقَالُوا: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أَبي طالب[٢]، وقَد ورد عن أئمَّةِ الهُدىٰ عليهم السلام: أنَّ أَبا طالب مَاتَ مُسْلِماً، واْجتمَعَتِ الإمامية علىٰ ذلك، وأَشْعارُهُ مشْحُونةٌ بـالإسلامِ وتَصديقِ النبيِّ صلى الله عليه وآله[٣].

﴿وقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ أي: نُستَلَب ﴿مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قيلَ: إنَّ القائِلَ الحارثُ بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، قال: إنَّما نَحنُ أَكَلَةُ رأْسٍ، أي: قَليلُونَ، ونَخافُ إن اتَّبعناكَ وخَالَفنا العربَ أَن يَتَخَطَّفُونا من أَرضِنَا، فَرَدَّ اللهُ عَلَيهِم بقَولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً﴾ والعَربُ حَولَهُ يَتَغاورُونَ، وهُمْ آمنُونَ فـي حَرَمِهِم لا يَخافُونَ ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ إليهِم الثَّمَراتُ من كُلِّ أرضٍ، فـإذَا خَـوَّلَهُم اللهُ مـا خَوَّلَهُم من الأَمْنِ والرزقِ وهُم كَفَرةٌ عَبَدةُ أصنامٍ فَكَيفَ يعرِّضُهُم للتَخَطُّفِ ويَسلبُهُم الأَمْنَ إذا آمنُوا بِهِ وَوَحَّدُوهُ وصَدَّقُوا رَسُولَه؟[٤].

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٤٢٢.

(٢) كقول ابن عباس كما رووه عنه ومجاهد والحسن وقتادة. أُنظر التبيان: ج ٨ ص ١٦٤.

(٣) نحو قوله:

لقـد أكـرم الله النـبي مـحمداً ... فأكرمُ خلق الله في الناس أحمدُ
وشـقّ له مـن إسـمه ليُـجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وغيرها الكثير. راجع ديوان أبي طالب ضمن سلسلة «شعراؤنا» ط دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) قاله ابن عباس. انظر تفسيره: ص ٣٢٨.

وإسنادُ الأَمْنِ إلىٰ أهلِ الحَرَمِ حَقيقةٌ وإِلَى الحَرَمِ مَجَازٌ، و﴿يُجْبَىٰ﴾ من: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ أي: جَمَعْتُه، ومعنَى الكُليَّةِ الكثرةُ كَمَا في قولِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [١]. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَعلَّقَ بقولِهِ: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أي: قَليلٌ منهُم يُقرُّونَ بأنَّ ذلكَ رِزْقٌ من عندِ اللهِ وأَكثرهُم لا يعلمونَ ذلكَ، ولَوْ علمُوا ذلكَ لَمَا خَافُوا التَخطُّفَ إذا آمنُوا بِهِ، و﴿رِزْقاً﴾ مفعُولٌ له أو مَصدَرٌ، لأنَّ معنىٰ ﴿يُجبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و«يُرزَقُ ثمراتُ كلِّ شيء» واحِدٌ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ تخويفٌ لأهلِ مَكَّةَ من سُوءِ عَاقبةِ قَومٍ كانَتْ حَالُهم مثلَ حَالِهِم في كُفْرانِهِم نِعَمَ اللهِ تعالىٰ وَمقَابلتها بالأشَر حتّىٰ دَمَّرَهُم اللهُ وأَبَادَهُم.

وانتصبَ قَولُهُ: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بحَذْفِ الجَارِّ وإِيْصالِ الفِعْلِ كَمَا في قولِهِ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [٢]، أو بالظَّرفِ بتَقْديرِ حَذْفِ الزَّمانِ المُضَافِ أي: بَطِرَتْ أيَّامُ مَعيشَتِها، كخُفُوقِ النَّجْمِ، أو: بتضمين «بَطِرَت» معنى «غَمطَت» و«كَفَرت»، والبَطَرُ: سُوءُ احتمالِ الغنىٰ، وهو أَن لا يحفظَ حقَّ اللهِ فيهِ ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ من السُكْنىٰ لَمْ يَسكُنْها إلَّا المُسافرُ ومَارُّ الطَرِيقِ يَومَاً أو سَاعةً ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ لِتِلْكَ المَسَاكنِ مِن سَاكنيها تَركْنَاهَا علىٰ حَالٍ لا يَسكنُها أَحَدٌ، أو: كُنَّا خَرَّبنَاهَا فَسَوَّينَاهَا بالأَرضِ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

(١) النمل: ٢٣. (٢) الأعراف: ١٥٥.

فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦)﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ﴾ من أَمْرِ ﴿رَبُّكَ﴾ أَنْ يُهْلِكَ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ في الأَرضِ ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾ في أُمِّ القرىٰ أي: مَكَّة ﴿رَسُولاً﴾ وهُو محمدٌ صَلَواتُ اللهِ عليه وآله خاتَمُ الأنبياءِ، أو: ما كَانَ مُهلِكَ القُرىٰ في كلّ وَقْتٍ حتّىٰ يَبعثَ في القَريةِ التي هي أُمُّها أي: أَصلُها رسُولاً لإلْزامِ الحجَّةِ عَليهِم. وهذا إِخبارٌ عن تَنزيهِهِ عن الظُّلْمِ حَيثُ لا يُهلِكُهُم مَعَ كونِهِم ظَالمينَ إلّا بَعدَ تَأكيدِ الحجَّةِ عَليهِم ببعْثَةِ الرُسُلِ، مَعَ علْمِهِ بأنَّهم لا يؤمنُونَ، ولَمْ يَجْعَلْ عِلْمَهُ بهِم حُجَّةً عليهِم.

﴿وَمَا﴾ أُعْطِيتُمْ من أَسْبابِ الدُّنيا فَتَمتُّعٌ وزينةٌ أيَّاماً قَلائلَ، وهي مدّةُ الحياةِ المُنقَضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللهِ﴾ وهُو الثوابُ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لأنَّ بقاءَهُ سَرمَداً ﴿فَلَا تَعقِلُونَ﴾ وقُرئَ بالتَّاءِ والياءِ[١]. ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَٰهُ﴾ هذا تَقريرٌ للأُمَّةِ[٢] التي قَبلَها، أي: أَفَبَعْدَ هذا التفاوتِ الظَاهرِ سوَّىٰ بين أبناءِ الدُّنيا وأَبناءِ الآخرةِ، وَالْوَعْدُ الْحَسَنُ: الثوابُ لأنَّه مَنافِعُ دائِمةٌ مقَارنةٌ للتَعظيمِ والإِجْلالِ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ كقَولِهِ: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾[٣]، ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: من الذينَ أُحْضِرُوا النَّارَ، ونَحوُهُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٤]، وقُرئَ: «ثُمَّ هْوَ» بسكُونِ الهاءِ[٥]،

---

(١) وبالياء قرأة أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٩٥.

(٢) في نسخة: «للآية». (٣) الإنسان: ١١.

(٤) الصافات: ١٢٧.

(٥) قرأه نافع وابن عامر في رواية قالون عنه والكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات: ص ١٤٦.

كما قيلَ: عَضْدٌ في عَضُدٍ تَشبيهاً للمنفصلِ بالمتَّصِلِ، وسُكونُ الهَاءِ في «وهوَ» «فهْو» «لهْو» أَحْسَنُ، لأنَّ الحَرفَ الواحِدَ لا يَنطقُ به وَحْدَهُ، فهو كالمتَّصل.

﴿شُركَآءِىَ﴾ مَبنيٌّ علىٰ زعْمِهِم، وهُو تهَكُّمٌ. ومفعُولا «زعمَ» مَحذُوفَانِ هنا، والتَقْديرُ: الَّذي كُنتُم تَزعَمونَهُم شُركَائي، وهذا جائزٌ وإنْ لَمْ يَجزِ الاقتصارُ علىٰ أحَدِ المفعُولَيْنِ.

و﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الشَّياطينُ أو رؤَسَاءُ الضَلاَلَةِ، ومعنىٰ ﴿حَقَّ عَلَيهِم ٱلْقَوْلُ﴾: وَجَبَ عَلَيهِم مُقْتَضىٰ القَولِ وهُو قَولُهُ: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١). ﴿هَـٰؤُلآءِ﴾ مُبتدأ و﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنآ﴾ صِفَتُهُ، وحَذِفَ العَائِدُ إلَى الموصُولِ، و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ خبرُ المبتدأ، والكَافُ صِفَةُ مَصْدرٍ محذُوفٍ، وتَقديرُهُ: أَغْويناهُم فَغَوا غَيّاً مثل ما غَوينا، يَعنُونَ أنَّهُم غوَوا باختيارِهِم كَمَا غُوِينَا نحنُ باختيارِنَا، لأنَّ إغْواءَنَا لَهُم كانَ وَسْوسةً وتَسويلاً لا قَسْراً وَلَجاً ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنْهُم ومِمَّا ٱختارُوهُ من الكُفْر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدونَ﴾ إنَّما يَعبدُونَ أَهْواءَهُم ويُطيعُونَ شَهَواتَهُم، وإخلاءُ الجُمْلَتين من حَرْفِ العَطْفِ إنَّما هُو لِتَقْريرِهما معنَى الجُملةِ الأُولىٰ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ بِوَجْهٍ من وجُوهِ الحيلِ يَدفعُونَ به العَذَابَ ثمَّ يبكِّتُونَ بالاحتجاجِ عَلَيهِم بإرسَالِ الرُسُلِ، ويَسألُونَ سُؤالَ تَقْريرِ الذَّنْبِ.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَآءُ﴾ فَصارَتِ الأنباءُ مُشتَبهة طُرقَ جَوابِهَا عَلَيهِم ﴿فَهُمْ﴾ كالعمْي تَنْسَدُّ عَلَيهم طُرقُ الأَرضِ ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يَتَساءَلُ بَعضُهُم بَعضاً كَمَا يَتَساءلُ الناسُ في المُشْكلاتِ، لأنَّهم يَتَسَاوونَ جَميعاً في عمَى الأنباءِ عَلَيهِم وعَجْزهم عن الجَوابِ، والمُرادُ بالنَبأ: الخَبَرُ عمَّا أَجَابَ به المُرسَلُ إليه رَسُولَه.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ

---

(١) هود: ١١٩.

(٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من المُشركينَ، وجَمَعَ بين الإِيمانِ والعَمَلِ الصَالحِ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ أَن يَفلحَ عندَ اللهِ، و«عسىٰ» من الكِرامِ تَحْقِيقٌ.

و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ من التَخيّر، كالطِّيَرةِ من التَطَيُّرِ، يُستَعملُ بمعنَى المَصدرِ وبمعنَى المُتخَيَّر، يقالُ: مُحمدٌ ﷺ خيَرةُ الله من خلْقِهِ، وقولُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقولِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، فإِنَّ معناهُ: ويختَارُ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ولهذا لَمْ يَدخُلِ العَاطِفُ، والمعنَىٰ: إِنَّ الخِيرَةَ للهِ في أَفْعالِهِ، وهُو أَعلَمُ بوجُوهِ الحِكْمةِ فيهَا، وليسَ لأَحدٍ من خَلْقِهِ الاختيارُ، إِذْ لا طريقَ لَهُ إِلَى العِلْمِ بجَميعِ أَحْوالِ المُختارِ. وقيل: معناهُ: ويختارُ الذي لَهُم فيه الخِيَرة[1]، فحُذِفَ فيهِ كَمَا حُذِفَ منهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2] أَن يَخْتارَ للعبادِ ما هُو خَيرٌ لَهُم وأَصلَحَ وهُو أَعلَمُ بمَصالِحِهم

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٩٥.

(٢) الشورىٰ: ٤٣.

من أَنفُسِهِم، والْحَمْدُ في ﴿الآخِرَةِ﴾ قَولُهُم: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْـدَهُ﴾ [١] والتَّحْميدُ هناكَ علىٰ وَجْهِ اللَّذّةِ كالكلْفة [٢].

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مَعْناهُ: أَخبِرُوني مَن يَقْدرُ علىٰ هذا؟ والسَّرْمدُ: الدائِمُ المتَّصِلُ، من السَّردِ، وَالمِيمُ مَزيدَةٌ، والمُرادُ بِالضِّياء: ضَوءُ الشَمسِ، وقَرَنَ بِهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّ السَمْعَ يَدرُكُ ما لا يَدْرِكُهُ البَصَرُ من ذِكْرِ مَنَافِعِهِ وَوَصْفِ فَوائِدِهِ. وقَرنَ باللَّيل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لِأنَّ غَيرَكَ يُبصِرُ ما تُبصِرُهُ من مَنْفَعةِ الظَلام. ﴿وَمِـنْ رَّحْـمَتِهِ﴾ زَاوَجَ بين اللَيلِ والنَّهارِ ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ في أحَدِهِما ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن﴾ فَضْلِ اللهِ فـي الآخر، ولإِرَادَةِ شُكْرِكُم، وقد سُلِكَتْ فيهِ طَرِيقةُ اللَّفّ.

وكرَّرَ سبحانَهُ التَّوبيخَ باتّخاذِ الشُركَاءِ إيذاناً بأنَّ الشِّرْكَ أَجْلَبُ الأَشياء لغَضَبِ اللهِ، كَمَا أنَّ التَوحيدَ أَجْمَعُ لمَرضَاتِهِ.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي: وأَخْرَجْنَا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ وهُو نَبِيُّهُم، يَشْهَدُ علىٰ تلكَ الأُمةِ بِمَا كَانَ مِنْها، وقيلَ: هُم عُدُول الآخرةِ الذينَ لا يـخلو زمـانٌ مـن وَاحِـدٍ منهم [٣] فقُلْنا للأُمَّةِ: ﴿هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ فيما ذَهَبتُم إليهِ وكُنْتُم عَلَيهِ، فعَلمُوا حينئذٍ أَنَّ الحَقَّ للهِ ولرسُولِهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الأَبَاطِيل.

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَـهُۥ قَـوْمُهُۥ لَا تَـفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِـرَةَ وَلَا تَـنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَـيْكَ وَلَا تَـبْغِ ٱلْـفَسَادَ فِـى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ

---

(١) الزمر: ٧٤. (٢) في بعض النسخ: «لا الكلفة».

(٣) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٧٤.

جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً وَلَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٢)﴾

﴿قَـٰرُون﴾ اسمٌ أَعْجَميٌّ كَانَ من بني إسرائيلَ، وهو ابنُ خَالة مُوسىٰ، وكَانَ أَقْرأُ بني إسرائيلَ للتَّوراةِ، ولمَّا جَاوَزَ بِهِم مُوسىٰ البَحرَ وصَارَتِ الرِّئاسةُ لِهارُونَ فَقرَّبَ القُربانَ وَجدَ قَارونُ في نَفسِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البَغْي الذي هو الكِبْرُ والبَذَخُ، والمَفَاتِحُ: جَمعُ المِفْتَح، وهُو ما يُفتحُ بِهِ، وقيلَ: هي الخَزائِنُ[١]، واحِدُها مِفْتَحٌ، وَنَاءَ بِهِ الْحِمْلُ: إذا أَثْقلَهُ حتّىٰ أَمَالَهُ، والْعُصْبَةُ: الجَماعةُ الكَثيرةُ، و﴿إِذْ﴾ نُصِبَ بـ«تَنُوء»، ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تَأْشَرْ ولا تَتَكبَّرْ بسَببِ كُنُوزِكَ.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ ٱللهُ﴾ من الغنىٰ ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بأَن تَفْعلَ فيهِ أَفْعالَ الخيرِ تَزَوَّد بها إلَى الآخرةِ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ وهو أَن تأْخذَ منها ما يَكْفيكَ ﴿وَأَحْسِن﴾ إلىٰ عبادِ اللهِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللهُ إِلَيْكَ﴾ وقيلَ: إنَّ المخاطَبَ بذلكَ موسىٰ عليه السلام[٢].

﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ علَى اْستحقاقٍ واْستيجابٍ لِمَا في منِّ العِلْم الَّذي فَضُلْتَ بِهِ النَّاسَ، وذلكَ أنَّهُ كانَ أَعْلَمُ بني إسرائيلَ بالتَّوراةِ، وقيلَ: هو عِلْمُ الكيمياء[٣]،

(١) قاله السدي وأبو رزين. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٦٦.
(٢) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٧٧.
(٣) قاله سعيد بن المسيّب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٥٥.

وقيلَ: عَلَّمَ اللهُ تعالىٰ موسىٰ عليه السلام عِلْمَ الكيمياء فعلَّمَهُ موسىٰ أُختَهُ فَعَلَّمَتْه أُختُهُ قارونَ(١)، وقالَ: ﴿عِندِيٓ﴾ مَعناهُ: في ظَنِّي كَمَا يقُولُ: الأَمرُ عِندِي كَذَا، أي: هُو في ظَنِّي ورَأْيِي هكَذَا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ في جُملَةِ ما عندَهُ من العِلْمِ وقَرَأَهُ في التَوراةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ مَنْ هُو أَقوىٰ منهُ فَلَا يَغْتَرَّ بكثرةِ مالِهِ وقُوَّتِهِ، ويَجُوزُ أن يكونَ نَفْياً لِعِلْمِهِ بذلكَ ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ للمَالِ، أَو: أكثرُ جَمَاعةً وعَدَداً ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بَلْ يَدخُلُونَ النَّارَ بغيرِ حِسَابٍ. ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ التي كَانَ يَتَزَيَّنَ بهَا، وهوَ حَشَمُهُ وخَيْلُهُ، والحَظُّ والجَدُّ: البَخْتُ والدَّولةُ.

وَيْلَكَ: أَصْلُهُ الدُّعاءُ بالهَلاكِ، ثم اُستُعمِلَ في الزَّجْرِ والرَّدْعِ والبَعْثِ علىٰ تَركِ مَا لَا يُرتَضىٰ، والضَّميرُ في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكَلِمةِ التي تَكَلَّمَ بها العُلماءُ، أو للثَّوابِ لأَنَّهُ في معنَى المثُوبةِ. ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المُنْتَقمينَ من موسىٰ، أو مِن المُمتَنعينَ من عَذَابِ اللهِ، يُقالُ: نَصرَهُ من عدوِّهِ فانتَصَرَ، أي: مَنَعَه منْهُ فامتَنَعَ.

أَرادَ ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ الوَقْتَ القَريبَ علىٰ طَريقِ الاستعارةِ، والمَكَانُ: المَنْزِلةُ ﴿وَيْ﴾ مَفصُولَة مِن ﴿كَأَنَّ﴾ وهي كلِمَةُ تنبُّهٍ علَى الخَطَأ وتَنَدُّمٍ، والمعنىٰ: أَنّ القَومَ تنبَّهُوا علىٰ خَطَئِهِم في تمنِّيهِم منزلةَ قَارونَ وتَندَّمُوا، ثمَّ قَالُوا: كأَنَّ اللهَ، أي: ما أَشْبَهَ الحَال بأَنَّ اللهَ يَبسطُ الرزقَ لِمَن يشاءُ لَا لِكَرامَةٍ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُضَيِّقُ علىٰ مَن يَشاء لا لِهَوانٍ، لكِنْ بحَسبِ المَصْلَحةِ، ما أَشْبَه الحَال بأنَّ الكافرينَ لا يَنَالُونَ الفَلاح. وعندَ الكُوفيِّين أنَّ «وَيْكَ» بمعنىٰ «ويلَكَ»، وأنّ المعنىٰ: أَلَمْ تَعْلَم أَنَّهُ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويجوزُ أن يكُونَ الكَافُ كَافَ الخِطَابِ قَد ضُمَّتْ إلىٰ «وَيْ»، كَقَولِهِ:

وَيْكَ عَنْتَر أَقْدِمِ(٢)

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣١.

(٢) وتمام البيت:

و«أنّه» بمعنىٰ «لأنّه»، واللّامُ للبَيَانِ الّذي قِيلَ لأجْلِهِ هذا القَولُ، أو: لأنّه يَفْلحُ الكَافِرونَ كانَ ذلكَ، وهو الخَسْفُ بقَارونَ، وقرئ: «لَخُسِفَ بِنَا»(١) وفيهِ ضَميرٌ للهِ.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَآ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَـٰفِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَـهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾

﴿تِلْكَ﴾ تعظِيمٌ للدَارِ وتَفْخِيمٌ لَهَا، أي: تلكَ التي بَلَغَكَ صِفَتُهَا. عَلَّقَ الوَعْدَ بتَرْكِ إرادةِ العُلُوِّ والفَسادِ، ولَمْ يقلْ: لا يعلُونَ ولا يَفسدُونَ، كَمَا عَلَّقَ الوَعيدَ بالرُّكـونِ في قَولِهِ: ﴿وَلا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾(٢).

ورُوِيَ عن أميرالمُؤمنينَعليه السلام أنَّهُ قَالَ: «الرجلُ لَيُعجِبَهُ أَن يكونَ شِرَاكُ نَـعْلِهِ أَجْودُ من شِرَاكِ نَعْلِ صَاحِبِه فَيدخُلُ تَحتَها»(٣).

وعن الفُضَيلِ أنَّهُ قَرَأَها ثمَّ قَـالَ: ذَهَـبَتِ الأمـانيُّ هَـاهُنا(٤)، ﴿والْـعَـٰقِبَةُ﴾ الحَمِيدةُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللهِ.

← ولقـد شَـفى نـفسي وأبـرأ سُـقْمها قيلُ الفَـوارس: ويك عـنتر أقـدم

وهو من معلّقته المشهورة. راجع ديوان عنترة: ص ١٨.

(١) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٥.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ١١٥.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٤٣٥.

المعنىٰ: فَلَا يُجْزَوْنَ، فَوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضعَ الضَّميرِ، لأنَّ في إسْنادِ السيِّئاتِ إليهم مُكرَّراً زيادةَ تَهجيرٍ لَهُم.

﴿إنَّ الَّذى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرءانَ﴾ أَي: أَوْجَبَ عليكَ تِلاوَتَهُ وتَبليغَهُ والعَمَلَ بمَا فيهِ يُثيبكَ عليهِ ثَواباً لا يُحاطُ بِكُنْهِهِ، و﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعدَ المَوتِ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ مَعَادٍ، وإلىٰ مَعَادٍ ليسَ لغَيرِكَ من الخَلْقِ، ونكَّر المَعَادَ لذلكَ، وقيلَ: أَرادَ بالمَعَادِ مكَّةَ فردَّهُ إليهَا يَومَ الفَتح [١]. وَوَجْهُ تَنكيرِهِ أَن كانَ مَعَاداً لَهُ ذِكْرٌ عَالٍ وشَأنٌ جَليلٌ، ظَهَرَ عِزُّ الإسلامِ وأهلِهِ بِهِ، وقيلَ: نَزَلَتْ عَليهِ حينَ بَلَغَ الجُحْفَةَ في مَهَاجِرِهِ وقَد اشتاقَ إلىٰ مكَّة [٢]. ولَمَّا وَعدَهُ الرَّدَّ إلىٰ مَعَادٍ قَالَ: قُلْ للمُشرِكينَ: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ مَنْ جَآءَ بِالْهُدَىٰ﴾ يَعني: نَفسَهُ وما يستَحِقُّهُ من الثَوابِ في مَعَادِهِ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعنِهُم وما يَستَحِقُّونَهُ من العِقَابِ في مَعَادِهِم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بمعنىٰ «لكن» للاستدراكِ، أي: ولكن لِرَحمةٍ من رَبِّكَ أُلقِيَ إليكَ، وقيلَ: هو مَحمُولٌ علَى المعنىٰ والتَقْديرُ: وما أُلقِيَ إليكَ الكِتَابُ إلَّا رَحْمَةً [٣]. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بَعدَ وَقْتِ إنْزالِهِ إليكَ. وقَولُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ وما بَعْدَهُ من بَابِ التَهيُّجِ الذي سَبَقَ ذِكْرُه.

وعن ابنِ عباسٍ: أنَّ أكثَرَ القُرآن: إيَّاكِ أَعْني فاسمَعِي يَا جَارَة.

و﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ أي: فَانٍ بَائدٌ ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلَّا ذاتَه.

۞ ۞ ۞

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وأبو الحجّاج، راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) قاله الضحاك. راجع تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٣٨٨.

(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٦.

سورةُ العَنْكبُوتِ

مَكيّةٌ[1] وقيلَ: مدنيَّة، وهي تسعٌ وستُّون آيةً ﴿الٓمٓ﴾ كُوفيٌّ، ﴿مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ﴾[2] بصريٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ العَنكبُوتِ كَانَ لهُ من الأَجرِ عَشْرُ حَسَناتٍ بعَدَدِ المُؤْمنينَ والمنَافِقينَ»[3].

ورَوَىٰ أبو بَصيرٍ عن الصَادقِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورتَيْ العَـنكبُوتِ والرُّومِ في شَهْرِ رَمَضَان في ليلةِ ثَلاثٍ وعشرينَ فَهُو والله ـ يا أَبَا مُحمد ـ من أَهلِ الجَنَّةِ، لا أَستَثْني فيهِ أَبَدَاً، ولا أَخَافُ أَن يكتُبَ اللهُ عَلَيَّ في يَـميني إِثْـماً، وإنَّ لِـهاتَيْنِ السُورتَيْنِ مِنَ اللهِ مَكَاناً»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٨٥: قال قوم: هي مكّية، وقال قـتادة: العشـر الأوّل مدني والباقي مكي، وقال مجاهد: هي مكّية، وهي تسع وستّون آيةً بلا خلاف فـي جملتها، وفي تفصيلها خلاف.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٨: مكية إلّا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية، وآياتها ٦٩ نزلت بعد الروم.

(٢) الآية: ٦٥.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦٥ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٧) ﴾

الْحُسْبَانُ إِنَّمَا يتعلَّقُ بمَضَامينَ الجُمَلِ، وتَقديرُ الكَلامِ هُنا: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُواْ﴾ غيرَ مفتُونينَ لأَن ﴿يَقُولُواْ ءامَنَّا﴾، وكَانَ التقديرُ قبلَ المَجيءِ بالحُسْبَان: تَرْكَهُمْ غيرَ مفتُونينَ لقولِهِم: «آمنَّا» على الابتداءِ والخَبَرِ، و«غير مفتُونينَ» من تَتمَّةِ التَّرْكِ، لأَنَّه من التَّرْكِ الَّذي هو بمعنَى التَّصْيير، كَمَا في قَولِ عنترةَ:

فَـتَركْتُه جَـزَرَ السِّباعِ يَـنُشْنَهُ يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ[(١)]

وهذا كما تقُولُ: خُروجُه لمخَافةِ الشَرِّ، فَصَحَّ أَن يَقَعَ خَبَرَ مبتدأ وإنْ كَانَ علَّةً، وتَقُولُ: حَسبتُ خروجَهُ لمخَافةِالشَرِّ، فَتَجعلُهُما مفعُولَيْنِ كَمَا جَعلْتَهُما مبتدأً وخبراً.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: لا يُمْتحنُونَ بشَدائِدِ التَّكليفِ من مفارقةِ الأوطانِ ومُجاهَدةِ الأعداءِ، ولا يُصابونَ بمَصَائبِ الدُنيا ومِحَنِها، بل يَبتَليهُم الله بـضروبِ المكـارهِ

---

(١) البيت من معلّقته المشهورة. ويروى البيت:

فَـتركْتَ جـزر السـباعِ يُـنشنُه مـا بـين قُـلّة رأسِـهِ والمـعصَمِ

راجع ديوانه: ص ١٦.

حتّىٰ يبلوَ صَبرَهُم وصحّةَ ضَمائرِهِم، وليميِّزَ المُخْلِصَ من غيرِ المخْلِصِ، والرَّاسِخَ في الدِّينِ من المُضْطَرِبِ فيهِ. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: أَتباع الأنبياءِ قَبلهم فَقَد أَصَابَهُم من الفِتَنِ بالفَرائضِ التي افتُرضتْ عليهِم أو بالشَّدائِدِ والمِحَن.

وجَاءَ في الحديث: «قد كانَ من قبلِكُم يُؤخَذُ فيُوضَعُ المنشارُ علىٰ رأسِهِ فيُفرَقُ فِرقَتَيْنِ ما يَصرِفُهُ ذلكَ عن دينِهِ، ويُمشَطُ بأَمْشَاطِ الحَديدِ ما دُونَ عظمِهِ من لَحْمٍ وعَصَبٍ ما يَصرفُهُ ذلكَ عن دينِهِ»[1].

و﴿لَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ بالامتحانِ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الإِيمانِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه، ولَمْ يَزَلْ عزَّ وعَلَا عَالِماً بذلكَ ولكنَّهُ لا يعلمه موجُوداً إلَّا إذا وُجِدَ، والمعنىٰ: وليُميِّزَنَّ الصَّادقَ من الكاذِبِ، ورووا عن عليٍّ عليه السلام: فَلَيُعْلِمُنَّ وَلَيعْلِمُنَّ[2]، من الإِعْلامِ أي: ولَيُعَرِّفَنَّهُم اللهُ النَّاسَ مَن هُم، أو: لَيَسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يُعرَفُونَ بها من بَيَاضِ الوجوهِ وسَوادِها.

ورُوِيَ: أنَّ العباسَ جاءَ إلىٰ عليٍّ عليه السلام فَقَالَ لَه: إمْشِ حتَّىٰ يُبايعَ لكَ النَّاسُ، فَقَالَ: أَتَراهُم فَاعِلينَ؟ قَالَ: نَعم، قَالَ: فأينَ قَولُ اللهِ عزَّوجلَّ: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ الآيات[3]؟

﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتُونَا، يعني: أنَّ الجَزَاءَ يَلْحَقُهُم، مثلُ قَولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[4]، و﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، ومعنَى الإِضْراب فيها أنَّ هذا الحُسْبانَ أبطلَ من الحُسْبان الأولِ، لأنَّ ذلكَ يقدر أنَّه لا يُمتَحَنُ لإيمانِهِ، وهذا يظنُّ أنَّه لا يُجَازىٰ بكُفْرِهِ وعصْيانِهِ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئْسَ الذي يحكمونَهُ حُكْمَهُم هذا،

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: ج ٩ ص ٢٥ من كتاب الإكراه عن خباب بن الأرتّ.
(٢) رواه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١١٥.
(٣) رواه القمي علي بن ابراهيم في تفسيره: ج ٢ ص ١٤٨.
(٤) الزمر: ٥١.

أو بئسَ حُكْماً يحكمونَهُ حُكْمَهُم هذا، فحُذِفَ المخصُوصُ بالذَّمّ.

﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ مَثَلٌ للوصُولِ إلَى العَاقِبَةِ من لقَاءِ الجَزَاءِ والبَعْثِ والحسَابِ، مُثِّلَتْ تلك الحَالُ بحالِ عَبْدٍ قَدِمَ علىٰ سيِّدِهِ بعد عَهْدٍ بعيدٍ وقد اطَّلَعَ سيِّدُهُ علىٰ أحوالِهِ، فَتَلَقَّاهُ بِبُشرٍ وتَرحيبٍ أو تَقْطيبٍ لمَّا رَضِيَ أو سَخَطَ من أفعالِهِ، فالمعنىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُواْ﴾ تلكَ الحالَ وأَن يلقَىٰ فيها الكَرَامَةَ من اللهِ والبُشرَىٰ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو الموتُ ﴿لَآتٍ﴾ لا مَحَالةَ، فليبادرْ بالعَمَلِ الصالحِ، والَّذي يُحقِّقُ رَجَاءَهُ ويقرِّبُهُ إلى الله، وقيلَ: يرجُو: يَخافُ[1].

﴿وَمَنْ جَٰهَدَ﴾ أعداءَ الدينِ لإحْيائِهِ، وجَاهَدَ نفسَهُ التي هي أَعْدىٰ أعدائِهِ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ﴾ لأجْلِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ المنفعةَ عائِدةٌ إليها، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولا يَحتَاجُ إلىٰ طَاعَتِهِم، وإنَّما يأْمُرُهُم ويَنْهاهُم لمنفَعتِهِم.

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفُوهَا قبلَ ذلكَ، ولَنُبطلنَّها حتَّىٰ يَصيرَ كأنَّهُم لَم يَعملُوها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بحَسَنَاتِهِم التي كانُوا يعملُونَها.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

---

(١) قاله ابن جبير والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٧٧.

وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣)﴾

أي: أَمَرْنَا الإنسانَ بأَن يَفعلَ ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْناً﴾ أَو بإِيْلاءِ والدَيْهِ حُسْناً، أي: فِعْلاً ذا حسن، يُقالُ: وَصَّيتَهُ بأن يَفْعلَ شيئاً وأَمَرتَهُ به، بمعنىٰ: ﴿وإنْ جَـٰهَدَاكَ﴾ أَبَواكَ ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ مَا لاَ عِلْمٌ لكَ بـإلهيّتِهِ وَحَـمَلاَكَ عـليه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في الشِّركِ، والمُرادُ بنَفْيِ العلْمِ نَفيُ المَعلومِ، كأَنَّه قالَ: لتُشركَ بي شيئاً لا يصحّ أن يكونَ إلَهاً، نبَّهَ بذلكَ سبحانَه علىٰ أنَّ كلَّ حقٍّ وإنْ عَظُمَ سَاقطٌ إذا جاءَ حقُّ اللهِ، فإنَّه لا طَاعةَ لمخلُوقٍ في مَعصيةِ الخَالقِ. ثم قال: ﴿إِلَيَّ﴾ مَـرجِـعُ المُؤمنِ والمُشركِ منكُم فَأُجازيكُم علىٰ حَسبِ ٱستحقَاقِكُم. ﴿فِى الصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: في جُملَتِهِم وزُمرَتِهِم في الجنَّةِ.

﴿مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ﴾ أي: يؤمنُونَ بأَلسنَتِهِم، فإذا أَصَابَهُم أذىً من الكـفّارِ ﴿فِى ٱللهِ﴾ أي: في ذاتِ اللهِ وبسَببِ دينِ اللهِ، رَجعَ عن الدينِ، وهو المُرادُ بفتنةِ الناسِ، يعني: يَصرفُهُم مَا مَسَّهُم من أَذَاهم عن الإيمانِ كَمَا أَنَّ عذابَ اللهِ يصرفُ المؤمنينَ عن الكُفرِ، وَإذَا ﴿جَآءَ نَصْرٌ﴾ من اللهِ للمؤمنينَ ودَولةٌ لَهُم علَى الكافرينَ قَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: متَابعينَ لكُم في دينِكُم فأَعْطُونا نَصيبَنَا من الغَنيمةِ، ثم أَخبَرَ سبحانَه بأنَّهُ: ﴿أَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومن ذلكَ ما يخفِيهِ صُدُورُ هؤلاءِ من النِّفاقِ. ثم وَعَدَ المؤمنينَ وأَوعَدَ المنافقينَ.

أَمَرَ الكفَّارُ أهلَ الإيمانِ باتِّباعِ سَبيلِهِم وطَريقَتِهِم التي كانُوا عـليها، وأَمَـروا نفُوسَهُم بحَمْلِ خَطَاياهم، فَعَطَفَ الأمرَ علَى الأمرِ، وأرادُوا: ليجتَمعَ هذانِ الأمرانِ في الحصُولِ: أَنْ تَتَّبعوا سَبيلَنا وأَن نَحْملَ خَـطَاياكُـم، والمـعنىٰ: تَـعليقُ الحَـمْلِ بالاتِّباعِ، والمُرادُ ما كانَ قريشٌ تَقُوله لِمَن آمَنَ منهُم: لا بَعْثَ ولا نُشُورٌ، ولو كانَ ذلكَ فإنَّا نَتحمَّلُ آثَامَكُم. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ أثـقالَ أَنـفُسِهِم ﴿وَأَثْـقَالاً﴾ أُخَـرَ ﴿مَعَ

﴿أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أثقالُ الذينَ كانُوا سَبَباً في آثـامِهِم ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ﴾ سؤالَ تَـقْرِيعٍ وتَعْنيفٍ ﴿عَمَّا كَانُواْ﴾ يَخْتلقُونَه من الأباطيل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٥) وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

﴿ٱلطُّوفَانُ﴾ ما أَطافَ وأَحاطَ بكَثْرةٍ وغَلَبَةٍ. والضَّميرُ في ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ للسفينةِ أو للقصَّةِ. و«إبراهيم» عَطفٌ علىٰ «نوح»، و﴿إِذْ قَالَ﴾ ظَرفٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي: أَرسَلْنَاهُ حينَ بَلَغَ السِّنِ التي صلَحَ فيها لأَن يَعِظَ قَومَه ويَعرضَ عَلَيهم الإِيمانَ، ويأمُرَهُم بالعبَادةِ والتقوىٰ ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وإنْ كانَ فيكُم عِلْمٌ بمَا هُو خيرٌ لكُم ممَّا هو شَرٌّ لكم، وإنْ نَظَرتُم بِعَينِ البصيرةِ عَلِمْتُم أَنَّه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: وتَختَلقُونَ ﴿إِفْكاً﴾ بتسميتِكُم الأوثانَ شُركاءَ للهِ وآلهةً أو شُفَعاءَ عند اللهِ، وقيلَ: معناهُ: وتَصنَعُونَ أَصناماً بأيديكُم سَمَّاها إِفْكاً، ونَحتَهُمْ لها خَلْقاً للإِفْكِ[١] ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أن يَرزقُوكُم شيئاً من الرزقِ فَاطْلُبُوا ﴿عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه، فإنَّه هو الرَّازقُ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فاستَعِدُّوا للقائِهِ بعبادتِهِ ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُ﴾ علىٰ نِعَمِهِ.

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة. راجع تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٣٩٣.

﴿وَإِنْ﴾ تُكَذِّبُونِي فَلَا تَضرُّوني بتَكذيبِكُم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ ـتِ الأُمَمُ رُسُلَهُم ولَمْ يضرُّوهُم بالتَكذيبِ بَلْ ضَرُّوا أَنفسَهُم، إذْ حَلَّ بِهِم مَا حَلَّ بسببِ ذلكَ، و﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يَزُولُ مَعَهُ الشَّكُّ لاقترانِهِ بالمعجزاتِ.

وهذه الآيةُ والآياتُ التي بَعدَها إلىٰ قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ يحتملُ أن يكونَ من جُملةِ قَولِ إبراهيمَ لقومِهِ، وأَن تكونَ آياتٌ وَقَعَتْ معترضةً في شأنِ نبيِّ الله ﷺ وشأنِ قُريشٍ بين أوَّلِ قصّةِ إبراهيمَ وآخرِها، علىٰ معنىٰ: أنَّكم يا معشرَ قُريشٍ إنْ تُكذّبُوا محمداً ﷺ فَقَد كذَّبَ إبراهيمَ قومُهُ، وكَذَّبتْ كلُّ أُمَّةٍ نبيَّها. وكذلكَ الآياتُ التَابعةُ لَها لأنَّها نَاطقةٌ بدلائلِ التَّوحيدِ وَوَصْفِ قُدرةِ اللهِ وإيضاحِ حُجَجِهِ.

وقُرئَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالتاءِ[1] والياءِ. وقَولُهُ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إخبارٌ بالإعادةِ بعدَ المَوتِ غَير معطوفٍ علىٰ ﴿يُبْدِئُ﴾، ولَمْ تَقَعِ الرُّؤيةُ عليهِ كَمَا وَقَعَ النَظَرُ بعدَهُ علَى البَدْءِ دونَ الإنشاءِ في قولِهِ: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ معنَى الإعادةِ في ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص٤٩٨.

اللهِ أَوْثَـٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَـعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَالَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٢٥)﴾

﴿النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ يدُلُّ علىٰ أنَّهما نَشْأتان، كلُّ واحدةٍ منهُما ابتداءٌ وإخـراجٌ من العَدَمِ إلَى الوجُودِ، ولا فَرق بينَهما إلّا أنَّ الثانيةَ إنشاءٌ بعد إنشاءِ مثلِهِ، والأُولىٰ لَيستْ كذلكَ. وقُرئَ: «النَّشآة»[1] و﴿النَّشأة﴾ كالرَّآفةِ والرَّأفةِ. والمعنىٰ: ثـمَّ اللهُ الذي أَنشأَ النَشْأَةَ الأُولىٰ هو الذي يُنشِئُ النشْأَةَ الآخِرةَ، وللتَنْبيهِ علىٰ هذا المعنىٰ أَظْهَرَ اسمَهُ ولَمْ يقلْ: ثُمَّ ينشئ. ﴿يُعذِّبُ مَنْ يَشَآءُ﴾ تَعذيبَهُ ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَآءُ﴾ رَحمتَهُ ﴿وَإلَيْهِ﴾ تُردُّونَ وتُرجَعُونَ.

﴿وَمَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربَّكُم، أي: لا تَفُوتُونَه إنْ هَربْتُم من حُكْمِهِ في الأرضِ العَريضَةِ البَسيطَةِ ولا في السَّماءِ التي هي أَفسحُ مِنْها لَو كُنتُم فيهَا، أو: لا تُعجِزُونَ أَمرَهُ الجَاري ﴿فِى ٱلسَّمآءِ﴾ وَالأرضِ أَن يَجرِي عليكُم فَيُصِيبُكُم بِبَلاءٍ يَظهَرُ من الأَرضِ أَو يَنْزِلُ من السَمَاءِ.

عن قُتادةَ: أنَّ اللهَ ذَمَّ قَوماً هانُوا عليه فَقَالَ: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِـن رَّحْـمَتِى﴾ وَقَالَ: ﴿لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فَيَنْبغِي للمؤمنِ أَن لا يَيأَسَ مِن رَوحِ اللهِ ولا مِن رَحْمتِهِ وَلَا يأْمنَ عِقَابَهُ، وَصِفَةُ المؤمنِ أَن يكونَ راجِـياً للهِ خَائِفاً[2].

﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قُرِئَتْ منصُوبةً بغَيرِ إضَافةٍ وبـإضَافةٍ، ومـرفُوعةً كـذلك[3].

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ في القرآن كلّه. راجع المصدر السابق.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٠.

(٣) قرأ حمزة وحفص عن عاصم بالنصب مع الاضافة، ونافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالنصب منوناً بغير إضافة، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالرفع مع الإضافة، والأعشىٰ عن أبي بكر عن عاصم بالرفع منوناً بغير إضافة. راجع كتاب السبعة: ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

والنَّصبُ علىٰ وجهينِ: علَى التَّعليلِ، أي: لِتَتَوادُّوا بينكُم وتَتَواصلُوا لاتفاقِكُم علىٰ عبَادتِها كَمَا يتَّفقُ الناسُ علىٰ مَذْهبٍ واحدٍ فيكونُ ذلكَ سَبَبَ تَوادِّهِم، وعلىٰ أن يكونَ مفعُولاً ثانياً، أي: اتَّخَذْتُم الأوثانَ سَبَبَ المودَّةِ بينكُم، علىٰ تَقْديرِ حَذْفِ المُضافِ، أو: اتَّخَذْتُمُوها مودَّةً يَعني: مودودةً بينكُم كقَولِهِ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[1]. والرَّفعُ علىٰ وَجْهينِ أيضاً: أَن يكونَ خَبَراً لـ«إنَّ» علىٰ أَن تكُونَ «مَا» موصُولةً، وأَن يكونَ خَبَرَ مُبتَدأ مَحذُوف، والمعنىٰ: أنَّ الأوثانَ مودَّةٌ بينكُم، أي: سَبَبُ مودَّةٍ أو مُودودةٌ، يَعني: إنَّما تَتَوادُّون عليها أو تُودُّونَها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تَتَباغضُونَ وتَتَلاعنُون، تَتَبرَّأُ القَادةُ من الأَتْباعِ ﴿وَيَلْعَنُ﴾ الأَتباعُ القَادةَ.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٢٧) وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾

﴿لُوطٌ﴾ أوَّلُ مَن صَدَّقَ بإبراهِيمَ، وهو ٱبنُ أُختِهِ ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ مِن كوثىٰ ـ وهو مِن سَوادِ الكُوفةِ ـ إلىٰ حرَّان من أَرضِ الشَامِ، ثمَّ منها إلىٰ فلسطينَ، وكَانَ مَعَهُ في هجرتِهِ لُوطٌ وامرأَتُهُ سَارةُ وهاجَرُ ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ حيثُ أَمرني رَبِّي بالهجْرةِ إليهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَمنَعُني من أَعْدائِي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(١) البقرة: ١٦٥.

الذي لا يأمُرُني إلّا بمَا فيه مَصْلَحتي. و﴿أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ هو الذّكْرُ الحَسَن، والصَّلاةُ عليه إلىٰ آخر الدهرِ، والذُّرِّيةُ الطَيِّبةُ، وأنّ أَهلَ المِللِ كُلَّهُم يَتوَلّونَه.

﴿وَلُوطًا﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أو علىٰ مَا عطف عليهِ، و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ مُفسَّرةٌ بقولِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾. وقُرئ: «إنّكم» بغيرِ الاستفهامِ في الأَولِ دونَ الثاني، وقَطعُ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ عَمَلُ قُطَّاعِ الطَريقِ مِن قَتْلِ الأَنفُسِ وأَخْذِ الأَموال، وقيلَ: هُو قَطْعُهُم الناس عن الأَسفَارِ بإتْيانِ هذه الفَاحِشَة بالمجتَازينَ في ديَارِهِم[١]، وعن الحَسَنِ: هُو قَطْعُ النَّسْلِ باختيارِ الرِجَالِ علَى النِّساءِ[٢]، و﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ هو الحذْفُ بالحَصَا، فَأَيُّهُم أَصَابَه ينكحُونَه، والصَّفعُ وضَرْبُ المعَازِف والقِمَارُ والسُّبابُ والفحشُ في المُزَاحِ، وقيلَ: كانُوا يَتَحابقُون[٣]، وقيلَ: المُجَاهرةُ في نَادِيهِمْ بذلكَ العَمَلِ وكلّ معصيةٍ، فإظْهارُها أَقْبحُ مِن سرِّها[٤].

وفي الحَديثِ: «مَن أَلقىٰ جِلْبابَ الحَياءِ فَلَا غيبةَ لَه»[٥].

والنّادي: مُجتمعُ القَومِ، فإذا تَفرَّقُوا عنه لا يكونُ نَادِياً ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيمَا وَعدْتَنا من نُزولِ العَذَابِ.

﴿ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يُفسِدونَ الناسَ بحَمْلِهِم علىٰ ما كانُوا عليه من الفَاحِشَةِ طَوْعاً وكَرْهاً، وبابتداعِهِم إيَّاها، وبأَن سَنُّوها لِمَن بَعدَهُم.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ

---

(١) حكاه ابن شجرة كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٨٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٢.

(٣) وهو قول عائشة: راجع المصدر السابق.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشاف. انظر المصدر نفسه.

(٥) المصدر السابق.

بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ (٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُم عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾

﴿مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إضَافةُ تَخفيفٍ لا إضَافةُ تَعريفٍ، ومعناهُ الاستقبالُ، و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي سَدُومُ التي قيلَ فيها: «أَجْوَرُ من قَاضي سَدوم» ﴿كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ استَمَرَّ بِهِم فِعْلُ الظُّلْمِ فِي الأيّامِ السَالفةِ وأَصَرُّوا عليه.

وقرئ: ﴿لَنُنَجِيَنَّهُ﴾ و﴿مُنَجُّوك﴾ بالتَشديدِ والتَخفيف[1]. ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أي: ضَاقَ بشأْنِهم وتَدبيرِهِم ذَرْعُهُ أي: طاقَتُهُ، جَعَلُوا ضيقَ الذِّراعِ والذَّرعِ عبارةً عن فَقْدِ الطَاقَةِ، كَمَا قالُوا: رَحْبُ الذِّراعِ إذا كَانَ مطيقاً.

والرِّجْزُ والرِّجْسُ: العَذَابُ، من قولِهِم: إرتَجزَ وٱرتَجَسَ: إذا ٱضطَربَ لِمَا يَلْحَقُ المُعذَّبُ من القَلَقِ والاضطرابِ. والآيَةُ البيِّنَةُ: آثارُ مَنَازِلِهِم المخرَّبةِ، وقيلَ: الماءُ الأسودُ علىٰ وَجْهِ الأرضِ[2] ﴿لِقَوْمٍ﴾ يَتَعلّقُ بـ﴿تَرَكْنَا﴾ أو بـ﴿بيِّنَة﴾.

(١) قرأ ابن كثير وعاصم برواية ابي بكر بتشديد الحرف الأول وتخفيف الثاني، ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية حفص بتشديد الحرفين، وحمزة والكسائي بتخفيفهما. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠٠.

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٣٤٣.

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ﴾ إفعلُوا ما تَرجُونَ منهُ العاقبةَ، فأُقيمَ المسبِّبُ مقامَ السَّببِ، أي: وارجوا ثوابَ اليومِ الآخر بفعل الإيمانِ والطّاعاتِ، وقيلَ: هو من الرَّجاءِ بمعنَى الخوفِ[1]. ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزّلزلةُ الشديدةُ، وقيلَ: هي صَيحةُ جبرائيل[2]، لأنَّ القُلوبَ رَجفَتْ لَها ﴿فِى دَارِهِمْ﴾ في بَلدِهِم وأرضِهِم، وٱكتفىٰ بالواحدِ والمرادُ: في ديارِهِم لأنَّهُ لا يُلتبَسُ ﴿جَـٰثِمِينَ﴾ بارِكينَ عَلَى الرُّكَبِ ميِّتين.

﴿وَ﴾ أَهْلَكْنَا ﴿عَاداً وَثَمُوداْ﴾ ويَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجفَةُ﴾ لأنَّه في معنَى الإهْلاكِ ﴿وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يعني: مَا وَصَفَهُ من إهْلاكِهِم من جهةِ ﴿مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ إذا نَظَرتُمْ إليهَا عند مُرورِكُم بهَا ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عُقَلاء مُتمكِّنينَ من النَظَرِ ولَم يفعَلُوا، أو: كانُوا مُتبيِّنينَ أنَّ العَذابَ نَازِلٌ بِهِم.

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالبَيِّنَـٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خسفنا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ (٤٣) خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾

﴿مَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فَائتينَ الله، أَدرَكَهُم أَمرُ اللهِ فَلَمْ يفوتُوه. «الْحَاصِبُ»

---

(١) قاله يونس النحوي. راجع المصدر السابق.

(٢) قاله الضحاك. راجع الكشاف: ج ٣ ص ٤٥٣.

لِقَومِ لُوطٍ، وهي ريحٌ عَاصِفٌ فيها حَصْبَآءُ، وقيلَ: مَلَكٌ كَانَ يَرميهِم [١]، و«الصَّيْحَةُ» لِمَدْيَنَ وثَمودَ، و«الخَسفُ» لقَارُونَ، و«الغرَقُ» لقَومِ نُوحٍ وفِرعَوْنَ.

شَبَّهَ سبحانَه ما اتَّخذُوهُ مُتَّكلاً في دينِهِم ومُعَوَّلاً عليهِ بمَا هُو مَثَلٌ في الضَّعفِ والوهنِ، وهو نسْجُ ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، والوَليُّ: المتولِّي للنُّصْرةِ، وهو أَبلَغُ من النَّاصِرِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ هذا مَثَلُهم، وأنَّ أَمْرَ دينِهِم بَلَغَ هذه الغَايةَ في الضَعْفِ، أو: إذا صَحَّ هذا التَشبيهُ فَقَد تَبيَّنَ أنَّ دينَهُم أَوهَنُ الأديانِ لو كَانُوا يَعلَمُونَ.

وقُرِئَ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتاء [٢] والياءِ وهذا أَوكَدُ مِمَّا تَقَدَّمَهُ إذْ لَم يجعلْ ما يَدعُونَه شَيئاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه تَجهيلٌ لَهُم حيث عَبَدُوا ما لَيسَ بشيءٍ، وتَرَكُوا عبادةَ القَادرِ الحَكيمِ. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: لا يَعْقَلُ صحَّةَ ضَرْبِ المَثَلِ بالعنكبوتِ والذُّبابِ وفَائدتَهُ إلَّا العلماءُ باللهِ، فإنَّ الأمثالَ والتَشَبُّهاتِ هي الطُّرُقُ إلَى المَعَاني المحتَجَبَة في الأَستارِ، تَكْشِفُ عَنْها وتُصوِّرُها للأفهامِ، كَمَا صَوَّرَ هذا التَشْبيهُ الفَرْقَ بين حَالِ المُشْرِكِ وَحَالِ المُوحِّدِ.

ورُويَ عن النبيِﷺ أنَّه تَلَا هذه الآيةَ فَقَالَ: «العالِمُ الَّذي عَقَلَ عن اللهِ فَعَمَلَ بطَاعتِهِ واُجتَنَبَ سَخَطَه» [٣].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالغَرَضِ الصَحيحِ الَّذي هو حَقٌّ، وهو أَن يكُونَا [٤] مَسَاكن عبادِهِ، وعِبْرةً للمعتَبرِينَ، ودلَالةً للموحِّدِينَ علىٰ وحدانيّتِهِ وكَمَالِ قُدرتِهِ.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٤.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠١.

(٣) رواه ابن حجر في المطالب العالية: ج ٣ ص ٢١٤ ح ٣٢٩٤ عن جابر.

(٤) أي السماء والأرض.

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩)﴾

ٱلصَّلَاةُ لُطْفٌ للمكلَّفِ في تَرْكِ المَعَاصي، فَكَأَنَّها نَاهيةٌ عَنْها. وعن النبيِّ ﷺ: «مَن لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عن الفَحشاءِ والمُنكرِ لَمْ تَزِدْهُ من اللهِ إلَّا بُعْداً»(١).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ﴾ والصَلاةُ أكبرُ من غَيرِهَا من الطَّاعَاتِ، وسمَّاها بذكْرِ اللهِ كَمَا قالَ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾(٢) فكأنَّه قَالَ: الصَلاةُ أَكبرُ لأنَّها ذِكْرُ اللهِ. وعن ابن عباسٍ: وَلَذِكْرُ اللهِ إيَّاكُم بِرَحْمَتِهِ أكبرُ من ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعتِهِ(٣) ﴿وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخيرِ والطَّاعَةِ فيثيبكم(٤) عليهِ.

﴿وَلا تُجَٰدِلُوا﴾ اليهودَ والنَّصارىٰ ﴿إِلَّا﴾ بالخَصْلةِ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهي مُقَابلةُ الخُشُونةِ باللِّينِ كقَولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٥)، وفي هذا دَلالةٌ علىٰ أنَّ الدُّعاءَ إلَى اللهِ تعالىٰ يَجبُ أن يكونَ علىٰ أحسَنِ الوجوهِ وأَلْطَفها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فَأَفْرطُوا في الاعتداءِ والعنادِ، ولَمْ يَنْجحْ فيهِم الرفْقُ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج ١١ ص٤٦ ح ١١٠٢٥.

(٢) الجمعة: ٩.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٣٣٦.

(٤) في نسخة: «فيصيبكم».

(٥) المؤمنون: ٩٦، فصّلت: ٣٤.

واللُطفُ ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هُوَ من جُملةِ المجادلةِ التي هي أَحْسَنُ.

ومِثْلُ ذلكَ الإِنْزالِ ﴿أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: أَنزلنَاهُ مُصَدِّقاً لسائرِ الكُتُبِ السَمَاويةِ ﴿فَالَّذِينَ ءاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ﴾ هُم عبدُاللهِ بن سَلام وأضرابُه ﴿وَمِنْ هَؤُلآءِ﴾ أي: ومن أهلِ مكَّةَ، وقيلَ: أَرادَ بالَّذين آتيناهُم الكِتابَ مَنْ تَقَدَّم عَهْدَ رسولِ اللهِ ﷺ منهم ﴿وَمِنْ هَؤُلآءِ﴾ مَنْ في عَهْدِهِ مِنهُم[1] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَـٰتِنَآ﴾ مع ظُهُورِها ﴿إِلَّآ﴾ المصمِّمُونَ علَى الكُفْرِ.

وما كنْتَ تَقْرأُ من قَبلِ القُرآن كتاباً، وكنْتَ أُمِّيّاً لم تُعرَفْ بِخَطٍّ قط، إذْ لَو كانَ شيءٌ من ذلِكَ أي: مِن التلاوةِ والخَطِّ ﴿لارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهلِ الكتابِ وقَالُوا: الذي نَجدُهُ في كُتُبِنا: أُمِّيٌّ لا يَكتبُ ولا يَقرَأُ وليس هو بِه، أو: لارتابَ مشركُو مكَّةَ وقَالُوا: لَعلَّهُ تَعَلَّمَهُ أو خَطَّهُ بيدِهِ، بَلِ القُرآن ﴿ءَايَـٰتٌ بيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلعِلْمَ﴾ وهُم النبيُّ والأئمةُ والعُلماءُ الذينَ حفظُوهُ وَوَعَوهُ، ورَسَخَ مَعناهُ في قلوبِهِم. وهـٰذانِ من خَصَائصِ القُرآن: كَونُ آياتُهُ بيِّناتِ الإِعجازِ، وكونُهُ محفُوظاً في الصُّدورِ يتلُوهُ حَمَلَتُهُ ظَاهِراً بخلافِ سائرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ فإنَّها لَمْ تكُنْ مُعجزاتٍ، وما كانَتْ تُقْرأُ إلَّا من المَصَاحِف ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ بالآياتِ الواضِحَاتِ ﴿إِلَّآ﴾ المكَابِرونَ المتوَغِّلُونَ في الظُلْم.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَـٰتُ عِندَ ٱللهِ وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالبَـٰطِلِ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٨.

وَكَفَرُواْ بِاللهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

وقُرِئَ[1]: ﴿ءَايَـٰتٌ﴾ أي: هَلَّا أُنزلَ عليهِ مثلُ ناقَةِ صالح ومائدةِ عيسىٰ ونحوِ ذلكَ ﴿إِنَّمَا الآيَـٰتُ عِندَ ٱللهِ﴾ يُنزلُ أَيَّتَها شَاءَ، ولو شَاءَ أَن يُنزلَ ما يقترحُونَهُ لأَنْزَلَ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠﴾ مُنذِرٌ أُنذرُ بمَا أُعطِيت من الآياتِ، ولَيسَ لي ٱختيارُ الآياتِ علَى اللهِ عزَّ ٱسمُهُ، وَمَعَ عِلْمي بأَنَّ الغَرض منَ الآيةِ ثُبُوتُ الدَّلالة، والآياتُ كُلُّها في حُكْمِ آيةٍ واحدةٍ في ذلكَ.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا﴾ القُرآنَ عليكَ وهو المعجزةُ الواضِحةُ، والآيةُ المغْنِيةُ عن سائِرِ الآياتِ، يَدُومُ تِلاوتُهُ عليهم في كلّ مَكانٍ وزَمانٍ، فَلَا يَزال مَعَهُم آيـةً ثابتةً إلىٰ آخر الدَهْرِ ﴿إِنَّ في ذَٰلِكَ﴾ لَنِعْمَةً عَظِيمَةً وتَذْكِرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ لي بأَنْ قَد أَبلَغْتُ الرِّسالةَ، وعَلَيكُم بأَنْ كذَّبتُم وعانَدتُم ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ﴾ فَهُو مطَّلِعٌ علىٰ أَمري وأَمركُم، عالمٌ بحقِّي وبَاطِلِكُم ﴿وَالَّذينَ ءَامَنُوا بِالبَاطلِ﴾ منكُم وهُو ما يَعبدُونَ من دونِ اللهِ ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾ المغبونُونَ في صَفقَتِهم حيثُ ٱشتَروا الكُفْرَ بالإِيمانِ.

«اسْتِعْجَالُهُمْ الْعَذَابَ»: استهزاءٌ منهُم وتَكذيبٌ، ومنهُ قَولُ النَّضر بن الحارث: «أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّمَاءِ» ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسمًّى﴾ قَد سَمَّاهُ ٱللهُ، ووَقْتٌ قَدَّرَهُ ٱللهُ أَوجبَتِ الحِكْمةُ تَأخيرَهُ إلىٰ ذلك الوقتِ ﴿لَجَآءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو وَقْتُ فَنائِهِم بآجالِهِم، وقيلَ: المُرادُ بالأَجَلِ: الآخرة[2]، لأنَّ اللهَ سبحانَه وَعَدَ رسولَهُ عليه السلام أَن

(١) يظهر من عبارة المصنّف رحمه الله أنّه يعتمد هنا علىٰ قراءة المفرد من غير ألف كما لايخفىٰ.

(٢) قاله ابن جبير. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٩٠.

لا يعذِّبَ أُمَّتَه ولا يستأْصِلَهُم، وأَن يؤخِّرَ عَذابَهُم إلىٰ يَومِ القيامةِ.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ﴾ بِهِم لأنَّها مَصيرُهم لا مَحالَة، فكَأَنَّها أَحاطَتْ بِهِم، أو: ستُحيطُ بِهِم ﴿يَومِ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وعلَى الأولِ يـنتَصبُ ﴿يـومَ يَـغْشَـٰهُمُ﴾ بمُضْمَرٍ، و﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كَقَولِهِ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِـهَادٌ وَمِـنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[١]، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّـارِ وَمِـنْ تَـحْتِهِمْ ظُـلَلٌ﴾[٢]، وقُرِئَ: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياءِ والنُونِ[٣]، أي: ذُوقُوا جَزَاءَ أعمالِكُم.

﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُـمَّ إِلَـيْنَا تُـرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّـذِينَ ءَامَـنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّـلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِـبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) ﴾

مَعناهُ: إذا لَم يَتَسَهَّلْ لكُم العبادةُ، ولَم تَتَمَشَّ أُمورُ دينِكُم في بـلَدٍ أَنـتم فـيه فَاخرجُوا منهُ إلىٰ بَلَدٍ آخر. وعن الصادقِ عليه السلام: «إذا عُصِيَ اللهُ في أرضٍ أنتَ بهَا فاخرجْ منها إلىٰ غيرِها».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ فَرَّ بدينِهِ من أرضٍ إلىٰ أرضٍ وإنْ كانَ شِبْراً من الأرضِ استوجَبَ الجنَّةَ، وكانَ رَفِيقَ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام»[٤].

---

(١) الأعراف: ٤١. (٢) الزمر: ١٦.

(٣) وبالنون قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٠١.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦١.

﴿فَإِيَّىَ فَاعْبُدُونِ﴾ هُو في المتكلِّمِ مثلُ: «إيَّاهُ ضَربتُهُ» في الغائب، و«إيَّـاكَ ضَربتُكَ» في المخاطب، والتَقديرُ: فإيَّاي فاعبدُوني. والفَاءُ جَوابُ شَرطٍ محذوفٌ، لأنَّ المعنىٰ: إنَّ أَرضي واسِعَةٌ فإنْ لَم تخلصُوا العبادةَ لي في أَرضٍ فأَخلِصُوها لي في غيرِها، ثم حُذِفَ الشَرطُ وعُوِّضَ من حَذفِهِ تَقديمُ المفعُولِ مع إفادةِ تَقْدِيمِهِ معنَى الاختصاصِ والإخلاصِ.

ولمَّا أَمَرَ عبادَهُ بالحِرصِ علَى العبادةِ والإخلاصِ فيها حتَّىٰ يطلبُوا لَها أَوفَقَ البلادِ عَقَّبَهُ بقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: وَاجِدٌ مرارَتَهُ بأيِّ أَرضٍ كَانَ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لَنُنزِلنَّهُم ﴿مِنَ ٱلْجَنَّة غُرَفاً﴾ أي: علاليَّ عَاليات، وقُرِئَ: «لَنُثَوِّينَّهُمْ»[1] من الثَّواءِ، يُقالُ: ثَوىٰ في المنزلِ وأَثوىٰ غَيرَهُ، والوَجهُ في تَعديتِهِ إِلَى الغُرفِ أَن يكونَ الأَصلُ «لنثوِّينَّهم في غُرَفٍ» وحُذِفَ الجَارُّ، أَو أُجريَ مَجرىٰ «لننزلنَّهم»، أو شُبه الظَّرفِ المُوقَّتِ بالمُبْهَم. ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ مفارَقَةِ الأوطانِ لأَجلِ الدِّينِ، وعلَى المِحَنِ والشَّدائدِ، وعلَى الطَاعَاتِ، وعن المعَاصي، ولَمْ يَتَوكَّلُوا إلَّا علىٰ ربِّهم.

ولمَّا أُمِرُوا بالهِجرة من مَكَّةَ خَافُوا الفقرَ والضَّيعةَ وقَالُوا: كَيفَ نَخرجُ إلىٰ بَلدةٍ ليسَ لَنَا فيها مَعيشةٌ؟ فَقيلَ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ﴾ والدَّابةُ: كلُّ نَفسٍ دبَّتْ علىٰ وَجهِ الأرضِ، عَقلَتْ أو لَمْ تَعقلْ ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تَستطيعُ أَن تَحمِلَهُ لِضَعْفِها ﴿اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يَرزقُ تلكَ الدوابَ إلَّا الله، ولا يَرزقُكُم أَيضاً إلَّا هُو، وإنْ كُنتُم تُطيقُونَ حَمْلَ أَرزاقِكُم وكَسْبِها فَلَا تَتركُوا الهِجرَةَ بسببِ الاهتِمامِ للرِّزقِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِقولِكُم: نَخْشَى الفقرَ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضَمَائِرِكُم.

﴿وَلَئِنْ﴾ سَأَلْتَ هؤلاء المشركينَ مِن أَهلِ مَكَّةَ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٠٣.

وَالأَرْضَ﴾؟ لأقَرُّوا بأنّه خَالِقُهُما ومُسَخِّرُ الشَمس والقَمَر ومُسَيِّرُهُما ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيفَ تُصرَفُونَ عن تَوحيدِ ٱللهِ؟

وقَدَّرَ الرزقَ وَقَتَّرَهُ: ضَيَّقَهُ، أي: ويَقْدِرُ لِمَن يَشَاء، فـوُضِعَ الضَميرُ مَوضعَ «مَن يَشَاء».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٦٨) وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ﴾ علىٰ مَا وَفَّقَ من توحيدِه ونفي الأَنْداد عَنْه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يَقولُونَ ومَا فيهِ من الدَّلالةِ علىٰ بُطْلانِ الشِّركِ وصحَّةِ التَوحيدِ.

﴿هَٰذِهِ﴾ فِيهَا ٱزدراءٌ لأَمرِ الدُنْيا وتَحقِيرٌ لَهَا، أي: ما هِيَ بسُرعةِ زَوَالِها عن أهلِها إلّا كَمَا يَلْعبُ الصِّبيانُ سَاعَةً ثم يَتَفرَّقُونَ ﴿وَإِنَّ ... الآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَيسَ فيهَا إلَّا حَيَاةٌ دائِمَةٌ لا مَوتَ فيهَا ولا تَـنغِيصٌ، فكَأَنَّـها فـي ذاتِـها حَـياةٌ، والحَيَوَانُ: مَصدَرُ «حَيِيَ»، وأَصلُهُ «حييان» فقُلِبت الثَّانية واواً، وبِهِ سُمِّي ما فـيهِ حَياةٌ حيوَاناً ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لَمْ يُؤثِرُوا عَلَيها الحَيَاةَ الفَانيةَ.

واتَّصَلَ قَولُهُ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟﴾ بمحذُوفٍ دَلَّ عليهِ مَا شَرَحَهُ من أَمرِهِم، والمعنىٰ: أَنَّهُم علىٰ ما وُصِفُوا به من الشِرْكِ والعَنَادِ فإذَا رَكِبُوا في الفُلْكِ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ كائنينَ في صُورةِ مَن يُخلِصُ الدِّينَ للهِ من المؤمنينَ، حَيثُ لا يَذكُرُونَ إلَّا اللهَ، ولا يَدعُونَ مَعَهُ إلَهاً آخَرَ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وَأَمِنُوا عَادُوا إلىٰ حالِهِم الأُولىٰ من الإشراكِ مَعَهُ في العبَادةِ.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ ... وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قُرِئَ بكسرِ اللَّامين، فَيحتَملُ أَن يكونَ لام كي، بمعنىٰ: أَنَّهُم يعودُونَ إلىٰ شِرْكِهِم ليكونُوا بالعَوْدِ كافرينَ بنعمةِ اللهِ قَاصدينَ التَمتُّعَ بها والتَلذُّذَ لا غير، وأَن يكونَ لَام الأمر علىٰ معنىٰ التَهديدِ والتَوعيدِ، وقراءَةُ من قَرأَ: «وَلْيَتَمَتَّعُوا» بالسُّكونِ [1] تَشهَدُ لَهُ، ونَحوُهُ قَولُهُ سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [2].

ثم ذكَّرَهُم اللهُ سبحانه النِعْمةَ عليهِم في كونِهِم آمنينَ من القَتْلِ والغَارةِ، والعَرَبُ حَول مكّةَ يغزُو بَعضُهُم بَعْضاً، ويَتَغاورُونَ مع قلَّتِهِم وكَثْرةِ العَرَبِ، ووبَّخَهُم بأَنَّهُم يؤمِنُونَ بالباطِلِ الذي هُم عليهِ، وهذهِ النِعْمةُ الظَاهِرَةُ إلىٰ غيرِها من نِعَمِ اللهِ مكفُورةٌ عندَهُم.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ كَقَولِ الشَاعِرِ:

أَلَستُم خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطَايَا ... وأَنْدَى العَالَمِينَ بطُونَ رَاحِ [3]

والهَمزةُ هَمزةُ الإِنْكارِ دَخَلَتْ علَى النفي فرجَع إلىٰ مَعنَى التَقْريرِ، وفيها وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: أَلَا يَثْوونَ في جَهنَّمَ، ولا يَستَحِقُّونَ الثَّواءَ فيهَا وقَد ٱفتَروْا مثلَ هذا الكَذِبِ علَى اللهِ في ٱدِّعائِهِم لَهُ شَريكاً، وكذَّبُوا بالحَقِّ هذا التَكْذيب؟ والثاني:

---

(١) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧٤.

(٢) فصّلت: ٤٠.

(٣) البيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبدالملك بن مروان. راجع ديوان جرير: ص ٧٧.

أَلَمْ يَصُحَّ عِندَهُم أنَّ في جَهنَّمَ مَثْواهُم حتّىٰ اجتَرأوا مِثْلَ هذه الجُرْأَة؟

﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُواْ﴾ ما يَجبُ مُجَاهَدَتَهُ من النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَيطانِ وأَعداءِ الدينِ ﴿فِينَا﴾ أي: في حَقِّنا، وَلِوَجْهِنَا، ومِن أَجْلِنَا ﴿لَـنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا﴾ لَنَزيدَنَّهُم هِدَايةً إلَى السبيلِ المُوصِلةِ إلىٰ ثَوابِنا، وتَوفِيقاً لازدِيادِ الطَاعَاتِ المُوجبَةِ لِرضَائِنا، كقَولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وَقِيلَ: والَّذينَ جَاهَدُوا فِـيمَا عَلِمُوا لَنَهدِيَنَّهُم إلىٰ مَا لَمْ يَعْلَمُوا[2].

❁ ❁ ❁

(١) محمَّد: ١٧.

(٢) قاله عباس أبو احمد كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٩٥.